رواية

ميلان كونديرا

@ketab_n
Follow Me
21.3.2015

المزحة

ترجمة: خالد بلقاسم

المركز الثقافي العربي

www.kutub-pdf.net

ميلان كونديرا

المَزحة

ترجمة: خالد بلقاسم

المركز الثقافي العربي

@ketab_n
Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ميلان كونديرا

المَزحة

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

الكتاب

المَزحة

تأليف

ميلان كونديرا

ترجمة

خالد بلقاسم

الطبعة

الأولى، 2014

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-739-1

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 - 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت - لبنان

ص.ب: 5158 - 113 الحمراء

شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 - 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

هذه ترجمة عن اللغة الفرنسية لكتاب:

La plaisanterie

Milan Kundera

إن حقوق الترجمة العربية محفوظة **للمركز الثقافي العربي**

بموجب عقد مع صاحب حقوق النشر

© 1967, 1980, 1985, Milan Kundera

All rights reserved

وأي نسخ لهذه الطبعة أو أي ترجمة أخرى تقع في دائرة العمل

غير المشروع وتخضع للملاحقة القانونية

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

القسم الأوّل

لودفيك

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هكذا، بعد سنواتٍ عديدة، وجدتُ نفسي في مدينتي من جديد. لمْ يكن يُساورني أيّ شعور وأنا أقفُ في الساحة الفسيحة (التي كنتُ أعبرُها طفلاً ثمّ شابّاً مئات المرّات)، على العكس، فقد عنَّ لي أنّ هذه الساحة ببُرجها (الشبيه بفارس مُرتزق يعتمرُ خوذة) المُطِلّ على السّطوح كانت تُذكّرُ بميدان التداريب الواسع لثكنة، وأنّ الماضي العسكريّ لهذه المدينة الموروافية، التي كانت حصناً يَقي من غارات المجر والأتراك، قد تركَ على وَجْهها أثرَ بشاعةٍ راسخة.

لا شيءَ كانَ، على امتداد سنواتٍ، يجذبني إلى مدينتي، كنتُ أقولُ في نفسي إنّني لم أعُد أبالي بها، وهو أمرٌ كانَ يبدو لي عاديّاً: فمنذ خمسة عشر عاماً وأنا أعيشُ بعيداً عنها. ليس لي، الآن، بها إلّا قِلّة ممّن أعرفهم أو من الأصحاب (الذين أفضّلُ تجنّبَ مَنْ تبقّى منهم)، وبها جثمان والدتي المُودَع في قبر غريبٍ لا أعيرُهُ اهتماماً. كلا، إنّني أغالي، فما كنتُ أسَمّيه لا مبالاة كان، في الحقيقة، غِلاًّ لا تحضُرُني دواعيه، لأنّني عشتُ في هذه المدينة، كما في باقي المُدن، أحداثاً سارّة وأخرى سيّئة. على كلٍّ، فقد كنتُ أحملُ هذا الغِلَّ الذي انتبهتُ إليه بمناسبة سَفرتي، فالمهمّة التي كانت تقودُني إلى هنا كان مُمكناً إنجازها ببراغ أيضاً، لكنني وجدتُ نفسي فجأةً

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مُنجذباً، على نحو لا يُقاوَم، إلى اغتنام الفرصة التي أتيحت كي أنجزها في مدينتي، لأنّ الأمر كان يتعلّقُ تحديداً بمهمّة بذيئة ومُبتذلة، أبْعَدَتْ عنّي شبْهة العودة إلى هنا بدافع حنين مُفتعَل إلى الزّمن المفقود.

مسَحتُ مرَّة أخرى الساحة الشنيعة بنظرةِ ازدراء قبْل أن أديرَ لها ظهري، مُتّجهاً إلى الفندق حيث غرفتي المحجوزة لقضاء الليل. سلّمني البوّابُ مفتاحاً مشدوداً إلى إجاصة من خشب، قائلاً: «الطابق الثالث». لمْ تكن الغرفة جذابة: بها سريرٌ لصيق بالجدار، وفي وسطها طاولة وكرسيّ، إلى جانب السّرير طاولة زينة بادية التصنّع، من خشب الكاجو، بها مِرآة. وبالقرب من الباب، مغسلة صغيرة للغاية، مُقشّرة. وضعتُ محفظتي على الطاولة وفتحتُ النافذة، كانت تُطلّ على ساحةٍ ومنازلَ تُقابلُ الفندق بجانبها الخلفي العاري المُتّسخ. أغلقتُ النافذة وأسدلتُ الستارة، ثمّ دنوتُ من المغسلة، كان بها صنبوران، واحدٌ بعلامةٍ حمراء والثاني بأخرى زرقاء، جرّبتهما، فكان الماءُ ينسكبُ من كليْهما بارداً. فحصْتُ الطاولة التي كانت تتّسعُ جيّداً، عند الضّرورة، لزجاجةٍ وكأسيْن، ولكن الجلوس لمْ يكن مُمكناً، للأسف، إلا لشخصٍ واحد، لأنّ الغرفة لم تكن تتوفرُ على كرسيّ آخَر. قرّبتُ الطاولة من السرير، محاولاً الجلوسَ فوقه، إلا أنّه كانَ شديدَ الانخفاض، في حين كانت الطاولة شديدة الارتفاع، وفضلاً عن ذلك كان يغوصُ تماماً تحتي، بحيث بَدَا واضحاً للفور لا عدم صلاحيته لجلوس مُريح فقط، بل عجْزه عن أن يؤدّي بارتياح دورَ سرير أيضاً. اِستندتُ إليه بقبضتَي ثمّ تمدّدتُ رافعاً قدميّ بحذر حتى لا ألطّخ غطاء السرير بحذائي. بتقعّر المَرتبة تحتي، كنتُ مُمدَّداً كما لو في أرجوحة نوْمٍ أو

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في قبْر ضيّق، فلم يكن مُمكناً تخيُّل أحدٍ يُقاسمني هذا السّرير.

جلستُ على الكرسي أفكّرُ، شارداً بنظري نحو الستارة المُضاءة بشفافيتها. وفي تلك اللحظة، كان يَصلُني من المَمرّ وَقعُ خطوات مصحوباً بأصوات؛ رجلٌ وامرأة كانا يتجاذبان الحديث، كلامُ كلِّ واحد منهما كانَ واضحاً، كانا يتحدّثان عن شخص اسمه بيتر فرَّ من بيته، وعن خالةٍ بلهاء تُدعى كلارا، كانت تُدلّلُ الطفلَ الصغير، بَعْدها كان صوتُ مفتاح يدورُ في قفل، وبابٌ يُفتح ثم استمرار الأصوات في الغرفة المُجاورة، سمعتُ تنهّداتِ المرأة (أجل، حتى التنهّدات كانت تصِلني!) وقرارَ الرّجل أن يحسم الأمر مع كلارا في كلمتيْن.

نهضتُ وقد اتخذتُ قراري، نظّفتُ يديّ مرّة أخرى في المغسلة ونشّفتهما، ثمّ غادرتُ الفندق من غير أن أعرف وجهتي على وجه التحديد. كنتُ أعرفُ فقط، إنْ أنا لم أشأ أن أعرِّضَ كلّ سَفرتي (سفرة طويلة وشاقة للغاية) للفشل بسبب ما يشوبُ غرفة الفندق فقط، أنّ عليّ، حتى وإن لم تكن لي أدنى رغبة في ذلك، أن أتّصِلَ سِرّاً ببعض أصدقائي في هذه المدينة. أخذتُ أستعرضُ سريعاً كلَّ الوجوه التي عرفتُها في فترة الشباب، ولكن لأبْعِدَها فوراً، لأنّ الطابع السّرّي للخدمة المُلتمَسَة كان يُلزمني بإرساء جسْر شاقّ فوق السنوات العديدة التي فصَلتْني عنهم، وهو ما كان يُنفّرُني. ثمّ تذكرتُ شخصاً كان يعيشُ هنا، أسديتُ له في الماضي خدمة بهذا المكان نفسه، سيكون، حسب ما كنتُ أعرف عنه، سعيداً جدّاً بأن تُتاحَ له الفرصة كي يردّ لي الجميل. كان شخصاً غريباً، أخلاقهُ عالية ولكنّه، في الآن نفسه، قلِقٌ ومُتنقّلٌ بصورةٍ لافتة. انفصلتْ عنه زوجته، حسب ما كنتُ أعلمُه، منذ سنوات لسبب بسيط، إذ كان يُقيمُ في كلّ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مكان إلا المكان الذي يُؤويها ويُؤوي طفلهما. أرْبكتني، الآن، فكرة أن يكون قد تزوّج من جديد، لأنّ ذلك سوف يُعَقّدُ طلبي، فأسرعتُ الخطى نحو المستشفى.

المستشفى مجموعة من البنايات والأجنحة مُوَزّعة هنا وهناك على مساحة خضراء واسعة. ولجْتُ غرفة الحراسة الصغيرة المُجاورة للمدخل، والتمستُ من البوّاب الجالس وراء الطاولة أن يربط لي الاتّصال بقسم تحليل الجراثيم، قرَّب الهاتفَ من حافة الطاولة باتّجاهي، قائلاً: «صفر، اثنان». ضغطتُ على الرّقمين، فتمّ إخباري أنّ الدكتور كوستكا غادر القسم قبيْل بضع ثوان، وأنّه في الطريق إلى بوّابة الخروج. جلستُ على دكّةٍ قرب البوّابة حتّى لا أفوّتَ رُؤيته، كنتُ أتسلّى بمُتابعة الأشخاص، الذين يعبُرون بمآزر المستشفى المخطّطة بالأزرق والأبيض، إلى أن وقعَ بصري عليه قادماً، كان ذا هيأة حالمة، طويلاً ونحيفاً، جذاباً في مظهره البسيط، أجل إنّه هو. نهضتُ من الدكّة وتوجّهتُ نحوه كما لو كنتُ أرومُ مُزاحمَتهُ، رَمقني بنظرةِ استياء، لكنّه عرفني فوراً ففتح ذراعيْه. أحسستُ أنّ دهشتهُ عبّرَت نوعاً ما عن سعادته، فسرّتني عفويتُهُ في استقبالي.

أخبرْته بوصولي إلى المدينة قبْل أقلّ من ساعة لأمْر غير ذي أهميّة، سوف يتطلّبُ مني قضاء يوميْن بها، فأعرَب توّاً عن دهشته بابتهاج، لأنّه أوّلُ مَن زُرت. عنّ لي فوراً أنّ من غير المناسب ألا أكون قد جئتُ تحديداً لأجْله وليس لقصدٍ آخَر، وأنّ السّؤال الذي طرحتُه عليه (كنتُ سألتهُ بمَرَح إن كان قد تزوّجَ من جديد) بدا مجَسِّداً لاهتمام صادق، بينما كان، في الواقع، صادراً عن حساب وضيع. أجابَ (بما أراحني) أنه ما زال يعيشُ وحيداً. فأعربتُ أنّ لنا مواضيع عديدة للتحدّث فيها. وافقني، لكنّه أبْدى أسَفه، فليس له

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إلا أقلّ من ساعة، يتوجّبُ عليه بعْدَها أن يعودَ إلى المستشفى قبل أن يُغادرَ المدينة في المساء. «ألا تُقيمُ هنا؟»، سألتُهُ مذعوراً. طمْأنني قائلاً إنّه يُقيمُ بشقة صغيرة في عمارة حديثة البناء، غير أنّ «من الصعب أن يعيشَ وحيداً». وعرفتُ أنّ لكوستكا خطيبة، تشتغلُ مُدرِّسة في مدينة على بُعد عشرين كيلومتراً، تملكُ هي أيضاً شقة من غرفتيْن. «أسوْفَ تقيمُ معها في المستقبل؟»، سألتُه. أجابَ أنّ من الصّعب العثور هناك على عملٍ ذي أهمية، مثل العمل الذي كنتُ فيما مضى سبباً في مُزاولته له، وفي المقابل، ليس من السهل أيضاً أن تعثر خطيبته على منصب هنا. أخذتُ (بصِدق) ألعَنُ بُطءَ المساطر البيروقراطية العاجزة عن تسهيل الأمور، بما يُتيحُ لرجُل وامرأة أن يعيشا مُجتمعيْن. «اِطمَئِنّ، يا لودفيك، قال لي بسماحتهِ الوديعة، ليس الأمْرُ، مع ذلك، شاقّاً تماماً. صحيح أنّ التنقلَ يُكلّفني نقوداً ووقتاً، لكنّ عُزلتي تظلُّ مَصُونة وأحافظُ على حرّيتي. - لِمَ لكَ هذا الارتباط بالحرّيّة؟ سألتهُ. - ولِمَ تتشبّثُ بها أنتَ أيضاً؟ قال. - أجْري وراء الفتيات، أجبتُ. - لا لأجل النّساء أتشبّثُ بها ولكن لنفسي»، قال، ثمّ أضافَ «هيّا، لنذهب للحظة إلى شقتي قبْل أن أغادر»، وهو ما لم أكن أطلبُ غيرَه.

خرجْنا من المستشفى، كنّا بعد وقتٍ وجيز أمام عماراتٍ حديثة البناء، كانت تنبجسُ الواحدة إلى جوار الأخرى في غير انسجام مع أرْض مُغبَرّة، لم تُسَوّ بعدُ (بلا عُشب، ولا أرصفة، ولا طرُق مُعبَّدة) مُشكِّلة مشهداً حزيناً على حُدود الحقول الشاسعة، المُنبسطة والمُمتدّة بعيداً. اجتزنا بوّابة وصعدنا سُلَّماً ضيّقاً للغاية (كان المصعد مُعطّلاً)، توقّفنا بالطابَق الثالث حيث تبيّنتُ اسمَ كوستكا على بطاقة الزيارة. كان مدخلُ الشقة الصغيرة يُفضي، لمّا اجتزْناه، إلى غرفةٍ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جعلتني أشعرُ برضاً تامّ، في جانبٍ منها كنبة واسعة ومُريحة، وثمّة أيضاً طاولة صغيرة، ومقعد، وجهاز أسطوانات ومذياع.

أثنيْتُ على غرفة كوستكا وسألتُه عن الحمّام، فأجاب، مسروراً بالاهتمام الذي أبْديْتهُ، «ليس فاخراً»، واقتادني إليه، كان صغيراً لكنه رائع، بمغطس ورشاشة ومغسلة. قلتُ له: «إنّ فكرةً عنّت لي وأنا أعاينُ هذه الشقة، فسألتُه: ما برنامجك غداً بعد الظهر وفي المساء؟ - للأسف، اعتذرَ مُحرَجاً، غداً لديّ عملٌ طوال اليوم، ولن أعود إلا حواليْ الساعة السابعة. وماذا عن الليل؟ سألني، - قد أكونُ متفرّغاً، أجبته، ولكن أيُمكنك، قبل ذلك، أن تُعيرَني شقتَك بعد الظهر؟».

فاجأهُ سُؤالي، إلا أنّه قال فوْراً (كما لو كانَ يخشى أن أشكّ في استجابَته): «بكلّ فرح، فهي لك». وأضافَ كما لو كان حريصاً على ألا يعرفَ دوافع طلبي: «إذا اعترضتْكَ صعوبات في الإقامة، يُمكنُ، ابتداءً من اليوم، أن تبيتَ هنا، لأنّني سأعودُ غداً صباحاً فقط، أمّا في باقي الأيام فسوف أتوجّه مباشرة إلى المستشفى». - لا داعي لذلك، لأنّني نزلتُ بالفندق. كلّ ما في الأمْر أنّ غرفتي لا تصلحُ للاستقبال، وغداً بعد الظهر سوف أحتاج غرفة مُناسبة، لا لأكون وحْدي طبعاً. - أجل لا أشكّ في ذلك، قال وهو يحْني رأسه قليلاً. وأردفَ بعد لحظة: «يُسعدني أن أقدّم لك خدمة»، ثمّ أضاف: «مُتمنياً طبعاً أن تسرّك».

بعد ذلك، جلسنا حول الطاولة (كان كوستكا قدْ أعَدَّ القهوة) وأخذنا في الحديث (كنتُ ألاحظُ بارتياح، وأنا أجلسُ على الأريكة، أنّها لم تكن تهتزّ أو تُحدثُ صريراً). أعْربَ كوستكا فيما بعد أنّ عليه أن يعودَ إلى المستشفى، كما عجّلَ بإطْلاعي على بعض

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

التدابير الخاصّة: عليّ حصر صنبور المغطس بالضّغط عليه إلى الحدّ الأقصى، الماء الساخن ينسكبُ، خلافاً للمعتاد، من الصنبور الحامل لعلامة F، منشب السلك الكهربائي لجهاز الأسطوانات مُتوار تحت الكنبة، وبالدولاب الصغير زجاجة فودكا فتحِت للتّوّ. ثمّ أمدّني برزمةٍ بمفتاحيْن، واحدٍ لباب العمارة، مثلما أوضَحَ لي، والآخَرَ للشقة. وبما أنّني قضيتُ لياليَ، على امتداد حياتي، بأسِرّة لا تُحْصَى، فقد أصبَحَ لي تقديرٌ خاصّ للمفاتيح، فدسَسْتهما بابتهاج في جيبي.

أعرَبَ كوستكا، وهو ينصرفُ، عن أمَله في أن تُهيّئَ لي شقته الصغيرة «حقاً لحظة ممتعة». «أجل، أجبتُهُ، سوفَ تُمكّنني من إنجاز هَدْمٍ جميل. - أتعتقدُ أنّ الهدْمَ يُمكنُ أن يكونَ جميلاً؟»، قال كوستكا، ابتسمتُ في أعماقي، لأنّ عبْرَ هذا السؤال (الملفوظ بهدوء ولكن المَصُوغ بأسلوب نضاليّ) أدركتُهُ بالصورة تماماً التي كان عليها (لطيفاً وميّالاً إلى الهزل في آن) في لقائنا الأوّل قبل خمس عشرة سنة. أجبْتهُ: «أعلمُ أنّك عاملٌ هادئ في ورش البناء الإلهيّ وأنّ سماعَكَ للهدْم لا يرُوقك، ولكن ما الذي بإمكاني فعله، فلستُ مُساعدَ بنّاء عند الإله. وفضلاً عن ذلك، إنْ شيّدَ مُساعدوه في البناء صروحاً بأسوار حقيقيّة، فإنّ ثمّة حظوظاً ضئيلة لأنْ يُحدِثَ بها هدْمُنا ضرَراً. والحال أنّي لا أرى، فيما يبدو لي، إلا ديكورات عوض الأسوار. وهدْمُ الديكورات مهمَّة عادلة تماماً».

كنّا نجدُ نفسيْنا من جديد في تلك النّقطة التي عليْها افترقنا في آخر لقاءٍ جَمَعنا (ربّما قبْل سبع سنوات). خلافنا، اليوم، مُغلّفٌ بمَلمَحٍ مجازيّ، لأنّنا نعلمُ أساسَهُ جيّداً، ولا نشعرُ بضرورةِ العودة إليه. كنّا بحاجة إلى أنْ نؤكّد أنّنا لمْ نتغيّر فقط، وأننا بقينا دوماً

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مختلفيْن (بهذا الصّدد، عليّ القوْل إنّني كنتُ أحبُّ اختلافَ كوستكا، ولهذا السّبب كنتُ أجدُ مُتعة في الحديث معه، إذ بذلك كنتُ دوماً أستطيعُ التحققَ مَن أنا وما أفكّرُ فيه). وحتى يُبعِدَ عنّي كلّ ارتياب تجاهه، أجابني: «ما أتيْتَ على قوْلِهِ جيّد. ولكن قلْ لي، مِنْ أين تستمِدُّ أنتَ النازعُ بطبعك إلى الشكّ، يقينَ التمييز بين الديكور والسّور؟ ألم يسبق أبداً أن تساءلتَ إذا لم تكن الأوهام التي تسخَرُ منها فعلاً أوْهاماً؟ ماذا لو كنتَ على خطأ؟ ماذا لو كانت قِيَماً وكنتَ أنتَ هادِمَ قِيَم؟»، ثمّ أضافَ: «إنّ لقيمةٍ محجوبةٍ وَوَهْمٍ مكشوف المظهرَ المُشفقَ ذاتَه، إنّهما مُتشابهان، ولا شيءَ أسهلُ من الخلطِ بينهما».

كنتُ، وأنا أصاحبُ كوستكا في طريق عودته إلى المستشفى بالطرَف الآخر من المدينة، أعبثُ بالمفتاحيْن في جيبي، مُرتاحاً أن أكون بصحبة صديق قديم حريصٍ على السّعي، في كلّ مكانٍ وحين، إلى إقناعي بما يؤمنُ به، حتى ونحنُ نعبُرُ، الآن، الساحة المُتنافرة مع الأحياء الحديثةِ البناء. كان كوستكا يعلمُ طبعاً أنّ لنا غداً الليْلَ كلّه، لذلك أرجَأ الحديثَ عن القضايا الفلسفيّة ليتناولَ الأمورَ العاديّة، مُتيقناً من جديد أنني سوف أنتظرُهُ غداً بعد عودته عند الساعة السابعة (فهو نفسه لمْ تكن بحوزته مفاتيحُ أخرى) ثمّ طلبَ منّي إن كنتُ لا أزال بحاجة إلى أيّ مساعدة. تحسّستُ وجهي، فقلتُ إنّه بقيَ لي أن أتوجّه إلى الحلاّق، للتخلّص من شعر ذقني. «حسناً، سوفَ أدبّرُ لك حلاقة جيّدة»، قال كوستكا.

لمْ أعترضْ على مُساعَدةِ كوستكا وتركتُهُ يقودُني إلى صالونٍ صغير، بهِ ثلاث مرايا تُقابلُ ثلاثة مقاعد كبيرة، على اثنيْن منها كان يجلسُ رجُلان تغطّي الرغوةُ ذقنيهما، يميلان برأسيْهما إلى الوراء،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانت تنحني عليهما امرأتان ببذلة بيضاء. دنا كوستكا من إحداهما وهمَس لها ببضع كلمات، نظّفت المرأةُ شفرة الحلاقة بمنشفة، ونادت على فتاةٍ في خلفية الصالون، فخرجت ببذلةٍ بيضاء لِتُواصِلَ حلقَ ذقن الرّجُل. أمّا المرأة التي تحدّثَ إليها كوستكا فأومأت لي برأسها ودَعَتني إلى الجلوس على المقعد الفارغ. انصرفَ كوستكا بعد أن تصافحْنا، ثمّ جلستُ على المقعد مُسْنِداً رأسي إلى المتّكَأ الصغير اللصيق بأعلى المقعد. وبما أنّي كنتُ أكرهُ، منذ أعوام عديدة، النّظرَ إلى وَجْهي، فقد تجنّبتُ المِرآة المثبتة أمامي ووجَّهْتُ بَصَري إلى الأعْلى، سارحاً بعيني بين بُقع السقف المطليّ بالأبيض.

أبقيتُ عينيّ مُثبتتين في اتجاه السقف حتّى بعْد أن أحسستُ بأصابع الحلّاقة على عُنقي تدُسُّ تحتَ ياقةِ قميصي قطعة قطن بيضاء. ثمّ ابتعدَتْ مقدار خطوةٍ، فلَمْ أعُد أسْمعُ إلّا صوتَ شحذ موسى الحلاقة على جلد المِسنّ، فتسمّرتُ في سكون بهيج مِلءَ لامبالاةٍ سعيدة. تدريجيّاً، شعرتُ بالأصابع النديّة تضعُ بنعومةٍ على خدّيّ معجون الحلاقة، وأخذتُ أفكّرُ في هذا الأمْر الغريب: اِمرأة مجهولة، لا شيء يجمعُني بها ولا أعنيها هي أيضاً في شيء، تُداعبُني بلطف. بعد ذلك، بدأتْ تُمدِّدُ الصابونَ بفرشة الحلاقة، فبدا لي أنّني لربّما لمْ أكن جالساً، بل سابحاً في فضاءٍ أبيض مزروعٍ بالبُقع. وكنتُ أتخيَّلُ نفسي (لأنّ الأفكار لا تتوقفُ، حتى في لحظاتِ الاسترخاء، عن التداعي) ضحيّةً بلا مُقاوَمة، مُستسلِماً تماماً للمرأة التي كانت قد شحذت الموسى. وبما أنّ جسدي كانَ يتحلّلُ في الفضاء ولمْ أكن أشعرُ إلّا بوجهي تلامسُهُ الأصابع، فقد كنتُ أتخيّلُ، من غير عناء، أنّ هاتيْن اليديْن الناعمتيْن كانتا تُمسكان (تُديران، تلامسان) رأسي كما لوْ لمْ يكن أبداً مشدوداً إلى جسَد، بل مُستقلاً بذاته فقط، بحيث

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أنّ الموسى المشحوذة الموْضوعة على المنضدة المُجاورَة لمْ يكن لها إلّا أن تُنجزَ هذا الاستقلالَ الجميلَ لرأسي.

ثمّ توَقفتِ المُداعَبَات وسمعتُ الحلّاقة تبتعِدُ لِتُمْسِكَ فعلاً هذه المرَّة بالموسى، فقلتُ في نفسي (لأنّ الأفكارَ كانت تُواصِلُ التداعي) أنّ عليّ أن أرَى المظهرَ الذي كانت عليْهِ بالضَّبْط المُتحكّمَة في رأسي (رافِعَتُهُ)، قاتلتي الحنون. أنزلتُ بصَري ونظرتُ إلى المرآة. فأصِبْتُ بالذهول، ذلك أنّ الاستيهامات التي بها كنتُ أتسلّى، أخذتْ فجأة ملامحَ واقعية بصورةٍ غريبة، إذ بدا لي أنّ هذه المرأةَ التي تنْحَني عليّ في المِرآةِ كنتُ أعرفها.

كانت تُمسِكُ شحمَة أذني بيَدٍ، وبالأخرى تُزيلُ بدقّةٍ بالغة رغوةَ الصابون عن ذقني. كنتُ أنظرُ إليها، فبدأ ما عنَّ لي عن هويتُها بذهول قبْل هذه اللحظة يتلاشى تدريجيّاً حتى امّحى. ثم مالت نحو المغسلة، حيث أسقطتْ بأصبعيْن الرّغوةَ عن الموسى، واعتدلَت في وقفتها ثم أدارت المقعد قليلاً، فالتقتْ عيْنانا لثانية من الزّمن، وخُيِّل إليّ من جديد أنّها هي. صحيح أنّ هذا الوجْهَ كان مُختلفاً قليلاً كما لو كان وجهَ أختها التي تكبرُها سنّاً، لقد صار شاحباً، ذابلاً وغائراً قليلاً، إذ إنّ آخرَ مرّةٍ رأيتُها فيها تعودُ إلى خمس عشرة سنة مضت. خلال هذه الفترة، كان الزّمنُ قد طبعَ على ملامحها الأصلية قناعاً خادعاً. لحُسن الحظ، كان لهذا القناع منفذان، بهما كانت تستطيعُ أن تنظر إليّ، واقعيّان وحقيقيّان مثلما كنتُ أعرفهما من قبْل.

ولكن، حدثَ بعد ذلك ما شوّشَ على حبْل تفكيري، فقد دخلَ الصالونَ زبونٌ آخَر وجلس خلفي في انتظار دوره، ثمّ توجَّه إلى الحلّاقة بالكلام وأخذ يتحدّثُ عن الصيف الرّائع وعن المسبح طوْرَ التشييد بضاحية المدينة. كانت تُجيبهُ (فكنتُ أتأكّدُ من الصوت أكثر

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مما أنتبه إلى مضمون الكلام الذي كان، فضلاً عن ذلك، بلا معنى)، وكنتُ ألاحظُ أنني لم أكن أعرف هذا الصوت. فقد كان مُستخفاً، لا قلق فيه، مُبتذلاً تقريباً، كان صوتاً غريباً تماماً.

كانت في تلك اللحظة تُنظّفُ وجهي، تضغطُ عليه بين راحَتيْها، فأخذتُ (رُغم الصوت) أعتقدُ من جديد أنّها هي، وكنتُ أشعرُ أيضاً، بعد خمس عشرة سنة، بلمسات يديْها على وجْهي، أنّها تُداعبني من جديد، تداعبني طويلاً بحنان (لقد نسيتُ تماماً أنّها لم تكن مُداعَبات، بل تنظيفاً). لمْ يتوقّف صوتُها، مع ذلك، عن إجابةِ ثرثرةِ الشخص المُتنامية، لكنني كنتُ أرفضُ تصديقَ الصوت، كنتُ أريدُ، بالأحرى، تصديقَ اليديْن، كنتُ أودّ التعرّف إليها من يديْها. عبْر لمساتها الناعمة، كنتُ أجهدُ نفسي على التّحقّق ما إن كانت هي، وإنْ كانت قد عرفتني.

ثمّ أخذتْ منشفة وجفّفت خدّي. انفجرَ الرّجُلُ الثرثار ضاحكاً من مَزْحة حكاها، فلاحظتُ أنّ الحلّاقة لمْ تضحك، وإذاً، لم تكن بلا شك تُعيرُ اهتماماً لِما كان الشخصُ يقوله. وهذا ما أرْبكني، لأنني رأيتُ فيه دليلاً على أنّها قد عرفتني وأنّها كانت تشعرُ باضطراب مُستمرّ. فقرّرتُ أن أتحدّثَ إليها ما إنْ أنهض من مقعدي. أزالت المنشفة التي كانت حوْل عُنقي، ثم نهضتُ من المقعد. سحبتُ من الجيب الداخلي لبدلتي ورقة من خمس كورونات. كنتُ أنتظر أن تلتقي عينانا ثانية لأتمَكّن من توْجيه الكلام إليها والتلفّظ باسْمِها الشخصيّ (كان الزّبون يُواصلُ ثرثرَته)، لكنّها أدارت بلامبالاة وجهَها، أمسكتْ ورقة النقود بحركةٍ سريعة وآلية، فشعرتُ كما لو أنني مجنونٌ استَسْلمَ لأوهامه، فلم أجرؤ بتاتاً على أن أقول لها كلمة واحدة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في جوّ هذا التردّد الغريب، خرَجتُ من الصّالون. كلُّ ما كنتُ أعرفهُ هو أنني لمْ أكن أعرفُ شيئاً، فقد كان أمراً بالغ الفظاظة أن تلتبس عليّ حقيقة وَجْهِ أحبَبْتُه بقوّةٍ في زمَنٍ مضى.

طبعاً، لمْ يكن صعباً التأكّد من الأمر. عُدتُ مُسرعاً إلى الفندق (في الطريق، لمحتُ على الرَّصيف المقابل صديقاً قديماً من أصدقاء الشباب، جاروسلاف، رئيس فرقة موسيقيّة تعزفُ على السنبالوم، وكما لوْ كنتُ نفرتُ من الموسيقى الصّاخبة القوية، أشحتُ عنه ببصري)، ومن هناك اتّصلتُ هاتفياً بكوستكا الذي كان لا يزال في المستشفى.

- «قل لي، هذه الحلّاقة التي كلَّفتها بالعناية بي، هل تُدعى لوسي سيبيتكوفا؟

- حاليّاً، تحملُ اسماً آخر، ولكنّها هي. كيف تسنّت لك معرفتها؟ قال كوستكا.

- يعود ذلك إلى زمن بعيد»، أجبتُ. ومن غير حتى أن أفكّر في وجبة العشاء، غادرتُ الفندق (كان الليل قد حلّ) لأتسكّع أيضاً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

القسم الثاني

هيلينا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

1

سوف آوي إلى الفراش، هذا المساء، باكراً، لا أعرفُ هل سيُطاوعُني النوم، لكنني سآوي إلى الفراش باكراً. لقد ذهبَ بافيل بعد الظهر إلى براتيسلافا، فيما سأركبُ غداً الطائرة حتى برونو قبْل أن أواصِلَ عبر الحافلة. صغيرتي زدينا سوف تقضي يوميْن وحيدة بالمنزل، لن يُزعجَها ذلك، لأنها لا تتمسّكُ إطلاقاً بمُرافقتنا، على الأقلّ بمُرافقتي، فهي تحبُّ بافيل، إنّه نموذجُها الأوّل في الرّجال. ينبغي الاعتراف أنّهُ يُجيدُ مُعامَلتها كما أجادَ دوماً مُعاملة كلّ النساء، بما فيهنّ أنا، وهذا أمرٌ لا شكّ فيه. لقد أخذ هذا الأسبوع يُعاملني من جديد بالطريقة ذاتها التي كان يُعاملني بها في الماضي، كان يُربّت على وجهي ويَعِدني بأنّه سوف يمرّ ليصطحبني من مورافيا في أثناء عودته من براتيسلافا. علينا، بالنسبة إليه، أن نفتحَ الحوارَ بيننا من جديد، لربّما هو نفسه انتهى إلى الاعتراف أنّ الأمْرَ لا يُمكنُ أن يستمرّ بهذه الصورة، لربّما يُريدُ أن يعود كلُّ ما بيننا إلى سابق عهده، ولكن لِمَ فكّرَ في ذلك مُتأخّراً، بَعد أن التقيتُ لودفيك؟ أنا قلقة تماماً، ومع ذلك لا ينبغي أن أكون حزينة، لا ينبغي. عبارة فوسيك: «لن يكون الحُزن أبداً لصيقاً باسمي» هي شعاري. لم يكن فوسيك أبداً، حتى وهو تحت التعذيب أو على المشنقة، حزيناً. لا يعنيني

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إنْ كان الفرح، اليوم، موضة مُتجاوَزة، فمِن المُمكن أن أكون بلهاء ولكنّ الآخَرين ليسوا، في شكّهم الاجتماعيّ، أقلّ بلاهة، ولا أرى داعياً يُجبرني على التخلّي عن بلاهتي لتبنّي بلاهتهم، لا أريدُ لحياتي أن تتوزّع إلى اثنيْن، أريدها واحدة، من بدايتها إلى نهايتها، وهذا ما شدّني تماماً إلى لودفيك. حين أكونُ معه، لا أكون مضطرّة إلى تغيير مُثلي وأذواقي، هو شخص عادي، بسيط، واضح، وهذا ما أحبّ، وما أحببتُهُ دوماً.

لا أخجل من أن أكون كما أنا، لا يُمكنني أن أكون مختلفة عمّا كنتُه دائماً. حتى الثامنة عشرة من عمري، لم أعرف سوى الشّقة المُنظَّمة جيّداً للبورجوازية الريفية الرّصينة، أمّا الدراسة، الحياة الواقعيّة فكانت تجري ما وراء سبعة جدران، ولمّا جئتُ، فيما بعد، إلى براغ عام 1949 كان ذلك مُعجزة، سعادة لن أنساها أبداً. لهذا بالضبط، لا أستطيع أن أمحوَ بافيل من روحي، حتى وإن لمْ أعُد أحبّه، حتى وإن كان قد أساء لي، لا أستطيع. بافيل يُمثّلُ شبابي، يُمثل براغ، والكلية، والحيّ الجامعيّ، يُمثّل بوَجْه خاصّ مجموعة فوسيك للغناء والرّقص، المجموعة الطلابيّة. لا أحد اليوم يعرف تماماً ما كانت تُمثله هذه الأشياء بالنسبة إلينا. في هذه الفترة تعرّفتُ إلى بافيل. كان صوتَ المجموعة الرجولي الأعلى في الغناء، فيما كنتُ صوتَها النسوي الرّنّان. شاركنا في مئات الحفلات الموسيقيّة، وحفلاتِ تسليّة، فيها أنشدنا أغانيَ سوفياتية، وأغانيَ سياسيّة محليّة، وأغانيَ شعبيّة طبعاً، فهي التي كانت مُفضّلة لدينا. كنتُ مأخوذةً إلى هذا الحدّ بأجواء مورافيا، كنتُ أشعرُ، رغم أنني أتحدّر من بوهيميا، أنني مورافية. لقد جعلتُ من هذه الأغاني لازِمَةَ وجودي، تماهَت عندي مع هذه المرحلة،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ومع شبابي، ومع بافيل. كنتُ أسمعها مع كلّ إشراقة شمس، وهذه الأيام أسمعها.

كيف تعلّقتُ ببافيل في بادئ الأمْر. لا أقوى على الإفصاح عن ذلك لأحد، فالأمرُ شبيهٌ بقصص الأدب الرّديئة. في احتفال سنويّ بالتحرير، كان ثمّة لقاءٌ حاشد في ساحة المدينة القديمة، وكانت فرقتنا، التي اعتاد أعضاؤها الذهاب مُجتمعين إلى كلّ اللقاءات، مشاركةً في الاحتفال، كنّا كوكبة صغيرةً ضمن حشودٍ غفيرة من عشرات الآلاف، على المنصّة رجال الدولة وأجانب، وخطابات تُلقى وحماس مُرتفع، ثمّ اقتربَ تولياتي لمّا حان دوره نحو الميكروفون من أجل كلمةٍ قصيرة بالإيطالية. تجاوبَتْ معه كالمُعتاد جموعُ الميدان بالهتاف والتصفيق والتلفّظ بكلماتٍ مُطالبة بالنظام. كان بافيل بالصدفة بجواري في هذه الضوضاء العارمة، وكنتُ أسمعه، في هذه العاصفة، يصرخُ وحدهُ بشيءٍ خاصّ، كنتُ أنظرُ إلى شفتيْه، ثم تبيَّن لي أنّه كان يُغنّي، كان يُريدُ أن نسمَعه وأن نشاركه الغناء، كان يُنشد أغنية إيطالية ثوريّة واردة في قائمة أغانينا، أغنية شهيرة في تلك الفترة: «إلى الأمام أيّها الشعب، إلى الهجوم، لِنُصرة الرّاية الحمراء، الرّاية الحمراء...[1]».

كان هو، برضابه المُتطاير. لم يكن أبداً يقتصرُ على مخاطَبة العقل، بل يرومُ النفاذ إلى الأحاسيس. وقد بدا لي رائعاً تحيَّة قائدٍ عمّالي إيطاليّ بساحة في براغ بأغنية ثوريّة عن بلده، وتمنّيتُ أن تُحرِّك الأغنية تولياتي مثلما حرّكتني، حيث ردّدتُها مع بافيل بأعلى صوتي، ثم التحقَ بنا آخَرون وآخَرون، وأخيراً ردّدتْ مجموعتُنا

(1) بالإيطالية في الأصل. (المترجم)

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بكاملها هذه الأغنية عالياً، غير أنّ صخَب الساحة كان شديداً للغاية ولم نكن إلّا قِلّة، كنّا خمسين فرداً فيما الحشود كانت مؤلَّفة من خمسين ألفاً على الأقلّ، تفوّقٌ ساحقٌ وصراعٌ ميؤوسٌ منه. وخلال غناءِ المقطع الأوّل بكامله، عزَّ لنا أننا سوف نخسرُ الرّهان وألا أحد سوف يسمع حتى ما نُغنّيه. ولمّا تحققت المُعجزة، أخذت أصواتٌ كثيرةٌ تُردِّدُ معنا الأغنية تدريجيّاً، فبدأ الناس يتبيّنون الكلمات، وشيئاً فشيئاً كانت الأغنية تنفصلُ عن الضّجة العارمة للساحة مثل فراشةٍ تتحرّرُ من شرنقة هائلة وهادرة. وأخيراً حلّقت هذه الفراشة، الأغنية، بمقاطعها الأخيرة على الأقلّ، حتى بَلغَت المنصّة، وكنّا نرصدُ بلهف ملامح الإيطالي الأشيَب، فابتهجْنا لمّا بدا لنا أنّه كانَ يتجاوبُ مع الأغنية بحركةٍ من يَده، وكنتُ شخصيّاً مُتأكّدةً أنني رأيتُ الدّموع في عينيْه.

في أجواء هذا الحماس والانفعال، لمْ أعرف كيف أمسكتُ بيَدِ بافيل الذي شدَّ على يَدي هو أيضاً. وعندما هدأت الحشودُ وانتصبَ خطيبٌ جديد أمام الميكرو، كنتُ أخشى أن يُفلتَ يدي، لكنّهُ ظلَّ مُمسكاً بها، بقيتْ يدي في يده إلى نهاية اللقاء ولمْ تنفصلا حتى بعد أن انفضّ الجمع، واستمرّت هذه الحال ساعات ونحن نتجوّلُ في براغ المُزهرة بالورود.

سبع سنواتٍ بعد ذلك، كانت الصغيرة زدينا قد بلغت الخامسة من عمرها، لن أنسى أبداً ما تلفّظ به، فقد قال لي: «لم يكن زواجُنا عن حُبّ، بل نتيجة التزام حزبيّ». أعرفُ جيّداً أننا كنّا في شجار وأنّ قوله كذب. لقد تزوَّجني بافيل عن حُبّ، إلّا أنّه تغيّر فيما بعد. ومع ذلك، من المُقرف أن يجرؤ على التلفّظ بما قاله، هو تحديداً الذي لمْ يتوَقّف أبداً عن التوضيح أنّ الحبّ اليوم مُخالفٌ لِما كان

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عليه، إذ لمْ يعُد هروباً بعيداً عن الناس، بل دِعامة في الصّراع. وفضلاً عن ذلك، هكذا كنّا معاً نعيشه، لم يكن لنا أبداً وقتٌ لتناول وجبة الغداء، كنا نبتلع قطعتيْن من البسكويت بمقرّ وحدة الشباب، وبعد ذلك لمْ يكن أحدنا أحياناً يرى الآخر حتى نهاية اليوم. عادةً ما كنتُ أنتظرُ بافيل حوالي الثانية عشرة ليلاً عندما كان يدخل من لقاءاته التي لا تنتهي، تلك التي كانت تدومُ ستّ أو ثماني ساعات، وفي أوقات فراغي كنتُ أنسَخُ له التقارير التي كان يُقدّمها في مختلف المناسبات وفي دورات التكوين، وقد كانت هذه النصوص بالغة الأهمية في نظره، كنتُ الوحيدة التي تعرفُ ما يبذله من أجل نجاح مُداخَلاته. مرّاتٍ عديدة، كان يُكرّرُ في خُطَبه أنّ الإنسانَ الحديث يختلفُ عن الإنسان القديم، إذ الأوّلُ ألغى في حياته الانفصالَ بين الخاصّ والعامّ، ومع ذلك، ها هو بَعد أعوام يُؤاخذني على كوْن رفاقه لم يحترموا حياتَه الشخصيّة.

بعد لقائنا الأوّل، استمرّت علاقتنا سنتيْن، فأخذ صبري ينفَد، فلا امرأة تقبلُ أن تكون مجرّد حبٍّ طلابيّ عابر، أمّا بافيل فكان يرُوقه ذلك، لقد تعوّدَ على هذه الدِّعامة من غير التزام. إنّ في كلِّ رجُلٍ قليلاً من الأنانيّة، ويحقّ للمرأة أن تُدافعَ عن نفسِها لِتحمي رسالتَها بوصفها امرأة، وهو ما لم يكن يستوعبُه بافيل مُقارنة برفاق الفرقة الذين استدعوه بهذا الشأن للمثول أمام اللجنة. لا أعرفُ ما قالوا له ولم نتحدّث إطلاقاً في الموضوع. منَ المُحتمَل، على كلّ حال، ألّا يكونوا عاملوه بلطف، بحُكم الصرامة التي طبَعت تلك الأيام، صحيح أنّ في الأمر مُبالغة، ولكن الإفراط في الأخلاق أهمّ من نقْصها كما هي الحال اليوم. تحاشاني بافيل مُدّة طويلة، كنتُ أعتقدُ أنّي قوّضتُ كلَّ شيء، كنتُ أريد وقد اعتراني يأسٌ شديد، أن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أضعَ حدّاً لحياتي، غير أنّه جاء فيما بعد للقائي، كانت رُكبتاي ترتعدان، طلبَ مني مُسامحتَه وأهداني سلسلة تحملُ رمزاً يُجسّدُ الكرملين، هديّته الغالية لي، لن أنزعها أبداً، لم تكن تذكاراً من بافيل فقط، كانت أكثر من ذلك، وقد أفاضت دموعي من شدّة الفرح. بعد خمسة عشر يوماً، تمَّ زواجُنا الذي حضرَته الفرقة بكاملها، واستمرَّ الاحتفالُ أربعاً وعشرين ساعة، غنّينا ورقصنا، وكنتُ مراراً أقولُ لبافيل إنَّه إنْ تحتّم علينا أن نخونَ بعضَنا، سوف نخونُ كلَّ مَن أحيا حفلَ هذا الزواج، سوف نخونُ مُظاهرةَ ساحة المدينة القديمة ونخون تولياتي. اليوم، تعرُوني الرغبة في الضَّحك حين أفكّرُ في كلّ ما خُنّاه لاحقاً.

2

أفكّرُ في ما سأرتديه غداً، سوف أرتدي كنزتي الورديّة ومعطفي الواقي من المطر. هذا أيضاً ما يُناسبُ قامتي أكثر، إذ لم أعُد نحيلة جدّاً. لا ضيْرَ إن ارتسمَت على وجهي التجاعيد، فأنا أتمتَّع، تعويضاً عن ذلك، بجَمال لا تنعمُ به فتاةٌ في ريعان الشباب، جمال امرأة عاشت. بالنسبة إلى جيندرا، لا يعتريه شكٌ في أنّني أتمتع بهذا الجمال، الفتى المسكين، لا أزال أرى خيبَتهُ لمّا علِم أنني سأركبُ الطائرة باكراً وأنّ عليه أن يُسافر وحيداً. كمْ يبتهجُ عندما يكون معي، يُعجبه هو ابن التاسعة عشرة سنة التظاهر أمامي برُجولته. برفقتي، من المؤكّد أنه سوف يقود السيارة بسرعة مائة وثلاثين في الساعة لِيُثير هذا القبيحُ الصغير إعجابي، بهذا كان كتقنيّ وسائق رائعاً للغاية. يصطحبُه الصحافيون معهم بسرور في خرجاتهم لإعداد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الروبورتاجات القصيرة. وعموماً، ما العيب أن تستهويني معرفة أنّ أحداً يُعجبُه أنْ يراني، خصوصاً عندما لمْ أعُد، في السنوات الأخيرة، محبوبة إطلاقاً في الإذاعة. كان يبدو أنّني بقرة قذرة، مُتعصّبة، دوغمائيّة، كلبُ حراسة الحزب، إلّا أنني لم أكن أخجلُ أبداً من التفاني في حُبّ الحزب ومن التضحية بكلِّ مُتَعي من أجله.

فما الذي تبقّى لي في الحياة؟ لبافيل نساءٌ أخريات، لا أسعى أبداً إلى معرفتهنّ، والصغيرة تُحبّ والدَها، وعملي تحكمُه الرّتابة منذ عشر سنوات: روبورتاجات، حوارات، برامج عن إتمام الخطط، وعن الإسطبلات النموذجية وآلات حَلْب البَقر. لا أمل أيضاً في حياتي الأسريّة. وحْده الحزبُ لم يُسِئ لي أبداً، وقد بادلتُه الوفاءَ حتى في اللحظات التي مال فيها الجميعُ إلى التخلّي عنه عام 1956 إثر تنامي جرائم ستالين، حيث أصبح الناسُ مجانين، يبصقون على كلّ شيء، كانوا يزعمون أنّ صحافتنا كانت تكذب، وأنّ المحلات التجاريّة المُؤمّمة كاسدة، وأنّ الثقافة كانت تختنق، والتعاونيات القرويّة ما كان لها أن ترَى النّور، وأنّ الاتحاد السوفياتي كان بلداً بلا حُريّة، والأنكى أنّ هذا ما كان يقوله الشيوعيون أنفسُهم، حتى بافيل كان يتحدّثُ بهذه الطريقة، والكلُّ كان يُصفّقُ له، فقد كان بافيل دوْماً موضوعَ تصفيق، هو وحيد أبويه، كانت أمّه تنامُ وهي تحضنُ صورتَه، طفل خارق، لكنه شخص عادي تماماً، يعيش بلا سجائر ولا كحول، إلّا أنّه عاجزٌ عن العيش بدون تصفيق، التّصفيقُ خمرته ودخّانه، بحيث كان يبتهجُ لسيطرته على قلوب المُستمعين وهو يُلقي خُطباً عن رُعب المحاكمات الستالينية بحماسة يوشك معها الناس على البكاء، كُنت أشعرُ بسعادته وهو يُعبّرُ عن سخطه، فكنتُ أكرهُه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لقد عرف الحزب لحُسن الحظ كيف يضربُ على أيدي المُصابين بهستيريا الكلام، فلاذوا بالصمت، وهو ما لجأ إليه بافيل أيضاً، إذ كان لمنصبه كأستاذ للماركسية في الجامعة امتيازاتٌ كبيرة تمنعُه من أن يُخاطِرَ بها. ومع ذلك، شيءٌ مّا ظلّ سارياً، بُذورُ لامبالاة وارتياب وعدم إيمان نمَت بصمت وعلى نحو سرّيّ. كنتُ أتساءلُ عمّا يُمكنُ فِعله لمُوَاجَهة ذلك، فلم يكن أمامي إلّا التشبّث بالحزب بقوّة أكثر من السابق، كما لو كان الحزبُ كائناً حيّاً يُمْكنني أن أفضيَ إليه بأسراري، حيث لمْ يَعُد لي إجمالاً ما أقوله لا لبافيل وحده فقط، بل لأيٍّ كان. الآخرون أيضاً لا يُحبّونني إطلاقاً. ذلك ما تبدّى جيّداً عندما توجّب إيجاد حلٍّ لمسألةٍ عويصة. كان أحدُ مُحرّرينا، وهو متزوّج، قد دخلَ في علاقة مع تقنية وهي شابة عازبة، متهوّرة ووقحة. فجاءت الزوجة تطلبُ، بَعْد يأسها، مُساعدةَ لجْنتنا. درَسْنا الحالة لساعات، وأنصتْنا بالتناوب للزّوجة والتقنية والموظفين الشهود، وبذلنا جهداً في فهْم كلّ حيثيات الواقعة وفي أن نكون مُنصفين، هكذا تلقّى المحرّرُ توبيخاً من الحزب، كما تمَّ توبيخ التقنية، وألزم الاثنان أمام اللجنة بالتعهّد بالانفصال. للأسف لم يكن التعهّد إلّا مُجرّد كلام، تلفّظَا به لتهدئتنا، واستمرّت اللقاءات بينهما، لكنّ حبل الكذب قصير، إذ لم يتطلّب اكتشاف الأمر وقتاً طويلاً، عندئذٍ كنتُ مع الحلّ الأكثر صرامة، اقترحتُ إقالة الزّوج من الحزب، لأنه خدعَ الحزبَ وخانهُ عن قصد، إذ لا معنى، في نهاية المطاف، لشيوعي يكذبُ على حزبه، وأنا أكرهُ الكذب، غير أن اللجنة لمْ تأخذ بمقترَحي واكتفت بأن وجّهَت للمُحرّر توبيخاً ثانياً، فيما التقنية ألزِمت بمُغادرة الإذاعة.

فانتقما منّي جيداً بأنْ قدّماني، في حمْلةٍ شنّاها ضدّي، على

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أنني وحْشٌ، حيوانٌ أشقر، ثم أخذا يتجسّسان على حياتي الشخصية التي كانت نقطة ضعفي، إذ ليس بمقدور امرأة أنْ تستغنيَ عن الحُبّ وإلّا لن تكون امرأة، لا أنكرُ أنني كنتُ أبحثُ عن الحبّ خارج بيْتي ما دمتُ أفتقدهُ تحت سقفه، كنتُ أبحث عنه عبثاً في ما تبقّى. وذات يوم، تمّت مُواجَهتي بهذا الأمر في اجتماع عامّ، مُواجَهتي بكوني مُنافقة، أشهِّرُ بالناس تحت ذريعة تقويضهم للحياة الزوجيّة، وأنّ نيّتي في واقع الأمر كانت هي إبعادهم وطردهم وتدميرهم، في حين أنني أنا نفسي كنتُ أخونُ زوجي قدر ما كنتُ أستطيع. بهذه الطريقة كانوا يتحدّثون في الاجتماع، أمّا في غيابي فكانوا يُمرّغون سمعتي بالكامل في الوَحل. أمام الجمْع، كنتُ أختاً جيّدة، أمّا في حديثهم الخاصّ فكنتُ عاهرةً كما لوْ أنّهم لم يَعرفوا كيْف يستوعبوا أن إدراكي معنى زواج تعِس هو ما كان تحديداً يجعلني صارمة تجاه الآخَرين، لا لأنني كنتُ أكرهُهم، بل على العكس لأنني كنتُ أحبّهم، أحبّهم من أجل سعادتهم ومن أجل بُيوتهم وأطفالهم، لأنني كنتُ أودّ مساعدتهم، فأنا لي طفلة وبيت وأرتعدُ خوفاً من أجلهما أيضاً.

من المُمكن أن يَكونوا على حقّ، لربّما أنا امرأةٌ شرسة، إذ ينبغي حقاً أن نتركَ للناس حُرّيّتهم، لا حقّ لأحد أن يحشر نفسَه في حياة الناس الشخصيّة، لربّما أَسأنا فعلاً فهْم كلّ هذا العالم الذي نحن فيه، ولربّما أكون بحق شُرطياً مَقيتاً يحشرُ أنفه في أمور لا تعنيه، إلّا أنني هكذا أنا، أتصرَّفُ مثل ما أشعُر، وقد فاتَ الأوان الآن كي أتغيّر، لقد اعتقدتُ دوماً أنّ الكائنَ البشريّ كان غيْر قابل للانقسام، وحدهُ البورجوازيّ ينقسمُ، في مَكره، إلى كائن عامّ وخاصّ، هو ذا مُعتقدي، وقد تصرّفتُ دوْماً في ضوْئِه، هذه المرّة كما في مرّات سابقة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أن أكونَ قد تصرّفتُ بشَراسة، ذلك ما أعترفُ به من غير داعٍ لإخْضاعي للتحقيق، فأنا أمقتُ هؤلاء المراهقات، البغايا الشرسات في شبابهن، اللواتي لا يمتلكن أدنى ذرّة من التضامُن مع المرأة التي تكبرهنّ قليلاً في السنّ كما لو أنّ دورهنّ لن يأتيَ يوماً ليَبْلغن الثلاثين والخامسة والثلاثين والأربعين، وأكرَهُ أن يُقال لي إنّها كانت تحبّه، فما الذي يُمكنُ أن تعرفه هي حقاً عن الحبّ، إنّها لا تتردّد في مُضاجَعة أوّل مَن تلقاه، بلا عقدة ولا حشمة، فأنا أشعرُ بالإهانة إن تجرّأ أحدٌ على مقارَنتي بمثل هؤلاء البغايا لأنني ارتبطتُ برجال عديدين فقط حتى وإن كنتُ متزوّجة. الفرقُ هو أنني بحثتُ دوماً عن الحُبّ وعندما كنتُ أخفق أو كنت لا أعثر عليه حيث أبحث عنه، كنتُ أنصرفُ مُرتعدة ثمّ أبحث عنه بعيداً، وقد كنتُ، مع ذلك، أعلم كم سيكونُ بسيطاً نسيان حلم حبّ الشباب تماماً وتجاوز الحدود كي أجد نفسي على أراضي تلك الحُريّة الغريبة، حيث ينعدمُ الخجل والتحفظ والأخلاق، في أجواء هذه الحُريّة الغريبة والدنيئة حيث كلّ شيءٍ مُباح، وحيث يكفي الاستجابة في أعماق الذات لنبض الجنس، نبض هذا الوحش.

وأعلمُ كذلك إن أنا تجاوزتُ هذا الحدّ، سوف أفقدُ نفسي وأصبحُ شخصاً آخر، لا أدري مَنْ، وهذا التحوّل المُرعب يُخيفني، لذلك أبحثُ عن الحُبّ، أبحث بلا أمَل عن حُبٍّ حيث يُمْكنني أن أعيش كما كنتُ دوماً وكما أنا الآن أيضاً، بأحلامي القديمة ومُثلي العليا، لأنني لا أريد لحياتي أن تنكسِر من الوسط، أريدها أن تظلّ واحدةً من البداية إلى النّهاية، لذلك انبهرْتُ إلى هذا الحدّ لمّا تعرّفتُ إليك يا لودفيك.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

3

كان الموقفُ في العُمق مُضحكاً في المرّة الأولى التي دخلتُ فيها إلى مكتبه، لم أنجذب إليه، ودون أدنى ارتباكٍ أطْلعتُه على ما كنتُ أنتظرُ منه من تعليمات، وعلى الفكرة التي كنتُ كوّنتُها عن ذلك الروبورتاج الإذاعي، ولكن لمّا توجَّه إليّ، بعد ذلك، بالكلام، شعرتُ فجأةً أنني أخذتُ أنبهرُ به، كنتُ أتلعثمُ وأنا أحاورُهُ بغباء. وأمام ارتباكي، غيّرَ توّاً موضوعَ الحديث حوْل حياتي، ما إذا كنتُ مُتزوّجة، إن كان لديّ أطفال، أين كنتُ أقضي عادةً عطلتي، وأضافَ أيضاً أنّني كنتُ أبدو شابّة وكنتُ جميلة، كان يَودُّ، لطفاً منه، أنْ يُحرّرني من الارتباك. لقد صادفتُ العديدَ من أولئك المُتبجّحين الذين يُظهرون الطيبَة من أجل ذرّ الرّماد في العيون فقط، حتى وإن لم تكن معرفتهم تُمثّلُ عُشر معرفته، فلو تعلَّق الأمرُ ببافيل لَمَا توَقّف عن الحديث عن نفسه. غيْر أن المُضحك أكثر هو أنّني لمْ آخذ، على امتداد ساعة من الحديث، أيّ فكرةٍ عن مؤسَّسته. بالبيت، كنت قد عكفتُ على ورقتي، من غير أن أتوَفّق في كتابة شيء مُقنع، ومع ذلك كان ما كتبتُه يخدمني، كان على الأقلّ ذريعة لأهاتفه إنْ كان يُوَافق على قراءة ما كتبْت. التقينا بأحد المقاهي، كان روبورتاجي البائس مُكوَّناً من أربع صفحات، قرأهُ بلطف ثم ابتسم مُعلناً أنّ الروبورتاج ممتاز، لقد جعلني أدركُ، منذ اللحظة الأولى، أنني أعنيه بوصفي امرأة لا بوصفي صحافية، فلم أكن أدري هل كان عليَّ بسبب ذلك أن أبتهج أم أغتاظ. على كلّ حال كان يبدو لطيفاً، وكان بيننا تفاهُمٌ واضح، فهو ليس من مُثقفي الصالونات الذين يُرهقونني، له تجارب غنية، عمِل حتى في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المناجم، وقد قلتُ له إنني أحبُّ مَنْ هُم على شاكلته، لكنني بقيتُ أساساً مُندهشة لمّا علِمتُ أنّه من مورافيا، وأنّه كان يعزفُ في جوقة للسنبالوم، لم أقوَ على تصديق أذني، كنتُ أسمعُ لازمةَ حياتي، فكان شبابي يتراءَى لي قادماً من بعيد، وكنتُ أشعرُ بنفسي مُستسلِمة أمامه.

سألني عمّا أقوم به طوال النّهار، ولمّا أخبرْته، قال لي: حياتُك سيّئة يا هيلينا، ما زلتُ أسمع صوْتَه نصفَ السّاخر ونصفَ المُشفق، ثم أعلنَ أنّ عليّ أن أغيّرها، عليّ أن أختار حياةً مُختلفة، أن أنصرفَ أكثر إلى مُتَع الحياة. أطْلعْتُه أنني لستُ ضدّ ما يقول، وأنني كنتُ دوماً شغوفة بالفرح وأن لا شيء كان يُغيظني أكثر من الأحزان والهموم، فأجاب أنّ جهري بما أعتقد لا معنى له، وأنّ مُناصِري الفرح كانوا، في الغالب، أشقى الناس، كنتُ أودّ أن أصرخ: آه، كم أنتَ على حقّ. ثم أعلنَ أنه سوف يأتي غداً عند الساعة الرابعة ليأخذني من أمام الإذاعة لنقوم معاً بنزهة في الطبيعة بضواحي براغ. كنتُ أحاولُ إقناعَه بأنّي امرأةٌ متزوّجة ولا يمكنني أن أخرج في نزهة إلى الغابة رُفقة رجل، رُفقة غريب. أجاب لودفيك مازحاً: أنا لستُ رجلاً أنا عالِم فقط، وعَلَتْهُ، في الآن ذاته، مَسحة حُزن شديد، انتبهتُ إلى ذلك، وأحسَستُ بنَفَسٍ ساخن، بلذةٍ أن ألاحظ أنّه يشتهيني، وقد تأجّجت شهوتُه لمّا كنتُ أذكّرُهُ بأنّي امرأةٌ مُتزوّجة، حيث كنتُ أبدو له بعيدةَ المنال، والمنيعُ هو، قبْل كلّ شيء، دوماً موضوع رغبة مُتأجّجة. كنتُ أتشرّبُ ذلك الحُزنَ في ملامحه، وفي تلك اللحظة فهمتُ أنّه مُغرَمٌ بي.

في الغد كان المنظرُ رومانسيّاً، من جانبٍ مياه الفلتافا ومن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الجانب الآخر منحدَر الغابة الشديد، وأنا أعشقُ ما هو رومانسي، لا بدّ أنّ سلوكي كان يبدو مجنوناً قليلاً، وفي غيْر محلّه بالنسبة إلى أمّ لها فتاة في الثانية عشرة من العُمر. كنتُ أضحكُ وأقفزُ، ثمّ أمْسكتُه من يده وأجبرتُه على الرّكض معي، ثمّ توقّفنا، كان قلبي يخفق بشدّة، كنّا وجهاً لوجْه، على وشك التماسّ، فانحنى لودفيك انحناءةً خفيفة وقبّلني قبلة سريعة، أفلتتُ منه فوراً لأمْسِكَ بيده من جديد، وأخذنا نركضُ قليلاً، أنا أشكو من القلب وأدنى جهد أبذله أبداً في اللهاث وترتفعُ دقاتُ قلبي، يكفي أن أصعدَ طابقاً واحداً ليحدُث لي ذلك، لذلك تمهّلتُ فأخذت حدّة أنفاسي تخفّ تدريجيّاً، وفجأة انتبهتُ إلى أنني كنتُ أدندنُ بصوتٍ خافتٍ المقطعيْن الأوّليْن لنَغم مورافيّ، نَغمي المُفضَّل، ولمّا بدا لي أنّه كان يفهمُني واصلتُ بصوتٍ عالٍ، بدون خجل، كنتُ أشعرُ بالسنين والهموم والأحزان تتداعى، بآلاف الحراشف الرماديّة تتساقط، جلسْنا بعد ذلك في حانةٍ صغيرة وتناولنا خبزاً ونقانق، كلُّ شيء في الحانة كان عادياً، النادل المُتأفف، السماط المتّسخ، ومع ذلك كانت المُغامرة رائعة. هل تَعْلم، قلتُ للودفيك، أنني سوف أتوجّه بعد ثلاثة أيام فقط إلى مورافيا لإنجاز روبورتاج عن كوكبة الفرسان الملوك، سألني عن المكان بالضبط، فلمّا أجبته، قال إنّه المكان الذي فيه وُلد، صدفة جديدة أنستْني كلّ شيء، فقال لودفيك: سوْف أتحرّرُ من التزاماتي لأكون برفقتك هناك.

اعتراني الخوف، فقد تذكّرتُ بافيل وبصيصَ الأمل الذي أيقظَهُ داخلي. أنا امرأة لا تستخفّ بحياتها الزوجيّة، أنا مستعدّة للقيام بكلّ شيءٍ لِصوْنها، ولوْ من أجل الصغيرة زدينا، أو من غيْر كذب من

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أجلي أنا بوَجْه خاصّ، من أجل كلّ ما تحقّق، من أجل ذكرى شبابي، ولكنني لمْ أقوَ على قوْل لا للودفيك، لم أجرؤ على ذلك، وها هو الأمْر قد حُسِم الآن، الصغيرة زدينا تغطّ في النوم، وأنا خائفة، ولودفيك، في هذه الساعة، قد حلَّ بمورافيا وسوف ينتظرني لدى نزولي من الحافلة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

القسم الثالث

لودفيك

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

1

نعم، لقد خرجتُ لأتسكّع. توقفتُ فوق جسر نهر الموراڤا مُتأمّلاً التيار. ما أبشع الموراڤا (نهر شديد الدّكنة حتى ليُخال أنّ سريرَه مِنَ الغَضار السائل لا مِنَ الماء) وكم هي كئيبة ضفّته: زقاق من خمسة منازل بورجوازية بطابق واحد، مُنفصلة عن بعضها، كلّ منها مزروع في مكان، يتيماً على نحو أخرق، لربّما كان عليها أن تُشكّل نطفة رصيفٍ لن يتسنّى أبداً لاحتماله المتصنّع أن يتحقّق، منزلان من بين الخمسة عليهما من الخزف والجصّ تماثيلُ ملائكة صغيرة ونقوشٌ تصدّعت، تماثيل الملائكة لم تعُد لها أجنحة والنقوش المجلوة إلى أقصاها لم تعد واضحة. وهناك، حيثُ ينتهي زقاق المنازل اليتيمة، ليس ثمة إلّا أعمدة من حديد بأسلاك كهربائية، وعشب به إوزّات بطيئة، ثم حقول لا حدَّ لها، ممتدّة إلى ما لا نهاية، عبْرها يختفي غَضار الموراڤا السائل.

تعرفُ المدنُ كيف تنعكسُ الواحدةُ منها على صورة الأخرى، وأنا في هذه البانوراما (التي كنتُ وأنا طفل أعرفها جيّداً، لكنّها الآن لا تعني لي شيئاً على الإطلاق) تراءت لي دفعة واحدة أوستراڤا، مدينة عمّال المناجم الشبيهة بمرقد مؤقّت هائل، المليئة ببنايات مهجورة وأحياء مُتّسخة مفتوحة على الفراغ. لقد وقعتُ في الفخ، إذ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وجدتُ نفسي فوق هذا الجسر مثل شخص مُعرَّض لفوهة رشّاش. لم أكن أريدُ أن أطيلَ التأمّلَ في الزقاق المهجور وتلك المنازل الخمسة التائهة، لأنّني كنتُ أقاومُ كيْلا أفكّر في أوسترافا. لذلك استدرتُ لأتابع الضفّة في الاتجاه المعاكس للتيار.

في هذا الاتجاه، كان ثمّة مسلك صغير، يحفّ جانباً منه رصيفٌ كثيف من شجر الحور، هو معبرٌ ضيّق على امتداد البصر، على اليمين، التّلعة المغطّاة بالعشب والنباتات الطائشة، كانت تنحدرُ حتى مستوى الماء، وبعيداً جدّاً، ما وراء النهر، تكتشف العينُ مخازنَ وأوراشاً وساحات مصانع بائسة، وعلى يسار المسرب، ثمّة في البدء مطرحٌ لا ينتهي للأزبال، تليه حقول شاسعة حيث زُرعت الأعمدة الحديد الحاملة للأسلاك عالية التوتر. وأنا أحيط كلَّ ذلك ببصري، كنتُ أمسحُ مسارَ الممرّ الضيّق كما لو كنتُ أقطعُ معبراً ضيقاً طويلاً فوق الماء، وإذ أقارنُ هذا المشهدَ بكامله بامتداد مائيّ هائل، فلأنني كنتُ أشعرُ ببرودته تخترقني، وأنني كنتُ أقطع هذا المعبرَ كما لو كنتُ مهدَّداً بأن أهْوي. كنتُ أنتبه، في الآن نفسه، أنّ أجواء هذا المنظر الغريب لم تكن سوى نسخةٍ عمّا كنتُ أرفضُ إثارته بعد لقائي بلوسي، كما لو أنّ ذكرياتي المكبوحة كانت تُغَذي كلّ ما كان يتبدّى حولي، الحقول والساحات والمرائب المُقفرة، دكنة النّهر، وهذه البرودة السارية في كلّ شيء التي كانت تُساوي بين عناصر الديكور بكامله. لقد أدركتُ أنني لم أكن أتلافى ذكرياتي، بل كانت تُحاصرني.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

2

أيُّ مسار قادَني إلى الضّياع الأوّل في حياتي (وإلى لوسي من طريقه غير المحبوب)، ليس من الصعب روايتُه بنبْرةٍ خفيفة وحتى مازحة: كلّ شيء يعودُ إلى خطأ نزوعي المشؤوم إلى الدعابات السيئة وعجْز ماركيتا المشؤوم عن فهْمها. كانت ماركيتا واحدة من أولئك النساء اللواتي يأخُذن كلّ شيءٍ على محمل الجدّ (بذلك كانت تتماهَى جيداً مع عبقرية العصر)، ميزتهنّ الكبرى التي منحَتها لهنّ الجنيات مُنذ المهد هي القدرة على التصديق. لا أريدُ أن ألمّح بذلك إلى أنّها كانت بلهاء، على العكس، فقد كانت موْهوبة وذكية على نحو مقبول، وفضلاً عن ذلك، كانت من الشباب (في التاسعة عشرة من عمرها) ومن الجمال بحيث أنّ سذاجة سُرعة التصديق لديْها كانت تُحسَبُ من مفاتِنها أكثر مما تُحسَبُ من نواقصها. في الكُلية، كان الجميع يُحبّها، وكلّنا تقريباً كان يسعى إلى الظَّفر بها، وهو ما لَمْ يكن يمنع (على الأقلّ بعضنا) من السّخرية منها بلطف وبكلّ لباقة.

من المؤكّد أنّ الهزْل وماركيتا لم يكونا يلتقيان، ولم يكن الهزْل يتناسبُ أيضاً مع روح العصر. في العام الأول بعد شباط/ فبراير 1948، كانت قد انطلقت حياةٌ جديدة، مُختلفة حقاً. مظهرها، كما بقي عالقاً في ذاكرتي، كان مطبوعاً بجدّيّة صارمة، والغريب أن هذه الجديّة لم يكن يتخللها أيّ تجهّم، بل على العكس كانت الابتسامات سِمَتَها ظاهريّاً. أجل، كانت تلك السنوات تبدو الأكثر بهجة، ومَنْ لمْ يكن مبتهجاً كان يُتّهم بأنّه مُتضرِّرٌ من انتصار الطبقة العاملة أو (وهي تُهمة لا تقلّ خطورة) غارقٌ بصورة فردانيّة في همومه الشخصيّة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم تكن لي آنذاك همومٌ شخصيّة كثيرة، على العكس كان لديّ ميلٌ كبيرٌ إلى الهزْل، ومع ذلك لا أستطيع القول إنني وُفّقت تماماً من منظور المرحلة للفرح: دعاباتي كانت تنقصُها الجدّية الصارمة، بينما لم يكن الفرحُ في تلك المرحلة يحتملُ الدّعابة والسّخرية، لقد كان، وأكرّرُ ذلك، فرَحاً وقوراً، كان يُسمَّى بفخر «تفاؤل الطبقة المُنتصِرة التاريخيّ»، كان فرَحاً مُتقشّفاً، رسميّاً، بكلمة واحدة «الفرح».

أذكرُ أننا كنّا، في الكُلية، مُنظَّمين في «حلقات دراسية»، كانت تجتمعُ باستمرار لإخضاع الأعضاء بصورة علنيّة للنقد والنقد الذاتي، وانطلاقاً من ذلك يتمّ وضْعُ علامةِ تقويم في بطاقة كلّ واحد. مثل كلِّ الشيوعيين، كنتُ أزاولُ مهامّ عديدة (كنتُ أشغلُ منصباً هامّاً في «اتحاد الطلبة»)، وبما أنّ دراستي، فضلاً عن ذلك، لمْ تكن مُتعَثرة، فإنّ مثل نقطة التقويم تلك لم يكن لها أن تُسبِّب لي إزعاجاً كبيراً. ومع ذلك، فإلى جانب عبارات الثناء التي كانت تُقرّ بنشاطي، واهتمامي، وموْقفي الإيجابيّ تجاه الدولة والعمل، ومعرفتي بالماركسيّة، كانت هناك عبارة تكشفُ أنّ شخصيتي كانت تنطوي على «رواسب فردانية». مثل هذا التحفّظ لمْ يكن بالضرورة مُقلقاً، لأنّ التصرّف السليم كان أنْ نُدرجَ إشارةً نقديَّة في الملاحظات الشخصية الأكثر تألّقاً، فكان هذا يُؤاخَذ على «الاهتمام الضئيل بالنظريّة الثوريّة»، وآخَر على «بروده تجاه الآخَرين» وذاك على افتقاره للـ«حيطة والحذر»، وآخر، في النهاية، على «سُوء مُعامَلته للنساء». طبعاً، عندما لا يُصبحُ تحَفّظٌ من هذا النوع معزولاً، ويتقوّى بتحفّظ آخر، أو عندما كان يحدُث أن يتورّط أحدٌ في خلافٍ ما أو يكون أيضاً موضوعَ شكّ أو تحقير، فإنّ «الرّواسب الفردانيّة» أو «سوء معاملة النساء» يُمكنهما أن يُصبحا بذرةَ كارثة. ومثل هذه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

البذرة كانت تظلُّ حيّة كقدَر غريب على بطاقة المعلومات الخاصّة بكلٍّ واحد منّا، أجل، بكلٍّ واحد منّا.

أحياناً (بروح سمحة أكثر منها توجّساً حقيقياً) كنتُ أعترضُ على تُهمة الفردانيّة، وكنتُ ألحّ على رفاقي في الدراسة إمدادي بأدلّة. لمْ تكن لهُم أدلّة ملموسة بصورة خاصّة، كانوا يقولون: «لأنّك تتصرّف هكذا. - أتصرّف كيف؟ كنتُ أتساءل. - لكَ ابتسامة غريبة. - وماذا في ذلك؟ فأنا أعبّرُ عن فرَحي! - لا، أنتَ تبتسمُ كما لو كنتَ تفكّرُ في شيءٍ تحتفظُ به لنفسك».

عندما رأى الرّفاق أنّ سُلوكي وابتساماتي تُعطي الانطباعَ بأنّي مُثقف (صفة قدحية أخرى ذائعة في تلك الفترة)، انتهيتُ إلى تصديقهم، عاجزاً آنذاك عن أن أتخيَّلَ (كان ذلك يتجاوزُ جرأتي) بأنّ الآخَرين جميعَهم كان مُمكناً أن يُخطئوا، أنّ الثورةَ ذاتَها التي هي روح العصر كانت تُخطئ، بينما كنتُ، أنا الفرد، على صواب. أخذتُ أراقبُ قليلاً ابتساماتي، ولمْ أتأخّر في اكتشاف صدع دقيق بداخلي، كان ينفتحُ بين مَنْ كنتُه ومَنْ (حسب روح العصر) عليّ وأبتغي أنْ أكون.

ولكن، مَن كنتُ في الحقيقة إذاً؟ عن هذا السؤال، أودّ أن أجيب بكلّ صدق: لقد كنتُ شخصاً بوُجوهٍ عديدة.

وعدَدُ هذه الوجوه كان يَتنامَى. قبْل العُطلة بقرابة شهر، كنتُ قد بدأتُ أتقرّبُ من ماركيتا (كانت في سنتها الدراسيّة الأولى بينما كنتُ في الثانية)، كنتُ أحرصُ ما أمكن على أن أفرضَ نفسي عليها بطريقة مَن هُم في سنّ العشرين، الطريقة البلهاء ذاتها في كلّ الأزمنة: كنتُ أتقمّصُ قناعاً، أتظاهرُ أنني أكبرُ سنّاً (بأفكاري وتجاربي)، كنتُ أتظاهرُ بترْك مسافة بيني وبين كلّ شيء، والنظر إلى العالم من أعلى،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وبأنّ لي بشرة ثانية فوق جلدي، خفيّة، قادرة على مُقاومة الطّلقات. كنتُ أشكّ (بحقّ فضلاً عن ذلك) أنّ الهزْلَ يُعبّرُ بوُضوح عن المسافة، وبما أنني أحببتُ المزاح دوماً، فمع ماركيتا كنتُ ألجأ إليه، على نحو خاصّ، بطريقةٍ حماسية، رسميّة، مُتصنّعة.

ولكن، مَن كنتُ في حقيقة الأمر؟ مُضطرٌّ لأنْ أعيد: لقد كنتُ شخصاً بوُجوهٍ عديدة.

في الاجتماعات، كنتُ جدّياً، مُتحمّساً، وذا قناعة؛ وفي صحْبة الرفاق، كنتُ قليل الحياء ومزعجاً؛ ومع ماركيتا، كنتُ وقحاً جدّاً ومُتصنّعاً؛ وفي وحْدتي (وأنا أفكّرُ في ماركيتا)، كنتُ محتشماً ومرتبكاً مثل تلميذ بالثانوي.

هل كان الوَجْهُ الأخير هو الحقيقيّ؟

كلاّ، كلُّ الوُجوه كانت حقيقيّة، لمْ أكن بوَجْهٍ أصيل وأخرى زائفة كما هي حال المُنافقين. كنتُ بوُجوه عديدة، لأنني كنتُ شابّاً ولمْ أكن أنا نفسي أعرفُ مَن أنا ولا ما كنتُ أودّ أن أكون (وهذا لا يمنع أن الاختلاف القائم بين هذه الوجوه كان يُربكني، لا واحد منها كان ينطبقُ عليّ تماماً، وخلفها كنتُ أنمو ببلاهة على غيْر هدى).

آلية الحُبّ النفسية والفيزيولوجية مِنَ التعقّد بحيث يتوجّبُ على الشابّ، في مرحلةٍ من الحياة، أنْ يستغرقَ بصورة كاملة تقريباً للتحكّم فيها وحدها إلى أن يفلت منه الموضوع المحبوب ذاته، أي المرأة التي يُحبّ (كما هي حال عازفِ كمان شابّ، لا يُمكنه التركيز على المقطوعة الموسيقيّة ما لم ينجح في إتقان المهارات اليدويّة دون أن يُفكّر فيها إطلاقاً في أثناء العزف). لقد أشرتُ إلى ارتباكي مثل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تلميذ بالثانوي كلّما كنتُ أفكر في ماركيتا، وعليّ أنْ أضيف أنّ ذلك لمْ يكن ينجم عن عشقي لها، بل عن قلّة درايتي ونقص الثقة بالنفس التي كنتُ أشعر بثقلها مُهيْمناً على أحاسيسي وأفكاري أكثر بكثير من شُعوري بماركيتا.

لإخفاء هذا الارتباك وهذه الخراقة، كنتُ أعامِلُ ماركيتا بتعالٍ: كنتُ أبذل قصارى جهدي لمُعارَضتها أو بصراحة للاستهزاء بكلِّ آرائها، وهو ما لم يكن صعباً، فعلى الرغم من مَواهبها (وجمالها الذي كان، مثل كلِّ جمال، يوحي لمُحيطه بمناعة واضحة) كانت فتاةً سليمة النية، إذ بعجزها دوماً عن النظر أبْعَد من الشيء، لمْ تكن ترى إلّا الشيءَ ذاته، كانت تفهمُ جيّداً عِلم النبات، لكنها لم تكن، في العديد من المرّات، تفهمُ قصصاً مُضحكة يرويها رفاقُ الدراسة، كانت مُنساقة إلى كلّ الاحتدامات الحماسيّة للمرحلة، لكنّ ذهنها كان يتوَقّف، كما هي حالها أمام قصّة مُضحكة، كلّما عايَنتْ موقفاً سياسيّاً محكوماً بمقولة: «الغاية تُبرّر الوسيلة»، لهذا، من جهةٍ أخرى، قدَّرَ الرّفاقُ أنّها كانت بحاجة إلى تقوية حماسها بمعرفةِ استراتيجية الحركة الثورية وتكتيكها، فقرَّرُوا ضرورةَ مُشارَكتها، خلال العطلة، في دورةٍ تكوينيّة من تنظيم الحزب لمدّة خمسة عشر يوماً.

لمْ يكن ذلك القرار يُناسبُني إطلاقاً، لأنني كنتُ عزمتُ قضاءَ هذين الأسبوعيْن بالضبط مع ماركيتا ببراغ، للدفع بعلاقتنا (التي كانت مُقتصرة، حينذاك، على التنزّه والحديث وبضع قُبلات) أبْعد. باستثناء هذين الأسبوعيْن، لم يكن لي خيار آخر (باعتبار تخصيصي شهراً لفرقة زراعيّة والأسبوعيْن الأخيريْن لزيارة والدتي بمورافيا)، كما كانت الغيْرة تنهشُني، لأنّ ماركيتا لم تكن تُقاسمُني حزني، إذ لمْ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تُثِر الدَّورة التكوينيّة إطلاقاً غضبَها، بل كانت لها الجُرأة لتعبّر لي عن ابتهاجها مُسبقاً بهذه الدَّورة.

من الدَّورة التكوينيّة (المنظمة بقصر فارغ وسط بوهيميا) بعثتْ إليّ برسالةٍ تُشبهها، تفيضُ برضاً صادق عن كلّ ما كانت تعيشُه، كلّ شيء كان يسحرُها، ربع ساعة المخصّصة للتمارين الرياضية الصباحيّة، التقارير، حِصص المُناقشة، الأغاني، كتبت لي أنّ «عقلاً سليماً» كان سائداً هناك، وبحماسة أضافت أيضاً أنّ قيام الثورة في الغرب لن يتأخّر.

كنتُ في العُمق مُتّفقاً بوَجْه عامّ مع كلّ ما قالته، فقد كنتُ مثلها أؤمنُ بقيام الثورة حتى في أوروبا الغربيّة، شيءٌ واحدٌ فقط لمْ أستسِغه هو أنها كانت سعيدةً ومُبتهجة، في حين كنت أتألمُ بسبَبها، عندئذٍ اشتريتُ بطاقة بريديّة (وكي أجرحها وأغيظها وأشوِّش عليها) كتبت لها: التفاؤل أفيونُ الشعب! العقل السليم مُعفّنٌ بالغباء. عاش تروتسكي! لودفيك.

3

عن بطاقتي البريديّة، أجابت ماركيتا ببطاقة حرّرَت عليها نصّاً قصيراً وسطحيّاً، إلا أنّها لم تُجب إطلاقاً عن الرسائل التي كنتُ أبعثُ إليها بها خلال العطلة. كان صمتُ ماركيتا وأنا أشاركُ بالجبال زمرةً من الطلبة في حصاد الأعلاف، يُرهقني بكآبة ثقيلة. يوميّاً تقريباً، كنتُ أبعث إليها من هناك برسائلَ مُحمّلة بشوق مُتضرّع وحزين، كنتُ أتوسّلُ إليها أن تُدبّر أمورَها كي يتسنّى لنا أن نلتقي على الأقلّ في الأسبوعيْن الأخيريْن من العطلة، لقد كنتُ مُستعدّاً أنْ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ألغيَ السَّفر إلى بيتي بمورافيا، أن أتخلّى عن زيارة والدتي المُهمَلة، أن أذهب إلى أيّ مكان لأكون مع ماركيتا. كلّ ذلك، لا لأنّي كنتُ أحبّها فقط، بل لأنها أساساً كانت المرأة الوحيدة في أفقي، ووضعيتي كشابّ بلا امرأة كانت بالنسبة إليّ لا تُطاق. غير أنّ ماركيتا لم تكن تُجيبُ على رسائلي.

لمْ أكن أفهمُ ما الذي كان يجري، عدتُ إلى براغ في آب/ أغسطس وتمكّنتُ من العثور عليها في بيتها. خرجْنا معاً في نُزهتنا المعتادة على ضفّة الفلتافا وبالجزيرة التي تُدعى المرج الإمبراطوري (ذلك المرج الكئيب حيث ينتصبُ شجر الحور وساحات اللعب المُقفرة)، فأقرّت لي ماركيتا أن لا شيء تغيّر بيننا، كانت فعلاً تتصرَّف كما كانت من قبْل، إلّا أنّ ذلك الجمود بوَجْه خاصّ (القُبلة ذاتها، الحديث ذاته، الابتسامة ذاتها) كان يُصيبُ بالاكتئاب. ولمّا طلبتُ من ماركيتا أن نلتقيَ في الغد، أرادت أن أتّصلَ بها هاتفيّاً كي نتفق على ذلك.

اتصلتُ بها فأجابني صوتٌ نسويّ، لمْ يكن صوتها، أخبرَني أنّ ماركيتا غادرت براغ.

كنتُ تعِساً تعاسة لا يُمكن أن يحياها إلّا شابٌّ في العشرين من عمره لا عشيقة له، شابٌّ ما زال خجولاً نوعاً ما، لمْ يعرف الحبّ الجسديّ إلّا مرّات قليلة، خلسة وبصورة ناقصة، ولم يكُف، مع ذلك، عن تعذيب روحه. كانت الأيام طويلة، فارغة على نحو لا يُطاق. لمْ أكن أقوى لا على القراءة ولا على العمل، كنتُ أذهبُ إلى السينما ثلاث مرّات في اليوم، عرْضاً بعد عرض بلا انقطاع، في الصباح وفي فترة السهرة، لا لشيء إلّا لقتل الوقت وإسكات نعيق البوم المُتواصل الذي كانت تُصْدِرُه دواخلي. فأنا، مَن كانت ماركيتا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

(لتظاهُري المُحكم) تعتقدُ تقريباً أنني كنتُ ضجراً من كثرة النساء، لم أكن أجرؤ على توجيهِ كلمةٍ واحدةٍ للفتيات في الطريق، أولئك الفتيات اللواتي كانت سيقانهنّ الجميلة تُؤلمُ روحي.

بارتياح إذاً كنتُ استقبلتُ حلول شهر أيلول/ سبتمبر، الذي بإطلالته انطلقت الدراسة بعد يومين أو ثلاثة من استئنافي لمهامّي في «اتحاد الطلبة»، حيث كان لي مكتبٌ شخصيّ وسلسلة من الالتزامات المُتنوّعة. منذ اليوم الثاني، تلقيتُ مكالمة هاتفية تدعوني إلى الالتحاق بسكرتارية الحزب. ابتداءً من تلك اللحظة، كلُّ شيء، بما في ذلك التفاصيل الصُّغرى، بقيَ راسخاً في ذاكرتي: كان النهار مُشمساً، خرجتُ من بناية «اتحاد الطلبة» وشعرتُ بالغمّ، الذي أثقلَ كاهلي على امتداد العطلة، ينزاحُ عنّي تدريجيّاً، فضولٌ مُبهج كان ينتابني في طريقي إلى السكرتارية. قرعتُ جرس الباب، ففتح لي رئيس اللجنة، شابّ طويل، بوَجهٍ صغير وشَعر لامع وعينيْن بزرقة قطبيّة. على الطريقة التي كان الشيوعيون يتبادلون بها التحية آنذاك، قلتُ: «المجد للعمل»، لم يَرُدّ التحية وقال: «اذهب إلى أقصى الإقامة، إنّهم ينتظرونك هناك»، في أقصى الإقامة، داخل الغرفة الأخيرة بالسكرتارية، كان ثلاثة أعضاء من لجنة طلبة الحزب بانتظاري. طلبوا منّي الجلوس. جلستُ وفهمتُ أنّ اللقاء كان يُنذر بالسُّوء. كان الرّفاق الثلاثة، الذين كنتُ أعرفهم وأتحدّثُ معهُم عادةً بمرح، يُظهرون ملامحَ مُتجهّمة، صحيح أنهم رفعوا الكُلفة في مخاطَبتي (وَفق القاعدة السائدة بين الرفاق)، إلّا أنّ طريقتهم لم تعُدْ فجأة ودّية، بل رسميّة، منطويّة على التهديد. (أقِرّ أنّي شعرتُ منذئذٍ باشمئزاز مِنْ رَفْع الكُلفة في التخاطب، لأنّ رَفْعها ينبغي أن يُعبِّر في الأصل عن ثقةٍ حميمة، لكن عندما يتمّ بين أشخاص لا حميمية

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تجمعُهم، فإنّه يُصبح فجأة ذا دلالة عكسيّة، يُصبح تعبيراً عن الفظاظة، بحيث يكونُ الوسط الذي ينتشرُ فيه رَفْع الكلفة لا وسط صداقةٍ عامّة، بل وقاحة شاملة).

كنتُ إذاً جالساً أمام ثلاثة طلبة مُتحرّرين من الكُلفة، الذين طرحوا عليّ أوّل سؤال: إذا ما كنتُ أعرف ماركيتا. أجبتُ بأني كنتُ أعرفها. سألوني إذا ما كنتُ تبادلتُ معها الرسائل، أجبتُ بالإيجاب. سألوني إذا ما كنتُ أتذكّرُ ما كتبتُه لها، قلتُ إنّي لمْ أعُد أتذكّر ذلك، غير أنّ البطاقة البريديّة بنصّها المُستفزّ تراءَت لي فجأة، فأخذتُ أشتمّ ريحاً آتية. ألا تستطيع أن تتذكّر؟ سألوني. نعم، لا أستطيع، أجبْتُ. وماذا كانت ماركيتا تكتبُ لك؟ هززتُ كتفي لإشعارهم بأنّ الرسائل كانت تتناولُ أموراً حميمة لا يُمكنني أن أطْلِعَهم عليها. ألمْ تقل لك شيئاً عن الدَّورة التكوينية؟ سألوني. بلى، قلت. ماذا قالت لك إذن؟ قالت إنّ الدورة كانت تروقها، أجَبْت. وماذا أيضاً؟ قالت إنّ العُروض كانت مُفيدة وكان العمل الجماعي جيّداً، قلت. هل كتبَتْ لك أنّ عقلاً سليماً كان يمنحُ حيويّة للدَّورة التكوينية؟ أجل، قلت، من المفروض أن تكون كتبت شيئاً مثل ذلك. هل كتبتْ لك أنّها كانت تتلقّى معرفة عن قوّة التفاؤل؟ سألوني بعد ذلك. نعم، أجبت. وأنت، ما رأيك في التفاؤل؟ سألوني. التفاؤل؟ أيُّ رأي يُمكن أن يكون لي فيه؟ تساءلتُ. هل تَعتبرُ نفسك شخصاً مُتفائلاً؟ سألوني. بلا شك، قلتُ مُرتبكاً، إنني أميل تلقائياً إلى الهزْل، فأنا شخصٌ مرح، أعلنتُ مُحاولاً أن أضفيَ قليلاً من الخفّة على الاستجواب. حتى شخص عدميّ، لاحظَ واحدٌ منهم، يُمكنُ أن يكون مَرحاً! يُمكنه أن يسخرَ ممّن يُعانون. وتابَعَ: حتى شخص وقح يُمكنه أيضاً أن يكون مَرحاً!

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هل تعتقد أنّ بالإمكان بناء الاشتراكية بلا تفاؤل؟ سأل الثاني. لا، أجبت. إذاً أنت لسْتَ من أنصار بناء الاشتراكية في بلادنا، أعلنَ الثالث. كيف ذلك؟ قلتُ مُحتجّاً. لأنّ التفاؤل، بالنسبة إليك، أفيون الشعب! انفجَروا جميعاً. ماذا، أفيون الشعب؟ قلتُ مُحتجّاً مرّةً أخرى. لا مفرّ لك من الاعتراف، لقد كتبتَ ذلك! ماركس عدَّ الدينَ أفيون الشعب، أما أنت فترى أنّ الأفيون هو تفاؤلنا! لقد كتبتَ ذلك إلى ماركيتا. وتابَعَ الثاني: كم أودّ أن أعرف ماذا سيكونُ ردّ فِعل عُمّالنا وشغيلتنا من الصدمة التي تفوقُ كلَّ تصوّر إن علموا أنّ تفاؤلهم أفيون. وأضاف الثالث: بالنسبة إلى التروتسكيين، لمْ يكن التفاؤل البنّاء دوماً إلا أفيوناً، وواضحٌ أنك تروتسكيّ! يا إلهي! من أين جئتم بهذا الحُكم؟ قلتُ مُحتجّاً. لقد كتبتَه، صحيح أم لا؟ قد أكون كتبتُ شيئاً مُماثلاً بدافع الهزْل، وقد مَضى على ذلك شهران، ولمْ أعُد إطلاقاً أتذكّره. بمقدورنا أن نُنْعش ذاكرتَك، قالوا، ثمّ تلَوا على مسامعي نصَّ البطاقة البريديّة: التفاؤل أفيون الشعب! العقل السليم يُعفِّنه الغباء! عاش تروتسكي! لودفيك. كانت هذه العبارات تأخذ، في مقرّ السكرتارية الضيّق، رنيناً باهراً إلى حدّ أنّها أخافتْني فوراً. شعرتُ أنّها تُخفي قوّةً مُدمِّرة لن أقوى على الصُّمود أمامها.

أيّها الرفاق، لقد كان ذلك من أجل المزاح فقط، قلت، فشعرتُ أن لا أحد كان بمقدوره تصديقي. هل تجدان، أنتما، الأمرَ مضحكاً؟ قال أحَدُ الرفاق مُوَجّهاً الكلام للرفيقيْن الآخرَيْن. فأوْمَأا برأسَيْهما نفياً. ينبغي أن تَعرفوا ماركيتا! قلت. ولكنّنا نعرفها، أجابوا. إذاً تعلمون، قلت، أنّ ماركيتا تأخذ كلَّ شيء على مَحْمل الجدّ، وقد كنّا دوماً نسخرُ منها قليلاً لإغاظتها. حسناً، قال أحَدُ الرفاق، لا يبدو لنا، انطلاقاً من رسائلك، أنّك كنتَ صادقاً معها. ماذا؟ هل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قرأتم كلَّ رسائلي إلى ماركيتا؟ هكذا هو الأمر إذاً، تدخّلَ الثاني، تسخرُ منها بذريعةِ أنّها تأخذ كلَّ شيء على محمل الجدّ. ولكن، حدِّثنا قليلاً، ما الذي كانت تأخذهُ على محمل الجدّ؟ أهو الحزب، مثلاً، التفاؤل، السلوك، أليس كذلك؟ كلّ هذه الأمور التي تأخذها هي على محمل الجدّ لمْ تكن تبعث فيك أنتَ إلّا الضّحك. قلتُ: رجاءً افهَمُوني أيّها الرفاق، فأنا لا أتذكّر حتى كيف كتبتُ ذلك، لقد تمَّ بسُرعة، سطران كما اتفق بدافع الهزْل، حتى إنني لم أفكّر في ما سطّرتُه على عجل، ولوْ كانت لي نية سيّئة لَما بعثتُ به إلى دَورة تكوينيّة مِنْ تنظيم الحزب! لا أهمية لكيْفَ كتبْتَ رسالتك، سيان إن كتبتَها بسُرعةٍ أو ببُطء، على رُكبتك أو على طاولة، لمْ يكن بمقدورك أن تكتبَ إلّا ما كان بداخلك. هذا كلّ ما في الأمر. لربّما لوْ كنتَ فكّرتَ أكثر لما كتبتَ ما كتبتَه. بتلك الطريقة، كتبتَ بلا قناع. هكذا نعرفُ، على الأقلّ، مَن أنت. نعرفُ أنّ لك وجوهاً عديدة، واحداً للحزب والثاني للآخَرين. فغمرَني الإحساس بأنّ اعتراضاتي أصبحَت منذ تلك اللحظة بلا جدوى. أعَدْتُ بَسْطَ الاعتراضات نفسِها مرّات عديدة، بأنّ الأمر يتعلّق بمَزحة، بكلماتٍ من غير دلالة كانت تُخفي ببساطة حالتي النفسيّة، إلى غيْرها من التوضيحات. لكن، لم تكن لهم رغبة في سماع أيّ شيء. قالوا إنني كتبتُ على بطاقة بريديّة مفتوحة بحيث يُمكنُ لأيٍّ كان قراءتها، وأنّ الكلمات كانت لها حمولة «موضوعية» ولمْ تكن تقبَلُ أيّ تفسير يخصّ حالتي النفسيّة. بعد ذلك سألوني عن كلّ ما قرأتُه لتروتسكي. لا شيء، أجبتُهم. سألوني مَن أمدَّني بتلك الكتب. لا أحد، قلت لهم. سألوني عن التروتسكيّين الذين كنتُ ألتقي بهم. لمْ أكن ألتقي أحداً، أجبت. ثم أعلنوا عن إقالتهم لي لفترة من وظائفي باتحاد الطلبة،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وطلبوا أن أسلِّمهم مفتاح المكتب. كان المفتاح في جيبي فأعطيتهُ لهم، ثم أضافوا أنّ وضعيتي على المستوى الحزبيّ سوف يُسَوّيها التنظيمُ بكلية العلوم. نهَضوا من غير أن ينظروا إليّ. قلتُ: «المجد للعمل» وانصرفت.

تذكّرتُ بعد وقت وجيز أنّ لي بعضَ الأشياء الخاصّة بمكتب اتحاد الطلبة. فأنا لمْ أكن أبداً شخصاً حريصاً على تنظيم أشيائه، فقد تركتُ بدُرج مكتبي جواربَ وأوراقاً شخصيّة متنوّعة، وبدولاب مليء بالملفّات فطيرةً، أكِلت قطعة منها، كانت أمّي أرسلتها إليّ. صحيح أنني أعَدْت المفتاح من قبْل إلى السكرتارية، ولكن كان ثمّة مفتاح آخر عند البواب في الطابق السفلي للعمارة، مُعلَّقاً إلى جانب مفاتيح أخرى على لوْح خشبيّ، أخذتُه، كان مشدوداً، فأنا أتذكّر كل شيء بتفصيل، بحبْل قويّ من القنب إلى صفيحة خشبية تحملُ باللون الأبيض رقم باب مكتبي. بواسطة ذلك المفتاح دخلت، وجلستُ إلى طاولتي، فتحتُ الدرج وشرعت في استخراج كلّ ما كان في ملكيتي بتأنٍّ وشرود، لأنني كنتُ أحاول في تلك اللحظة القصيرة من الهدوء النسبيّ، أن أفكر في ما وقعَ لي بالضبط وما يتعيّنُ عليّ عمله.

غيْر أن ذلك الهدوء لمْ يستمر طويلاً، فسرعان ما انفتح الباب. كان الرفاق الثلاثة من جديد أمامي. لمْ تكن وجوهُهم هذه المرّة باردة ولا مُتجهِّمة. كانوا حينئذٍ يتكلّمون بصوت غاضب قويّ، ولا سيما أقصرهم، المسؤول عن أطُر اللجنة. سألني بفظاظة كيف تمكّنتُ من الدخول إلى المكتب، بأيّ حقّ قمتُ بذلك، إذا لم أكن أرغبُ في أن يستدعيَ رجُل أمن ليقتادني، عمّا كنتُ أفتّش في المكتب. قلتُ إنني جئتُ لآخذ فطيرتي وجواربي فقط. قال لي ليس لديّ أدنى حقّ للدخول هنا حتى وإن كان لي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

دولاب كامل من الجوارب، ثمّ توجَّه نحو الدرج وتفحّص الأوراقَ ورقة ورقة والدفاتر واحداً واحداً. لم يكن هناك فعلاً سوى أشيائي الشخصيّة، فانتهى إلى السماح لي بجمْعها، تحت بصره، في حقيبة صغيرة. فيها دسستُ الجوارب المدعوكة المتّسخة وقطعة الفطيرة التي كانت ملفوفة بالدولاب في ورق دسم تناثر الفُتات عليه. كانوا يُراقبون كلَّ حركة من حركاتي. كنتُ أغادر الغرفة، والحقيبة الصغيرة في يدي، فقال المكلّف بالأُطر كإشارة وداع ألّا أعود إلى هذا المكان أبداً.

ما إن ابتعدتُ عن أنظار الرفاق وعن منطق استجوابهم الذي لا يُقهَر، حتى بَدا لي أنّي كنتُ بريئاً، أن لا شيء مع ذلك كان مُرعباً في عبارات بطاقتي، وأن عليّ أن أجدَ أحداً كان يعرفُ ماركيتا يُمكنه فهْم الطابَع المُضحك في هذه القصّة. ذهبتُ لرُؤية طالب شيوعي من كُليتنا، وبعد أن حكيتُ له كلَّ ما وقع، صرَّح لي أنّهم كانوا في السكرتارية لا يفهمون من شدّة الرياء شيئاً عن المزاح، ولكن بحُكم معرفته هو بماركيتا كان يُدرك بوضوح حقيقة الأمر. ومع ذلك كان عليّ، في نظره، أن أذهب لِلِقاءِ زيمانيك، الذي سوف يُصبحُ خلال تلك السنة رئيسَ الحزب بكُليتنا، وهو فوق ذلك كلّه كان يعرفني ويعرفُ ماركيتا.

4

بدا لي خبراً سارّاً أن يكون زيمانيك هو الرّئيس المُقبل للتنظيم، لأنني كنتُ فعلاً أعرفه، بل كنتُ متأكّداً أنني سأحظى بكامل تعاطفه، حتى وإن لمْ يكن ذلك إلّا بسبب أصولي المورافية. فقد كان

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

زيمانيك شغوفاً حقاً بغناء الألحان المورافية؛ كانت الموضة الكبرى، في تلك الفترة، هي التغنّي بالأنغام الشعبيّة، التّغنّي بها بصوت تتخلّله نبرات ريفية، والذراع أعلى الرأس، بهيأة «رجل الشعب» الحقيقيّ الذي أخرجتْه أمّه إلى العالم على وقع السنبالوم خلال حفلة من حفلات الرقص.

كنتُ، في الواقع، الموارفيّ القحّ الوحيد في كلية العلوم، وهو ما كان يمنحُني بعض الامتيازات؛ ففي كلِّ مُناسبة احتفالية وفي بعض الاجتماعات، والأعياد أو الأول من أيار/ مايو، كان الرفاق يدعونني للعزف على الكلارينيت كي أقلّد، بمساعدة اثنين أو ثلاثة من هواةٍ متطوّعين من بين رفاق الدراسة، لحناً مورافياً. هكذا (بواسطة كلارينيت وكمان وكونترباص) شاركْنا لسنتيْن متتاليتين في موكب الأول من أيار/ مايو، وبما أنّ زيمانيك كان شابّاً وسيماً يميلُ تلقائيّاً إلى المشاركة في الاحتفالات، فقد التحقَ بنا؛ مُرتدياً بدلة محلية مُستعارَة، كان يرقصُ ماشياً، ويُغنّي رافعاً ذراعه في الهواء. كان هذا البراغيّ المَولد، الذي لمْ يسبق له إطلاقاً أن زار مورافيا، يتقمّصُ بحماسة دَور زعيم قريتنا وكنتُ أنظرُ إليه بمحبّة، سعيداً بأن تكون موسيقى بلدتي الصغيرة، التي شكّلت فردوسَ الفنّ الشعبي منذ زمن سحيق، محبوبة إلى هذا الحدّ.

وفضلاً عن ذلك، فقد كان زيمانيك يعرفُ ماركيتا، وهو امتيازٌ ثانٍ. جمعتْنا مراراً نحن الثلاثة مُناسباتٌ مختلفة في حياتنا الطلابيّة؛ ذات يوم (وكنّا كوكبة كاملة)، اختلقتُ أنّ قبائلَ من الأقزام كانت تعيش في الجبال التشيكيّة، مُدعِّماً ذلك بمُقتطفاتٍ من كتاب علميّ عن هذه القضية اللافتة. فاندهشَت ماركيتا لكونها لمْ يسبق أبداً أن سمعت بالموضوع. قلتُ أنْ لا شيء يبعثُ على الاندهاش. فالعِلمُ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

البورجوازي كان يتكتّمُ بقصدٍ طبْعاً على وجود هؤلاء الأقزام، لأنّ الرأسماليّين كانوا يُتاجرون فيهم مثل العبيد.

ولكن، ينبغي الكتابة عن الموضوع! صرختْ ماركيتا. لِمَ لا تتمّ الكتابة؟ سوف تُقدّم، مع ذلك، دليلاً ضدّ الرأسماليّين!

ربّما لمْ يتم ذلك، قلتُ مُتظاهِراً بالتفكير، بسبب الخاصية الدقيقة والحسّاسة نوعاً ما لهذه القضية في مُجمَلها: فقد كان للأقزام قدرات خارقة في المُضاجَعة، لهذا كانوا مطلوبين بإلحاح، وكانت جمهوريتنا تقوم بتصديرهم سِرّاً مُقابل العُملة الصّعبة نحو فرنسا تحديداً، حيث كانت النساء الرأسماليات تتّخذهم خدماً في المنازل، طبعاً لاستغلالهم، في الواقع، بطريقة أخرى تماماً.

كان الرفاق يُغالبون رغبتَهُم في الضحك، لا بسبب المَزحة الخاصّة التي تكلَّفتُ عناءَ صوْغها وإنّما بسبب الاهتمام البادي على ملامح ماركيتا، المُستعِدّة دوماً لأن يتأجّج حماسُها لشيءٍ (أو ضدّه)، كانوا يعضُّون على شفاههم خشية أن يُفسدوا على ماركيتا مُتعة التثقيف، وبعضهم (من بينهم زيمانيك بوَجْه خاصّ) كانوا يضمّون صوتهم إلى صوتي من أجل تأييد معلوماتي عن الأقزام.

ولمّا كانت ماركيتا ترغبُ في معرفة مَنْ كانوا يُشبهون بالضبط، أذكرُ أنّ زيمانيك أكّد، بجدّ، أنّ الأستاذ سيشورا، الذي كان لها ولكلِّ رفاقها في الدراسة شرف رؤيته بانتظام على منبره الجامعي، كان من سُلالة الأقزام، إذا لم يكن من جهة أبوَيْه فعلى الأقلّ من جهة أحدهما. والظاهر أنّ هُول، الأستاذ المحاضر، حكى لزيمانيك أنّه نزلَ، في عطلة من العطل، في الفندق نفسه الذي نزلَ فيه سيشورا وزوجته، اللذان لا يبلغ طولهما معاً مجتمعيْن ثلاثة أمتار. وقد حدَثَ أن دخل غرفتهما ذات صباح، ظانّاً أنّهما استيقظا من النوم،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فبقيَ مبهوتاً، إذ وجدَهُما نائميْن على سرير واحد، لا جنباً إلى جنب ولكن رأساً لقدميْن، كان سيشورا مُنكمشاً عند قدمَي زوجته.

أجل، قلتُ مُعزِّزاً: في هذه الحالة، ليس سيشورا وحده، بل زوجته أيضاً، هُما معاً يتحدّران ما في ذلك شك من سُلالة الأقزام التشيكيّين، ذلك أنّ النوم رأساً لقدمين عادةٌ وراثية عند كلّ أقزام المنطقة، الذين، فضلاً عن ذلك، لم يكونوا في الماضي يُشيّدون أكواخَهم وَفق تصميم دائريّ أو مُربّع، ولكن دوماً وَفق تصميم مُستطيل مُمَدَّد طولاً، إذ ليس الأزواج وحدهم مَنْ كانت لهم عادة النوم رأساً لقدميْن، بل الأبناء جميعهم أيضاً.

كان لديّ انطباعٌ أنّ هذا الحديث العبثيّ، الذي استحضرْتُه في ذلك اليوم الأسْود، كان يُومضُ ببصيصٍ من الأمَل. فزيمانيك الذي كان سيتكفّلُ بحالتي كان يعرفُ أسلوبي في الهزْل، وكان أيْضاً يعرفُ ماركيتا جيّداً، لذلك سوف يفهمُ أنّ البطاقة البريديّة التي بعثتُ بها إليها لم تكن إلّا مجرّد تَصابٍ يهدفُ تنكيدَ فتاة كُنّا جميعاً مُعجبين بها و(بلا شك من أجل هذا السبب تحديداً) نرغبُ في الظّفر بها. لهذا أطلعتُ زيمانيك في أول فرصة على المُصيبة التي ألمّت بي، أنصتَ لي باهتمام وقطّبَ جبينه قائلاً إنّه سوف يرى.

في أثناء ذلك الوقت، كان اهتمامي منصرفاً إلى ما أعيشه في يومي، كنتُ أتابعُ دراستي كما من ذي قبل، مُنتظراً. كنتُ أدْعَى باستمرار للمُثول أمام العديد من لجان الحزب، التي كانت تجهدُ بوجه خاصّ للتثبّت إذا ما كنتُ مُنْضمّاً إلى بعض الجماعات التروتسكيّة، وكنتُ، من جهتي، أبذلُ قصارى جهدي لتوضيح أنني لم أكن إجمالاً أعرفُ ماذا تعني التروتسكية على وجه التحديد، كنتُ أتشبّثُ بكلّ نظرة من الرفاق المُحقّقين، مُتلهّفاً أن أكتشفَ فيها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بَصيصاً من الثقة؛ ولمّا حظيتُ أحياناً بتلك الفرصة، كنتُ قادراً على أن أحملَ معي تلك النظرة، أن أحتفظَ بها طويلاً بداخلي وأن أجعلها بصبر تشِعّ بقبَسٍ من الأمل.

كانت ماركيتا مُستمرّة في تجنّبي. وبما أنني أدركتُ أنّ مَوقفها كان مُرتبطاً بالمسألة التي أثارتها بطاقتي البريديّة، فقد رفضتُ، عن كبرياء وغيظ، أن أسألها عن الموضوع. ومع ذلك، هي مَن أوقفتني ذاتَ يوم في أحَدِ أروقة الكلية، قائلة: «أودّ أن أتحدّث إليك في موضوع».

هكذا، بعد شهور عديدة، خرجْنا معاً من جديد؛ كان الخريفُ قد حلّ، كِلانا كان ملفوفاً في واق من المطر بطولٍ مُبالَغ فيه، على عادةِ ارتدائه في تلك الفترة (فترة انعدام الأناقة بصورة جذريّة)، كان ثمّة رذاذ خفيف وأشجار الرصيف عارية وسوداء. فحكَت لي ماركيتا كيف جرَى كلُّ شيء: في أثناء مُشاركتها، خلال العطلة، في الدَّورة التكوينيّة، دعاها فجأة الرفاق المكلّفون بالإدارة، وسألوها إذا ما كانت تتوصَّلُ برسائلَ مِن أحَد، فردّت بالإيجاب. سألوها عن مصدر تلك الرسائل. أجابت أنّ أمّها كانت تكتبُ إليها. ولا أحد غيرها؟ فقالت إنّ هناك زميلاً في الدراسة. هل يُمكنكِ أن تخبرينا مَنْ هو؟ فصرّحت باسمي. وماذا يكتبُ لك الرفيق جان؟ ردّت بحركة من كتفيْها، لأنّها لم تكن، في الواقع، ترغبُ في ذِكر عبارات بطاقتي البريديّة. هل كتبتِ إليه أنتِ أيضاً؟ سألوها. طبعاً، أجابت. عن أيّ موضوع؟ كما اتّفق، عن الدَّورة التكوينية وغيرها. هل تروقك الدورة التكوينيّة؟ سألوها. أجل، تروقني كثيراً، أجابت. وهل كتبتِ إليه ذلك؟ طبعاً، أجابت. وماذا قال هو بهذا الشأن؟ هو؟ أجابت ماركيتا مُتهرِّبة، أنتم تعلمون، إنّه غريب إنْ كنتُم تعرفونه... إنّنا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نعرفه، قالوا، ونوَدُّ معرفة ما الذي كتبَهُ إليك. هل يُمكنكِ أن تُطْلعينا على بطاقته البريديّة؟

«ينبغي أن لا تؤاخذني، أضافت ماركيتا، لقد كنتُ مُضطرَّةً إلى إطْلاعهم عليها.

- لا داعي للاعتذار، قلتُ لماركيتا، على كلّ حال، لقد اطّلعوا عليها قبْل أنْ تُخبريهم وإلّا ما كانو استدعوْك.

- لا أفكّر إطلاقاً في الاعتذار، فأنا لستُ خجلة من إطْلاعهم على ما كتبت، ينبغي أن لا تُسيء الفهم. فأنت عُضوٌ في الحزب، وللحزب الحقّ في معرفة مَن أنت وكيف تُفكّر»، قالت ماركيتا بعناد. وبعد ذلك قالت إنّها صُدِمتْ بما كنتُ كتبته لها، لأنّنا، في نهاية المطاف، نعلمُ جميعاً أنّ تروتسكي هو أسوأ عدوّ من بيْن كلّ من نعيشُ لأجل مُقاوَمَتهم.

ما الذي كان بمقدوري حقاً أن أشرحَهُ لماركيتا؟ فرجوْتُها أن تواصلَ حكاية ما جرَى.

قالت إنّهم قرؤوا نصَّ البطاقة البريديّة، وأعربُوا عن استغرابهم. وسألوها عن رأيها، فقالت إنّ الأمرَ كان شنيعاً. سألوها لِمَ لمْ تأت من تلقاء نفسها لإطْلاعهم على البطاقة. فردّت بهزّ كتفيْها. سألوها إذا ما كانت تجهلُ قواعدَ الحَذر. فطأطأت رأسها. سألوها إذا ما كانت تجهلُ أنّ للحزب أعداءَ عديدين. أجابت أنّها لا تجهلُ ذلك ولكنها لم تكن تعتقدُ أنّ بإمكان الرفيق جان أنْ... سألوها إذا ما كانت تعرفني جيّداً. سألوها من أكون على وجْه التحديد. قالت إنّني شخصٌ غريب، وهي لا تشكّ في أنني شيوعي صُلب، ولكن كان يحدثُ أن تصدُر عنّي أقوال غيْر مُستساغة إطلاقاً من شيوعي. سألوها عن أمثلةٍ من تلك الأقوال. قالت إنّها لا تتذكّرُ ذلك

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بوضوح، ما تتذكّرُهُ هو أنني لم أكن أحترمُ شيئاً. فقالوا إنّ البطاقة البريديّة كانت تشهدُ بوضوح على ذلك. قالت لهم إنّها غالباً ما كانت تدخلُ معي في خلافٍ حوْلَ أشياءَ عديدة. ثمّ قالت لهُم أيضاً إنني كنتُ أعبّر في أثناء الاجتماعات بطريقة مخالفة عن تلك التي أعتمدُها عندما أكون رفقتها. في الاجتماعات، كنتُ مُتحمِّساً تماماً، بينما لم أكن أكفّ بصُحبتها عن المزاح في كلّ لحظة والسخرية من كلّ شيء. سألوها إذا ما كانت تَعتبرُ أنّ مثل ذلك الشخص يُمْكنهُ أن يكون عضواً في الحزب. أجابت بهزّ كتفيْها. سألوها هل يُمكن للحزب أن يتوصّلَ إلى بناء الاشتراكيّة إن كان أمثال هذا الشخص يُعلنون أنّ التفاؤل أفيون الشعب. قالت إنّ مثل هذا الحزب لا يُمكنه أن يتوصّلَ إلى بناء الاشتراكية. قالوا لها إنّ ما أطلعَتْهم عليه كان كافياً، وإنّ عليها أن لا تُخبرَني في تلك اللحظة بأيّ شيء، لأنهم كانوا يُريدون مراقبة كتاباتي اللاحقة. قالت لهم إنّها لم تعُد ترغبُ إطلاقاً في رُؤيتي. لمْ يُوافقوها الرأي، ونصحوها أن تستمرّ، على العكس، في مُكاتَبتي مُؤقتاً على الأقلّ، حتى تجعلني أبْدي الأشياءَ التي ما زلتُ أخفيها بداخلي.

«وبعد ذلك أطلعْتِهم على رسائلي؟ سألتُ ماركيتا، خجِلاً في عُمْق روحي من ذِكرى تدفّق أحاسيسي.

– ماذا كان بمقدوري أن أفعل؟ قالت ماركيتا. ولم أكن حقاً، فيما يخصّني، قادرةً، بعد ذلك كلِّه، على الكتابة إليك. ثمّ لنْ أكتب إلى شخص بدافع تسخيري للإيقاع به فقط! لذلك بعثتُ إليك ببطاقة بريديّة، وانتهى الأمر. لم أكن أودّ اللقاء بك، لأنّهم منعوني من أنْ أطْلعك على أيّ شيء، وكنتُ أخشى أن تسألني أيضاً، مِمّا كان سيضطرّني إلى الكذب، وأنا أكذبُ دوماً على مضض».

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- سألتُ ماركيتا عمّا قادها، في ظلّ هذه الظروف، إلى لقائي اليوم من جديد.

قالت إنّ ذلك كان بتأثير من زيمانيك. لقد التقاها في اليوم الثاني من انطلاق الدراسة في أحَدِ أروقة الكلية، وأدْخَلها إلى المكتب الصغير، مقرّ سكرتارية تنظيم الحزب في كلية العلوم. وأخبرَها بتلقيه تقريراً يُطْلِعُه على بطاقة بريديّة بعثتُ بها إليها في الدورة التكوينيّة، مُحرَّرَة بعباراتٍ مُعادية للحزب. وسألها عن تلك العبارات، فأطلعَتْه عليها. ثمّ سألها عن رأيها بشأنها، فأعلنت له أنّها تُدين ذلك. وافقَها، وأبْدى انشغاله بمعرفة إذا ما كانت ستستمرّ في علاقتها معي. ارتبكتْ، فقدّمتْ جواباً تسويفيّاً. أخبرَها أنّ تقريراً إيجابيّاً جدّاً عن مشارَكتها في الدورة التكوينيّة وصلَ إلى الكُلية، وأنّ تنظيم الكلية كان ينوي الاعتماد عليها. قالت إنّها مُبتهجة بذلك. وقال لها إنه لم يكن ينوي أن يحشرَ نفسه في أمُورها الشخصيّة، غيْر أنه كان يعتقدُ أنّ الطيور على أشكالها تقع، وبذلك فإنّ تثبيتَ اختيارها عليّ لنْ يشهدَ إطلاقاً لصالحها.

ظلّ ذلك يشغلُ بالَ ماركيتا، حسب اعترافها، لأسابيع عديدة. فقد مرّت بضعة شهور على آخر لقاء بيننا، حتى إنّ تحريضَ زيمانيك غدا في الواقع غير ذي جدوى، بل إنّ ذلك التحريض ذاته هو ما قادها إلى التفكير، وإلى التساؤل إذا لم يكن قاسياً ومرفوضاً أخلاقياً أن ندعو أحداً إلى قطْع علاقته بصديق، لا لشيء إلّا لأنّه ارتكبَ خطأً، وإذا لم يكن إذاً منَ الظلم تخلّيها قبل ذلك عنّي من تلقاء نفسها. لهذا ذهبَت لرُؤية الرَّفيق الذي كان يُديرُ الدَّورة التكوينيّة خلال العطلة، وسألتهُ إذا ما كان مَنْعُهم لها من إطْلاعي عمّا دارَ بشأن البطاقة البريديّة ما زال ساري المفعول، ولمّا أخبرَها أنّه لم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يعُدْ من داعٍ لإخفاءِ أيّ شيء، أوقفتني لتطلب التحدّث إليّ.

وها هي الآن تبوحُ لي بما يُقلقها ويُثقلُ عليها: أجل، لقد أساءت التصرّف عندما قرّرت أن تترُكني، فبعد كلّ شيء، لا أحدَ يُنبَذ وإن ارتكبَ أخطر الأخطاء. وقد تذكّرَت الفيلم السوفياتي **محكمة الشرف** (الفيلم المُبجَّل للغاية في أوساط الحزب آنذاك)، فيه أعطى طبيبٌ باحث سوفياتي الأولوية في الإعلان عن اكتشافه إلى جمهور أجنبي قبْل مُوَاطِنيه، وهو ما وَلّدَ الكوسموبوليتيّة (صفة قدحيّة أخرى شهيرة في تلك المرحلة)، بل الخيانة. كانت ماركيتا تُحيلُ بانفعال على نهاية الفيلم بوجْهٍ خاصّ: حيث وجَدَ الباحثُ السوفياتي نفسَه في الأخير مُداناً من قِبَل محكمة الشرف المكوَّنة من زُملائه، غير أنّ زوجتهُ المُحبّة لم تتخلّ عن الزوج المُهان، بل كانت تسعى إلى أن تبُثّ فيه القوّة ليُصلِحَ خطأهُ الفادح.

وَفق هذا المعنى، قرّرْتِ ألّا تتخلّيْ عنّي، قلتُ لها.

- أجل، قالت ماركيتا، وهي تتناوَلُ يدي.

- ولكن، أخبريني يا ماركيتا، هل تعتقدين ما ارتكبتُه جرماً؟

- أجل، أعتقد ذلك، قالت.

- وهل لي الحقّ، برأيك، في أن أستمرّ في الحزب أم لا؟

- لا أعتقد، يا لودفيك، أنّ لك الحقّ في ذلك.

كنتُ أعرفُ أنني لو انسقتُ وراءَ اللعبة التي ألْقت ماركيتا بنفسها فيها، مُتأثرةً، على ما يبدو، من أعماقها بالجانب المُشفق من هذه اللعبة، لَتَسنّى لي كلّ ما كنتُ أسعى إليه سُدى في الشهور السابقة: ما كانت، بلا أدنى شك، وهي مدفوعة بشغَفِ الإنقاذ مثلما يدفعُ البخارُ سفينة، لتتمنّع عليّ الآن. بشرطٍ واحد طبْعاً، هو إرضاء شغَفها للإنقاذ؛ وكيْ يتحقّق ذلك كان ينبغي لموضوع الإنقاذ (وهو،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

للأسف، أنا شخصيّاً) أنْ يَقبَلَ الاعتراف بفداحةِ جُرمه. والحال أنّ هذا الأمرَ كان مُستحيلاً بالنسبة إليّ. كنتُ على وشك الظفر بجسَدِ ماركيتا، ولكن لم يكن بمقدوري أن أناله بهذا الثمن، لمْ يكن بمقدوري الاعتراف بخطئي وقبول مُحاكمة لا تُحتمل، ولهذا لمْ أستسِغْ سماع شخص كان ينبغي أن يكون قريباً منّي، مُقرّاً بهذا الخطأ ومُوَافِقاً على هذه المُحاكمة.

لمْ أكن مُتّفقاً مع ماركيتا فرفضتُ مساعدَتَها وهكذا فقدتُها، ولكن هل كنتُ أشعرُ بصورة مُؤكَّدة أنّني حقاً بريء؟ صحيح أنّني لم أكُف عن الاعتقاد بالطابع الهزْلي للمسألة بكاملها، ولكنّني في الوقت ذاته بدأتُ أنظرُ إلى العبارات الثلاث لبطاقتي البريديّة بعُيون المُحقّقين معي، وأصبحتْ تلك العباراتُ مصدرَ رُعب بالنسبة إليّ: لربّما كانت تُضمرُ وراء قناعها الخادع شيئاً شديدَ الخطورة، أي أنّني لم يسبق أبداً أن انصهرتُ بكلِّ جوارحي في الحزب، ولم أكن أبداً ثورياً بروليتاريّاً حقيقيّاً، وإنّما «انضممتُ إلى الثوريين» انطلاقاً من قرار «بسيط» (فقد قلتُ إننا كنّا نشعرُ بأنّ الانتماء إلى الثورة لم يكن مسألة اختيار، بل مسألة ماهية، فإمّا أن يكون الإنسانُ ثوريّاً ويُشكّل مع الحركة كُلاًّ، وإمّا ألّا يكون ويرغب فقط في أن يكون كذلك، ولكنّه يعتبرُ نفسه في الخيار الثاني مُذنباً باستمرار في غيريّته).

عندما أفكّرُ اليوم في وضعيّتي وقتذاك، تنبثقُ في ذهني بصورةٍ مُماثلة سُلطة المسيحيّة التي تُذكّر المؤمنَ بها بخطيئته الأساسيّة والدّائمة. هكذا اعتبرتُ نفسي (وهكذا كنّا جميعاً نعتبرُ أنفسنا)، الرأس مطأطأ باستمرار أمام الثورة وحزبها، بحيث أخذتْ تتكوّن لديّ تدريجيّاً فكرة أنّ نصّ بطاقتي لا يقلّ، رغم اعتباري إياه دعابة، عن جنحة، فبدأتْ عناصرُ نقدٍ ذاتيّ تتبلوَرُ في ذهني: كنتُ أقولُ في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نفسي إنّ تلك العبارات الثلاث لمْ تتبادر إلى ذهني صدفة، فقبْل ذلك (لسبب مّا بلا شك) كان الرّفاق يُؤاخذونني على «رواسبَ فردانيّة»، كنتُ أقول إنني أصبحتُ مزهواً كثيراً بنفسي، ناظراً بعيْن الرضا إلى معرفتي وشرْطي الدراسي ومستقبلي الثقافي، ولم يكن من المحتمَل بالنسبة إلى والدي، العامل الذي توفي في المعتقل خلال الحرب، أن يفهمَ وقاحتي، كنت أريدُ لعقليته العمّالية أن تجفّ داخلي. هكذا، مُتَّهماً نفسي بدناءات عديدة، انتهيتُ إلى الاقتناع بضرورة عقاب، فلمْ تعُد جهودي منذذاك مُنصبّة إلّا على: تجنّب فصْلي من الحزب ووصمي، تبعاً لذلك، عدوّاً له، فقد كان يبدو لي مُثبِّطاً أن أعيش عدوّاً مُعترَفاً به لِما كنتُ قد اخترتهُ منذ مُراهقتي وكنتُ حقاً أتمسّكُ به.

كنتُ أبلور هذا النقد الذاتيّ، الذي كان في الوقت نفسه، مُرافَعة استعطافيّة، مائة مرّة في ذهني، ثمّ أمام لجانٍ ومجالسَ مختلفة عشر مرّاتٍ على الأقلّ، وأخيراً قدّمَ زيمانيك، في جمْع عامّ بكُليتنا، عنّي وعن خطئي تقريراً تمهيديّاً (فعّالاً، مُتألقاً، لا يُنسى) قبل أن يَقترحَ، باسم التنظيم، فصْلي من الحزب. النقاش المفتوح الذي تلا نقدي الذاتيّ انقلبَ ضدّي. لا أحد تدخَّلَ لمُؤازرتي، حتى إنّ جميع الحاضرين (حوالي مائة شخص، فيهم أساتذتي وزملائي المُقرَّبون) أجل، جميعُهم رفعوا أيديهم للمصادقة لا على فصْلي من الحزب وحسب، بل (وهو ما لم أكن إطلاقاً أتوَقّعُه) على حرماني من مُتابَعة دراستي أيْضاً.

في ذلك الليل الذي حلَّ بَعْد الجمْع، ركبتُ القطار عائداً إلى بيتي، الذي لم يكن بمقدوره أن يمدّني بأيّ دعم، إذ لمْ أجرؤ، خلال أيام عديدة، على الاعتراف بمُصيبتي لوالدتي التي كانت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

دراستي تجلبُ لها نشوةً حقيقيّة. على العكس، فقد زارَني، منذ اليوم الثاني لوصولي، جاروسلاف، واحد من رفاق الدراسة ومن جوقة السنبالوم التي كنتُ أعزفُ بها عندما كنتُ تلميذاً بالثانوي. كان مبتهجاً بلقائي في البيت: وبما أنّه كان مقبلاً على الزواج بَعْد يوميْن، فقد كان يُريدُني أن أكون شاهدَهُ. كيف السبيل إلى صَرْف صديق قديم؟ لذلك لمْ يبْقَ أمامي إلّا أنْ أحتفلَ بسقوطي عبر بهجةِ زفاف.

كان برنامج جاروسلاف، المُواطن الموارفي الفولكلوري العنيد، أن يستغلّ زواجَه لإرضاءِ شغفه الإثنوغرافي بتنظيم الاحتفال على منوال العادات الشعبيّة القديمة: بدلات محليّة، جوقة سنبالوم، «بطريرك» مُرتّلاً مقاطعَ من النّصوص المزهرة، عروس محمولة بين الذراعين على العتبة. باختصار، كان جاروسلاف قد أعدَّ احتفال اليوم بكامله اعتماداً على الكتُب الفولكلوريّة أكثر من اعتماده على الذاكرة الحيّة. بيْد أنني لاحظتُ مسألة غريبة: معلومٌ أنّ صديقي جاروسلاف، وهو مُنشّطٌ حديث العهد بفرقة غناء ورقص ناجحة على نحو لافت، كان على اطّلاع بكلِّ الطقوس القديمة المُمكنة، غير أنّه (لانشغاله، فيما يبدُو، بمنصبه وميْله إلى الشعارات الإلحاديّة) تجنّبَ ولوجَ الكنيسة مع الموكب وإن كان يتعذر تصوّر زواج تقليديّ بدون كاهن ولا مُبارَكة إلهية. كما أنّه تركَ «البطريرك» يتلو الخطبة المكرَّسة لمثل تلك المناسبات، إلّا أنّه نقّاها بعناية من كلّ مُوَجّهاتها التوراتية وإن كانت هي أساس مُتخيَّل خُطَب الزّواج القديم. وقد جعلني الحُزن، الذي كان يَحُولُ دون أن أتماهَى مع نشوة ذلك الاحتفال الشعبيّ، أدركُ بقايا مُخدّر الكلوروفورم في صفاء تلك الطقوس القديمة. ومع أنّ جاروسلاف رَجاني (توْقاً إلى ذكرى مُشارَكتي الفعّالة في عُرُوضنا الماضية) أن آخذ الكلارينيت وألتحقَ بالعازفين

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الآخرين، إلّا أنني رفضت. فقد تراءت لي، فعلاً، صورتي من جديد وأنا أعزفُ هكذا في الأول من أيار/ مايو للسنتيْن الماضيتيْن وزيمانيك البراغيّ إلى جانبي ببدلته يتقافزُ رافعاً ذراعه يُغنّي. لذلك لم يكن بمقدوري أن آخذ الكلارينيت، وشعرتُ كم كان كلّ ذلك الضجيج الفولكلوري يُثير تقزّزي، يُثيرُ تقزّزي، يُثير تقزّزي. . .

5

بحرماني من حقّ مُتابعة دراستي، فقدتُ امتياز تأجيل النداء عليّ للخدمة العسكريّة، ولمْ يبقَ لي إلّا انتظار إلحاقي بها، وقد شغَلتني قبْل حصوله إقامتان طويلتان ضمن فرق عمل، اشتغلتُ أوّلاً في إصلاح طريق في مكان قريب من غوتوالدوف، وفي نهاية الصيف اشتغلتُ في أعمال موسميّة بمصنع للأطعمة المُعلّبة، ثم أخيراً، بعد ليلة بيضاء في القطار، انتهى بي المطاف، ذات صباحٍ خريفيّ، داخل ثكنة بضاحية مجهولة ومُقزِّزة بأوسترافا.

هكذا وجدتُ نفسي في باحة ثكنة صُحبة مُجنَّدين آخرين تمَّ تعيينهم في الفيلق ذاته. لمْ نكن نعرفُ بعضَنا؛ وفي ظلال ذلك الجهل الأوّل ببعضنا، يصدُر بقسوة عن الآخرين كلّ ما هو فظّ وغريب، الرابط الإنسانيّ الوحيد الذي جمَعَنا كان هو المستقبل السديميّ الذي كنّا نتبادلُ افتراضاتٍ مُقتَضَبة بشأنه. كان مِنْ بينهم مَنْ يزعُم أننا أصبحنا جزءاً من «السّود»، ومنهم مَن كان ينفي، وكان آخَرون يجهلون معنى تلك الكلمة. أمّا أنا الذي كنتُ أعرفُ معناها، فكنتُ أصغي إلى تلك الافتراضات برُعب.

جاء رقيب لاقتيادنا إلى بناية خشبيّة؛ تكدَّسنا في مَمرّ ثمّ اجتزناه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نحو ما يُشبه قاعة كبيرة مُحاطة من كلّ جوانبها بلوحات جدارية تعلوها شعاراتٌ وصوَرٌ فوتوغرافيّة ورسوماتٌ خرقاء، وعلى حاجز بأقصى القاعة عُلِّقت بدبابيس عبارةٌ بارزة للغاية، مقصوصة من ورق أحمر تقول: «نبْني الاشتراكيّة»، وعلى الأرضية تحتها كرسيّ كان يقفُ إلى جانبه عجوزٌ قصيرٌ، عليل. بإشارةٍ عيَّنَ الرّقيبُ واحداً منّا، فكان عليه أن يجلس على الكرسيّ. عقد له العجوزُ قماشاً أبيضَ حول عُنقه، ثم فتّش في كيس مُسندٍ إلى إحدى قوائم الكرسي وأخرج مِجَزّاً غرزَهُ في شَعر الفتى الكثّ.

على كرسي الحلاق انطلقت السّلسلة التي كان عليْها أن تُحوّلنا إلى جنود: من ذلك الكرسي الذي عليه فقدْنا شَعرنا توجَّهنا إلى مكان مُجاور، فيه أرغِمنا على التجرّد تماماً من ثيابنا ولفِّها في كيس من ورق وَجَبَ ربْطه بخيط وتسليمه إلى شبّاك. مجزوزي الرؤوس وعراةً، كنّا نعبُر الممرّ نحو قاعة أخرى لاستلام قمصان النوم، ثم بقمصان النوم كنّا نخترقُ باباً جديداً ونستلمُ أحذية عسكرية نظامية، وبأحذية وقمصان نوم، كنّا نجتازُ الممرّ مصطفّين نحو بناية خشبيّة أخرى، حيث استلمْنا أقمصة، وسراويل قصيرة، وجوارب صوفيّة، وأحزمة وبزّات عسكرية (شارات ستراتِها كانت سوداء!)، ثم انتهيْنا إلى بناية خشبية أخيرة حيث تلا ضابطُ صفٍّ أسماءَنا بصوت مرتفع، ووُزّعنا إلى مجموعات ثم عُيِّنَت لنا المراقد والأسِرّة.

في ذلك اليوم أيضاً، صدَر الأمر بالتجمّع، وبتناول الحساء، وبالذهاب إلى النوم؛ وفي صباح الغد، تمَّ إيقاظنا واقتيادنا إلى المنجم، بوصولنا إليه وُزّعنا عبر مجموعاتٍ إلى فرق عمل، وتمَّ إمدادُنا بأدوات (مطرقة للحفر، مجرفة، ومصباح عمّال المناجم) لم يكن أحد منّا، أو مُعظمنا، يعرفُ كيفية استخدامها، بعد ذلك

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أسْلمَتنا حفرة النزول إلى أعماق الأرض. عندما صعدنا بأجساد مُنهَكة، عملَ ضبّاط الصفّ، الذين كانوا بانتظارنا، على اصطفافنا وقادونا إلى الثكنة، تناولنا وجبة الغداء، لتنطلق بعد الظهر تداريب الاصطفاف العسكريّ، وأعمال تنظيف، وتربية سياسيّة، ونشيد إجباري، ثم أوينا، في ما يشبه الحميمية، إلى المرقد بهياكل أسِرّته العشرين. ثم توالت الأيام على هذا المنوال.

بدا محْوُ الشخصية الذي كنّا نخضعُ له مُعتماً تماماً في الأيام الأولى، فالأعمال غير الشخصيّة والمفروضة التي كنّا نؤدّيها حلّت محلّ سلوكاتنا الإنسانيّة؛ وقد كانت تلك العتمة، النسبيّة طبعاً بوجه تامّ، ناجمة لا عن ظروفٍ واقعيّة فقط ولكن عن اختلال في تعوّد الرؤية أيضاً (مثلما يحدُث عندما ننتقلُ من منطقة مُضاءة إلى غرفة مُظلمة)، وكان لا بدّ مع مرور الوقت أنْ تتبدّدَ العتمة تدريجيّاً على نحو أصبح فيه الإنسانيُّ لدى الأشخاص مُدرَكاً شيئاً فشيئاً حتى في ظلال مَحْو الشخصية. عليّ أن أعترفَ أنني كنتُ آخِرَ مَن تَمَكَّن من تكييف رؤيته مع هذا التحوّل في الإضاءة.

وذلك لأنّ كياني بكامله كان يرفضُ قبول مصيره. الجنود ذوو الشارات السوداء، الذين كنت ضِمنهم، كانوا، في الواقع، يُمارسون تداريب الاصطفاف العسكريّ فقط، ويعملون في أعماق آبار المنجم. وكانوا ينالون أجراً على عملهم (وهو ما كان يمنحهم، من هذه الناحية، امتيازاً مقارنة بباقي الجنود) غير أنّ ذلك كان بالنسبة إليّ عزاءً غيْرَ ذي قيمة إذا أنا فكّرتُ أنّ هؤلاء جميعاً كانت الجمهورية الاشتراكية الفتيّة ترفضُ تسليمَهم بندقية، لأنّها كانت تعتبرُهم أعداء. ومن ثم طبعاً كانت تُعاملهم بقسوةٍ مُبالغٍ فيها، وتهدِّدهم بتمديد خدمتهم أكثر من السنتيْن القانونيّتيْن، ولكنّ ما كان

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يُرعبني أكثر هو، ببساطة، وجودي بين مَنْ كنتُ أعتبرُهم أعدائي الألدّاء، وأن أرسَل إلى هنا بسبب قرار صادر عن رفاقي المقرَّبين. لذلك قضيتُ أيامي الأولى بين السُّود في عُزلة عنيدة، لم أكن أرغب في الاختلاط بأعدائي. أمّا عن الخروج المرّخص له، فكان في تلك الفترة صعباً للغاية (لم يكن للجندي أيّ حقّ فيه، كان يُمنحُ له بوصفه مكافأة)، وبينما كان الجنود يخرجون جماعات في جولة بين الحانات والفتيات، كنت أفضّلُ البقاءَ وحيداً في ركني، غارقاً في سريري بالمرقد، كنتُ أحاول أن أقرأ، بل وأن أدرس (إذ يكفي، فضلاً عن ذلك، قلم وقطعة ورق عندما يكون المرءُ رياضياً)، مُرغِماً ذاتي على عدم الاندماج، معتقداً حينذاك أنّ مهمّتي الوحيدة هي: مُوَاصلة المقاومة من أجل حقّي في «أن لا أكون عدُوّاً»، ومن أجل حقّي في الخروج من هنا.

مرّات عديدة، ذهبتُ للقاء المفوّض السياسي للوحدة، جاهداً في إقناعه أنّ وجودي بين السُّود كان ناجماً عن خطأ، وأنني فُصِلتُ من الحزب بسبب النزعة الثقافيّة والنزوع إلى الوقاحة، وليس لكوني عدواً للاشتراكيّة، كنتُ أشرح له باستمرار (مرّات لا تُحصَى!) قصة البطاقة البريديّة المُضحكة، التي لم يكن ما نجَم عنها مُضحكاً بتاتاً، بل كانت تبدو وهي مشدودة إلى شاراتي السوداء مُريبَة أكثر فأكثر، تبدو كما لو أنّها منطوية على شيءٍ كنتُ أخفيه. وعليّ للحقيقة أن أقرّ، مع ذلك، أنّ المفوّض كان يُصغي إليّ بصبْر، مُبدياً تفهّماً مفاجئاً تقريباً تجاه رغبتي العارمة في التوضيح، وقد انتهى حقاً إلى طرْح السؤال على إحدى الجهات العليا (كم هي غريبة هذه الطوبوغرافيا!) غير أنّه استدعاني، في آخر المطاف، ليقول لي بمرارةٍ صادقة: «لِمَ حاولتَ خداعي؟ أنا الآن أعْلمُ أنّك تروتسكيّ».

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بدأتُ أدركُ أن لا وسيلة لتعديل صورةِ شخصي الصادرة عن غرفة الجنايات العليا للمصائر الإنسانيّة؛ أدركتُ أنّ تلك الصُّورة (وإن تضاءلَ شبَهُها بي) كانت أكثر واقعية منّي أنا نفسي، لم تكن بأيّ حال من الأحوال ظلاً لي، بل أنا مَن كنتُ ظِلّ صورتي، ولم يكن مُمكناً إطلاقاً اتهامها بأنّها لا تُشبهني، بل أنا مَن كنتُ متّهَماً بأنّي لا أشبهُها، وأنّ عدم شبَهي هذا كان، أخيراً، صليبي الذي لا أستطيعُ وضْعه على أحد، كان محكوماً عليّ أن أحمله.

ومع ذلك، لم أكن أريدُ أن أستسلم، كنتُ أريد بحقّ أن أحمل اختلافي عن صورتي: الاستمرار في أن أكون الشّخصَ الذي قرّروا أنني غيرُه.

خمسة عشر يوماً كانت ضروريّة كي أتعوَّدَ، بطريقة ما، على عمل المناجم المُضْني، اليدان مُمسكتان بقوّة بمطرقة حفر ثقيلة كنتُ أشعُرُ باهتزازها يرجّ هيكلي العظمي حتى استئناف العمل صبيحة اليوم التالي. ورغم ذلك، كنتُ أعملُ بصدق وبنوْع من الجنون، كنتُ عازماً على تحقيق حصيلة عمل باهرة، وقد وُفّقتُ لاحقاً في ذلك نوعاً ما.

ولكن، لا أحد كان يرى في عملي تعبيراً عن قناعتي: كنّا جميعاً نحصلُ على أجور مقابل العمل المُنجَز (كان ثمن التغذية والإقامة يُخصَمُ من الأجر، ومع ذلك كنّا نحصلُ على غير قليل من النقود)، وأيّاً كانت آراء البعض، فإنّ الكثيرين كانوا يكدّون كي ينتزعوا على الأقلّ شيئاً مفيداً من تلك السنوات الضائعة.

ورغم أننا كنّا، برأي الجميع، نُعَدّ أعداءَ ألدّاء للنظام، فقد كانت الثكنة تتوفّرُ على كلّ مظاهر الحياة السائدة في التجمّعات الاشتراكية؛ كنّا، نحن أعداء النظام، نقيمُ اجتماعات مُرتجَلة لمدّة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عشر دقائق تحت إشراف المفوّض السياسيّ، نشاركُ في نقاشات يوميّة حول مواضيع سياسيّة، وكان علينا أن نعتني بالجرائد الحائطية، نلصقُ عليها صور رجال الدولة الاشتراكيّين، وبالفرشاة نكتب أعلاها شعارات عن المستقبل السعيد. انخرطتُ، في البداية، في كلّ هذه الأعمال تقريباً. ولكنّ ذلك لمْ يكن يعني لأحد شيئاً: ألم يكن آخرون يُنجزون الأشياء ذاتها كي يُمكّنَهم الرئيس، بعد ملاحظة ما أنجزوه، من فرصة الخروج؟ لا أحد من الجنود كان ينظرُ إلى ذلك النشاط السياسيّ على أنّه كذلك، ولكن باعتباره محاكاة فارغة من المعنى فقط، كان يتوجّبُ إنجازه أمام مَنْ كنّا تحت سُلطتهم.

انتهيتُ إذن إلى استيعاب أنّ ثوريتي كانت وَهْماً، وأنّ اختلافي عن الصورة المُلصَقة بي لمْ يعُد يُدركه غيري، لا يُرَى من قِبَل الآخرين.

من بين ضبّاط الصفّ الذين وجدْنا أنفسنا تحت رحمتهم، كان هناك عريفٌ صغير، أسود الشَّعر، تميّز باعتداله وتحرُّره التامّ من السّاديّة، كنّا ننظرُ إليه بعين الرضا وإن كان بعض الساخرين يزعُمون أنّ طيبته تعودُ إلى غبائه. كان ضبّاط الصف، خلافاً لنا طبعاً، مسلّحين، ويتسنّى لهم أن يخرجوا للرماية بين الفينة والأخرى. وذات يوم، عاد العريفُ الصغير من تمرين الرماية بعد أن نال كامل التشريف لأنّه، حسب ما رُويَ، حصل على الحدّ الأعلى من النقط. كثيرٌ من الجنود أثنَوا عليه (نصفهم بودّ والنصف الآخر بدافع التهكّم)، وقد احمرّ وجْهُ العريف افتخاراً.

في ذلك اليوم، حدثَ بالصُّدفة أن انفردتُ به، وفي غضون حديثي معه، سألته: «كيف يتسنّى لك، على هذا النحو الخارق، تسديد الطلقات بتلك الدّقة؟»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أجاب العريف الصغير بعد أن تفحّصني: «لديّ وسيلة خاصّة. أقول في نفسي: لستُ أمام دريئة من حديد أبيض، وإنّما أمام إمبريالي. حينذاك أطلقُ النار بغضب في العمق!»

كنتُ أودّ أن أعرف أيّ كائن بشَريّ يُمكنُ أن يُجسِّدَه مفهوم الإمبريالي شديد التجريد لمّا استبقَ سؤالي بصوتٍ حادّ وحاسم، قائلاً: «لا أدري ما أصابكم جميعاً لتهتفوا بي. ففي آخر المطاف، إذا اندلعت الحرب فعليكم تحديداً سوف أطلقُ النار!»

عندما سمعتُ ذلك من فم هذا المخلوق سليمِ النية الذي لم يرفع صوتَه ولو مرّة واحدة لتوبيخنا - مما أدّى إلى نَقله فيما بعد - أدركتُ أنّ الخيط الذي كان يربطني بالحزب وبالرفاق أخذ ينزلقُ بصورة نهائية من بين أصابعي. لقد ألقِيَ بي خارج مسار حياتي.

6

أجل. كلّ الخيوط تقطّعت.

ضاعت الدراسة والمشاركة في الحركة التنظيميّة والعمل والصداقات، ضاع الحبّ والتّوق إلى الحُبّ. بكلمة واحدة، ضاع كلُّ ما له معنى في مسار الحياة. لمْ يتبقّ لي غير الزمن. هو، في المقابل، ما تعلّمتُ معرفته بصورةٍ حميمَة كما لم يتأتّ لي أبداً من قبْل. لم يعُد، بالنسبة إليّ، إطلاقاً ذلك الزمن الذي كان حتّى عهد قريب مألوفاً، مُتماهياً مع عملٍ، مع حبّ، ومع كلّ الجهود المُمكنة، زمنٌ كنتُ أرتضيه من غير أن أنتبه، لأنّه كان، هو ذاته، متكتّماً، يمّحي بلُطف خلفَ أفعالي. الآن، كان يأتيني عارياً، كما هو، بمظهره الأصليّ والحقيقيّ، كان يُرغمني على تسميته باسمه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الحقيقي (بحُكم أني أصبحتُ وقتذاك أحيا الزَّمنَ الخالص، أي زمناً فارغاً تماماً) كيْلا أنساه لحظة واحدة، كيْلا يغيب عن فكري أبداً، ولا يفارقني الشّعور المتواصل بثقله.

عندما تنطلقُ موسيقى، نصغي إليها ناسين أنّها ليست إلّا ملمحاً من ملامح الزمن؛ وعندما يتوَقّف عزفُ الجوقة، نصغي إلى الزّمن، إلى الزمن في ذاته. لقد كنتُ أعيشُ وقفةً، ليست طبعاً وقفة عزْفٍ موسيقيّ (حيث تكون مُدّتها مُحدَّدة بوضوحٍ عبْر علامةٍ مُتّفق عليها)، بل وقفة لا حدّ لها. لم يكن بمقدورنا (مثلما كان عليه الأمر في كلّ الوحدات) أنْ نقتطع تدريجيّاً سنتمترَ خياط كي نقفَ على ما نقصَ من سنتيْ خدمتنا العسكريّة؛ لقد كان ممكناً للسّود، فعلاً، أن يُروا مُحتفظاً بهم في المعتقل مدّة طويلة حتى ليعُدّوه جيّداً. فأمبروز، رجلٌ في الأربعين من عمره بالسريّة الثانية، كان هكذا يقضي عامه الرّابع هنا.

كانت الخدمة العسكريّة بالنسبة إلى مَن له في البيت زوجة أو خطيبة أمْراً بالغ المرارة، لأنّ ذلك معناه أن يبقى في ترقّب دائم لوُجودهما الذي لا يُمكنُ التحقق منه. وكان معناه أيضاً الابتهاج دوماً لفكرةِ زيارتهما (النادرة جدّاً!) والتوجّس باستمرار من رفض القائد السماح له في ذلك اليوم بالخروج المُرتقب، ومِنْ أن يكون مثول الزوجة بباب المعسكر سدى. كان السّود فيما بينهم (في فكاهتهم السوداء) يحْكون أنّ الضبّاط كانوا ينتظرُون زوجات الجنود المتعطّشات ويتقرّبون منهنّ كي يَجنوا لاحقاً ثمارَ لذة كان ينبغي أن تكون من نصيب الأزواج المحجوزين بالثكنة.

ومع ذلك، كان هناك، بالنسبة إلى مَن كانت لهم زوجات، خيطٌ يخترقُ الوقفة، لربّما رقيق، لربّما هشٌّ بصورة مُقلقة ومُهدّدٌ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بالتقطّع بسُهولة، ولكنّه خيطٌ على كلّ حال. مثل ذلك الخيط، لم أكن أملكه، كنتُ قطعتُ كلَّ رابطٍ مع ماركيتا، والرسائل القليلة التي كنتُ أتوصّلُ بها كانت تأتيني من والدتي... ولكن، ألم تكن تلك الرسائل خيْطاً؟

نعم؛ ليس البيتُ الذي هو منزلُ الأبوين خيْطاً، إنّه الماضي فقط: البريدُ الذي يَصلكَ من الأبوين رسائلُ قادمة من قارّة أنتَ تبتعدُ عنها؛ والأسوأ، أنّ مثل تلك الرسائل لا تكفّ عن تكرار أنّك تائه، مُذكّرَةً إياك بالمرفأ الذي منه أبْحرْتَ في ظروف جمعتْ جيداً بين الشّرف والجدّ، أجل تقول لك إحدى الرسائل، ما زال المرفأ دوماً هنا، ثابتاً، موثوقاً، جميلاً في ديكوره القديم، ولكن البوصلة، البوصلة ضاعت!

هكذا تعوّدتُ تدريجيّاً على أنّ حياتي تقطّعت، تملّصت من بين يدي، ولم يبقَ لي أخيراً إلّا أن أرتبط، حتى في سريرتي، بالمكان حيث كنتُ فعلاً أوجد، ومن غير جدوى. تدريجيّاً، أخذتْ رؤيتي تتأقلمُ مع تلك الظلال لمَحْو الشخصية، وبدأتُ أميّز ناساً من حولي بصورة متأخّرة مقارنة بالآخرين، لم يكن التأخّر، مع ذلك كبيراً، لحُسن الحظ؛ بحيث لم أصبح بعدُ بالنسبة إليهم شخصاً غريباً تماماً.

أوّل من انبجسَ من تلك الظلال (كما أنّه أوّل مَن ينبثقُ اليوم من ظلال الذكرى) هو هونزا، فتى من برنو (كان يتكلّم لهجة الضاحية غير المفهومة تقريباً) وجَدَ نفسه بين السّود بسبب تعنيفه شرطياً، كان زميلاً سابقاً له في الدراسات العليا ونشبَ بينهما شجار، فضربه، إلّا أنّ المحكمة لمْ تقبل هذا التفسير، فقضى هونزا ستة أشهر في السجن قبل أن يُرسَل مباشرة إلى هنا. وقد كان واضحاً لديه، هو منضّد الآلات الحاذق، أنّ الأمر عنده سيان؛ إن زاوَلَ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لاحقاً مهنته أو مارسَ أيّ شيءٍ آخر. لم يكن متعلّقاً بأيّ شيء، وكان يُظهرُ، فيما يخصّ مستقبَله، لامبالاة مُفعمة بالحريّة.

كان بدريش، وهو الشخص الأكثر غرابة في مرقدنا ذي العشرين سريراً، الوحيدَ الذي يُضاهي هونزا في هذا الإحساس النادر بالحرّيّة، لمْ يلتحق بنا إلّا قبْل شهريْن، إثر التجنيد العادي لأيلول/ سبتمبر، حيث عُيّن في البدء ضمن وحدةِ مُشاة رفضَ فيها بعناد لمْسَ السلاح، لأنّ ذلك كان يتعارضُ مع مبادئه الدينيّة الصارمة، فلمْ يعرفوا كيف يتصرّفون حياله، ولا سيما بعد أن تمّ احتجاز الرسائل التي كان يبعثُ بها إلى ترومان وستالين يُناشدُهما فيها بنبرةٍ مُؤثرة التخلّي عن كلّ الأسلحة باسم التآخي الاشتراكيّ. احتار رؤساؤه في أمره وذهبوا، في البدء، إلى حدّ السماح له وحده وسط الجنود الآخرين بالمشاركة في تداريب الاصطفاف العسكريّ من غير سلاح، فكان يُنَفّذ أمرَيْ: «السلاح على الكتف» و«السلاح على الأرض» بإتقان عالٍ ولكن بيديْن فارغتيْن. كما شاركَ في حِصص التكوين السياسيّ الأولى، مُلحّاً على أخْذ الكلمة خلال النقاش، حيثُ كان يُبدعُ في نقد المُحرِّضين الإمبرياليّين على الحرب، لكن، لمّا أخذ مُبادرة إعداد مُلصَق وتعليقه بالثكنة، حيث دعا فيه إلى التخلّي عن كلّ الأسلحة، تابَعهُ النائب العامّ العسكريّ بتُهمة التمرّد. غير أنّ القضاة احتاروا أمام خُطَبه المُملّة في مدح السِّلم وعرضوه على الطبّ النفسيّ، وتردّدوا طويلاً قبل تبرئته وإرساله حيث نحن. كان بدريش سعيداً: إنّه المتطوِّع الوحيد للشارات السوداء، كان مُبتهجاً لكونه انتزَعها. لهذا كان يشعرُ بحرّيّته هنا أكثر من شعوره بها في بيته، لمْ يكن هذا الشعورُ يُترجَمُ لديه إلى وقاحةٍ كما هي حال هونزا، بل كان على العكس تماماً يتجسَّدُ في سُلوكٍ هادئ وفي ظمأ حقيقيّ للعمل.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الآخَرون جميعهم كانوا قلقين للغاية: فارْغا، ثلاثون سنة، مجَريّ من سلوفاكيا، قادهُ جهْله بالأحكام المسبقة المتعلّقة بالجنسيّة إلى المُشاركة في الحرب مع جيوش عديدة مُتعاقبة، وقد عرفَ مخيّمات اعتقال مختلفة من كِلتا الجبهتيْن؛ وبتران، أصهب، له أخٌ تسلّل إلى الخارج بعد أن صرعَ حارسَ عبور؛ وجوسيف، المتخلّف عقلياً، ابن أحد المزارعين الأغنياء بواد الألب (كان، لتعوّده على الفضاءات الواسعة، يختنقُ الآن من الخوف أمام نفق جحيم الآبار والسراديب)؛ وستانا، عشرون سنة، مُتأنّق، من ضاحية عمالية لبراغ، كافأتْه اللجنة الوطنيّة لحيّه بتقرير ثقيل لأنّه، على ما يبدو، كان مخموراً في موكب الأول من أيار/ مايو وتبوّلَ، فيما بعد، على حافة الرصيف تحت أنظار مواطنين أعجبَهم ذلك؛ وبيتر بيكني، طالب في القانون، توجَّه رفقة بعض زملائه في الدراسة، خلال أيام شباط/ فبراير، للتظاهر ضدّ الشيوعيين (لم يتأخّر في إدراك أنني كنتُ أنتمي إلى الفريق ذاته الذي ينتمي إليه أولئك الذين فصلوه من الكلية في اليوم التالي لشباط/ فبراير، وكان الوحيد الذي يُبدي ارتياحه الخبيث لرُؤيتي الآن مُقتسماً معه المعاناة ذاتها).

يُمكنني أن أستحضر ذكرى آخَرين اقتسموا معي مصيري حينذاك، ولكنني أريد أن أقتصر على الأساس: إنّه هونزا الذي كنتُ أحبّه أكثر، أتذكرُ حديثاً من أحاديثنا الأولى؛ وذلك خلال وقفة قصيرة في المنجم، حيث وجدْنا نفسيْنا جنباً إلى جنب (ونحن نتناول طعاماً خفيفاً)، فضربني على ركبتي قائلاً: «وأنت، أيّها الأصمّ الأبكم، مَن تكون بالضبط؟»، لقد كنتُ حينذاك حقاً أصمَّ وأبكمَ (مُنصرفاً إلى مرافعاتي الداخليّة الدائمة)، فسعيتُ جاهداً إلى أن أشرح له (بعباراتٍ شعرتُ فوْراً بتصنّعها وتكلّفها) كيف جئتُ إلى هنا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ولِمَ ليس لي، أساساً، ما أفعله هنا. فقال لي: «أيّها الغبيّ! ونحن، ما الذي لدينا لنفعله هنا؟». أردتُ مرّةً أخرى أن أعرض عليه وجهة نظري (بالبحث عن كلمات عادية أكثر) عندما قال بهدوء وهو يبتلعُ لقمته الأخيرة: «لوْ كنتَ طويلاً بالقدر الذي هو عليه غباؤك لأحْرَقتِ الشمسُ دماغك». كانت الروح الشعبيّة لأهل الضواحي تَضحَكُ، من خلال تلك العبارة، ساخرةً منّي، وشعرتُ فجأةً بالخزي مِنْ تمسّكي، مثل طفل مُدلّل، بامتيازاتي الضائعة، في حين أنني بنيتُ قناعاتي تحديداً على رَفْض تلك الامتيازات.

بمُرور الوقت، كنتُ أقتربُ من هونزا أكثر (كان يُقدّرني لأنّني كنتُ أعرفُ ذهنيّاً كيف أدبِّرُ بسُرعة كلَّ مسائل الحساب المُرتبطة بالأجور، وتصدّيتُ أكثر من مرّة لاستغفالنا)؛ وذات يوم، سخر من عادتي في المُكوث داخل المعسكر مثل أبله عوض اغتنام إجازات الخروج، واجتذبَني إلى مجموعته. أتذكّرُ جيداً ذلك الخروج، كان عددنا هامّاً، لربّما ثمانية، ضمنهم ستانا وفارْغا ثم سينيك أيضاً، فتى لمْ يُنهِ دراستهُ في فنّ التشكيل (سقط لدى السّود بسبب اللوحات التكعيبيّة التي كان يُصِرّ على رَسْمها بالمدرسة، أمّا الآن فكان، بدافع كسْب امتياز من هُنا وهناك، يُزيِّنُ بقلم فحْميّ كلّ مباني الثكنة برُسوم واسعة لِمُحاربين من أتباع جان هوس بمطارق من حديد ومقابض بكُرات حديد ذات أسنان). لم تكن الأمكنة المُتاح لنا ارتيادُها كثيرة، كان وسطُ مدينة أوسترافا محظوراً، بعض الأحياء هي ما كان مسموحاً به فقط، وداخل هذه الأحياء حاناتٌ بعينها. عندما وصلْنا إلى ضاحية مُجاورة، كان الحظّ حليفنا: فقد كانت هناك أمسية رقص بقاعة كانت في الأصل ملعباً رياضياً قبْل تحويله، موجودة بمنطقة لم تكن ضمن دائرة الأمكنة المحظورة علينا. كان

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عددُ الطاولات والمقاعد وفيراً في القاعة، ولكن الحضور كان قليلاً: إجمالاً، عشر فتيات، وثلاثون رجلاً تقريباً، نصفهم من الجنود القادمين من ثكنة المدفعيّة المُجاورة، ما إن لمَحُونا حتّى تملّكهم الحذر، فانتابَنا شعورٌ حادّ أنهم كانوا يتفحّصوننا ويُحْصون عددَنا. جلسْنا إلى مائدة طويلة شاغرة، وطلبْنا زجاجة من الفودكا، غير أنّ النادلة أعلنت بجفاء أنّ بيْع الكحول كان ممنوعاً، لذلك طلب هونزا ثماني كؤوس من عصير الليمون، ثمّ أمدّه كلّ واحد منّا بقطعة نقدية، وفي غضون عشر دقائق، عادَ محمّلاً بثلاث زجاجات من الروم، سوف تُلطِّف، تحت الطاولة، كؤوسَ الليمون. قمْنا بذلك بتكتّم شديد لأنّ جنودَ المدفعية كانوا يُراقبوننا من قرب، وكنّا نعرفُ أنهم لن يتردّدوا بتاتاً في فضْح تناوُلنا السّريّ للكحول. كانت القوات المسلّحة، لا بدّ من تسجيل ذلك، مُعادية لنا بشدّة: كان أعضاؤها، من جهة، يعتبروننا عناصر مشبوهة، قتلة، مُجرمين، وأعداء مستعدّين في أيّ لحظة (حسب خطاب التجسّس السائد في تلك الفترة) لذبْح أسَرهم المُسالِمة غدْراً، وكانوا من جهة أخرى (وهي هنا بلا شكّ الأكثر أهمية) يُكنّون لنا حقداً لتوَفّرنا على المال وقدرتنا أينما كنّا على أن نتيحَ لأنفسنا أضعاف ما يتيحونه لأنفسهم خمس مرّات.

ذلك فعلاً ما كان يُحدّدُ تفرّدَ وَضْعنا: لم نكن نعرفُ إلّا التعب والعمل، ورؤوسُنا تُحْلقُ كل أسبوعين مخافة أن تنبتَ لنا مع الشَّعر ثقة ناشزة، كنّا المحرومين من الإرث الذين لا ينتظرون أي شيء جميل من الحياة، ولكننا كنّا نتوفّرُ على المال. لمْ يكن كثيراً، ولكنّه ثروة بالنسبة إلى جنديّ برُخصَتيْ خروجه مرّتين في كلّ شهر، كانت تُمكّنه في مناسبة تلك الساعات من الحريّة (في تلك الأماكن القليلة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المسموح بارتيادها) من التصرّف مثل ثريّ، وتعويض العجْز المُزمن للأيام الأخرى التي لا تنتهي.

وبينما كانت جوقة رديئة تعزفُ بأدوات نفخٍ موسيقى الفالس والبولكا لزوجيْن أو ثلاثة يدور كلّ زوج منها حول نفسه في حلبة الرقص، كنا نرنو حسداً إلى الفتيات ونرشف ليموناً بنكهة كحول جعلتنا في تلك اللحظة فوق الآخرين، كنّا بمزاج عالٍ، وكنتُ أشعرُ بألفة مُبهجة تصعدُ إلى رأسي، بارتباط أخويّ قويّ بين الرفاق لمْ أعشه منذ مساهماتي الأخيرة رفقة جاروسلاف في جوقة السنبالوم التي كان يرأسها. في غضون ذلك، كان هونزا قد فكّرَ في خطّةٍ لانتزاع أقصى ما يُمكنُ من الفتيات من المدفعيّين. كانت الخطّة مُمتازة وبسيطة، وانتقلنا فوراً إلى تنفيذها. بدا سينيك، المقدام والمهرّج بطبْعه، الأكثر عزماً على التنفيذ، وكي يُسلّينا أنجَز مَهمّته بتباه: دعا إلى الرّقص فتاةً سمراء، على وجْهها مساحيق بارزة، واقتادها فيما بعد إلى طاولتنا، فسقاها وسقى نفسَه ليموناً بشراب الروم قائلاً بتباهٍ: «إذن اتفقنا!». وافقت السمراء وقرعت كأسها على كأسه. في تلك الأثناء، كان بليدٌ ببدلةِ المدفعيّة وعلى كتفيه شارتا رُتبة عريف مارّاً فتوقّف أمام السمراء، وبأقصى فظاظة في الصوت قال لسينيك: «هل تسمح؟ ردَّ سينيك: تفضّل أيها الصديق القديم!». وبينما كانت السمراء تتململُ على الإيقاع الرديء لموسيقى البولكا مع العريف المُتلهّف، سارعَ هونزا إلى الهاتف لطلب سيارة أجرة، وفي غضون عشر دقائق وصلت السيارة، فتوجّه سينيك ليتسمَّرَ عند بوّابة الخروج، أنْهَت السمراء الرّقص واعتذرت إلى العريف، قائلة أنّها سوف تذهبُ إلى الحمّام، وبعد ثانية سمعنا السيارة انطلقت.

بعد نجاح سينيك، جاء دور أمبروز الذي التقى امرأةً بشيء من

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

النضج قبيحة المظهر (وهو ما لم يمنع أربعة من المدفعيّين من أن يحُوموا حولها باستمرار). وفي ظرف عشر دقائق، وصلت سيارةُ أجرة وانسلَّ أمبروز مع الفتاة ومع فارْغا (الذي كان يزعم ألّا فتاة ترفض أن تتبعه) للالتحاق بسينيك في حانةٍ مُتّفق عليها في الطَّرَف الآخر من أوسترافا. اِثنان مِنّا نجحا أيضاً في استدراج فتاة أخرى، فلم يبقَ منّا إلّا ثلاثة في الملعب الرياضيّ: ستانا وهونزا وأنا. أصبحت نظراتُ المدفعيّين أمام تناقص عددِنا واختفاء ثلاث فتيات من ساحة صيْدهم، عدوانيّة أكثر فأكثر. ورغم تظاهرنا بالبراءة، فقد أحسَسْنا أنّ الجوَّ كان يُنذرُ بالمُشاجَرة. «والآن سيارة أجرة أخيرة من أجل تراجُعٍ مُشرِّف»، قلتُ وأنا أرنو بشوْق إلى شقراء تمكّنتُ من مُراقصتها في بداية السهرة من غير أن أجرؤ على دعوتها إلى مُرافقتي، كنتُ أعدّ لذلك في الرّقصة الثانية، غير أن المدفعيّين، على ما بدا، أحاطوا بها، حيث استحال عليّ الاقتراب منها. «لا جدوى من الإلحاح»، قال هونزا، ونهضَ نحو الهاتف، إلا أن المدفعيّين غادروا طاولاتهم عندما كان يعبُر القاعة وأسرعوا في تطويقه. أجل كان ظلُّ المُشاجرة مُرتسماً ولَمْ يبق لها إلّا أن تنشب، فلم يكن أمامنا، ستانا وأنا، سوى مغادرة الطاولة لمُؤازرة الرّفيق المهدَّد. حاصرتْ مجموعة من المدفعيّين هونزا من غيْر أن ينبسوا بكلمة واحدة عندما اقتحم من بينهم مساعدٌ عسكريّ نصف مخمور (لا شكّ أنه كان يتوَفّر هو أيضاً على زجاجة تحت الطاولة) مُكسِّراً هذا الصمت المُقلق، حيث شرع في إلقاء خطبة أخلاقيّة، قال إنّ أباه كان عاطلاً عن العمل قبْل الحرب، ولم يعُدْ هو يحتملُ رؤية هؤلاء البورجوازيّين القذرين مزهوين بشاراتهم السوداء، وقد ضاقَ في الأخير بهم ذرعاً، وعلى الرفاق أن يحرسوه لأنه سوف يُسدّدُ لكمة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إلى وجه هذا الذي أمامه. استغلّ هونزا صمتاً قصيراً في خُطبة المساعد العسكريّ ليسألَ بأدب عمّا يريدُه الرفاق المدفعيّون منه. أن تبتعدوا من هُنا على وجه السّرعة، قالوا، وهو ما أجاب عنه هونزا بقوله إن ذلك بالضبط ما كنّا ننوي القيام به، على أن يسمحوا له بالاتصال بسيارة أجرة! في تلك اللحظة، بدا المساعدُ العسكريّ كما لو أنّه سيُغمَى عليه، فصرخَ بصوتٍ شديد الحدّة: أبناء القذارة، أبناء القذارة، نحن نتضوّع جوعاً، نرهقُ أنفسنا، ولا مال لنا، بينما هم الرأسماليون، المخرِّبون، الأنذال، تستقلّهم سيارات الأجرة، كلّا لن يكون ذلك، الأوْلى خنقهم بيدي هاتيْن، لن يغادروا على سيارة أجرة.

غرق الجميع في المُشاجرة، واختلط الجنود بمن كانوا بلباس مدنيّ وبعمّال المنشأة الذين كانوا يخشون وقوع حادث. في تلك الأثناء، لمحتُ فتاتي الشقراء التي بقيت وحيدةً على طاولتها (غير مكترثة للنّزاع) قد نهضتْ لتتوجّه إلى الحمّام، فتسلّلتُ من التجمّع، وعلى المدخل حيث مستودع الملابس ودورات المياه (لم يكن ثمّة أحد غير المستخدمة)، توجَّهتُ إليها بالكلام، كنتُ كمَن يُلقي بنفسه في الماء وهو يجهلُ السباحة، كان عليّ، ارتبكتُ أم لم أرتبك، أن أتصرّف، فتَّشتُ في أحد جيوبي وأخرجتُ أوراقاً عديدة مدعوكة من فئة مائة كورون، وقلتُ لها: «ألا تعني لك هذه الأوراق شيئاً كي ترافقينني؟ سوف نتسلّى أحسن في مكان غير هذا!»، تطلّعَت إلى الأوراق وهزّت كتفيْها. ثم أضفتُ أنني سوف أنتظرها خارج المنشأة، وافقتْ، وتوارت داخل دورات المياه، وسرعان ما خرجَت وهي ترتدي معطفاً، ابتسمتْ لي وأكّدت فوراً أنني كنتُ أبدو مختلفاً عن الآخرين. راقني هذا القول، ودسستُ ذراعي تحت ذراعها ثم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قدتها إلى الجانب الآخر من الزقاق، وبأقصى زاوية فيه بقينا نترقّبُ خروج هونزا وستانا إلى باب الملعب الرياضي المُضاء بفانوس وحيد. سألتني الشقراء إذا ما كنتُ طالباً بالجامعة، وبما أنني أكّدتُ لها ذلك، فقد أسرّت لي أن نقوداً سُرقت منها أمس بمستودع ملابس مرقصها لم تكن ملكاً لها، بل للمصنع، وأنّها كانت يائسة لأنّها قد تتعرّضُ بسبب ذلك إلى المحاكمة، ثمّ سألتني إن كان مُمكناً أن أعيرها مائة كورون، فتّشتُ في جيبي ومنحتُها اثنتيْن مدعوكتيْن تماماً.

لم ننتظر طويلاً حتى ظهرَ الرفيقان (بقبّعة ومعطف عسكريّ). صفّرتُ في اتجاههما، ولكن ثلاثة جنود من الآخَرين برزوا في تلك اللحظة نفسها (بلا قبّعات ولا معاطف عسكريّة) في إثرهما. ميّزتُ النبرة المهدِّدة لأسئلةٍ لم تكن كلماتها مفهومة بالنسبة إليّ، ولكنني خمّنتُ معناها، فقد كانوا يبحثون عن فتاتي الشقراء. ثمّ انقضّ أحدُهم على هونزا وانطلقت المُشاجرة. أسرعتُ بدوري نحوهم، وبما أنّ ستانا قد تكفّل بواحد من المدفعيّين، فإنّ هونزا كان في مواجَهة اثنيْن، وقد كانا على وشك إسقاطه عندما وصلتُ لحُسن الحظ في الوقت المُناسب لأسدِّد ضربة إلى أحد المهاجميْن. لقد عوَّلوا على تفوّقهم العدديّ، غير أنّ حماسَهم الأوّل تلاشَى ما إن تساوَى العدد، ولمّا انهار أحدُهم تحت ضربة مُحكمة من ستانا، اغتنمْنا ذهولهم كي نلوذ بالفرار.

طيّعة كانت الشقراء في انتظارنا عند الزاوية. برؤية الرفيقيْن لها، هتفا بأني داهية وودّا حقاً تقبيلي. أخرجَ هونزا من تحت معطفه زجاجة من الرّوم مُفعمة (لم أفهم كيف وُفّقَ في إنقاذها خلال المُشاجرة) ورفَعها عالياً. كنّا في وَضْع مُمتاز ما عدا أننا لم نكن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نعرف إلى أين نذهب: فقد طُردنا من حانة، وولوج حانات أخرى كان محظوراً علينا، ومنعَنا منافسون غاضبون من ركوب سيارة أجرة، وبقينا، حتى خارج الحانات، تحت رحمة حملة تأديبيّة مُحتمَلة. ابتعدنا، على وجه السرعة، عبر زقاق كانت تحفّه في البدء منازل من جانبيْه، بعد ذلك لم يكن في جانب منه غير سور وفي الجانب الآخر حباكات، قرب أحدها كان يظهرُ جانب من عجلة، وعلى بُعد قليل منها هناك ما يُشبه آلة زراعيّة بمقعد حديد. «إنّه عرشٌ»، قلتُ، وفوقه، أعلى من الأرض بمتر واحد تحديداً، أجلسَ هونزا الشقراء. كانت الزجاجة تمرُّ من يد إلى يد، كنّا نشربُ نحن الأربعة، وأصبحت الشقراء ذلقة اللسان فتحدَّثْ هونزا قائلة: «أراهنُ على أنك لنْ تمدّني بمائة كورون!»، أمدّها السلطان الكبير هونزا بورقة من فئة مائة كورون، وفي أقلّ من دقيقتيْن كانت الفتاة قد نزعَت ثلاثة أرباع ثيابها ورفعتْ تنّورتها، وبعد لحظة نزعتْ سروالها الداخلي. أخذتني من يدي وسَعَت إلى اجتذابي نحوها، غير أني كنتُ مُرتبكاً فتملّصتُ منها ودفعتُ بدلاً مني ستانا الذي أخذ مكانه، بلا أدنى تردّد، بين ساقيْها. بالكاد مَكثا معاً عشرين ثانية؛ أردتُ بعد ذلك أن أتراجع مرّة أخرى أمام هونزا (كنتُ أحرص على أن أتصرّف مثل مُضيف، وكان الارتباك، من ناحية أخرى، يتملّكني باستمرار)، إلّا أن الشقراء هذه المرّة قامت بحركة آمِرة وحاصرَتني بجسدها، وعندما استيقظَت رجولتي، بعد لمساتٍ مُشجِّعة، همستْ في أذني بحنان: «من أجلك أنا هنا أيّها الأبله الكبير»، ثمّ أخذت تتأوّهُ بحيث شعرتُ فجأةً أنّها كانت بحقّ فتاةً حنوناً تحبّني وأحبّها، ثمّ استمرّت في التأوّه، وكنتُ مُنهَمكاً إلى اللحظة التي تلفّظ فيها هونزا ببذاءةٍ، حيث تنبّهْتُ أنّها لم تكن الفتاة التي كنتُ أحبّها، فابتعدتُ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عنها بفظاظة شديدة من غير أن أصلَ إلى النهاية، حتّى إنّ الشقراء أصيبت تقريباً بالخوف وقالت: «ما الذي تفعله؟»، ولكن هونزا كان الآن إلى جوارها وانطلقت التأوّهات من جديد.

في تلك الليلة، لم نعُد إلى المُعسكر إلّا في حدود الثانية صباحاً. وكان يتوجّبُ علينا أن نستيقظ عند الساعة الرابعة والنصف لِعمل يوم الأحد التطوّعيّ، الذي كان يجلبُ مكافأةً لقائدنا ويُؤمِّنُ لنا خروجاً يوم السبت من كلّ أسبوعيْن. كنّا نُعاني من نقص في النوم، وأجسادنا كانت منهَكة من الإفراط في الشرب، ورغم رخاوةِ حركاتِنا الشبحيّة في الضوء الخافت للسرداب، كنتُ أستحضرُ بلذةٍ السهرة التي قضيْنا.

بعد أسبوعيْن من ذلك، كانت السهرة أقلّ تألقاً؛ لسببٍ ما حُرم هونزا من إجازة الخروج، فمضيتُ صُحبة رفيقيْن من فيلق آخر كنتُ أعرفهما بصورة ضبابيّة جدّاً. ذهبنا (ونحن سكارى تماماً أو تقريباً) لرؤية امرأة طيّبة لُقبَت بـ«عمود الكهرباء» بسبب طولها المُرعب. كانت فظيعة، ولكن لم يكن من خيار أمامنا، فالدائرة الأنثوية التي كان بمقدورنا التحرّك فيها ضيّقة للغاية، والسبب بوَجْه خاصّ قلّة أوقات فراغنا. لذلك كانت ضرورةُ اغتنام الجنود لِلَحظاتِ حريّتهم (القصيرة جدّاً والممنوحة بصورة نادرة) بأيّ ثمن، تقودهم إلى تفضيل المُتاح على المُمكن احتماله. ومع مرور الوقت وبفضْل الاستكشافات التي كنا نتبادل الحديث عن نتائجها، تكوّنت شبكة (رديئة للغاية) من هؤلاء النساء المُتاحات تقريباً (وبالكاد تُحتمل بلا شك) بقصْد تقاسُم مُعاشرتهنّ.

كانت «عمود الكهرباء» جزءاً من هذه الشبكة المشترَكة، وهو ما لم يكن إطلاقاً يُضايقني، وعندما أخذ الرفيقان يُطلقان دعابات عن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قامَتِها الخارقة، مُكرِّرين خمسين مرّة أنّ علَيْنا أن نعثرَ على آجُرّة نضعُها تحت أقدامنا عندما يحينُ وقت الفِعل، شعرتُ بتلك الدعابات كما لو أنّها مُمتعة بغرابة: لقد كانت توقظُ رغبتي القويّة في امرأة، أيّ امرأة؛ بل كلّما تضاءَلَ تمييزُها وتضاءل أن يكون لها روح، كان أحسن، والأفضل إن كانت امرأة بلا تحديد.

ومع أنني شربتُ كثيراً، فإنّ رغبتي المسعورة انطفأت لمّا رأيتُ الفتاةَ التي كنّا ندعوها «عمود الكهرباء». بدَا لي كلُّ شيء مُقزِّزاً وعبثيّاً، وبما أنني لم أكن صحبة هونزا ولا ستانا ولا أحد مِمّن كنتُ أستلطفهم، فقد غرقتُ اليوم التالي في سكرة سمّمَت بصورةٍ استعاديّة مغامَرة الأسبوعيْن السابقيْن، فأقسمتُ ألّا أسعى أبداً وراء فتاةٍ على مقعد حديد لآلة زراعيّة ولا إلى «عمود كهرباء» سَكرَى...

أهو مبدأ أخلاقيّ انتعشَ بداخلي؟ كلا، لقد كان مُجرّد تقزّز. ولكن، ما سبب هذا التقزز بعد أن كانت لديّ، قبل ساعات قليلة، رغبة قويّة في امرأة، القوّة المسعورة لتلك الرغبة التي ارتبطت لديّ تحديداً بلا مبالاتي بمَن تكونُ تلك المرأة، هل كنتُ مُرهفاً أكثر من الآخرين وأتقزّزُ من العاهرات؟ كلا، لقد استولى الحُزن عليّ.

حُزنُ أن أدرك أنّ المغامرات التي عشتها مُؤخّراً لم تكن متفرّدة بشيءٍ يُميّزها، لم أخترها عن ترَف أو نزوة أو توق متأجّج لمعرفة كلّ شيء واختبار كلّ شيء (الرفيع والوضيع)، بل أصبحت هذه المُغامرات الشرط الأساس والاعتيادي لوجودي الرّاهن. كانت تُحاصرُ بصرامة مجالَ إمكاناتي، ترسُمُ بخطّ مُحدّد أفقَ حياتي العاطفيّة التي تَقرَّر منذ ذاك مصيرُها. كانت تُعبّرُ لا عن حريتي (مثلما كانَ مُمكناً تصوّر هذه المُغامرات لو قيّض لي اختيارها سنة من قبل)، بل عن حتميتي، وعن حدودي، وعن حُكمِ إدانتي. فشعرتُ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بالخوف، الخوف من هذا الأفق الشنيع، ومن هذا المصير. كنتُ أشعرُ بروحي تتقوْقعُ على نفْسها، كنتُ أشعُر بها تنحسِرُ، فأرعبَتني، أمام هذا الطوق، فكرة ألّا يكونَ ثمة ملاذ للفرار.

7

كلّنا أو أغلبُنا كان يُدركُ الحُزنَ الذي كان ينبعثُ من الأفق الشنيع لحياتنا العاطفيّة. كان بدريش (مُؤلِّف بيانات السِّلم) يحرصُ على التخلّص من هذا الحُزن في أعماق تأمّلاتِه الباطنيّة حيثُ كان إلههُ الصوفيّ يُقيمُ، على ما يبدو. وقد كان هذا التأمّل الباطنيّ الورع يستجيبُ، في المجال الشبقي، لنزوة الاعتزال التي كان يُمارسها بصرامة طقوسيّة. أمّا الآخرون فانتظَموا في مواجَهةٍ أكثر خداعاً: كانوا يُتمّمون وقاحة صيْدهم للعاهرات باستعادةِ أقصى العواطف الرومانسيّة المتأجّجة، كان لدَى بعضهم في البيْت حُبٌّ يشحذونه هنا بقوّةِ الاستعاداتِ المُركّزة إلى أن يشعّ ببريق وهّاج، وكان بعضهم يُؤْمن بالوفاء والانتظار الوفيّ، وبعضهم كان يحكي لنفسه سِرّاً أنّ الفتاةَ التي اصطادَها سكرانة في إحدى الحانات كانت تتوَقّدُ حماسة من أجْله. وفي مناسبتيْن، تلقّى ستانا زيارةَ فتاة من براغ، كان تعرّفَ إليها قبْل خدمته بوقتٍ قليل (ولم يكن بكلّ تأكيد يُفكّر فيها حينذاك بصورة جدّية)، ثم فجأة، وبكامل الحنان الذي ألـمَّ به، قرّرَ أن يتزوّجها على الفور. ومهما قال بأنّه كان يقومُ بذلك بسبب يَوميْ الإجازة المُرخّص بهما في مثل هذه المناسبة فقط، فقد كنتُ أعرفُ أنّ كلامه لـمْ يكنْ إلّا مجرّد أقوال أريد لها أن تكون سفيهة. حدثَ ذلك في الأيام الأولى من آذار/ مارس، ومنحَه القائد فعلاً إجازةً

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لمدّة ثماني وأربعين ساعة، فسافرَ ستانا لعقد قرانه ببراغ يوميْ السبت والأحد. أتذكّرُ ذلك جيّداً، لأنّ يومَ زواج ستانا كان بالنسبة إليّ أيضاً يوماً بالغَ الأهمّية.

حصلتُ على ترخيص في الخُروج، وبما أنني كنتُ مُغتمّاً منذ آخر إجازة أضعْتُها مع «عمود الكهرباء»، فقد تجنّبتُ الرفاق ومضيتُ وحدي. ركبتُ كما اتفق من غير تحديد وجهةٍ بعيْنها قطاراً مُتعرِّج الخطّ، هو تراموايٍ قديم ذو سكّة ضيّقة يربط بين أحياء أوسترافا المتباعدة. نزلتُ بعد ذلك على سبيل الصدفة لآخذ على سبيل الصدفة أيضاً خطّاً آخر. كان كلّ ذلك المحيط الأوسترافي اللانهائيّ، حيث تمتزجُ على نحو غريب المصانعُ بالطبيعة، والحقولُ بمطارح الأزبال، والأشجارُ بأنقاض المناجم، والعماراتُ الضخمة بالبيوت القرويّة الصغيرة، يجتذبُني ويُحْدثُ لديّ اضطراباً بطريقة خارقة. ثم انطلقتُ، بعد أن غادرتُ الترام نهائياً، في نُزهة طويلة: فيها كنتُ أتأمّلُ بنوْع من الشَّغف هذا المشهدَ الغريب جاهداً في فهْم معناه، كنتُ أبحثُ عن تسميةٍ لِما يُضفي على هذه اللوحة المُتنافرة نسقيّة وتنظيماً، فقد تنبّهتُ بمروري قرب منزلٍ ساحرٍ مُغطّى باللبلاب إلى أنّ ما جعلَ هذا المنزلَ في مكانه الحقيقيّ هو تنافرُه تماماً مع الواجهات العليا المُبقّعة المُنتصبة بجواره ومع ظلال السقائف والمداخن والأفران العالية التي كانت تُشكّل خلفيته، وتمشيتُ بجانب أكواخ من الصفيح فلمحتُ أبعد منها قليلاً فيلاّ كانت فعلاً مُتّسخة ورماديّة ولكنها محاطة بحديقة وسياج، وفي زاوية الحديقة صفصافة مُتدلية الأغصان كانت تبدو ضائعة في هذا المشهد، ومع ذلك قلتُ في نفسي إنّ ذلك على وَجْه التحديد ما كان يجعلها في مكانها الحقيقيّ. أحْدَث هذا التنافرُ اضطراباً لديّ، لا لأنّه بدا لي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مثل قاسم مشترك لكلّ عناصر المشهد فقط، بل أساساً لأنني رأيتُ فيه صورةَ مصيري الشخصيّ، وصورةَ منفاي هنا. ومن الطبيعيّ أنّ إسقاطاً مُماثِلاً لقصّتي الشخصيّة على الطابع المحسوس لمدينةٍ بكاملها كان يُمدّني بنوع من العزاء، فقد كنتُ أدركُ أنني لا أنتمي إلى هذه الأمكنة مثلما لم تكن تنتمي إليها هذه الصفصافة المُتدلية الأغصان ولا البيت الصغير المغطّى باللبلاب، كما لم تكن تنتمي إليها هذه الأزقة الضيقة التي لا تؤدّي إلى أيّ مكان، أزقة مكوّنة من بنايات متنافرة. لم أكن أنتمي إلى هذه الأمكنة، التي كانت سابقاً مُبتهجة بطابعها القرويّ ولا إلى هذه الأكواخ الوَطئة البشعة، وتنبّهتُ إلى أنّ كوني لا أنتمي إليها هو ما جعَلها مكاني الحقيقيّ في متروبول التّنافرات المروّع هذا، في هذه المدينة حيثُ كان العناق العنيد يصِلُ بين الأشياء الغريبة عن بعضها.

وجدتُ نفسي في شارع رئيس لبيتركوفيس، قرية قديمة أصبحت اليوم واحدة من أقرب ضواحي أوسترافا. توقفتُ بجوار بناية ثقيلة بطابق واحد، بزاويتها كانت تبرزُ عموديّاً كلمة: سينما. فعنَّ لي سؤالٌ تافه لا يمكنُ أن يطرَحَه إلّا متسكّع: ما الذي يجعلُ هذه السينما بدون اسم؟ أمْعنتُ النظر، ولكن لم تكن ثمة أيّ كتابة أخرى على البناية (التي لم تكن، فضلاً عن ذلك، تُشبهُ في شيء قاعة سينما). بين البناية والمنزل المُجاور لها فضاءٌ من متريْن تقريباً كان يُشكّلُ زقاقاً. منه عبرْتُ إلى باحة، وفيها فقط كان يُلاحَظ أنّ للبناية جناحاً من الخلف في الطابق الأرضيّ، وعلى الجدار واجهات بها ملصقات إشهاريّة وصور أفلام، دنوتُ منها، غيْر أنّ اسم السينما لم يكن مُثبتاً هنا أيضاً، رجعتُ على عقِبي، وعبْر سياج فاصل لمحتُ صَبيّة في الباحة الصغيرة المُجاورة. سألتُها عن اسم السينما،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

صدرت عن الصَّبية نظرة اندهاش وأجابت أنها لا تعرف، فسلّمتُ إذاً أنّها كانت بلا اسم، ففي هذا المنفى الأوسترافيّ ليس مُمكناً لقاعات السينما حتى أن تحملَ اسماً.

عدتُ (بدون قصد مُحدَّد) إلى الواجهات، وحينها تنبّهتُ فقط إلى أنّ الفيلم الذي كان يُعلنهُ ملصَقٌ وصورتان فوتوغرافيّتان هو الفيلم السوفياتي **محكمة الشرف**. الفيلم الذي استحضرَتْ ماركيتا بطلتَه لمّا تملّكت الرغبة ماركيتا في أن تلعب داخل حياتي دورَ الشفقة الكبير، وهو أيضاً الذي أحالَ الرفاقُ على قسوته خلال محاكمة الحزب لي، كلّ ذلك نفّرني من هذا الفيلم، بحيث لم أكن أريد إطلاقاً سماع الحديث عنه، ومع ذلك ها أنا، حتى في أوسترافا، لمْ أسْلم من سبّابته المُتّهِمة... وماذا إذاً؟ عندما يُرفع أصبع لا يرُوقنا، يكفي أن نُدير له ظهورنا. وهو ما قمتُ به: كنتُ أودّ أن أعود إلى الشارع.

حينذاك، رأيتُ لوسي للمرّة الأولى.

كانت تسيرُ في اتجاهي، مُوشكة على دخول باحة السينما. لِمَ لمْ أواصل طريقي لمّا تقاطعْنا؟ أكان ذلك بسبب الخمول الغريب لتسكّعي؟ أكان ضوءُ الباحة الغريب لنهاية الظهيرة هو ما أخّرني ومنعني من العودة إلى الشارع؟ أم كان ذلك بسبب مظهر لوسي؟ ومع ذلك، فقد كان مظهراً عادياً تماماً، وإذا كان هذا العادي فيه هو ذاتُه ما حرّكني واجتذبني فيما بعد، فكيف أفسّرُ استيقافها لي في الوهلة الأولى؟ ألمْ أصادف مراراً فتياتٍ عاديات مثلها على الأرصفة بأوسترافا؟ أم أنّ الطابع العادي فيها كان خارقاً؟ لا أدري. على كلّ حال، فقد بقيتُ مُتسمّراً في مكاني أنظرُ إلى الفتاة: كانت تتجه بخطى وئيدة، آخذةً كامل وقتها، نحو الواجهة العارضة لصور فيلم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

محكمة الشرف، ثمّ بتأنٍّ دوماً ابتعدَت واجتازت الباب المفتوح الذي يُؤدّي إلى شبّاك التذاكر. أجل، لقد كان بطءُ لوسي الفريد هو بلا شكّ ما سحرَني تماماً، بطءٌ مُشعّ بشعور مُسلِّم أنْ ليس هناك هدفٌ يستحقّ الاستعجال من أجله، وأنّ من غير المُجدي مدّ يديْن متلهّفتيْن نحو شيءٍ ما. أجل، لربّما كان ذلك البطءُ المفعَمُ بالحُزن هو في الحقيقة ما أرْغَمني على مُتابعة الفتاة بنظري عندما كانت تتّجهُ إلى الشبّاك، وتُخرج النقود، وتقتني تذكرة، وتُلقي نظرةً على القاعة ثمّ تعود إلى الباحة.

لم تفارقها عيناي. ظلّت واقفة وهي تُديرُ ظهرها، سارحة ببَصرها بعيداً، ما وراء الباحة الصغيرة والحدائق ومنازل المُزارعين المحاطة بحباكات صغيرة حتّى حدود مقلع مائل إلى السواد كان يُكسِّرُ في الأعلى أفق النظر. (أبداً لن أنسى تلك الباحة ولا أيّ تفصيل فيها، أتذكّرُ السياج الذي كان يفصلها عن الباحة المجاورة حيث كانت صبيّة تحلم فوق دَرَج المنزل، أتذكّرُ ذلك الدّرَج الذي كان يحفّه جدارٌ صغير يحمل درَجه أصيصيْ زهور فارغيْن ودستاً رماديّاً، أتذكّرُ الشمسَ دخناءَ مائلة على مستوى المقلع).

كانت الساعة تشيرُ إلى السادسة إلّا عشر دقائق، وهو ما كان يعني أنّ هناك عشر دقائق أخرى قبل انطلاق مُشاهدة الفيلم. استدارت لوسي وبتأنٍّ غادرت الباحة نحو الشارع، فمشيتُ في إثرها، كانت لوحة باديةِ أوسترافا الخربة تنغلقُ خلفي من جديد وينفتحُ أمامي زقاق مدني، وعلى بُعد خمسين خطوة كانت تمتدُّ ساحة صغيرة مُعتنى بها بدقة، فيها مقاعد عديدة وحديقة صغيرة، ويلمع فيها بخفوت الآجُرّ الأحمر لبناءٍ قوطي مُزوّر. كنتُ أنظرُ إلى لوسي: كانت جالسة على مقعد، من غير أن تتخلّى ولوْ لحظة عن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بُطئِها، حتى أوشكتُ أن أقول إنها كانت جالسةً ببُطء، لم تكن تنظرُ حولها، ولم تكن تصدرُ عنها أيّ حركة، جالسة مثلما هي الحال عند لحظة التهيّؤ لعمليّة جراحيّة أو لشيء من شدّة انجذابنا إليه ننفصلُ عمّا يُحيطُ بنا ونركّز اهتمامَنا على دواخلنا، ولربّما كان هذا الظرف يُخوّلُ لي القدرةَ على الطواف حولها وفحْصها من غير أن ترتاب في ذلك.

يتمّ الحديث بطيب خاطر عن حُبِّ النظرة الأولى؛ ومع أنّي على وعي تامّ بأنّ الحُبّ ينزعُ إلى خلقِ أسطورته الذاتيّة وإلى أسْطرَةِ بداياته لاحقاً، وأحتاطُ كذلك في الإقرار بأنّ الأمر كان يتعلّقُ بحُبٍّ خاطف، إلّا أنّه انطوَى هذه المرّة حقاً على نوع من الفراسة: فجوْهرُ لوسي أو - إن تعيّن عليّ تحرّي الدّقة - جوهرُ ما أصبحَتْ لوسي تُمثله بالنسبة إليّ استوعبتُه وشعرتُ به مُباشرة منذ النظرة الأولى، فجوْهرُها هو ما كشفَتْهُ لي لوسي كما تُكشَفُ الحقائق الخفيّة.

كنتُ أنظرُ إليها، أنظرُ إلى تسريحَتها القرويّة التي كانت تفرقُ شعرها إلى كتلة بلا شكل من التجعيدات، أنظرُ إلى معطفها البُنّي الصغير، البائس، الرثّ، بل هو تفاهة مفرطة في القصر، أنظرُ إلى وجْهها الجميل بتكتّمه والمتكتِّم بجماله، كنتُ أشعرُ أنّ لدى هذه الفتاة هدوءاً وبساطة وتواضُعاً، وشعرتُ أنّها القِيَم التي كنتُ بحاجة إليها، وبدا لي أننا كنّا فضلاً عن ذلك متقاربيْن جدّاً، بدا لي أنّه يكفي أن أقتربَ منها وأن أتحدّث إليها، وفي اللحظة التي (أخيراً) تنظرُ فيها إلى عيني، سوف تبتسمُ كما لوْ أنّها رأت فجأةً أخاها الذي لمْ ترَه منذ سنواتٍ عديدة.

حينذاك رفعتْ لوسي رأسَها، كانت تنظرُ إلى ساعة البرج (وقد ظلّت هذه الحركة عالقة إلى الأبَد في ذاكرتي، حركة الفتاة التي لا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تحملُ ساعة في معصمها وتجلسُ بصورةٍ آلية قبالة ساعة البرج). ثم غادرتْ مقعدها واتجهت نحو قاعة السينما. أردتُ أن ألتحقَ بها، لم تكن الجُرأة تنقصُني ولكنّ الكلمات خانتني؛ صحيح أنّ صدري كانَ مُفعَماً بالأحاسيس، ولكن لا كلمة واحدة كانت تدورُ في رأسي، تبعْتُ الفتاةَ حتى مكان مراقبة التذاكر الذي منهُ كانت تظهرُ قاعة العرض فارغة. وصلَ جمهورٌ قليل وتوَجّه نحو الشبّاك، تقدّمْتهم وأخذتُ تذكرةً لمُشاهدة الفيلم المقيت.

دخلت الفتاة إلى قاعة العرض، وقمتُ بالشيء نفسه، وفي الفضاء نصف الفارغ لم يبقَ للأرقام المُثبتة على التذاكر أيّ دور، كلٌّ جلسَ حيث أراد، دلفتُ إلى الصفّ نفسه الذي ولجَته لوسي وجلستُ إلى جوارها. ثم انطلقت الموسيقى الصاخبة من أسطوانة مشروخة، وانطفأ الضوء فظهرت الوصلات الإشهاريّة على الشاشة.

لا بدّ أنّ لوسي قد انتبهت إلى أنّ مجيء جنديّ بشارتيْن سوداوين للجلوس بالضبط إلى جانبها ليس من قبيل الصدفة، من المؤكّد أنها أدركت حضوري القريب وأحسّت به، ولا سيما أنني كنتُ أنا نفسي مُركّزاً اهتمامي عليها، لم أكن مُنتبهاً إطلاقاً لما كان يجري على الشاشة (يا له من انتقام ساخر: فقد كنتُ سعيداً أن يُذاع الآن أمامي الفيلم، الذي أحالني على سُلطته مرّاتٍ عديدة وعّاظي بالأخلاق، من غير أن أعيره اهتماماً).

انتهى العرض، وأضيئت القاعة، فغادر الجمهورُ القليل مقاعدَه. نهضت لوسي وأخذت معطفها البنّي من فوق ركبتيْها، وأدخلت يداً في كمّ. ثبّتُّ قبعتي بدقة مخافة أن ترى جمجمتي المملوطة، ومن غير أن أنبس بكلمة واحدة، ساعدْتُها على إدخال اليد الأخرى في الكُمّ الثاني، نظرتْ إليّ لوهلة قصيرة ولمْ تقل شيئاً،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كلُّ ما صدَر عنها هو أنّها ربّما اكتفت بانحناءةٍ خفيفة من رأسها، غير أنني لم أعرف إن كانت طريقة شكر أم حركة لا إراديّة تماماً. ثم بخطى صغيرة خرجَت من صفّ المقاعد. بدوري ارتديتُ سريعاً معطفي الأخضر (الذي لطوله المُفرط لم يكن بلا شكّ يُناسبني)، واقتفيتُ خطاها. وقبل أن تخرج من القاعة وجّهتُ إليها الكلام.

وكما لو أنّ الساعتيْن اللتيْن قضيْتهما إلى جانبها مفكّراً فيها قد ضبطاني على طول مَوْجَتها: عرفتُ فجأة كيف أحدّثها كما لو كنتُ أعرفها جيّداً، لم أفتتح الحديث بدُعابات أو مُفارقات كما هي عادتي، كنت طبيعيّاً تماماً، وهو ما فاجأني أنا أيضاً، لأنني إلى حدّ ذلك الوقت كنتُ دوماً أتعثرُ أمام الفتيات تحت ثِقل الأقنعة.

سألتُها أين كانت تسكن، ماذا كانت تعمل، وإذا ما كانت تذهبُ كثيراً إلى السينما. قلتُ لها إنني كنتُ أشتغلُ في المناجم وأنّ العمل بها قاتل، ولا يُرخَّصُ لي في الخروج إلّا في أوقات مُتباعدة. قالت إنها كانت تعمل بالمصنع، وتسكنُ في إقامةٍ لفتيات عاملات وكان لزاماً عليهنّ العودة إلى الإقامة في الساعة الحادية عشرة ليلاً، وأنّها كانت تذهبُ كثيراً إلى السينما، لأنّ حفلات الرقص لم تكن تُسلّيها. قلتُ لها إنني سوف أصطحبها بسرور إلى السينما عندما يتوفّرُ لها مساءٌ آخر لا عمل لها فيه. قالت إنّها اعتادت على الذهاب وحيدة. سألتُها إذا ما كان السبب هو إحساسها بالحزن في الحياة، ردّت بالإيجاب. قلتُ لها إنني لم أكن أنا أيضاً سعيداً.

لا شيء يُقرِّبُ بسرعة بين الناس (حتى وإن كان في الغالب تقارُباً خادعاً) أكثر من تفاهُم حزين وتعس، فذلك الجوّ من التواطؤ الوديع، الذي يُهدّئُ أيّ نوع من المخاوف والغيظ وتفهَمُه النفوس الرّقيقة كما النفوس الفظّة، يُمثّلُ أكثر أنماط التقارُب سهولة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وأكثرها، مع ذلك، ندرةً: يتوجّبُ فعلاً أن نُبعد عنه «التحفظ الذهني» الذي تكوَّن لدينا عنه والإشارات والإيماءات المُصطنعة، وأن نتعامل بدون تصنّع. أنا أجهلُ كيف تسنّى لي ذلك (فجأة، ومن غير استعداد) كيف استطعتُ أن أبْلغه، أنا الذي كنتُ أتلمّسُ دوماً مثل أعمى خلف وُجوهي الزائفة، لا أعرف كيف، ولكنني كنتُ أشعر بذلك مثل هِبة لا مُتوَقعة، مثل تحرّر خارق.

كنّا إذاً نقول عن أنفسنا أبسط الأشياء، مشينا حتى مقرّ إقامتها، وهناك تَوَقفنا لحظة، كان ضوءُ فانوس يغمرُ لوسي وكنتُ أنظرُ إلى معطفها البُنّي القصير، أداعبُ لا وَجْهَها أو شَعرها، بل الثوب البالي لهذا اللباس المُؤثر.

أتذكّرُ أيضاً أنّ الفانوس كان يتراقص، وحولنا كانت تعبُر فتياتٌ تُصدرن قهقهات مُزعجة، فتحْن باب الإقامة فرأيتُ الامتداد العموديّ لداخل الإقامة، رأيتُ جدرانها الرماديّة بنوافذ عارية لا طوق لها، أتذكّرُ أيضاً وَجْه لوسي الذي (مقارنة بوجوهِ الفتيات اللواتي عرفتهنّ في مُناسَبات مُشابهة) بقِيَ هادئاً تماماً من غير اضطراب، مُذكّراً بملامح تلميذة مُكتفية أمام السبورة بالعرْض المتواضع (بلا إصرار مُقطّب ولا حذق) لِمَا تعرفه، غير مكترثة للنقطة ولا للثناء.

اتفقنا على أن أبعثَ إليها ببطاقة بريديّة لإطْلاعها متى ستكون إجازةُ خروجي المُقبل ومتى يُمكننا أن نلتقي. افترقنا (من غير قُبلة أو مُداعبة) وانصرفتُ. بعد خطوات قليلة استدرت، فرأيتُها عند العتبة مُمسكة بمفتاحها، ثابتة تنظرُ إليّ، هي الآن فقط، عندما ابتعدتُ عنها قليلاً، تخلّت عن تحفّظها وثبّتت عينيْها (الخجولتيْن حتى ذلك الوقت) عليّ طويلاً. بعد ذلك رفعتْ يدها على طريقة مَنْ لمْ يَقم مِن قبْلُ بهذه الحركة، ولا يعرف كيف تتمّ، يعرفُ فقط أننا نحرّك اليد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إشارةً للتوديع، ولهذا السبب قرّرتْ أن تُغامرَ على نحو أخرق بهذه الحركة. توقفتُ ولوَّحتُ لها أنا أيضاً، تبادلنا النظر عن بُعد، وواصلتُ السير ثمّ توقفتُ من جديد (كانت لوسي تُلوِّح دوماً بيدها)، وهكذا ابتعدتُ بتأنٍّ حتى زاوية الزقاق الذي وارَى أحدنا عن الآخر.

8

منذ ذلك المساء، كلّ شيءٍ تغيَّر بداخلي، أحدٌ حَلَّ فيَّ من جديد، شملني فجأة تطهيرٌ داخليّ مثل غرفة كان أحدٌ يعيشُ فيها. عادت بغتة عقاربُ الساعة على الجدار، التي توقفت منذ شهور، للاشتغال. كان ذلك مهمّاً: فالوقت الذي كان حتى ذلك الحين يمرّ مثل تيار لا مُبالٍ، من فراغ إلى فراغ آخَر (بما أنني كنتُ في وقفة!) دون معالمَ ولا محدّداتِ قياس، أخذ تدريجيّاً يسترجعُ وجْهَهُ الإنسانيّ؛ فبدأ يتشكّل من جديد ويتناقص. لقد أوليتُ فجأةً عناية لإجازات الخروج من الثكنة، وأصبحت الأيامُ درجاتِ سُلّم كنتُ أصعدُها للقاء لوسي.

أبداً لمْ يسبق لي قبل ذلك الحين أن كرّستُ لامرأةٍ أخرى هذا القدر من التفكير وهذا القدر من الاهتمام الصّامت (لأنني فضلاً عن ذلك لم أتوَفر إطلاقاً على هذا القدْر من الوقت). لمْ يسبق لي أن شعرتُ تجاه امرأةٍ أخرى بمثل هذا الامتنان.

الامتنان؟ علامَ؟ لقد انتزعَتني لوسي أوّلاً من دائرة هذا الأفق العاطفيّ البَشع الذي كان يُطوّقنا جميعاً. من المؤكّد أنّ ستانا هو أيضاً قد كسّرَ بزواجه المُبكر هذه الدائرة، وأصبحتْ له ببراغ منذ ذلك الحين زوجة يُحبّها ويُمْكنه أن يُفكّر فيها. بزواجه خلخلَ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مصيره، ولكنْ ما إن كان يمتطي القطار عائداً إلى أوسترافا حتى يفقد كلَّ تأثير على مصيره.

أنا أيضاً خلخلتُ، بتعرّفي إلى لوسي، مصيري، لكنه بقِيَ تحت بصري، فحتى وإن كنّا بعيديْن عن بعضنا، فإنّ لقاءاتي بها كانت تتمتّعُ بدوريّة مُنتظمة تقريباً، وكنتُ أعرفُ أنّها قادرة على انتظاري خمسة عشر يوماً أو أكثر، كي تستقبلني بعدها كما لوْ أنّ آخِرَ لقاءٍ لنا كان بالأمس.

لكنّ لوسي لمْ تُحرِّرني فقط من الغثيان النّاجم عن يأس المُغامرات العاطفيّة بأوسترافا. لقد كنتُ أدرك، ما في ذلك شكّ، أنني فقدتُ مقاوَمتي، ولن أغيّر شيئاً بشأن شارتَيّ السَّوداويْن، كنتُ أدرك أنّ من العبث أن أحاول التحصّن بداخلي أمام أشخاص عليّ أن أقضي معهم سنتيْن أو أكثر، وأنّ من العبث أن أعلن باستمرار حقّ الاحتفاظ بمساري الشخصيّ (الذي أخذتُ أعي خصيصته المتميّزة)، غير أنّ هذا التحوّل في الموقف لم يكن إلّا نتيجة العقل والإرادة، وبذلك كان عاجزاً إذاً عن إيقاف الدُّموع الداخلية التي كنتُ أذرفها على مصيري الضائع. لوسي هي مَنْ هدّأتْ هذه الدُّموع بما يُشبه السِّحر. كان يكفيني الشعور بها إلى جانبي بكامل حياتها التي كانت تخلو تماماً من الكوسموبوليتيّة والعالميّة، من الحذر والصراع الطبقيّ، من الجدل حول معنى ديكتاتورية البروليتاريا، من السياسة باستراتيجيتها وتكتيكها.

بهذه المشاغل (التي لانتمائها تماماً للعصر سرعان ما سوف يُصبح معجمُها غامضاً) كان غرَقي، وبها تحديداً كنتُ أتمسّك. لقد استطعتُ بدعوتي للمثول أمام العديد من اللجان أنْ أقدِّم عشرات الأدلّة التي قادتني إلى الانتساب إلى الشيوعيّة، ولكنّ ما جذبني إليها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أكثر، بل وسحَرني، كان هو «مقود التاريخ» الذي وجدْتُ نفسي قريباً منه (أو هكذا اعتقدتُ). فعلاً، لقد كنّا حينذاك نقرّرُ حقاً في مصائر الناس وفي مصائر الأشياء، كان ذلك بالضبط في الجامعات، وبما أنّ عددَ أعضاء الحزب في تلك الفترة لم يكن يتجاوزُ في مجالس الأساتذة أصابع اليد الواحدة، فقد اضطلع الطلبة الشيوعيون، خلال السنوات الأولى، وحدهم تقريباً بإدارة الكلية، مُقرّرين في ترقية الأساتذة وإصلاح التعليم والمناهج. النَّشوة التي فيها كنّا نعيش سُمّيت بسُكْر السلطة، ومع ذلك (ببذرةِ إرادةٍ طيّبة) يُمكنني اختيار كلماتٍ أقلّ قسوة لأقول: إننا كنّا مسحورين بالتاريخ، كنّا سكارَى بامتطائنا حصان التاريخ، سكارَى بإحساس جسمه تحت أردافنا، وقد كان الأمرُ ينتهي في أغلب الأحيان بتحوّله إلى عطشٍ بَشع إلى السلطة، ولكن (مثلما هي غامضة كلّ الأمور البشريّة) كان الأمْرُ منطوياً في الآن ذاته (وخاصّة بالنسبة إلينا نحن الشباب) على الوهْم الجميل بأنّنا كنّا نحنُ مَن يُدشِّنُ هذا العصر الذي لن يبقى فيه إنسان (بدون استثناء) إطلاقاً خارج التاريخ، ولا تحت كعب التاريخ، بل سوف يقودُه ويصنعُه.

كنتُ مُقتنعاً أنّ الحياة بعيداً عن مِقود التاريخ هذا لَمْ تكن حياةً، بل نصفَ موتٍ، ضجَراً، منفى، سيبيريا. وها أنا الآن فقط (بعد ستّة أشهر في سيبيريا) كنتُ أتبيَّنُ فجأةً إمكاناً لأنْ أوجدَ، إمكاناً جديداً ولا مُتوقعاً تماماً؛ فأمامي كان يمتدُّ، مُختفياً تحت جناح التاريخ المُحلّق عالياً، مَرَجُ اليوميّ المنسيّ، حيث كانت تنتظرُني امرأةٌ مُتواضعة وفقيرة، لكنّها جديرة بالحبّ: لوسي.

ماذا كان بإمكان لوسي أن تعرف عن الجناح الكبير للتاريخ؟ بالكاد إن كان ضجيجُه المُصِمّ قد بلغَ مسمعها، لقد كانت تجهلُ كلَّ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

شيءٍ عن التاريخ، كانت تعيشُ تحته، لم يكن لها ظمأ إليه، لم تكن تعرفُ شيئاً عن الانشغالات الكبرى والآنيّة، كانت تعيشُ من أجل هُمومها الصغيرة والأبديّة. وقد تحرّرتُ دفعة واحدةً منذ ذلك الحين. كان يبدو لي أنّها جاءت تبحث عنّي لتقودني إلى فردوسها الحزين، والخطوة التي بدت لي قبْل لحظة مُرعبة، تلك الخطوة التي قادتني «خارج التاريخ» أصبحَت فجأة بالنسبة إليّ خطوة الانفراج والسعادة. بخجلٍ كانت لوسي تُمسكُ بمرفقي، فتركتُها تقودني...

كانت لوسي دليلي الحزين. ولكن مَن كانت حسب معطيات ملموسة أكثر؟

كانت في التاسعة عشرة من عمرها، ولكنّها كانت تبدو أكبر من ذلك بكثير، مثلما هي حال مَن كانت لهنّ حياة قاسية وقُذِفَ بهنّ، رؤوسهنّ في المقدّمة ليجدن أنفسهنّ منذ الطفولة في سنّ الرشد. كانت تقولُ إنها وُلدت بشيب، وتابعتْ دراستها حتى سنّ الرابعة عشرة قبل أن تلجأ إلى تعليم مهني. لم تكن ترغبُ في الحديث عن أسْرتها، وإذا حدثَ ذلك فبإلحاح منّي وحسْب. لم تكن سعيدةً في بيت أسرتها: «لم يكن أهلي يُحبّونني»، كانت تقول، مُدعّمة ذلك بكون والدتها تزوّجت مرّة ثانية، وزوج والدتها كان سكّيراً ويعاملها بقسوة، اتهمَاها مرّة بسرقة نقودهما، وكانا فضلاً عن ذلك يضربانها. ولمّا بلغ الخلاف حدّاً مُعيّناً، اغتنمت لوسي إحدى الفرَص للفرار إلى أوسترافا. وهي تعيشُ هنا منذ أكثر من عام، لها زميلات، لكنّها تُفضّلُ الخروج وحدها، زميلاتها يذهبن إلى الرّقص ويصطحبن معهنّ أصدقاءهنّ إلى البيت، وهو ما لا تريده، فهي رزينة، لأنّها تُفضّلُ الذهاب إلى السينما.

أجل، لقد كانت تعتبرُ نفسها «رزينة» وتربطُ بين هذه المَزيّة وبين

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ميْلها إلى السينما، كانت تُفضّلُ بوجهٍ خاصّ أفلامَ الحرب التي كانت تُعرَضُ كثيراً حينذاك، لا شكّ في أنّها كانت تُفضّلها لأنّها تجدها جذابة، ولكن مِنَ المُمكن أن يكون سبب ذلك بالأحرى هو المعاناة الطاغية في قصص تلك الأفلام، حيث كانت لوسي تتشرّبُ الصور المُحمّلة بالعطف والحنان، وهما إحساسان كانت تعتقدُهما خليقيْن بتهذيبها وتثبيتها في هذه «الرزانة» التي تُجلّها في ذاتها.

من الخطأ، طبعاً، الاعتقاد أنّ غرابة بساطة لوسي هي وحدها ما جذبني نحوها، فسذاجتُها ونقصُ تعليمها لمْ يمنعاها إطلاقاً من فهمي. لم يكن هذا الفهْم مُرتكزاً على تجارب أو معارف، ولا على قدرة في مواجهة مُشكل وتقديم نُصْح، بل على حدس قابليتها للتأثر الذي به كانت تُصغي إليّ.

أتذكّرُ يوماً صيفيّاً، حيثُ أمكنني هذه المرّة أن أغادر المُعسكر قبْل أن تغادر لوسي عمَلها، لذلك حملتُ معي كتاباً وجلستُ أقرأ على سور حاجز صغير. لم تكن قراءاتي على أحسن حال، إذ لم يتوفّر لي الوقت الكافي لها كما أنّ الاتصال بأصدقائي في براغ كان محدوداً، ولكن كان لديّ بدولابي في الثكنة ثلاث مجاميع شعريّة حملتُها معي، كنت أغوصُ باستمرار في قراءَتها، مستمِدّاً منها العزاء، إنّها مجاميع فرانتيزيك هالاس.

أدّتْ هذه الكتب دوراً خاصّاً في حياتي لأنني لستُ أصلاً قارئاً للشعر، ولأنّ هذه المجاميع الشعريّة هي وحدها تماماً التي تعلّقتُ بها. اكتشفتُها بعد فصْلي من الحزب، حيث شهدَ اسم هالاس في تلك الفترة بالضبط شُهرة من جديد، لأنّ الرئيس الأيديولوجي في تلك السنوات اتّهَمَ الشاعر، الذي توفي قبل ذلك بقليل، بالمرضيّة، وعدم الوفاء، والنزعة الوجوديّة، وبكلّ ما كان يُصدرُ رنينَ اللّعنة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

السياسيّة. (وقد صدرَ الكتابُ الذي جمَع فيه آراءَهُ عن الشعر التشيكيّ وعن هالاس في نُسَخ كثيرة جدّاً، وكانت ألوف حلقات الشباب تدرُسُه بوصفه نصّاً إجباريّاً).

أعترفُ، حتّى وإن أمكنَ أن يبدو الأمرُ مُضحكاً، أنّ الحاجة إلى شعر هالاس تولّدت لديّ من الرّغبة في التّعرّف إلى مفصولٍ آخر، كنتُ أودُّ أن أعرف إذا ما كان عالمي يُشبه حقاً عالمَه، محاولاً أن أرى إن كان بمقدور الحزن، الذي كان الأيديولوجيّ المُتنفّذ يُجهرُ بطابَعه المرَضيّ وبضرره، أن يُمدّني، تناغماً مع حالتي، بنوعٍ من الفرح (إذ لم يكن مُمكناً، في وضْعي، أن أبحث عن الفرح في الفرح). كنتُ قد استعرْتُ، قبل التوجّه إلى أوسترافا، المجاميع الشعريّة الثلاث الصغيرة من زميل قديم مُولع بالأدب، وبفِعْل توسُّلي تمكّنتُ مِن إقناعه بألّا يُلزمني بإرجاعها إليه.

عندما وجدَتْني لوسي ذلك اليوم بالمكان المُتّفَق عليه والكتاب بين يدي، سألتني عمّا كنتُ بصدد قراءته. عرضتُ الكتاب أمامها مفتوحاً. «شعر»، قالت مُندهشة. «هل يبدو لكِ الأمر غريباً أن أقرأ شعراً؟». ردَّت وهي توشك على هزّ كتفيْها: «لماذا؟»، ومع ذلك أعتقد أنّ دهشتها كانت حقيقيّة، لأنّ من المحتمَل جدّاً أنّ قراءةَ الشعر كانت تتماهَى لديها مع قراءات الأطفال. كنّا هنا نتمشّى في صيف أوسترافا الغريب، المليء بالسّخام، صيف أسود حيث تسبحُ على شكل سحابات صغيرة في السماء سلال من الفحم الحجريّ على أسلاكها الطويلة. وقد كنتُ ألاحظ أن هذا الكتاب بين يدي لم يكُف عن اجتذاب اهتمامها. وعندما جلسْنا بغابة صغيرة ضامرة، فتحتُه من جديد وسألتُها: «إنّه يُثيرُ اهتمامك إذاً؟»، وبإيماءة من رأسها ردّت بالإيجاب.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم أقرأ أبداً، لا قبْل هذا اللقاء ولا بَعْده شعراً لأحَد، كنتُ مُزوَّداً بنظام يشتغل جيّداً، بقاطع تيار منَ الحشمة يَحميني من المُغالاة في التعرّي أمام الناس، وفي الكشف لهُم عن أحاسيسي. والحال أنّ قراءةَ الشعر لم تكن بالنسبة إليّ مثل الحديث عن أحاسيسي وحسْب، بل كانت كما لوْ أنني أضبط توازُني على رجْل واحدة، كانت بسبب الإيقاع والقافية أساساً شيئاً متكلّفاً يُربكني إن توجّبَ عليّ الانغماس فيها حتى وأنا وحدي.

غيْر أنّ لوسي كانت تملكُ قوّةً سحريّة (لم يَمْتلكها أحدٌ بَعْدها أبداً) في إصلاح انقطاع التيار ورَفْع تردّدي. أمامها كنتُ قادراً على أنْ أبيح لنفسي كلَّ شيء، بما في ذلك الإفصاح عن الوفاء والشّعور والاستلطاف. وهكذا قرأتُ لها:

سُنبلةٌ نحيلةٌ جسدُك
منها سَقطتْ حَبّةٌ لن تنبت
مثل سنبلةٍ نحيلة هو جسدُك

ربطة خيوطِ حرير جسدُك
مكتوبٌ كلّياً بالرّغبة حتى غَضْنِه الأخير
مثل ربطة خيوطِ حرير هو جسدُك

سماءٌ مُلتهبة جسدُك
الموتُ في الأنسجة يَرصُدُ ويحْلمُ
مثل سماءٍ مُلتهبةٍ هو جسدُك

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

صمتٌ فريدٌ جسدُك
من دموعه يرتعش جفناي
كمْ هو صامتٌ جسدُك.

وضعتُ يدي فوْق كتفها (البارزة من الثوْب الخفيف لفستانها القصير الملوَّن بالورود) التي شعرتُ بها تحت أصابعي، واستسلمتُ لإيحاء أنّ الأبيات التي قرأتُ (هذه الصلاة المُتأنّية) كانت تتحدّثُ عن حُزن جسَد لوسي، جسد صامت، مُنقاد، منذور للموت. ثمّ قرأتُ قصائدَ أخرى وتلك التي تُعيدُ لي اليوم صورةَ لوسي، وهي التي تنتهي بهذا المقطع الثلاثي:

يا لَجُنون الكلماتِ الخادعةِ أنا الذي أؤمنُ بالصَّمت
أكثر من الجَمال أكثر من كلّ شيء
يا لبَهجة مَنْ يتفاهمون بصمت

فجأة أطْلعتْني أصابعي أنّ كتف لوسي كانت تُصدرُ اهتزازاً خفيفاً. لقد كانت لوسي تبكي.

ما الذي أبْكاها؟ أهي معاني الأبيات؟ أهُو بالأحرى الحُزن المُتمنّع على الوصف الذي كان ينبثقُ من نَغم الكلمات ومن نبرةِ صوتي؟ أو لربّما سَمَا بها غموضُ القصائد الحادّ فأثار هذا السّمُوُّ بكاءَها؟ أم أنّ الأبياتَ ببساطة كسَّرتْ قفلَ سِرٍّ وحرَّرَتْها من ثِقلِ تكوُّم طويلاً؟

لا أدري. مثل طفل تعلّقتْ لوسي بعنقي، ضاغطة برأسها على

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بدلتي الخضراء التي كانت تخنقُ صدري، وأخذت تبكي وتبكي وتبكي.

9

مرّات عديدة في هذه السنوات الأخيرة، آخذتني نساءٌ من مختلف الأصناف (لأنني لم أكن أبادلهنّ أحاسيسهنّ فقط) على زهوي بذاتي. وهو أمرٌ مُجانبٌ للصواب، فأنا لستُ مزهواً بذاتي، فقد كنتُ بحقّ أنا نفسي مُغتمّاً لعجزي في سنّ نُضجي عن أنْ أهتديَ إلى الارتباط الحقيقيّ تجاه امرأة، عجزي، كما يُقال، عن حبٍّ ولا واحدة. لستُ متأكّداً من معرفة أسباب هذا الفشل، لا أدري إن كانت عيوبُ القلب هاته فطريّة أم جذورها مُمتدّة في سيرتي الذاتيّة، لا أريدُ السقوط في استجداء الشفقة، ولكن هكذا هو الأمر : في ذكرياتي تُومضُ كثيراً جدّاً قاعة فيها يَرفعُ مائة شخص أيديهم مُعلنين تدميرَ حياتي، هؤلاء الأشخاص المائة لمْ يكونوا يعرفون أنّ الأمورَ سوف تأخذ، يوماً ما، في التغيّر تدريجيّاً، ويحسبون أنّ إبعادي سوف يكون إلى الأبد. وقد خلقتُ، في مُناسبات عديدة، تنويعات لقصّتي، لا رغبة في اجترار المرارة ولكن استجابة لعنادٍ يُميّزُ تفكيري، مُتخيِّلاً ما كان مُمكناً أن يقعَ لوْ تمّ اقتراح شنقي عوض فصْلي من الحزب. وقد كنتُ أنتهي دوماً إلى أنّهم جميعاً، حتى في هذه الحالة، كانوا سيرفعون أيديهم، خصوصاً إذا غذى التقريرُ التمهيديّ، بعبارات حماسيّة، فائدةَ فرصة العقاب. ومنذ ذلك الحين، كلّما ربطتُ علاقاتٍ جديدة مع رجال ونساء، أصدقاءَ جُدُدٍ أو عشيقاتٍ مُحتمَلات، أفكّرُ فيهم انطلاقاً من تلك المرحلة ومن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

داخل تلك القاعة، مُتسائلاً هل كانوا سيرفعون أيديهم، فلا أحد يصمدُ أمام هذا الامتحان: كلّهم يرفعون أيديهم مثلما رفعها قبلهم منذ عهد قريب (بعضهم بسرعة وبعضهم مُضطرّاً، عن اقتناع أو عن خوف) أصدقائي ومعارفي. سَلِّموا إذاً أنّ مِن الصَّعب العيش مع أشخاص مُستعدّين لإرسالك إلى المنفى أو إلى الموت، من الصّعب أن تجعلهم مُقرَّبين منك، من الصَّعب أن تُحبّهم.

لربّما منَ الظلم إخضاع الذين كنتُ أخالطهم لامتحانٍ مُتخيَّلٍ بالغِ القسْوة، بينما كان مُحتمَلاً أن يقضوا إلى جانبي حياةً هادئة تقريباً، ما وراء الخير والشرّ، من غير أن يَعبُروا أبداً القاعة الكبيرة حيث ترتفعُ الأيدي. قد يذهبُ البعض إلى حدّ اعتبار أنّ تصرّفي كان له هدفٌ واحد هو استعلائي، بغرور أخلاقيّ، على الآخرين. إلّا أنّ تهمة الزّهو بالذات لن تكون بحقّ صحيحة، لا شك في أنني لم أصوّت أبداً على تدمير أيٍّ كان، غير أنني كنتُ أعي تماماً أنّ هذه المَزيّة كانت افتراضيّة، باعتبار أنني وجدتُ نفسي محروماً باكراً من حقّ رَفْع اليد. وقد كنتُ أحاولُ لزمن طويل فعلاً إقناعَ نفسي أنني ما كنتُ على الأقلّ في حادث مُماثلٍ لأتصرّفَ مثل الآخرين، ومع ذلك كان لي، في المُقابل، ما يكفي من النزاهة لأسخَر، في الأخير، من نفسي: أأنا وحدي مَنْ كان سيمتنع عن رفعِ يَده؟ أكنتُ سأظلّ العادل الوحيد؟ آه كلّا، لم أكن أجدُ في ذاتي أدنى ضمانة بأن أكون أفضل من الآخرين؛ ولكن ما الذي يُغيّره ذلك في علاقتي بالآخرين؟ لم يكن وعيي ببؤسي الشخصيّ يُصالحني إطلاقاً مع بُؤس أمثالي. فلا شيء يُثير اشمئزازي مثل تآخي الناس بدافع رُؤية كلٍّ واحد منهم لدناءته الشخصيَّة في دناءَة الآخر. ليس لديّ ما أفعله بهذا التآخي البائس.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كيف إذاً تمكّنتُ حينذاك من حُبّ لوسي؟ لحُسن الحظ أنّ التأمّلات التي انفلتت منّي اللحظة حديثة العهد جدّاً، بحيث أمْكنني (في تلك السنّ النازعة إلى التألّم أكثر من التأمّل) قبولَ لوسي بقلب مُتعطّش لا يرتاب، مثل هِبَةٍ من السماوات (سماوات رماديّة ورحيمة). كان إذاً بالنسبة إليّ زمناً سعيداً، لربّما الأكثر سعادة: صحيح أنني كنتُ منهوكاً، مُضنَى، مُرهَقاً من الضجَر، غير أنّ سكينة بداخلي كانت تُمدِّدُ مع كلِّ يوم زُرقتَها أكثر فأكثر. من الطريف لوْ أنّ النساء، اللواتي يشتكين اليوم من زهوي بالذات ويتّهمْنني بمُعاملة الجميع باعتبارهنّ غبيات، عرفن لوسي، لكُنّ سيعتبرْنها بلهاء ولَمَا استطعن فهْم أنني أحببتُها. أمّا أنا فقد أحببْتها بقوّة، إلى درجة لم أكن أتصوّر معها إمكان انفصالنا عن بعض. صحيح أنني لمْ أتحدّث إلى لوسي ولوْ مرّة بشأن زواجنا، ولكنني كنتُ مُقتنعاً أنني سوف أتزوّجها في يوم من الأيام. وإذا بدا لي هذا الزواج قائماً على التفاوُت، فإنّ هذا التفاوُت كان يجذبُني أكثر مما يَصُدّني.

أنا مدينٌ أيضاً بشأن تلك الشهور القصيرة من السعادة إلى قائدنا حينذاك، فخلافاً لضبّاط الصفّ، الذين كانوا حريصين على مُضايَقتنا بكلّ ما أتيح لهم، مُنقّبين عن أدنى لطخة في طيات بزّاتنا العسكريّة، قالبين أسِرَّتنا إن هي لم تكن منظَّمة في أماكنها بدقة مُتناهية، كان القائد مُحتكماً إلى القانون. تمَّ نقله، وقد تجاوزَ قليلاً مقتبل الشباب، إلى حيث كنّا من وحدة مُشاة وتمَّ، حسب ما كان يُقال، إنزال رُتبته. فكان بذلك يقضي هو أيضاً عقوبته، ولربّما هو ذا ما جعله مُتساهلاً معنا بصمت، من جهتنا، وهذا أمرٌ كان يتمّ بتلقائية، التزَمْنا بما التمَسَهُ من نظامٍ وحُسن السلوك، إضافة إلى عمل تطوّعيّ يوم الأحد (كي يتسنّى له تقديم تقرير عن نشاطه السياسيّ إلى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

رؤسائه)، إلّا أنّه لمْ يقْسُ علينا أبداً من غيْر سبب، كان يُرخّصُ لنا بسهولة في الخروج يوم السبت كلَّ أسبوعيْن، بل أظنّ أنني تمكّنتُ من رؤية لوسي، خلال ذلك الصيف، حتى ثلاث مرّات في الشهر.

كنتُ، في الأيام التي أحرَمُ فيها من رؤية لوسي، أبعث إليها برسائلَ وبطاقاتٍ بريديّة عديدة. لا أعرفُ اليوم بدقة ما كنتُ أكتبه لها ولا كيف كنتُ أكتبهُ. لا يهمّ كثيراً ما تضمّنَته رسائلي، فقد أردتُ بالأحرى أن أكشف أنني كتبتُ رسائل عديدة من غير أن أتوصّل بردّ واحد.

كان الظفَرُ بجواب منها فوق إمكاناتي، لربّما كانت رسائلي تُنفّرها، لربّما كان يبدو لها أنّها لا تعرفُ ما تكتبُه إليّ وأنّها قد ترتكبُ أخطاءَ إملائيّة، لرُبّما كانت تخجلُ من خطّها السيّئ الذي لم أعرف منه غير توقيعها المُثبت على بطاقتها الوطنيّة. ولمْ أوَفّق في إقناعها أنّ سوءَ خطّها وجهلَها كانا بالنسبة إليّ لا يُقدَّران بثمن، لأنّهما كانا يكشفان لي عن لوسي طاهرة، ويمنحاني الأملَ في أن أظلّ راسخاً لديْها تحت علامةٍ بقدر ما هي عميقة بقدر ما هي مُتعذرة على المحو.

بخجل، كانت لوسي تكتفي حينذاك بشُكري على رسائلي، ثمّ تملّكتْها الرّغبة فيما بعْد في أن تُقدِّم لي شيئاً في المُقابل، وبما أنّها لمْ تكن ترغب في الكتابة، فقد لجأت إلى الزّهور. وقعَ الأمْرُ على النّحو الآتي: كنّا نتنزّهُ في غابةٍ صغيرة ذات أشجار متفرّقة، فانحنت لوسي فجأةً لتقطفَ زهرةً وقدّمتها لي. وجدتُ ذلك مُؤثراً وليس مُفاجئاً إطلاقاً، غير أنّها في اللقاء اللاحق انتظرَتْني بباقة كاملة، فأحسستُ بنوع من الضيْق.

كنتُ في الثانية والعشرين من عمري، وكنتُ حريصاً على إبعاد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كلّ ما يُمْكنُ أن يُلقي عليّ ظِلَّ شابّ مُخنث أو مُراهق، كنتُ أخجلُ من حمْل الزهور في الشارع، لم يكن يروقني لا اقتناؤها ولا تقديمها بوجه خاصّ. لذلك اعترضتُ على لوسي بانزعاج، وقلتُ لها إنّ الرجال مَن كانوا يُقدّمون الزهور للنساء لا العكس، ولكنْ لمّا رأيتها مُوشكة على البكاء أسرعتُ إلى إرضائها واستلام الباقة.

لم يَعُد ثمّة من مفرّ. فمنذ ذلك اليوم، كانت باقة زهور، في كلّ لقاء، بانتظاري، وانتهيتُ إلى التعوّد عليها، لأنّ التلقائية التي بها كان يتمّ العطاء جرّدتني من أيّ دافع للرّفض، وفهمتُ أنّ لوسي كانت تتمسّكُ بهذا النوع من الهدايا، لربّما كانت تُعاني من نقص في التعبير وترَى تقديم الزهور طريقةً في الكلام، لا انطلاقاً من الرمزيّة الكثيفة للُغةِ الزّهور القديمة، بل انطلاقاً من معنى أكثر عتاقة، أكثر سديميّة، أكثر فطريّة، معنى سابق على اللغة، لربّما بتفضيل لوسي دوماً للصمت على الكلام، كانت تحلمُ بذلك الزمن الذي كانت فيه الكلمات مُنعدمة، وكان الناسُ يتواصلون بباقة من الإشارات: بالأصبع كانوا يُظهرون لبعضهم شجرة، وكانوا يضحكون، كان الواحد يلمس الآخر...

سواء تبيّنتُ المعنى الحقيقيّ لهدايا لوسي أم لمْ أتبيّنها، فقد حرّكتني أخيراً وأيقظت لديّ الرغبة في أن أقدّم لها أنا أيضاً هدية. لمْ تكن لوسي تمتلك إلّا ثلاثة فساتين تُخضِعُ ارتداءَها لنظام ثابت، حيث كانت لقاءاتُنا تتوَالى على إيقاع نظام ذي ثلاثة أزمنة. كنتُ أحبُّ كثيراً تلك الفساتين الصغيرة، أحبّها جميعها بالقدر ذاته، أساساً لأنها مخدوشة، رثة، اختيرت بذوق رديء، كنتُ أحبّها أيضاً بقدر ما أحبُّ معطفها البُنّي (الرّثّ من حاشية كُمّيْه)، الذي داعبتُه قبْل وَجْه لوسي. ومع ذلك قرّرتُ أن أشتريَ لها فستاناً جميلاً، رِزمة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فساتين. وذات يوم، قدتُ لوسي إلى محلٍّ تجاري كبير للألبسة الجاهزة.

ظنّت في البدْء أننا دخلنا المحلَّ بدافع الفضول لرؤية الحشد الصاعد والنازل على السُّلّم. ولكنني توقفتُ في الطابق الثاني قرب قضبان طويلة حيث كانت ملابس نسائيّة مُعلّقة باصطفاف كثيف، ولمّا لاحظتْ لوسي أنني كنتُ أفحصُ تلك الملابس باهتمام، اقتربَت وعلّقت على بعضها. «هذا جميل»، قالت وهي تشيرُ إلى فستان بورود حمراء قُلّدت بكاملِ تفاصيلها. كانت الأشياء الجميلة، في الواقع، قليلة، غير أننا اهتدَيْنا أخيراً إلى غيرها. سحبتُ فستاناً، وناديتُ على البائع قائلاً: «أيُمْكنُ للآنسة أن تُجرّب هذا؟»، لربّما كانت لوسي ستحتجّ، إلّا أنّها لم تجرؤ أمام شخص غريب، المسؤول على الجناح، بحيث لمْ تعرف كيف وجدَت نفسها في مقصورة.

بعد وقت قصير، أزحتُ جزءاً من الستارة لأنظر إليها، ومع أنّ الفستان المُجرَّب لم يكن به ما يُثير، فإنني لم أتراجع: لقد جعلتْ تفصيلتُه الحديثة من لوسي، كما لوْ بلمسةٍ سحريّة، شخصاً آخَر. قال البائع الذي كان خلفي «هل تسمح؟»، ثم أسهبَ بإعجاب في الثناء على لوسي وعلى الفستان. عندذاك نظر إليّ وإلى الشارتيْن وسألني (وإن كان الجواب بادياً للعيان) إذا ما كنتُ من «السياسيّين»، أوْمأتُ برأسي إيجاباً. غمزَ بعينه وابتسم ثم قال: «لديّ عيّنات أرقى، ألا تريد أن ترى ذلك؟»، وأراني فوراً مجموعة مُتناسقة من فساتين الصيف وفستاناً مكسواً أسود. جرّبتْ لوسي الفساتين واحداً تِلو الآخر، وقد ناسَبَتْها جميعُها بصورة فاتنة، كلّ واحدٍ كان يُحدثُ فيها تحويلاً، وفي الفستان الأسود لم أتعرّفها بتاتاً.

اللحظاتُ الحاسمة في تطوّر الحُبّ لا تنبثقُ دوْماً من أحداث

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

دراميّة، بل هي في الغالب نتيجة ظروفٍ لا معنى لها إطلاقاً في النظرة الأولى. تلك كانت حال زيارتنا لمحلّ الألبسة الجاهزة. فإلى حدود ذلك الحين، مَثّلت لوسي بالنسبة إليّ كلَّ الاحتمالات: كانت الطّفلة، ونبع الحنان والعزاء، البلسم والملاذ الذي أفرُّ إليه من نفسي، لقد مثّلت لي كلّ شيء ما عدا كونها امرأة. لم يكن حبّنا، بالمعنى الجسديّ للكلمة، قد تجاوَزَ عتبة القُبَل. وحتى طريقة لوسي في التقبيل كانت طفوليّة (كنتُ مفتوناً بطول القبَل الطاهرة من شفتيْن مُغلقتيْن تبقيان ناشفتيْن وتبديان في تماسّهما خُدَيداتهما العموديّة الرقيقة على نحو لا يوصف).

وباختصار، لقد كان الحنان هو أساس ميلي نحوها لا الجانب الجسديّ، وقد تعوّدتُ على هذا الغياب حتى لم أعُد أنتبه إليه. كان تعلّقي بلوسي يبدو لي رائعاً حتّى إنّ فكرةَ نقصه ما كانت لتخطر ببالي. يا له من تقاطع مُتناغم: لوسي بفساتينها الرّهبانية وعلاقتي الرهبانية الطاهرة معها. ولكن، في اللحظة التي ارتدت فيها لوسي فستاناً جديداً، انقلبت المُعادلة تماماً: فجأةً جعلتْ لوسي صورةَ لوسي تهجُرُ مُخيِّلتي. فرأيتُ الساقيْن اللتيْن كانتا ترتسمان تحتَ تنّورة ذات تفصيل جيّد، أبعادَ الجسد المُتوازنة بنعومة، رأيتُ امرأةً جميلة ذابت رصانتُها الشّاحبة في ثوب بلون فاتح وشكل أنيق. كان هذا الاكتشافُ المُفاجئ لجسدها قد ترَكني مبهوراً.

كانت لوسي تُقيمُ في غرفة مع ثلاث فتيات أخريات، ولم تكن الزيارة مسموحة إلّا يوميْن في الأسبوع لمدّة ثلاث ساعات فقط، من الخامسة إلى الثامنة، وكان على الزّائر أيضاً أن يُسجّلَ اسمه لدى الحارس في الطابق السفلي ويترك بطاقته الوطنيّة ويُعلن نفسَه من جديد قبل المغادرة. وفضلاً عن ذلك، كان لكلِّ واحدة من زميلات

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لوسي الثلاث عشيقاً أو عشاقاً، وعلى كلّ واحدة أن تستقبل عشيقها بصورة حميمة في الغرفة المشتركة، بحيث كنّ يتشاجرن ويكرهن بعضهنّ، ويتبادلن اللوم على كلِّ دقيقة تقضمها إحداهنّ. كل ذلك كان شاقاً بحيث لمْ أخاطر أبداً بالذهاب إلى لقاء لوسي في غرفتها. ومع ذلك كنتُ أعرف أنّ على زميلات لوسي، اللواتي يتقاسمن معها الغرفة، الالتحاق خلال شهر بفرقة زراعيّة لمدّة ثلاثة أسابيع. لذلك قلتُ للوسي إنني أودّ اغتنام هذه الفترة لزيارتها بغرفتها. اغتمّت لوسي، وقالت إنّ صحبتها لي خارج البيت كانت تروقها. قلتُ لها إنني كنتُ أتمنّى أن أوجد إلى جوارها في مكان حيث لا أحد ولا شيء يُزعجنا، كي يتسنّى أن نكون معاً من أجل بعضنا، وفضلاً عن ذلك فقد وددتُ أن أرى كيف كانت تعيش في بيتها. لم تعرف لوسي كيف تصمد أمام إلحاحي، وما زلتُ إلى اليوم أتذكّرُ اضطرابي لمّا وافقتْ في الأخير على اقتراحي.

10

كان قد مرَّ على وجودي بأوستراڤا قرابة عام، والخدمة التي لمْ أكُن أطيقها في البداية أصبحت شيئاً مُبتذلاً واعتياديّاً، كما تمكّنتُ في أجواء كلّ المُنغّصات من التصدّيّ، فقد نسجتُ علاقة مع رفيقيْن أو ثلاثة وكنتُ سعيداً، كان الصيف بالنسبة إليّ رائعاً (ورغم أنّ الأشجار كانت مليئة بالسّخام، فقد كانت عيناي المغسولتان بالكاد من ظلمةِ المنجم تراها شديدة الخضرة)، غير أنّ بذرة التعاسة تختفي، كما هو معلوم، في قلب الغبطة، فأحزان الخريف كانت مُرتسِمة خلال ذلك الصيف الأخضر - الأسود.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ابتدأ ذلك مع ستانا. عقدَ قرانه في آذار/ مارس، وبعد شهور قليلة كانت أولى الأخبار تصله: لقد كانت زوجته تتسكّعُ في الحانات الليليّة، وأمام الغضب الذي انتابهُ، بعثَ إليها يوميّاً برسالة فكانت الردود تصله مُطَمْئنة، عند ذلك (إضافة إلى الأيام الزاهية)، حلّت أمّه بأوسترافا، وقضى معها يوم سبت كامل ثم عاد إلى المعسكر مُمتقعاً، صموتاً. في البدء، مَنعهُ إحساسُه بالخزي من الكلام، ومع ذلك فاتَحَ هونزا في اليوم الثاني، ثم بعضَ الرفاق الآخَرين، ولمّا رأى أنّ الجميع على عِلم بما جَرى، تحدّثَ عن الموضوع أكثر، يوميّاً وبدون انقطاع: قال إنّ زوجته تُمارسُ الدّعارة، وسوف يذهبُ ليقول لها كلمتيْن ويقصف رقبتها. وسرعان ما ذهب إلى لقاء القائد لطلب إجازة من يوميْن، غير أنّ القائد تردّد في تمكينه منها، لأنه توصّل، في تلك الأيام بالضبط، بشكاوى عديدة (من الثكنة كما من المنجم) ضدّ ستانا الشارد والساخط باستمرار. لذلك توسّل ستانا إلى القائد أن يسمح له على الأقلّ بأربع وعشرين ساعة، وإشفاقاً عليه سمح له بها، فغادر ستانا ولمْ نرَه بعد ذلك أبداً. ما وقعَ له لمْ أعلم به إلّا من طريق ما راج من حديث:

وَصل إلى براغ، وهاجَم امرأته (أقول امرأة ولكنّها كانت فتاةً في التاسعة عشرة من عمرها!) فاعترفتْ له بوقاحة (ولربّما بالتذاذ) بكلّ شيء، وبدأ بضرْبها، قاومَته فحاول خنقها، وفي الأخير شجَّ رأسها بزجاجة، انهارت الصَّبية على الأرض وبقيت جامدة. لاذ ستانا بالفرار مفزوعاً، وحدهُ الإله يعلمُ كيف عثر على بيت خشبيّ صغير في أعماق الجبال، حيث مَكث في انتظار العثور عليه وإرساله إلى المشنقة. تمَّ فعلاً القبض عليه بعد شهريْن، وحوكِم لا بتهمة القتل، بل الفرار من الخدمة. ذلك أنّ زوجته استعادت وَعْيها بعد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مغادرته بوقت قليل، وباستثناء حدبة في رأسها، فقد كانت سليمة. وعندما كان يقضي عقوبته بالسِّجن العسكريّ، طلبَت منه الطّلاق، وهي اليوم زوجة ممثل شهير من براغ، أذهبُ بين الفينة والأخرى لمُشاهدَته كي أتذكّر الرفيقَ القديم الذي ساقته الظروف إلى نهاية مأسويّة: بعد إنهائه للخدمة العسكريّة، بقيَ عاملاً بالمناجم، وتعرّضَ لحادثة عمل حرَمته من إحدى ساقيْه، ثمّ حرمه بترُها الذي لم يندمِل من الحياة.

هذه المرأة الطيّبة، التي يُقال إنّها تتألّقُ دوماً في حلقات الفنّانين، لم تجلب النّحس لستانا وحده، بل لنا جميعاً. كان ذلك على الأقلّ ما شعرْنا به وإنْ لم يكن مُمكناً الاستدلال بدقة إذا ما كانت هناك حقاً (كما كان الجميع يعتقد) علاقة سببيّة بين الفضيحة المحيطة باختفاء ستانا وزيارة لجنة مراقبة وزاريّة بعد ذلك بقليل لثكنتنا. وعلى كلّ حال، فقد تمّ عزل قائدنا وتعويضه بقائد شابّ (كان بالكاد في الخامسة والعشرين من عمره)، الذي بمجيئه تغيّرَ كلُّ شيء.

قلتُ إنّه كان في الخامسة والعشرين من عمره، لكنّه كان يبدو أصغر بكثير، له هيأة صبيّ وكان يجهد في إبداء الشّر لخلق انطباع لدينا عنه. لمْ يكن يُحبّ أن يصرخ، كان يتكلّمُ بجفاء، مُفهِماً إيّانا عبر هدوءٍ رصين أنّه كان يعتبرنا جميعاً مُجرمين، قال لنا منذ خطبة قدومه: «أعلم أنّ أغلى أمانيكم أن ترَوني على المشنقة، والمصيبة أنّه إذا كان هناك مَن سيُشنق، فسيكون أنتم لا أنا».

ما كان لأولى الصراعات أن تتأخّر. لقد ظلّت قصة سينيك، بصورة خاصّة، عالقة في ذاكرتي، لأنّها بدت لنا مُسلّية جدّاً: منذ أنْ تمّ تجنيد سينيك قبل سنة، رسَم لوحات جداريّة كبيرة، كانت تلقى،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في فترة القائد السابق، استحساناً. كان موضوعُه المفضّل هو، كما سبق أن أشرتُ، جان زيزكا، القائد الكبير لحروب أتباع هوس وجنودُه القروسطيون، وحِرصاً من سينيك على تسلية الرّفاق، كان يُدرجُ ضمن هذه الجماعات صورة امرأة عارية، كان يُقدّمها للقائد بوصفها رمزاً للحرّية أو للوطن. وبما أنّ القائد الجديد صمَّم هو أيضاً اللجوء إلى خدمات سينيك، فقد استدعاه كي يطلب منه أن يرسم شيئاً لتزيين القاعة الخاصّة بدروس التربية السياسيّة. وقال له حينذاك أن يتخلّى هذه المرّة عن أفكار زيزكا البالية كي «يتوجّه أكثر إلى ما هو مُعاصر»، وأنّ على اللوحة أن تُجسّد الجيش الأحمر ووحدته مع طبقتنا العمّاليّة وأهمّية هذه الوحدة في انتصار الاشتراكية في شباط/ فبراير. قال سينيك: «حسناً، سيدي القائد!» وانطلق في الإنجاز، عكف لأيام عديدة بعد الظهر على ورق أبيض ضخم موضوع على الأرض، قبل أن يُعلّقه بدبابيس على طول الجدار في صدر القاعة. عندما اكتشفنا اللوحة التي انتهى منها (كانت بمتر ونصف عُلوّاً وثمانية أمتار طولاً على الأقلّ) عمَّ الجميعَ الصمت: في وسط اللوحة، جنديّ روسي بهيئة بطل، مرتدياً لباساً ثقيلاً برُشيِّشة متدلية من عنقه، معتمراً طاقية من الفرو حتى أسفل أذنيه، محاطاً بثماني نساء عاريات، اثنتان إلى جانبه تنظران إليه بغنج بينما يُمسك هو كلَّ واحدة من كتفها، والتي على ملامحها أثر السّكر مُرتجّة بضحكة متهتّكة، النساء الأخريات محيطات به بإعجاب، باسطات أيديهنّ في اتجاهه أو متسمّرات هناك فقط (ثمة أيضاً واحدة مستلقية) عارضات مفاتنهنّ.

وقفَ سينيك أمام اللوحة (كنّا وحدنا في القاعة في انتظار المُفوّض) وانطلق في عرْضٍ على هذا النحو: طيّب، هذه، أيّها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

السادة، التي على يمين العقيد هي ألينا، إنّها أوّل امرأة في حياتي، كنتُ في السادسة عشرة من عمري عندما ظفِرَتْ بي، كانت زوجة ضابط وهي بذلك في هذا المكان على نحو مُضحك. لقد رسَمْتُها بالهيأة التي كانت عليها في تلك المرحلة، هي اليوم بلا شكّ أقلّ جمالاً، لكنّها كانت في ذلك الوقت تميل إلى البدانة كما تلاحظون من خلال وركيْها بوجه خاصّ (وأشار إليهما بسبّابته). وبما أنّها كانت أكثر جمالاً من الخلف، فقد رسمتُها مرّة أخرى هنا (انتقل إلى جانب من جوانب اللوحة وأشار بأصبعه ناحية امرأة كانت تَظهرُ عارية من الخلف وتبدو مُتّجهة نحو مكان ما). لديها كما تلاحظون ردف مَلِكة، لربّما العيار يفوق شيئاً ما الحجمَ العادي، ولكنْ هكذا كنّا نُحبّها. وانظروا إلى هذه (كان يُشير إلى المرأة التي على يسار الرقيب)، إنّها لوجزكا، لمّا ظفِرتُ بها كنت قد بلغت السنّ المطلوبة، كان لها ثديان صغيران (كان يُشير إليهما)، وساقان طويلتان (كان يشير إليهما) ووجهٌ فاتن (كان يُشير إليه)، وكانت من جيلي في المدرسة. أمّا الأخرى، هناك، فقد كانت موديلَنا في معهد الفنون، أعرفُ جسدها بدقة متناهية كما كان يعرفه العشرون شابّاً الذين كانوا معي بالدقة ذاتها، لأنّها كانت تتخذ وَضعاً وسط الفصل، وكنّا نتدرّبُ على رسْم الجسد البشريّ انطلاقاً منها، ولكن لا أحد لمَسها، كانت أمُّها دوماً تنتظرُها عند الباب لتعود بها فوراً إلى الحظيرة، لِيَغفر الإله لهذه الفتاة، فلمْ نُسهب في رسْم تفاصيل جسدها إلّا بعفّة تامّة. في حين أنّ هذه، أيّها السادة، كانت امرأةً قذرة (عيَّن واحدة كانت مستغرقة في أريكة منمنمة)، اقتربوا، تعالَوْا لتنظروا (وهو ما قمْنا به)، انظروا هذه النقطة على بطنها، أترَونها؟ إنّها علامة حرْق بسيجارة أحدثتها عشيقتها بدافع الغيرة، لأنّ هذه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المرأة، أيّها السادة، كانت تُضاجع الرجال والنساء، كان لها فرج، هو أكّرديون حقيقيّ، فيه كان كلّ شيء يجد مكانه، كان مُمكناً أن نلجَه جميعاً مهما بلغ عددُنا، صحبة زوجاتنا وعشيقاتنا وأطفالنا وأجدادنا القدامى.

كان واضحاً تأهّب سينيك لتناوُل الجزء الأهمّ في عرْضه عندما دخلَ المُفوض قاعة الدروس، بحيث توجَّبَ علينا العودة إلى مقاعدنا. وبما أنّ المُفوض قد اعتاد على أعمال سينيك منذ عهد القائد السابق، فإنّه لمْ يكترث بتاتاً للّوحة الجديدة. وشرَع توّاً في قراءة كرّاسةٍ بصوت مرتفع، مُوضِّحاً الفرق بين جيْشٍ اشتراكيّ وجيْشٍ رأسمالي. كان عرْض سينيك لا يزال يرنّ في آذاننا وهواجس هادئة تُهَدهدُ خيالنا عندما دخل القاعة الصبيّ القائد. لقد جاء بلا شكّ لحُضور حصّة الدرس، ولكن قبْل أن يتمكّن من تسلُّم التقرير القانونيّ تلقّى ضربة المطرقة من اللوحة الجداريّة الكبيرة، ومن غيْر حتى أن يترك المُفوض يُواصِلُ قراءَتَه، سألَ سينيك بنبرةٍ باردة عمّا كانت تعنيه اللوحة. قفزَ سينيك ووقف أمام لوحته خاطِباً: هذه أيقونة ترمزُ إلى أهمية الجيش الأحمر في المقاومة التي نهضَ بها شعبُنا، هنا (وأشار إلى الرقيب) الجيش الأحمر، وفي كلّ جانب تجسيدٌ لرموز الطبقة العمّالية (أشار إلى زوجة الضابط) ولأيام شباط/ فبراير المجيدة (أشار إلى صديقته أيام الدراسة). ها هو (وأشار إلى نساءٍ أخريات) رمز الحُريّة، ورمز النّصر، ورمز المساواة، وهنا (أشار إلى زوجة الضابط عارية من الخلف) نتعرّف إلى البورجوازيّة وهي في طريقها إلى مغادرة مسرح التاريخ.

سكت سينيك، فأعلن القائد أنّ هذه اللوحة إهانة للجيش الأحمر وجَبَ إزالتُها فوراً، وسوف يرى بشأن سينيك ما سوف يُثبته

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في سجلّه. تساءلتُ (همساً) عن السبب. فسألني القائد، الذي سمعَ ما قلت، إذا ما كانت لديّ اعتراضات لتقديمها. نهضتُ وقلتُ إنّ هذه اللوحة أعجبتني. فقال القائدُ إنّه لم يكن يشكّ في ذلك بما أنّها كانت مُناسِبة بالضبط لِمُمارسي الاستمناء. قلتُ إنّ ميسلبك الوقور نحتَ هو أيضاً الحرية في صورة امرأة عارية، وإنّ نهر جيزيرا في لوحة آل الشهيرة تمّ تجسيده عبر ثلاث نساء عاريات، وقد قام الرسّامون بالشيء نفسه في كلّ العصور.

رمَقني الصبيّ القائد بنظرة مُرتبكة وكرَّرَ أمْرَهُ بإزالة اللوحة. لربّما نجحْنا في إرباكه، لأنّه لمْ يُعاقب سينيك، إلّا أنّه أضمرَ له حقداً وأضمره لي أيضاً. وبعد أيام قليلة، تلقى سينيك عقوبة تأديبيّة وتلقيتُها أنا أيضاً بعْده.

جرى ذلك على النحو الآتي: ذات يوم، كانت الكتيبة تعملُ بمعاول ومجارف في زاوية منعزلة بالثكنة تحت مُراقبة عريف خامل كان يُتابعنا بإهمال، بحيث كنّا كلَّ لحظة نتّكئُ على أدوات العمل لنتبادَل الحديث دون أن ننتبه إلى أنّ الصبيّ القائد كان كامِناً غير بعيد يُراقبنا. لم نتفطّن إليه إلّا بعْد لحظة عندما ارتفع صوتهُ بعجرفة: «الجندي جان، تعال!». أمسكتُ مجرفتي بهيأة واثقة وانتصبتُ أمامه لتلقي الأمْر: «أهذه طريقتكم في العمل؟»، سألني. لم أعرف بمَ أجبْته، ولكنّ المؤكّد أنّه لمْ يكن جواباً فظّاً، لأنني لمْ أكن أريدُ إطلاقاً أن أعقّدَ حياتي بالمُعسكر وأن أزعجَ لأمور تافهة شخصاً كانت له كامل السلطة عليّ. إلّا أنّ ذلك لم يمنع القسوة من الارتسام في نظرته بعد جوابي المُرتبك والتافه، إذ اقترب منّي وبسرعة خاطفة أمْسك بيدي، وبقبضة جيدو مُتقنة طرَحني أرضاً. ثمّ أقعى فوقي مُبقياً إيّاي مُسمَّراً على الأرض (لم أبْدِ مقاومة، كنتُ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مُندهشاً فقط). «أيكفي هذا؟»، سألني بصوت مُرتفع (حتى يتسنّى للجميع سماعه من بُعد)، أجبْتُه بأنّ ذلك يكفي. فأمرني أن أقف لتلقّي الأمْر، وأمام الفرقة المُصطفّة أعلن: «أقرّرُ عقوبة حبْس من يوميْن للجنديّ جان، لا لأنّه أساء الأدب معي. فذلك سوّيْتُه، كما رأيتم، بسرعة. عقوبة الحبس، لأنه كان يغشّ في العمل. وهناك مثلها لأجلكم».

لمْ أشعر في تلك اللحظة تجاهه إلّا بالكراهية، والكراهية تُصدرُ ضوءاً حادّاً للغاية يُفقد الأشياءَ أشكالها. لذلك بدا لي قائدي، بكامل البساطة، مثل جُرَذٍ حقود وماكر. أمّا اليوم، فأراه بصورة خاصّة مثل شخص كان شابّاً وكان يلعب. والشباب إن لعِبوا فالخطأ، في نهاية المطاف، ليس خطأهم، فهُم غير ناضجين، لكنّ الحياة تضعُهم في عالمٍ ناضج، حيث يُفرَضُ عليهم أن يتصرَّفوا مثل رجال ناضجين. فيهرَعون تبعاً لذلك إلى تبنّي أشكال ونماذج ذائعة الصيت تُناسِبهم وتروقهم، فيلعبون.

كان قائدنا غير ناضج هو أيضاً، وذات صباح وجدَ نفسهُ أمام فيْلقِنا عاجزاً تماماً عن فهْمه، ولكنه عرف كيف يجدُ لنفسه مخرجاً، لأنّ ما قرأهُ وسمعه، منحهُ قناعاً مُناسباً تماماً لمثل هذه الأوضاع: مثل قصة البطل الفولاذي في القصص المُصوَّرة، شابّ بأعصاب فولاذية يُدرِّبُ عصابة من الأشرار بدون كلام رنّان، لا شيء غير الهدوء البارد، والدعابة المكشوفة التي تُحقّق هدفها، واثقاً في ذاته وفي قوّة عضلاته. وكلّما كان وعيُه بمظهره الصبياني يزداد، كان حماسه، في دور السوبرمان الذي يُؤدّيه، يشتدّ.

ولكن، هل كانت تلك هي المرّة الأولى التي التقيتُ فيها مُمثلاً شابّاً مثله؟ في أثناء استجوابي بسيكرتارية الحزب بشأن البطاقة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

البريديّة، كنتُ بالكاد تجاوزتُ العشرين من عمري، ولمْ يكن المُستجوِبون يكبرونني إلّا بسَنة أو سنتيْن، فهُم كذلك كانوا، في نهاية المطاف، صبياناً يُخفون وجوهَهم غير الناضجة تحت قناع كانوا يعتقدونه الأفضل من بين كلِّ الأقنعة، قناع الثوريّ الزاهد والصُّلب.

وماذا عن ماركيتا؟ ألمْ تخترْ أداء دور المُخلِّصة، الدور المُجترّ، فضلاً عن ذلك، في فيلم **الموسم الرديء** بالشاشة. وزيمانيك، ألمْ تستوْل عليه فجأة الخُطَب الحماسيّة عن الأخلاق؟ أليس ذلك دوراً؟ وأنا؟ ألم تكن لي أدوارٌ كثيرة؟ ركضتُ فيها باضطراب من واحد إلى آخر حتى اللحظة التي تمَّ إمساكي فيها مثل عدّاء مُرتبك.

فترةُ الشباب مُرعبة: إنّها مسرحية يُجسّد فيها الصِّبْية، بأحذية التمثيل العالية والبدلات الأكثر تنوّعاً، أدواراً، ويتلفظون بتعابير حفظوها من غير أن يفهموها بوجْه تامّ، ومع ذلك يتمسّكون بها بعصبيّة. التاريخ هو مُرعب أيضاً، يُستخدمُ في الغالب ملعباً لغيْر الناضجين، ملعباً لنيرون صبيّ، ولبونابارت صبيّ، ولحشود الصِّبْية المُتحمّسين، حيث تتحوّلُ محاكاتُهم للانفعالات وأدوارُهم التبسيطية إلى واقع واقعيّ بصورة مُفجعة.

عندما أفكّرُ في ذلك، يرْتجُّ كلُّ سُلّم القِيَم في ذهني، فأشعرُ بكرْهٍ عميق تجاه مرحلة الشباب وبنوع من الشفقة المُفارقة، في المُقابل، تجاه قرصان التاريخ الذين لا أرى فجأة في تصرّفهم إلّا هِياجاً شنيعاً لغير النّاضجين.

بشأن غير الناضجين، أتذكّرُ ألكسيج، هو أيضاً كان يؤدي دورهُ الكبير الذي كان يفوقُ عقله وتجربتَه. كان لديه قاسم مشترك مع قائدنا: كان يبدو هو كذلك أصغر من سنّه، ولكنّ شبابَه (خلافاً للقائد) كان بلا حظوة، فقد كان ألكسيج قصيراً ونحيلاً، له عينيان

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حسيرتان خلف نظارة سميكة، وبشرة مُبقّعة بنقط سوداء (ثمن مراهقة كانت تتأبّد)، بدْءاً وجدَ نفسه، باعتباره قادماً من وحدة كان فيها طالباً في صفّ الضبّاط المُشاة، مُجرّداً بين عشية وضحاها من امتيازه ومُعيَّناً معنا. كنّا، فعلاً، عشية المحاكمات الشهيرة، والقاعات العديدة (بالحزب، والمحكمة، والشرطة) حيث الأيدي كانت تُرفَعُ باستمرار لتجريد المُتّهَمين من الثقة، والشرَف، والحرية. كان والده، الذي تمّ اعتقاله منذ وقت قريب، شخصية شيوعية مهمّة.

ظهر ألكسيج يوماً بفرقتنا، وسُلِّم له السرير الذي تركه ستانا. كانت نظرته تجاهنا شبيهة بتلك التي كانت لي في البداية تجاه رفاقي الجُدد، كان مُنغلقاً على نفسه، ولمّا علِم الآخرون بأنّه عضو في الحزب (لمْ يكن قرارُ فصله قد صدَر بعْد) أخذوا يحتاطون في ما يقولونه أمامه.

وعندما علِمَ بأني كنتُ منتمياً إلى الحزب، أصبح أقلّ تحفظاً معي في الكلام، فأسرَّ لي أنّ عليه، مهما كلَّفه الأمْر، اجتياز الامتحان الكبير الذي فرضته الحياةُ عليه بأن يظلّ وفياً للحزب. وقرأ لي فيما بعد قصيدة نظمَها (وإن لم يكن كتب إطلاقاً شعراً من قبْل) بعْد أنْ علِم بأنّه سوف يُرسَلُ إلى هنا. وقد تضمّنت هذا المقطع الرّباعي:

أحرارٌ أنتم رفاقي
في تحويلي كلباً والبَصْق عليّ
تحت قناع الكلب هذا، وتحت بُصاقكم، أيّها الرّفاق
وفياً سأظلُّ، معكم، في الصّفّ.

كنتُ أتفهّمه، لأنني شعرتُ، أنا أيضاً، بالشيء نفسه قبْل سنة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

غيْر أنني كنتُ لحظتذاك أقلّ تمزّقاً بكثير، فَلوسي، دليلي اليوميّ، كانت قد أخرَجتني من هذه المنطقة حيث كان أمثال ألكسيج يتعذبون فيها بيأس شديد.

11

عندما كان الصبيّ القائد يُرسي نظامَه في وحدتنا، كنتُ أتساءَلُ بوَجهٍ خاصّ إذا ما كنتُ سأحصل على ترخيص الخروج، ولا سيما أنّ زميلات لوسي كنّ قد التحقن، منذ وقت طويل، بفريق المُزارعين، في حين مَضى شهر كامل من غير أن أغادر المُعسكر. لقد حفظ القائد جيداً اسمي وملامحي، وهو أسوأ ما يُمْكن أن يقعَ لأحَدٍ في الفيلق. كما لمْ يكن، الآن، يُفوِّت أيّ فرصة لِيُفهمَني أنّ أيّ لحظة من حياتي تتوقّفُ على نزوته. أمّا ما كان يتعلّقُ بالتراخيص فشهدَ تشدّداً واضحاً، إذ أعلن منذ مجيئه أنّها لن تُمنَح إلّا لمَنْ سيشاركون بانتظام في فرق العمل التطوعيّ ليوم الأحد، لذلك شاركنا فيها جميعاً، غير أنّ الحياة أصبحت مُضنية، إذ لم يبْقَ لنا يومٌ مُستثنى من النّزول إلى المناجم، وإذا تسنّى لأحدنا الحصول أخيراً على إجازةٍ يوم السبت والسَّهر خارج الثكنة إلى حدود الثانية صباحاً، فإنّه يصبحُ، باستئنافه للعمل، على وشك السقوط من قلّة النوم.

انخرطتُ مثل الآخرين في عمل يوم الأحد، وهو ما لمْ يكن يمنحني إطلاقاً ضمانَ الحُصول على ترخيص الخروج، إذ كان يكفي سريرٌ غيْرُ مُنظَّم أو أيّ هفوةٍ أخرى لإلغاء استحقاق المجهود المبذول يوم الأحد. غير أنّ غطرسة السّلطة لا تتكشّفُ من القسوة فقط، ولكن (وإن نادراً جدّاً) من الوداعة أيضاً. وهكذا، بعد مرور بضعة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أسابيع تملّكتِ الصبيّ القائد الرغبة في أن يكون كريماً، فحصلتُ في آخر لحظة على الترخيص، يوميْن قبل عودةِ زميلات لوسي.

اضطربتُ عندما قيَّدَت العجوز المُكلّفة بالإقامة اسمي في سجلّ قبْل أن تسمح لي بالصعود إلى الطابق الرّابع حيث طرقتُ باباً في أقصى رواق طويل. انفتَح البابُ، لكن لوسي ظلّت مُتوارية خلفه، لمْ يكن أمامي غير الغرفة، التي لا شيء يربطها، في النظرة الأولى، بغرفة سَكن، حتى أوشكتُ على الاعتقاد أنني في غرفة مُهيّأة لما لا أدري من طقوس دينيّة: كانت هناك طاولة تشِعّ بباقة زهور الدّهلية، وغُصنا تين كبيران منتصبان إلى جوار النافذة، وفي كلّ مكان (على الطاولة، على السّرير، على الأرضية، خلف الإطارات) نَثيرُ نبتات خضراء (عرفتُ فيما بعد أنّه هليون زينة) كما لو كانَ يُنتظَرُ مجيء المسيح فوق جَحشه.

اجتذبتُ لوسي (التي كانت دوماً مُتوارية خلف الباب المفتوح) وقبّلتُها. كانت ترتدي الفستان الأسود، وتنتعلُ حذاءً خفيفاً بكعب عالٍ كنتُ أهديتُه إليها يوم اشترينا الفساتين. كانت واقفة مثل كاهنة وسط هذه الخضرة الاحتفاليّة.

أغلقتُ الباب، وحينذاك فقط أدركتُ أنني في غرفة سَكن تافهة، وأنّ الديكور النباتي لمْ يكن يُغطّي شيئاً غير أربعة أسِرّة من الحديد على رؤوسها لويْحات مكشوطة، وطاولة بثلاثة كراسي. غير أنّ ذلك لمْ يكن قادراً إطلاقاً على إضعاف الحماس الذي اعتراني منذ اللحظة التي فتحتْ فيها لوسي الباب: فبعد شهر، تمَّ تحريري أخيراً لبضع ساعات، بل كان ما هو أبعد من ذلك، إذ لأوّل مرّة بعد سنة طويلة وجدتُ نفسي من جديد في غرفة صغيرة، وكان نفَسٌ حميمٌ يُغطّيني بفوْحه المُسكر وقوّته التي كادت تصرعُني.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حتى تلك اللحظة، كان الفضاء المفتوح، في أثناء كلّ النّزهات مع لوسي، يربطني بالثكنة وبالوضع الذي كنتُ أعيشه. بخيط هذا الفضاء الخفيّ، كان الهواء في كلّ مكان يتطايرُ من جميع الجهات، واصلاً إيّاي بالسياج الذي كانت تعلوه عبارة «نحن في خدمة الشعب»، لم يكن ثمة مكان على الإطلاق، حسب ما كان يبدو لي، يُمْكنُ فيه للحظة على الأقلّ أن أكفّ عن «خدمة الشعب»، لمْ أجد نفسي، على امتداد سنة بكاملها، بين الجدران الأربعة لغرفة صغيرة خاصّة.

لقد كانت، بصورة مُباغتة، وضعيةً جديدة، شعرتُ خلال ثلاث ساعات بحُريّة كاملة، كان بمقدوري مثلاً خلع ثيابي بلا خوف (ضدّ كلّ القوانين العسكريّة) لا القبّعة والحزام فقط، ولكن السترة والسروال والحذاء العسكريّ وكلّ شيء أيضاً، كان بمقدوري، عند اللزوم، أن أدوسها، كان بمقدوري أن أفعل أيّ شيء دون أن يراني أحد من أيّ مكان، وفضلاً عن ذلك كانت الغرفة دافئة على نحو رائع، وكان هذا الدّفء وهذه الحريّة يتسرّبان إلى رأسي. عانقتُ لوسي واقتدتُها إلى السّرير المُغطّى بالخضرة. أربكتْني تلك الغُصيْنات فوق السرير (المزيَّن بملاءةٍ رماديّة رخيصة). لمْ أرَ لها تفسيراً آخر غير عدِّها رموزَ زفاف، فخطرت لي فكرة (وأثارتني) أنّ في براءة لوسي كانت ترنُّ لا شعوريّاً أكثر العادات قِدماً، بحيث صمّمت على توديع عذريتها بطقوس احتفاليّة.

لزمني بعض الوقت كي أدركَ أنّ لوسي كانت، حتى وهي تُبادلني القبَل والعناق، تقومُ بذلك بتحفّظ واضح. شفتاها بقيتا، رغم تعطّشهما، مضمومتيْن، كانت تلتصِقُ بي بكامل جسدها، لكن عندما دسستُ يدي تحت تنّورتها كي أتحسَّسَ بيدي بشرة فخذيها،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ابتعدَت. وأدركتُ أنّ التلقائية التي كنتُ أودّ اجتذابَها إليها، في حُمّى دوخة عمياء، بقيت فرديّة، أتذكّرُ حينذاك أنني شعرتُ (وقد مضى على وجودي بغرفة لوسي أقلّ من خمس دقائق) بدُموع الخيبة في عيني.

جلسْنا إذاً فوق السرير جنباً إلى جنب (ساحقين الغُصيْنات المسكينة بأردافنا) وأخذنا في تبادُل الحديث. بعد وقتٍ غير يسير (كان الحديث قد فتر) كنتُ أحاولُ تقبيلها من جديد، غير أنّها كانت تصدُّني، فأخذتُ أقاومُ تمنّعها، إلّا أنني سرعان ما أدركتُ أنْ لا علاقة للأمر بمُبارزة الحُبّ المُسليّة، بل بعراكٍ مُرجَّحٍ تماماً لأنْ يؤول بلقائنا إلى ما لا أدريه من سوء، لأنّ لوسي كانت تُدافع عن نفسها جدياً بعنف إلى حدّ اليأس تقريباً. فلم يكن أمامي من خيار إلّا أن أتوقف.

كنتُ أتوسَّلُ بالكلام لإقناعها، وشرعتُ في الحديث؛ قلتُ لها، بلا شك، إنني كنتُ أحبّها وإنّ الحُبّ يعني أن يمنح الواحدُ للآخر ذاتَهُ كلّية، وقد كانت حُجج الإقناع على تفاهتها غير قابلة إطلاقاً للدّحض، كما أنّ لوسي لم تكن بتاتاً تريد دحضها. عوض ذلك، كانت تلتزم الصمت أو تتوسّلُ بإلحاح: «لا، أرجوك، لا!» أو «ليس اليوم، ليس اليوم!...»، جاهدة إذاً (بطريقة خرقاء مُؤثرة) في تحويل الكلام إلى موضوع آخر.

ثم واصلتُ الحديث قائلاً: «هل أنتِ مثل تلك الفتيات اللواتي يُؤجّجن رغبة الشريك كي يسخَرن منه فيما بعْد؟ أأنتِ بهذا البرود وبهذا العُنف؟» ثم ضممتُها إليّ من جديد، ومن جديد اندلع عراكٌ قصير مؤلم تركَ لديّ من جديد طعماً مُرّاً لفظاظته وخلوه من أيّ قطرة حُبّ.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

توقفتُ، واعتقدتُ فجأةً أنني أدركتُ لِمَ كانت لوسي تصدّني، يا إلهي، كيف فاتني ذلك من قبْل؟ فلوسي طفلة، ولا بدّ أنّ المُضاجعة تُخيفها، فهي عذراء وتخافُ من المجهول. هكذا قرّرتُ فوراً أن أبْعِدَ عن تصرّفاتي هذه الطّرق المُلحّة التي لا تؤدّي إلا إلى تثبيطها، وأنْ أبدوَ وديعاً، لئلاّ تختلف المُضاجعة في شيء عن وداعتنا. لذلك لمْ ألحّ من جديد وعاملتُها بلطف. قبّلتها (المدّة طويلة جدّاً حتى إنني لمْ أشعر بأيّ لذة) وداعبتُها (مُضطرّاً) ساعياً من غير أن أظهِر ذلك أن أمدّدها على السرير. وقد وُفقتُ في مداعبة نهديْها (لمْ تعترض لوسي إطلاقاً)، وهمستُ في أذنها أنني أردتُ أن أكون حنوناً تجاه كلّ جسدها، لأنّ هذا الجسد لا ينفصِلُ عن هويتها، وأنني أردتُ أن أكون حنوناً لأجلها هي كاملة، ووُفقتُ حتى في رفْعِ تنّورتها قليلاً، وتقبيلها عشرة سنتمترات أو عشرين سنتمتراً على ركبتها، ولكنني لمْ أبلغ أبداً أبْعد من ذلك، وعندما كنتُ مُقبلاً على دسّ رأسي بين فخذيها، ابتعدَت مرعوبة وقفزَت من فوق السرير. نظرتُ إليها، فرأيتُ على وجهها جهداً لا يُتصوّر، تعبيراً لم يسبق أبداً أن صدر عنها.

لوسي، لوسي، أهو ضوْء النهار الذي يُحرجك؟ أتريدين أن نحْجب الضوء؟ سألتُها، تعلّقتْ بسؤالي مثل لوْح نجاة ووافقت أنّ الضوء كان يُزعجها. اتّجهتُ نحو النافذة كي أسدلَ الستارة، غير أنّ لوسي قالت: «لا، ليس هذه، دَعْها! - لماذا؟ سألتُها. - أنا خائفة. - ما الذي يُخيفك، الضوء أم الظلمة؟». لمْ تُجب وأجهشت بالبكاء.

بعيداً عن الشفقة، بدا لي رفضها بلا معنى، بدا لي مُجحفاً وجائراً، كان يُعذبني ولم أكن أفهمه. سألتها إذا ما كانت تصدّني

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لأنها عذراء، إذا ما كانت تخشى الألم الذي يُمكن أن تشعر به. ومع كلّ سؤال من هذا النوع، كانت تردّ بالإيجاب بوداعة، لأنّها كانت ترى فيه حُجّة على رفضها، قلتُ لها إنّ كونها عذراء أمْرٌ رائع، وإنّها سوف تكتشفُ معي كلّ شيء أنا الذي أحبّها. «ألا يسُرّك أن تكوني امرأتي بصورة كاملة؟»، قالت بلى، إنّ هذه الفكرة كانت تسرّها. عانقتُها من جديد فصدّتني من جديد. استعصى عليّ التحكّم في غضبي، فصرخت: «لِمَ تصدّينني؟»، أجابت «أرجوك أن تؤجّل ذلك إلى اللقاء المُقبل، أجل، أنا أرغب في ذلك، ولكن ليس هذا المساء، لِنُؤجّله إلى مرّةٍ أخرى». - ولكن ما المانع اليوم؟ - لا، ليس هذا المساء. - ولكن، ما السبب؟ - أرجوك، ليس الآن! - متى إذاً؟ كما لو أنّكِ لا تعرفين أكثر منّي أنّها فرصتنا الأخيرة لنكون وحيديْن، فزميلاتك سوف يعُدن بعْد الغد! أين، بعد ذلك، سيتسنّى لنا أن نكون لوحدنا؟ - سوف تجد طريقة ما، قالت. - اتفقنا، قلت، سوف أتدبّر الأمر، ولكن عِديني ألا تتخلّفي عن الموعد، لأنّ هناك حظوظاً ضئيلة في أن أعثر على مكان حميم مثل غرفتك. - لا أهمية لذلك، قالت، إطلاقاً! سوف يكون رائعاً حيث تريد. - اتفقنا، ولكن شريطة أن تعِديني أن تكوني هذه المرّة امرأتي، وأن تكفّي عن صدّي. - أعِدك، قالت. - هل تُقسمين على الوفاء بوعدك؟ - نعم.

أدركتُ أنني لن أستطيع، في هذه المرّة، أن أظفر إلّا بوَعد. كان وعداً واهناً غير أنه مع ذلك كان شيئاً ما. تغلّبتُ على خيبتي وقضينا ما تبقّى من وقت في تبادُل الحديث. وعندما هممتُ بالمُغادرة، نفضتُ بزّتي مِمّا علق بها من قشّ الهليون، وداعبتُ خدَّ لوسي وأنا أقول لها إنني لن أفكّر إلّا في لقائنا المُقبل (وقد كنتُ صادقاً).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

12

أيّام قليلة بعد هذا اللقاء الأخير مع لوسي، كنّا (في يوم خريفيّ مُمطر) نسيرُ مُصطفّين من المنجم إلى الثكنة عبر طريق مُرتفعات فاصلة بين برَك ماء عميقة، مُلوّثين بالوحل، منهوكين، مُبلّلين حتى العظام، بنا حاجة ماسّة إلى الرّاحة. منذ شهر لمْ يحصل أغلبُنا على إجازة ولوْ مرّة واحدة. ومع ذلك، ما كِدنا نبتلعُ وجبة الغذاء حتى صفّرَ الصبيّ القائدُ داعياً إلى التجمّع كي يُخبرنا أنّه لاحظَ ملامح فوضى عديدة خلال تفقّدِ مراقدنا. وإثر ذلك، أعطى أوامره إلى ضبّاط الصفّ مُلزماً إيّاهم، عقاباً لنا، بتمديد تداريبنا لساعتيْن.

وبما أنّنا كنّا بغير سلاح، فإنّ تداريبَنا كانت، بوجه خاصّ، عبثيّة، لمْ يكن لها من هدف غير تسفيه حياتنا. أتذكّرُ مرّةً أنّه كان علينا، في عهد الصبيّ القائد، نقل ألواح خشبية ثقيلة، خلال ظهيرة كاملة، من زاوية بالثكنة إلى زاوية أخرى، ثمّ إرجاعها في الغد، والاستمرار في هذه العمليّة لمدّة عشرة أيام متتالية. كلّ ما كنّا نقوم به بباحة الثكنة بعد عودتنا من المنجم كان شبيهاً، فضلاً عن ذلك، بنقل الأخشاب هذا. ومع ذلك، لمْ يتعلّق الأمر، هذه المرّة، بألواح خشبية، بل بأجسادنا التي كنّا ننقلها على هذا النحو؛ كنّا نجعلها تسير، نُديرها يساراً أو يميناً، كنّا نجعلها تنبطح، تركض هنا وهناك، نجرجرها على الحصى. ثلاث ساعات كانت قد انقضت على هذه التحرّكات عندما ظهرَ القائد، فأعطى تعليماته لضباط الصف كي يقتادونا إلى الرياضة.

في أقصى الثكنة، خلف البيوت الخشبية، كان ثمّة امتداد شبيه بملعب ضيّق، حيث كان مُمكناً إجراء مقابلة في كرة القدم والقيام

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أيضاً بتداريب عسكريّة أو ممارسة الركض. وقد عنَّ لضباط الصفّ أن يُنظّموا لنا سباقَ تناوُب، كانت السّريّة مُكوّنة من تسع مجموعات ضمّت كلّ واحدة عشرة جنود: تسع فرق جاهزة للتنافس. كان ضبّاط الصفّ يرومون زعزعة أمعائنا، وبما أنّ أغلبهم كان في الثامنة عشرة أو في العشرين من عمره، تحدوهم طموحات هذه السّنّ فقد أرادوا أيضاً المشاركة في السباق كي يُبرهنوا لنا أنّهم متفوّقون علينا، هكذا إذن كوّنوا فرقتهم المنافسة لنا بجمع عشرة عرفاء أو جنود من أوّل رتبة.

لزمَهُم وقت غير يسير كي يشرحوا لنا خُطّتهم ويجعلونا نستوعبها: كان على العشرة في المجموعة الأولى أن تركض من أقصى الملعب إلى أقصاه، وكان على المجموعة التالية في نقطة الوصول أن تتهيّأ للركض في الاتجاه المعاكس، وبانتظارها هي أيضاً مجموعة ثالثة من المتسابقين على نقطة الانطلاق، وهكذا دواليك. كان ضبّاط الصفّ قد أحصونا ووزّعونا بين طرفيْ الملعب.

كنّا، بعد أشغال المنجم وحصّة التداريب، مُنهَكين من التعب، وجعلتنا فكرة هذا السباق نُجنّ من الغيظ، لذلك اقترحتُ حيلة صغيرة على رفيقيْن أو ثلاثة: أنْ نركض جميعاً بتباطؤ! انتشرَت الفكرة فوراً، وانتقلت من واحد إلى آخر، وسرعان ما ارتفعت سرّاً موجة من الضحك الهازئ بين مجموع الجنود المنهكين.

كنّا أخيراً مستعدّين لمسابقةٍ بلا معنى تماماً في هدفها العامّ: كان يتوجّبُ أن ننطلق، حتى ونحن بالزيّ العسكري والأحذية الثقيلة، جاثين، وبما أنّ علينا تسليم عصا التناوب بطريقة لم يسبق مشاهدتها (ما دام متلقيها سيهرع للقائنا)، فقد كانت عصا تناوُب حقيقيّة تلك التي كانت أكفّنا تمسك بها بقوّة، كما أنّ إشارة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الانطلاق أعطيت من مسدّس سباق حقيقيّ. عندما انطلق عريفٌ (أوّل متسابق من فرقة أصحاب الرّتب) في عدْو سريع، تهيّأنا بدورنا (كنتُ بالصّفّ الأوّل) لعدْو متباطئ، ولم نقطع عشرين متراً حتى كبحنا بمشقة كبرى رغبتنا في الانفجار ضحكاً، لأنّ العريف كان قد اقترب من الطرف الآخر للملعب بينما كانت مجموعتنا مصطفّة على نحو لا يُصدَّق على مقربة دوماً من خطّ الانطلاق، متظاهرةً بلهاثٍ مجهودٍ استثنائي، وكان الرفاق، الذين احتشدوا على جانبيْ ميدان السباق يُشجعوننا صائحين: «هيّا، هيّا، هيّا!..». تقاطعنا في منتصف الميدان مع المُتسابق الثاني من مجموعة ضبّاط الصف، الذي توغّل نحو الخطّ الذي غادرناه للتوّ. أخيراً، بلغنا خطّ الوصول، وفي الوقت الذي كنّا فيه نُسلِّم عصيّ التناوب، كان المتسابق الثالث من ضبّاط الصفّ خلْفنا قد غادر الخطّ والعصا في كفّه.

أتذكّرُ سباقَ التناوُب هذا مثل الموكب الكبير الأخير لرفاقي السّود. فإبداعاتهم فيه كانت بلا حدّ: كان هونزا يركض متظاهراً بالعرج، والجميع كان يُشجِّعه بحماس شديد، وبذلك بلغَ نقطة الوصول (تحت صخب من الهتاف) مثل بطل، مُتقدّماً خطوتيْن عن الباقين. مالتوس، الغجريّ، سقط ثماني مرّات في أثناء السباق. سينيك كان يرفع ركبتيه إلى أقصاهما (وهو بلا شكّ ما أتعبَهُ أكثر مِمّا لوْ ركض بأقصى سُرعة). لا أحد كفَّ عن اللعب. لا بدريش، مُحرِّر بيانات السِّلم المُهذب والمسالم الذي كان يُتابعُ برصانة ووقار العدْو المتباطئ لكلّ واحد، ولا جوسيف، ابن الممرّض، ولا بيتر بيكني هذا الذي لمْ يكن يُحبّني، ولا العجوز أمبروز الذي كان يَخُبُّ بتوتّر ويداه متشابكتان وراء ظهره، ولا فارْغا، المجريّ، الذي كان

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يصيحُ في السباق «مرحى!»، لا أحد منهم أفسدَ هذه المسرحية الرائعة والبسيطة، التي جعلتنا فرجتها ننهدّ من الضّحك.

في أثناء ذلك، لمحْنا الصبي القائد قادماً من جانب البيوت الخشبيّة. فأسرع عريفٌ كان قد رآه ليُقدّم له تقريراً. أنصتَ له القائد ثم أتى لِيُتابع السباق من جانب الملعب. أخذ ضبّاط الصّفّ وقد توتّرت أعصابهم (كان فريقهم قد أنهى السباق منذ وقت طويل) يصرُخون في اتجاهنا «هيّا، أسرعوا! تحرّكوا، مزيداً من القوّة!»، غير أنّ تشجيعهم كان يتبدَّدُ تحت صخب تشجيعنا. لم يعرف ضبّاط الصّف، وهُم في أوج الحيرة، ما يفعلونه، كانوا يتساءلون هل عليهم إيقاف المسابقة، وكان الواحد يُهرْول باتجاه الآخر للتشاوُر، مُصوِّبين بصرَهم نحو القائد الذي لم يكن ينظر إليهم، مكتفياً بمتابعتنا بعين باردة.

انطلقت المجموعة الأخيرة، وكان ألكسيج ضِمنها، وقد انتظرتُ بفضول تصرُّفهُ، ولم أخطئ في ما توقعتُهُ منه: لقد أراد إفشال اللعبة، إذ انطلق، في البدْء، بكلّ قوّته، وبعد عشرين متراً كان مُتقدّماً على الأقلّ بخمسة أمتار. غير أنّ شيئاً غريباً وقع: تراجعَ إيقاعُه ولمْ يَزد مِن تقدّمه، فأدركتُ توّاً أنّ ألكسيج لم يكن يستطيعُ إفشالَ اللعبة حتى وإن أراد ذلك: فهو شابّ ضعيفُ البنية، وقد توجّبَ بعد يومْين من التحاقه أن تُسندَ إليه، طوعاً أو كرهاً، أعمالٌ خفيفة، لأنّه كان بلا عضلات وبلا نفَس طويل. حينذاك، بدا لي أنّ سباقه سيكون العنصُر الأكثر تسلية في فرجتنا. كان ألكسيج يبذل قصارى جهده، غير أنّه كان يبدو متساوياً مع المتسابقين المتأخّرين بخمس خطوات في المجموعة ذاتها، فكان على القائد والضباط أن يعتقدوا أنّ الانطلاقة المُذهِلة لألكسيج جُزءٌ من برنامج المسرحيّة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الهزليّة، لا تختلف في شيء عن تظاهُر هونزا بالعرج، وسقطات مالتوس، أو عن زمجرتنا في التشجيع. كان ألكسيج يركضُ وقبضتا يديْه مضمومتان وراء ظهره، تماماً مثل أولئك الذين كانوا يتظاهرون خلفهُ بالجهد ويلهثون بتباهٍ. إلّا أنّ ألكسيج كان له وخزٌ حقيقيّ في جَنْبه، ولأنّه كان يكدّ بأقصى جهده في السيطرة عليه، فإنّ عرقاً حقيقيّاً كان يتصبَّبُ من وجهه، فتوجّبَ على ألكسيج أيضاً تقليص السرعة وسط ميدان السباق، بحيث لحقَ به كلُّ الآخرين من غير أن يُسرعوا، وقبل ثلاثين متراً من خطِّ الوصول تجاوزوه، وعندما لم تعُد تفصله عن خطّ الوصول سوى عشرين متراً، توَقّف عن الركض لِيُنهي السباق مُترنّحاً، بيدٍ ضاغطة على جنبه الأيسر.

أمرَ القائدُ بالتجمّع. لقد أراد معرفة سبب تباطئنا. أعلنّا: «لقد كنّا مُتعبين، أيّها الرفيق القبطان». ثمّ طلب من كلّ مَن كان مُتعباً أن يرفع يدهُ. رفعنا أيدينا. وانتبهتُ جيداً إلى ألكسيج (لقد كان في الصفّ أمامي)، وحده مَن لمْ يرفع يده. غير أنّ القائد لمْ ينتبه إليه. فقال: «ممتاز، الجميع إذاً. وسُمِع صوتٌ يقول: لا. سأل القائدُ مَن منكم لمْ يكن مُتعباً؟ أجاب ألكسيج: أنا. - أنتَ لمْ تكن مُتعباً؟ اندهش القائد وهو يتفرّسُ فيه. كيف جرى أنّك لم تكن مُتعباً؟ - لأنني شيوعيّ»، أجاب ألكسيج. على إثر هذا الجواب، دمدم أعضاء السريّة بضحك مُتكتّم. «أهو أنتَ مَن كان الأخير على خطّ الوصول؟ سأل القائد. - نعم، قال ألكسيج. - ولمْ تكن مُتعباً؟ سأل القائد. - نعم، أجاب ألكسيج. - بما أنّك لمْ تكن مُتعباً، فقد تعمّدتَ نسْفَ التداريب. إذاً، لقد قرّرتُ حبْسك خمسة عشر يوماً بسبب محاولة التمرّدْ. أمّا أنتم، فقد كنتم مُتعبين، وهو ما يعني أنّ لكم عُذراً، وبما أنّ مردودكم في العمل لا يُساوي مسماراً، فتعبُكم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

راجعٌ إلى إجازات الخروج. وهكذا، فلصالح صحّتكم، لن تنال السريّة أي ترخيص في الخروج لمدّة شهريْن».

قبل النزول إلى المنجم، حرَصَ ألكسيج على التحدّث إليّ. آخذني على أنني لم أتصرّف كشيوعيّ، وبنظرة صارمة سألني إن كنتُ مع الاشتراكيّة أمْ لا. أجبته أنني كنتُ أدافع عن الاشتراكية، ولكن هنا، بمعسكر السّود، فأنا غير مُبالٍ تماماً، لأنّ هناك خطّاً فاصلاً بين ما يحدثُ داخل المعسكر وخارجه، هنا، ثمّة مَن فقدوا مصيرَهم الشخصيّ، وفي الخارج ثمّة مَن سرقهُ منهم ويتحكّمُ فيه على هواه. لمْ يُوافقني ألكسيج الرأي: فقد كان يرى أنّ الفاصل بين الاشتراكيّة والرجعيّة لا يقتصر على مكان دون آخر، وأنّ ثكنتنا لم تكن، في آخر المطاف، إلّا طريقة للتصدّي لأعداء الاشتراكيّة. سألته كيف كان للصبي القائد أن يتصدّى لأعداء الاشتراكية عندما أرسله، هو ألكسيج، إلى حفرة لمدّة خمسة عشر يوماً، وعندما كان يُعاملُ الجنود باعتبارهم أسوأ أعداء الاشتراكيّة المحتمَلين. اقتنع ألكسيج أنّ القائد لمْ يكن يروق له. ولكن عندما قلتُ له لو أنّ الثكنة كانت وسيلة للتصدّي للأعداء لما كان يجبُ أن يُرسَل هو إليها، أجابني بعُنف أنّه أرْسِلَ إليها طبقاً للقانون، قائلاً: «لقد تمَّ إيقاف والدي بتهمة التجسّس. هل تُدرك ماذا يعني ذلك؟ كيف يُمكنُ للحزب أن يثِقَ بي؟ إنّ من واجب الحزب أن يرتابَ في أمْري!».

بعد ذلك تحدّثتُ إلى هونزا، كنتُ أشكو إليه (وأنا أفكّرُ في لوسي) الشهريْن اللذين بانتظارنا من غير إجازة. فقال لي: «أيّها الأبله، سوف نخرج أكثر من ذي قبْل!».

لقد قوّى نسْفُ سباق التناوُب المَرِح حسَّ التضامُن لدى رفاقي وأيقظ لديهم روح المُبادرة. هكذا أسّس هونزا ما يشبه لجنة ضيّقة،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سرعان ما انشغلت بدراسة إمكانات التسلّل من الثكنة. وفي غضون ثماني وأربعين ساعة، تمَّ تهييءُ كلِّ شيء؛ تمّ إعداد صندوق على شكل وعاء خمريّ لتوفير المال بصورةٍ سريّة، ووُفّقنا في إرشاء جنديّيْن من ذوي الرُّتب مكلفيْن بمراقدنا، ثمّ اهتدينا إلى أفضل مكان لقطع أسلاك السياج سِرّاً، كان ذلك بأقصى الثكنة حيث لم تكن توجد إلّا المصحّة، خمسة أمتار هي ما يفصلُ مكان قطع الأسلاك عن أوّل منزل وَطِيءٍ بالتجمّع السّكنيّ حيث كان يقطنُ واحدٌ من عُمّال المناجم كنّا نعرفه، تمكّنَ الرفاق بسرعة من التعاقد معه بألا يُغلق بالمفتاح بابَ ردهته، وهكذا كان على الجنديّ المُتسلّل بلوغ السياج سرّاً واختراقه وقطع الأمتار الخمسة في لمْح البَصر، وباجتياز باب الرّدهة يكون قد نجا: يَعبُر المنزل الصغير فيخرجُ إلى زقاق بالضاحية.

كان الطريقُ إذاً آمِناً نسبيّاً، شريطة ألّا نُغالي، فإذا تسلّل من الثكنة عددٌ كبيرٌ من الرفاق في اليوم ذاته، فإنّ غيابَهم يُصبحُ مكشوفاً بسهولة، وهكذا توجَّبَ على لجنة هونزا تنظيم التسلّل.

ولكن، قبل أن يحين دوري، انهارَ مخطّطُ هونزا بكامله. فقد قامَ القائد، ذات ليلة، بزيارة شخصيّة للبيوت الخشبيّة ولاحظ غيابَ ثلاثة جنود. حاصرَ العريفَ (رئيسَ المرقد) الذي لم يُصرّح بغيابهم وسأله، كما لوْ كان على عِلم بكلّ شيء، كم تسلّمَ من النقود مقابل ذلك. لمْ يُحاول العريف، الذي اعتقدَ أنّ أحداً وشى به، حتّى مُجرّد الإنكار. فاستدعى القائدُ هونزا لأجل المُواجهة، وأقرّ العريف أنّه تسلّم النقود من هونزا.

هكذا وجّه لنا القائدُ ضربة قاضية. أرسل العريف وهونزا والجنود الثلاثة سِرّاً تلك الليلة إلى النائب العامّ العسكريّ. (لمْ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أتمكّن حتى من توديع أعزّ رفاقي، تَمّ كلُّ شيء في الصباح على وجْه السّرعة عندما كنّا في السرداب، ولمْ يصلني خبَرُ إدانتهم جميعاً إلّا بعْدَ ذلك؛ أدينَ هونزا بالسجن لمدّة سنة كاملة). وأعلنَ القائدُ للسريّة حين تجمُّعها أنّها سوف تُحرَمُ من الإجازة لمدّة شهريْن إضافييْن، وإلى جانب ذلك سوف تَخضعُ من الآن فصاعداً لنظام تأديبيّ. ثمّ طلبَ بناءَ بُرجَيْ مُراقبة بزاويتيْ الثكنة، ووضْع مصابيح كاشفة وإحضار شخصيْن بكلبيْن مُدرّبيْن لأجل حراسة مباني الثكنة.

كانت زيارةُ القائد مُفاجئة ودقيقة للغاية حتى لقد تملّكنا جميعاً إحساسٌ واحد: أحدٌ ما وَشى بخطّة هونزا. وحتّى إنْ تعذّر الإقرار بانتشار الوشاية بوجه خاصّ لدى السود، إذ كنّا جميعاً نمقتها، فإنّنا كنا نعرفُ أنّ احتمالها كان دوماً وارداً، لأنّها كانت تُقدَّمُ إلينا بوصْفها الوسيلة المُثلى لتحسين أوضاعِنا والحُصول على قرار انتهاءِ الخدمة من غير تأخير، مرفوقاً بشهادة جيّدة تُؤمّنُ مستقبلاً مقبولاً. لقد نجحْنا (أغلبُنا) في تجنّب السقوط في هذه النذالة القصوى، ولكنّنا لمْ ننجح في تجنُّب الارتياب بسهولة في الآخَرين.

في هذه المرّة أيضاً، سرعان ما انبثقَ هذا النّوع من الارتياب، وتحوَّلَ فيما بعد إلى قناعةٍ جماعيّة (حتّى وإن أمْكن بالطبع تفسيرُ ضرْبة القائد بغير الوشاية) استهدفَتْ بيقين لا مشروط ألكسيج. فقد كانَ حينذاك يقضي أيامه الأخيرة بالحبس، وكان مع ذلك، وهو أمرٌ بدهيّ، ينزلُ معنا كلّ صباح إلى السّراديب، وكان الجميع أيضاً يزعُم أنّه تمكّنَ «بأذنيه البوليسيتيْن» من التقاط خبر خطّة هونزا.

أذيقَ الطالبُ التعسُ أمرَّ ألوان التنكيل: أسندَ إليه رئيسُ الفرقة (واحدٌ منّا) الأعمالَ الأكثر سوءاً، وكانت أدواتُه تختفي باستمرار، وكان يتوجّبُ عليه تأدية ثمَنها عند تسلُّمه لأجرته، كما لم يستطع

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تجنُّبَ الشكوك والإهانات، فضلاً عن مُضايقاتٍ صُغرى تعيّنَ عليه تحمُّلها، وعلى الحاجز الخشبيّ الذي عليه وُضِع سريرُه لَطَّخَ أحدٌ بشحم أسْود وبحروف كبيرة: احذروا النذل.

بعد أيام قليلة من مُغادرة هونزا والمتّهَمين الأربعة تحت الحراسة، توجّهتُ في نهاية بَعْد الظهر لإلقاء نظرة على مرقد مجموعتنا، لم يكن به أحدٌ سوى ألكسيج مُنحنياً على سريره الذي كان يُعيدُ ترتيبَه. سألتُه لِمَ كان يُرتّبُ سريره. أجابني أنّ الرّفاق كانوا يُبعثرونه مرّاتٍ عديدة في اليوم. قلتُ له إنّ للجميع قناعة تامّة بأنه هو مَنْ وشى بهونزا. احتجّ، وعيناه تكادان تذرفان، بأنّه لمْ يكن يعلمُ شيئاً، ولا يُمكنه أبداً أن يَشي. قلتُ له: «لِمَ تقول هذا الكلام؟ فأنتَ تعتبرُ نفسك حليفاً للقائد، وبذلك من المنطقيّ أن تُقْدِم على الوشاية. - لستُ حليفَ القائد! فالقائد مُخرِّب!»، قال بصوت متهدّج. وعرَض عليّ رأيه الذي توصَّلَ إليه، كما قال، من تأمّلاته داخل الحبس: لقد ابتكرَ الحزبُ تداريبَ الجنود السّود لفائدة مَنْ لا يأتمنهم على حَمْل السّلاح ولكنّه يرومُ إعادة ترميم تربيتهم. غير أنّ العدوّ الطبقيّ لا ينام، يودّ بكلّ السُّبل إعاقة إعادة التربية هاته، يُريدُ إبقاء الجنود السّود في حقد مُتأجّج تجاه الشيوعية حتى يتسنّى له اعتمادهم كقوّة احتياطيّة في الثورة المُضادّة. وإذا كان الصبيّ القائد يُعامِلُ كلَّ واحدٍ مِنّا بطريقة تثيرُ غضبَه، فمن الواضح أنّ ذلك جزء من خطّة العدوّ! وليس لي أيّ فكرة عن المخابئ التي سوف يلوذ بها أعداء الحزب. والقائد، بلا أدنى شكّ، من عملاء العدوّ. وبما أنّ ألكسيج يعي ما هو واجبه، فقد كتبَ تقريراً تفصيليّاً عن دسائس القائد. قلتُ له مذهولاً: «ماذا؟ ما الذي كتبته؟ وإلى أين بعثته؟».

أجابني أنّه وجّه شكوى ضدّ القائد إلى الحزب.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في أثناء ذلك كنّا قد خرجنا من البُيوت الخشبيّة. سألني إن لمْ أكن أخشى الظهورَ معه أمام الآخرين. قلتُ له لا بدّ أن يكون مُغفّلاً كي يطرح مثل هذا السؤال، ومغفّلاً بصورة مُضاعفة ليعتقد أنّ رسالته سوف تصِلُ إلى وجْهَتها. وهو ما أجابَ عنه أنّ من واجبه، بوصفه شيوعياً، أن يتصرّف في كلّ الظروف بالطريقة التي لا تُشعرُه بالخجل. وذكّرَني مرّة أخرى بأنني أنا شيوعي أيضاً (حتى وإنْ فصِلتُ من الحزب) وعليّ أن أتصرّف خلافاً لِما أقومُ به: «فنحنُ الشيوعيين مسؤولون عن كلّ ما يجري هنا». وهو ما أثار ضحكي، قلتُ له: لا يُمكنُ تصوّر المسؤولية بدون حُريّة. أجابني أنّهُ كان يشعُرُ بما يكفي من الحُريّة كي يتصرَّفَ بوصفه شيوعياً، وأنّ عليه أن يُثبت وسوف يُثبتُ أنّه شيوعيّ. كان معطفه، وهو يقول ذلك، يرتعد، وعندما أتذكّر اليوم، بعد سنوات عديدة، تلك اللحظة، أعي أكثر من أيّ مرّة أخرى أنّ ألكسيج كان بالكاد في العشرين من عمره، كان في مقتبل شبابه، بل صبياً، وكان مصيرهُ يتموّجُ فوقه مثل بدلة فضفاضة على جسدٍ نحيل للغاية.

أتذكّرُ أنّ سينيك سألني بعد حواري مع ألكسيج عن سبَب حديثي مع هذا النذل. أجبتهُ أنّ ألكسيج مُغفّلٌ، لكنّه ليس نذلاً، وأخبرته بالشكوى التي وجّهها ألكسيج ضدّ القائد، لكنّ سينيك لمْ يُعِر اهتماماً لذلك، وقال: «أن يكون مُغفّلاً، فهو أمْرٌ لا أدريه، ولكن مِن المُؤكّد أنّه نذل، فلكيْ يتنكّرَ لوالده عَلناً، لا بدّ أن يكونَ نذلاً». لمْ أفهم قصدَهُ، فاندهشَ لعدم عِلمي بالأمْر، لقد أطْلعَهُم المُفوضُ شخصياً على جرائد قديمة مرّت عليها شهور، تضمّنت إعلاناً لألكسيج، كان يتنكّرُ فيه لأبيه الذي، في نظره، خانَ ودنَّسَ ما كان ابنهُ يراهُ أكثرَ الأشياء قدسيّة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في مساء هذا اليوم، كانت المصابيح الكاشفة فوق بُرج مراقبة (تمّ بناؤه في الأيام الماضية) تُضيءُ لأوّل مرّة بنايات الثكنة، وحارسٌ رفقة كلبه يسيرُ على طول السياج. جثم عليّ حزنٌ غامض: لمْ تكن لوسي معي، وكنتُ أعرفُ أنني لن أراها لمدّة شهريْن طويليْن. كتبتُ إليها في هذا المساء ذاته رسالة طويلة، قلتُ فيها إنني لن أتمكّن من رؤيتها لمدّة طويلة، وأننا حُرمنا من مُغادرة الثكنة، وأنني كنتُ أتحسّرُ على تصدّيها لِما كنتُ أرغبُ فيه، وهو ما كان لذكراه أن تساعدني على تحمّل هذه الأسابيع السوداء.

في اليوم التالي، بعد أن بعثتُ بالرسالة، كنّا نؤدّي التداريبَ الاعتيادية؛ التحية العسكريّة، التقدّم إلى الأمام، الاستلقاء على البطن. كنتُ أؤدّي الحركات المنصوص عليها بطريقة آلية من غير أن أنظر لا إلى العريف مهتاجاً، ولا إلى زملائي يمشون أو يستلقون على بطونهم، ودون أن أنظر إلى ما كان محيطاً بي أيضاً؛ لا إلى الجوانب الثلاثة لباحة البيوت الخشبيّة ولا إلى الجانب الرابع حيث يوجد سياجٌ يفصلُ الثكنة عن طريقٍ للمارّة. بهذا السياج، كان بعضُ المارّة يتوَقّفون بين الفينة والأخرى (أطفالٌ في الغالب، وحدهم أو رفقة ذويهم الذين كانوا يشرحون لهم أنّ الجنود الشباب، خلف السياج، يتدرّبون). كلّ ذلك كان قد تحوَّل عندي إلى ديكور بلا حياة، إلى لوحة مرسومة (كلّ ما كان وراء أسلاك السياج لم يكن إلّا لوحة مرسومة)؛ فلمْ أكن لأنظرَ نحو هذا الجانب لوْ لمْ يصِح أحدٌ في ذلك الاتجاه: «أتحلمين أيتها الدّمية؟».

حينذاك فقط، رأيتُها. إنّها لوسي. كانت واقفة إلى جانب السياج، بمعطفها البنّي القديم البالي (لِمَ نسيتُ، يوم اقتنيتُ لها الفساتين، أنّ الصيف سينقضي ويحلّ البرد؟)، مُنتعلة حذاءها الخفيف

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الأنيق ذا الكعب العالي (هديّتي). ثابتة، كانت تنظرُ إلينا. كان الجنود يُعلّقون باهتمام زائد على مظهر شَغفها اللافت ويُحَمِّلون كلامهم كلَّ عبارات اليأس الجنسيّ لرجال في عزوبيّة قسريّة. وحتّى ضابط الصّفّ انتهى إلى ملاحظة خفوت حماس الجنود، وسرعان ما تنبَّه إلى سبب هذا الخفوت، فاستشاط غيظاً أمام عجزه، إذ لمْ يكن بمقدوره منْع الفتاة من الوقوف هناك، لأنّ خلف الأسلاك كان يُخيِّم جوٌّ من الحُريّة النسبيّة منفلتٌ من دائرة سُلطته. وبما أنّه ألزمَ الجنودَ بتركيز اهتمامهم على حركاتهم، فقد رفع من نبرة أوامره ومن سرعة التداريب.

كلّما تحرّكت لوسي ببضع خطوات غابت عن نظري، لكنّها اهتدت في الأخير إلى المكان الذي كان مُمكناً أن نتبادل منه النظر. انتهت حصّة تداريب الاصطفاف النظاميّة، غير أنني لم أتوفر على الوقت كي أقترب من لوسي، إذ توجّبَ على الفور حضور درس التربية السياسيّة، حيث استمعنا لعباراتٍ عن مُعسكر السِّلم وعن الإمبرياليين، ولم أتمكّن من الفرار إلّا بعد مضي ساعة (وقت الغروب) ورؤية إن كانت لوسي ما زالت قرب السياج، وقد كانت هناك، فركضتُ نحوها.

طلبتْ منّي ألّا أحتفظ بأيّ ضغينة تجاهها، وقالت لي إنها تحبّني، وتودّ أن تعرف إذا ما كنتُ حزيناً بسبب خطئها. قلتُ لها إنني لا أعرفُ متى سيتسنّى لي لقاؤها. فقالت أن لا ضير في ذلك، وأنّها سوف تأتي كثيراً إلى هنا. (مرَّ بعض الجنود خلفي وتلفّظوا بكلماتٍ بذيئة). سألتُها إذا ما كانت بذاءاتُ الجنود تُضايقها. فأكّدت لي ألّا أهمية لذلك ما دامت تُحبّني. ثمّ دسّت لي زهرةً من بين الأسلاك، (دوّى البوق داعياً إلى تجمّعنا) فقبّلتها من فرجة بين أسلاك السياج.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

13

يوميّاً تقريباً كانت لوسي تأتي إلى جوار سياج الثكنة، كنتُ أقضي الصباح بالمنجم وأعودُ لتمضية ما بعد الظهر بالمعسكر، وأتلقى، كلّ يوم، باقة زهور (كان العقيد يرمي كلّ الباقات على الأرض إبّان فحص متاع الجنود)، وكنت أتبادل مع لوسي عبارات قليلة (عبارات مسكوكة، إذ لمْ يكن لدينا إجمالاً ما نقوله، لمْ نكن نتبادل أفكاراً أو أخباراً، لم نكن نؤكّد في العديد من المرّات إلّا حقيقة واحدة نُردّدها)، وكنتُ، في الآن ذاته، أكتبُ إليها يوميّاً تقريباً، فقد كانت تلك الفترة أكثر فترات حُبّنا حدّةً. كانت المصابيح الكاشفة ببُرج المراقبة، ونباح الكلاب القصير في الليل، والصبيّ القائد المُتحكّم في كلّ ذلك، أشياء تشغل حيّزاً ضئيلاً من تفكيري الذي تركّزَ بكامله على زيارات لوسي.

لقد كنتُ، في الواقع، سعيداً جدّاً في هذه الثكنة المحروسة بالكلاب وفي أعماق المنجم حيث كنتُ أضغط على مطرقة الحفر التي تأخذ في الاهتزاز. كنتُ سعيداً وفخوراً، لأنّ لوسي أتاحت لي غِنى لمْ يكن أحدٌ من رفاقي ولا حتّى من الجنود ذوي الرُّتَب ينعمون به: لقد كنتُ محبوباً، محبوباً عَلناً أمام الجميع. ورغم أنّ لوسي لم تكن تُجسّدُ نموذج الأنثى لدى رفاقي، وكانت، في نظرهم، تُعبّر عن حُبّها بطريقة شديدة الغرابة، رغم كلّ ذلك فقد كان حُبَّ امرأة، وهو أمرٌ كان يوقظُ الدهشة والحنين والغيرة.

كلّما طال احتجازُنا بعيداً عن العالَم وعن النساء، كانت النساءُ تعودُ إلى أحاديثنا بكامل التفاصيل. كنّا نستحضرُ شامات الجَمال، نرسمُ (بالقلم على الورق، بالمعول على الصلصال، وبطرَف الأصبع

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

على الرمل) استدارة نهودهنّ وأردافهنّ، كنّا نتجادلُ لمعرفة أيّ الأرداف الغائبة أكثر رشاقة، ونرمّمُ، بالكلام والتأوّهات، مشاهدَ المُضاجعات بصورةٍ دقيقة، كنّا نتحدّثُ عن ذلك باستمرار، وفي كلّ مرّة بتفاصيل جديدة. أنا بدوري سُئلتُ، وكان الرّفاق بالأحرى مُتطلّعين لما سأحكيه، باعتبار أنّ الفتاة التي سوف أحدّثهم عنها كانت تظهرُ أمامهم، وبإمكانهم أن يربطوا بسهولة مظهرَها الماديّ بما سأحكيه لهم. لم يكن بمقدوري تخييب توَقّعاتهم، لذلك لمْ يعُد أمامي إلّا أن أحكي؛ فتحدثتُ عن عُري لوسي، الذي ما عايَنتُه قطّ، وعن ليالي مُضاجعاتنا، التي لمْ أعِشها أبداً، فارتسمَت أمام عيني فجأة حكاية دقيقة ومُحدّدة عن شغفها الهادئ:

كيف كانت البداية في المرّة الأولى التي تعرّفتُ إليها؟

كان ذلك في بيتها، في غرفة إقامة العاملات، حيث نزعَت ملابسها أمامي طوعاً ووفاءً رُغم جسدها المُتمنّع، لأنّها فتاةٌ قرويّة، ولأنني كنتُ أوّلَ رجُل تتجرّدُ من ملابسها أمامه. كان هذا الوفاء الممزوج بالحشمة يُثيرني حدَّ الجُنون، ولمّا دنوتُ منها تقوقعت، ووضعت يديها على عانتها...

لِمَ كانت تنتعِلُ حذاءً أسودَ بكعب عالٍ؟

لقد اقتنيتُه لها عمداً كي تطول قامتُها أمامي وهي عارية تماماً إلّا من حذائها. لقد كانت خجلة، إلّا أنّها كانت تستجيبُ لكلّ ما أريد، كنتُ أظلّ دوماً مرتدياً ملابسي أطول وقتٍ مُمكن، فيما كانت هي تتجوّلُ بحذائها الصغير (كان يروقني بشدّة أن تكون هي عارية وأنا بملابسي)، عارية كانت تذهبُ لإحضار النبيذ من الدولاب، وعارية كانت تأتي لتملأ كأسي...

وهكذا، لمْ أكن الوحيد الذي ينظرُ إلى لوسي في أثناء مجيئها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المُتكرِّر إلى السياج، بل العديد من رفاقي أيضاً، الذين كانوا يعرفون بدقّة كيف كانت لوسي تُضاجع، وما الذي كانت تتلفّظُ به في المُضاجعة وكيف كانت تتأوّه، وكلّ مرّة كانوا يلاحظون بملمح مُشترك أنّها كانت لا تزال تنتعلُ حذاءها الأسود، فكانوا يتخيّلونها عارية وهي تنتقلُ بحذاء عالٍ من رُكن إلى آخَر في غرفتها الصغيرة.

كان بمقدور كلٍّ واحدٍ من رفاقي تذكُّر امرأة واقتسامها معَنا بهذه الطريقة، ولكنْ لا أحد غيري بمقدوره أن يُري هذه المرأة، وحدها امرأتي كانت حقيقيّة، حيّة، وحاضرة. كانَ للتآخي، الذي دفعني إلى رَسْم عُري لوسي وسلوكها الشبقيّ، وقعٌ في تجسيد رغبتي إلى حدّ الألم. لم تكن تعليقات الرفاق الوقحة على زياراتها إطلاقاً تجرحُني، إذ ليس بمقدور طريقتهم في تملّك لوسي أن تنتزعها منّي (السياج والكلاب تحميها من الجميع، بمَن فيهم أنا)، على العكس، كانوا كلّهم يُمَكّنونني منها، كلّهم كانوا يُركّزون صورةً مُهيِّجة عنها، جميعهم كانوا يُعدّلونها ويمنحونها إغراءً شديداً، وقد استسلمتُ لرفاقي واستسلمنا جميعاً للتّلهّف عليها. وعندما كنتُ أذهبُ، بعد ذلك، للقائها قرب السياج، كانت تعتريني رعدةٌ وأعجزُ عن الكلام من شدّة تلهّفي عليها، لم أكن أفهمُ كيف تسنّى لي أن أصاحبها ستة أشهر مثل طالب خجول من غير أن أهتدي إلى أنوثتها، كنتُ مُستعدّاً لأن أضحّي بكلِّ شيء من أجل مُضاجعتها مرّةً واحدة.

لا أريدُ أن أقول بذلك أنّ تعلّقي بها انقلب فظّاً سطحيّاً وفقَدَ طابَعَه الودّيّ. أقول إنّني كنتُ أشعرُ حينذاك - وهي المرّة الوحيدة في حياتي - بالرغبة التامّة في امرأة ارتبط بها وجودي بكامله؛ جسداً وروحاً، شهوةً وحناناً، حزناً ونزوعاً مُتأجّجاً إلى الحياة، رغبة في الابتذال كما في العزاء، رغبة في لذةِ ثانيةٍ واحدة كما في امتلاكٍ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أبديّ. كنتُ مأخوذاً تماماً، مُتوتّراً، مُركّزاً، أتذكّرُ هذه اللحظات مثل فردوس مفقود (فردوس غريب محروس بالكلاب والخفر).

كنتُ مستعدّاً لكلّ شيء مقابل لقاء لوسي خارج الثكنة، لقد وعدتني «ألّا تصُدَّني»، في المرّة المُقبلة، أن تذهب معي حيث أريد. وجدّدت لي مرّات عديدة من خلال أسلاك السياج تمسّكها بوعدها. كان يكفي، إذن، الإقدام على خطوةٍ جسورة.

وسرعان ما نضجَت الخطوةُ في ذهني. فقد ظلّ أسُّ خُطّة هونزا مجهولاً مِن قِبَل القائد. فالجُزءُ المقطوعُ من السياج بقِيَ على حاله من غير أن يتمّ الانتباه إليه، كما أنّ التعاقد مع العامل في المنجم القاطن بالجوار ظلّ قائماً. كانت الحراسة، بلا شكّ، من الإحكام التامّ بحيث لم يكن وارداً التسلّل نهاراً. أمّا ليلاً، فكان الحُرّاس يطوفون بكلابهم المدرّبة على طول السياج، والمصابيح الكاشفة مُشتعلة، لكن ذلك كلّه كان، في العمق، إرضاءً لرغبة القائد أكثر منه بدافع فرارنا الذي أصبح بعيدَ الاحتمال، وكان القبض على كلّ متسلّل يُكلّفهُ المحاكمة العسكريّة، ومن ثمّ كان التسلّلُ مخاطَرةً كبيرة. لهذا، تحديداً، قلتُ في نفسي بأنّها كانت فرصتي الصغيرة.

كان عليّ أن أعثر على مخبأ لنا غير بعيد عن الثكنة. فقد كان معظم عمّال المنجم القاطنين بالجوار ينزلون عبر السرداب ذاته الذي كنّا نعتمِدُهُ، بحيث سرعان ما تمكّنتُ من التعاقد مع أحدهم (أرمل في الخمسين من عمره) وافقَ (مقابل قرابة ثلاث مائة كورون لتلك الفترة) على إعارتي بيته. هو جناح رماديّ من طابق واحد، كان يظهرُ لنا من الثكنة، وقد دللتُ لوسي عليه من السياج، شارحاً لها خطّتي، لمْ تُرحّب بالفكرة وسعَت إلى صرْفي عن المُخاطرة من أجلها، ولمْ تنتهِ إلى القبول إلّا لأنّها لم تكن تعرفُ قوْل لا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حلَّ اليومُ الموعودُ. وقد بدأ على نحو شديد الغرابة. ما كِدنا نعودُ من المنجم حتى دعا القائدُ إلى تجمّعنا لإلقاء إحدى خُطَبه. عادةً ما كان يُثيرُ فيها مخاوفَ الحرب الوشيكة والقسوة التي بها سوف تتمُّ مُعاقبة الرّجعيّين (كان الأمرُ يتعلّقُ بنا في المقام الأوّل). غير أنّه أضافَ هذه المرّة أفكاراً جديدة، فقال: إنّ العدوّ الطبقي اندسَّ إلى الحزب الشيوعي، إلّا أنّ على الجواسيس والخوَنة أن يعرفوا أنّ الأعداء المتخفّين سوف يُعامَلون بطريقة أسوأ مائة مرّة من أولئك الذين لمْ يكونوا يُخفون آراءَهم، لأنّ العدوّ المُتستّر كلبٌ أجرب. ثمّ أضاف الصبي القائد: «إنّ لنا واحداً حتّى هُنا» وأخرجَ من الصفوف الصبيَّ ألكسيج. ثمّ سَحبَ من جيْبه ورقة وضعَها له تحت أنفه قائلاً: «هذه الرسالة، أتُذكّرك بشيءٍ ما؟ - نعم، قال ألكسيج. - أنتَ كلبٌ أجرب، وفضلاً عن ذلك جاسوسٌ وشرطيّ. إلّا أنّ نُباحَ الكلب لا يبلغُ السماء!»، ومزّقَ الورقة أمامه.

ثمّ مدّ ظرفاً مفتوحاً إلى ألكسيج قائلاً: «لديّ رسالة أخرى لك، اقرأها بصوتٍ مُرتفع!». أخرَج ألكسيج ورقة من الظرف وألقى عليها نظرةً ثمّ ظلَّ صامتاً. «اِقرأ إذاً!»، كرّرَ القائد. غير أنّ ألكسيج ظلَّ صامتاً. «ألا تُريدُ قراءتَها؟»، سأله القائد، وأمام صمت ألكسيج أمرَه: «اِنبطح!»، تمدَّدَ ألكسيج على بطنه فوق الوحل، وتمهَّلَ الصبي القائدُ فوقه، كنّا جميعاً نعتقدُ أنّ الأمرَ سوف يقتصرُ على: انبطِح! قِف! انبطح! قِف! وأنّ على ألكسيج أن ينبطح ويقف وينبطح. غير أنّ القائد لمْ يُواصل أوامرهُ، بل استدار ومشَى ببُطءٍ على طول الصفّ الأوّل للجنود مُتفحّصاً ببَصره في العتاد، ثمّ بلغ نهاية الصفّ (استغرقَ ذلك دقائقَ عديدة) ثمّ استدار، وعلى مهل عاد نحو الجنديّ المُمدَّدِ على بطنه: «والآن، اقرأ!»، قال له. رفع

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ألكسيج ذقنهُ المُلطَّخ بالوحل، ودفع إلى الأمام يدَهُ التي ظلّت مُمسكة بالرّسالة كلَّ ذلك الوقت، وأخذ يقرأ وهو مُنبطح: «نُعْلِمكم أنّه بتاريخ الخامس عشر من أيلول/ سبتمبر عام واحد وخمسين تسع مائة وألف، تَمّ فصْلكم من الحزب الشيوعيّ التشيكوسلوفاكي. عن اللجنة الجهويّة...». وأمَر القائد ألكسيج بالعودة إلى الصفّ، ثمّ أعطى تعليماتِه لجندي من ذوي الرُّتَب كي يتكلّفَ بتدريبنا.

بعد التداريب، كان هناك تكوينٌ سياسيّ، وحوالي السادسة ونصف (وقد حلَّ الليْل) كانت لوسي تنتظرُ قرب السياج، اتّجهتُ نحوها، أحْنت رأسَها لِطمْأنتي أنّ كلّ شيء على ما يُرام، وغادرَت. حانَ وقتُ تناوُل الحساء، تلاه إطفاءُ الأضواء والذهاب إلى النوم، بقيتُ على سريري أنتظرُ عريفَ المرقد أن ينام. حينذاك انتعلتُ حذائي العسكريّ وغادرتُ الغرفة كما أنا، بسروال طويل أبيض وقميص نوم. باجتياز الممشى، كنتُ وسط الباحة، فأحسستُ بالبرد. كانت الفرجة التي أحْدِثت بالسياج في أقصى المُعسكر خلف المصحّة، وهو أمرٌ جيّد، إذ في حال لقاءٍ مُباغِت، سوف يُمْكنني أن أزعم أنّ ألماً ألمّ بي وأنني كنتُ ذاهباً لرؤية الطبيب. غير أنني لم أصادف أحداً. دُرتُ حول جدار المصحّة، متسلّلاً إلى ظلمته، كان المصباحُ الكاشفُ يضيءُ النقطة ذاتها (الظاهر أنّ المُكلَّف ببرج المراقبة لم يكن يأخذ مهمَّته على محمَل الجدّ)، وكان جزءُ الباحة الذي عليّ اجتيازه غارقاً في الظلام، كنتُ مُهتمّاً بشيء واحد فقط هو ألّا أصطدمَ بالحارس الذي كان طوال الليل يتفقّد رفقة كلبه حاجزَ الثكنة بكامله. كان الصمتُ مطبقاً (صمتٌ مُريب كان يُعقّدُ ترقّبي)، مرّت عشر دقائق عندما سمعتُ أخيراً نُباحاً قادماً من الطرف الآخر للمعسكر. ابتعدتُ إذاً عن الجدار وركضتُ في اتجاه المكان حيث

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانت أسلاك السياج مقطوعة من الأسفل منذ خطّة هونزا، تسلّلتُ من تحتها زحْفاً على بطني، فلمْ يعُد ثمّة مجالٌ للتردُّد، لـمْ تبْقَ إلّا بضع خطواتٍ لبلوغ حِباك بيت العامل في المنجم. كلُّ شيء كانَ مُرتّباً، لـمْ يكن البابُ مُغلقاً بالمفتاح، فدلفتُ إلى باحة المنزل الصغير حيث كانت النافذة (بستارتها المُسْدلة) تُخفّفُ من وَهج الضوء الداخليّ. طرقتُ النافذة، وبعد بضع ثوان انتصبَ بالمدخل شخصٌ ضخم، داعياً إيّاي بصوتٍ صاخب أنْ أتبعهُ (جعلتني توضيحاتُه الصاخبة أتعرَّق تقريباً، لأنني لمْ أستطع أنْ أنسى أنني كنتُ قريباً جدّاً من الثكنة).

كان البابُ ينفتحُ مباشرةً على غرفة، وبقيتُ على العتبة مخبولاً قليلاً: في الداخل، كان يجلسُ بارتياح شديد خمسة أشخاص حول طاولة (عليها زجاجة مفتوحة)، ما إن رأوْني حتّى انفجروا ضحكاً من ملابسي الغريبة، وأقرّوا أنني لا بدّ أن أكون في قميص النوم جامداً من البرد، فصبّوا لي كأساً، ذقتُها: كان كحولاً بنسبة 90% ممزوجاً بالكاد بقليل من الماء، شجّعوني على احتسائه، فتناولتُه في جُرعة واحدة، وأخذتُ أسعل، مِمّا جعلهم يضحكون بودّ، منحوني مقعداً، ثمّ أبْدَوا اهتمامهم لمعرفة الطريقة التي وُفّقتُ بها في «اجتياز الحُدود»، نظروا مرّةً أخرى إلى لباسي الغريب ووصفوني بـ«سروال هارب». لا بدّ أنّ كلَّ هؤلاء العمّال، الذين تتراوحُ أعمارُهم بين الثلاثين والأربعين، قد اعتادوا على اللقاء هنا، كانوا يشربون لكنّهم لمْ يكونوا ثمِلين، بعد دهشتي الأولى حرَّرني حضورهم اللامبالي من شعوري بالضيق. لمْ أعترض على كأس أخرى من هذا السائل القويّ الخانق. في أثناء ذلك، انتقلَ عاملُ المنجم إلى الغرفة المُجاورة وأحضرَ في يده بدلة سوداء، وسألني: «هل تُناسبك؟». انتبهتُ إلى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أنّ العامل كان أطول منّي بما لا يقلّ عن عشرة سنتمترات، وكان شديد البدانة مقارنة بي، ولكنني أجبتُه: «لا بدّ أن تُناسبني». ارتديتُ البنطال فوق السروال العسكريّ، ولكنْ كان عليّ أن أظلّ مُمسكاً به بيدي وإلّا سقط. ثم تساءل الذي منحني البدلة: «أليس منكم مَنْ له حزام؟». لا أحد كان بحوزته حزام. «أو حبل على الأقلّ»، قلتُ. تمكّنوا من العثور على واحد، وبه تسنّى لي تثبيت البنطال تقريباً. ارتديتُ السّترة، فأقرّ العمّال (لا أدري جيداً السبب) أنني كنتُ أشبهُ شارلي شابلن، لم يكن ينقصني غير القبّعة والعصا. ولنيْل استلطافهم، قرّبتُ كَعبَيْ الحذاء وباعدتُ بين طرفيْه الأماميَّيْن، فانطوى البنطال على شكل أكورديون فوق الفرْعة الضخمة للحذاء العسكريّ، مِمّا أبْهج العمّال وأقسموا أنّ أيّ امرأةٍ لن تتوانى هذه الليلة في بذل قصارى جهدها معي. سقوني كأساً ثالثة ورافقوني إلى غاية الرصيف. ثمّ طمْأنني الرّجُل أنّه يُمكنني المجيء في أيّ وقت لِطَرْق نافذته بغاية تغيير ملابسي.

خرجتُ إلى زقاق الضاحية ذي الضوء الخافت. وقضيتُ قرابة ربع ساعة في قطع دائرة واسعة حول نطاق الثكنة قبل أن آخذ المسار الذي سيقودُني إلى لقاء لوسي. في الطريق، كنتُ مُضطرّاً، في كلّ الأحوال، إلى العبور أمام بوّابة ثكنتنا الكبيرة المُضاءة، اعتراني شيءٌ من القلق، لكنْ اتضح أن لا داعي له تماماً: فقد كانت ثيابي المدنيّة تحميني بإتقان، إذ رآني الحارس من غير أن يتعرّفني، ثمّ وصلتُ سليماً مُعافى. فتحتُ بابَ المنزل (المُضاء بفانوس أعزل) وتقدّمتُ اعتماداً على الذاكرة (مُستهدياً فقط بالوصف الذي كان قد أطْلعني عليه عامل المنجم): السّلّم الذي على اليسار، الطابق الأوّل، والباب المُواجه. طرقتُه، دارَ المفتاح في القفل وفتحتْ لوسي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قبّلتُها (كانت تنتظرني هنا منذ ستّ ساعات، فقد وصلتْ منذ مغادرة عامل المناجم الذي كان من فرقة الليل)، سألتني إذا ما كنتُ تناولتُ خمراً، رددتُ بالإيجاب وحكيتُ لها كيف وصلتُ إلى هُنا. قالت إنّها كانت ترتعد طوال الوقت مخافة أن يُصيبني مكروه (وحينذاك انتبهتُ إلى أنّها كانت حقّاً ترتعد). أخبرتُها بالفرح الكبير الذي به جئتُ لرؤيتها. كنتُ أشعر، وهي بين ذراعي، بارتعاشها المُتكرّر. قلتُ لها قلِقاً: «ماذا بك؟ - لا شيء، قالت. - ولكن، لِمَ ترتعدين؟ - كنتُ خائفة عليك»، قالت وابتعدَت بهدوء.

ألقيتُ نظرةً من حولي. كانت الغرفة صغيرةً للغاية، مُجهَّزة بتقشّف: طاولة، كرسيّ، سرير (منَظّم، غير أنّ غطاءَهُ لم يكن نظيفاً تماماً)، فوقه صورة وَرعة، وعلى الجدار المقابل دولابٌ مُتوَّجٌ بأوعية مُرَبّى (الشيء الوحيد الحلو قليلاً في هذه الغرفة)، وفوق ذلك كلّه كان بالسقف مصباحٌ وحيد بلا غطاء، واخزٌ للعين بصورة مُزعجة، يُبرزُ بفظاظةٍ شخصي الذي آلمني نحسُهُ المُضحك: بالسترة الفضفاضة، البنطال المحزوم بحبْل، وسواد طرف فردتيْ الحذاء العسكريّ، وأعلى كلّ ذلك جمجمتي المملوطة توّاً، التي لا بدّ أنّها كانت تلمعُ تحت ضوء المصباح مثل قمر شاحب.

ناشدْتها: «لوسي، اعذريني، لوَجْه الإله، على هيأتي هاته!»، وشرحتُ لها أيضاً ضرورةَ تنكُّري. طمْأنتني بأنّ الأمر لا أهمية له، فأعلنتُ، بدافع من التلقائية المُتوَلِّدة من تناول الخمر، أنّ من المستحيل أن أظلّ هكذا أمامها، ونزعتُ فوراً السترة والبنطال، لكن كان تحتهما قميصِ النّوم والسروال العسكريّ الشنيع (المُمتدّ حتّى كَعْبيْ). فهُما قطعتان أخريان مُضحكتان أكثر من البدلة التي كانت تُخفيهما قبْل بُرهة. أدرتُ الزّر لإطفاء المصباح، لكن لا ظُلمة حلّت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لإنقاذي، لأنّ ضوء مصباح الزّقاق كان ساطعاً. ولمّا كان الخجلُ من الهيأة المُضحكة يفوق ما يُمكن أن يترتّبَ عن العُري، فقد نزعتُ القميص والسروال العسكريّ وبقيتُ واقفاً عارياً أمام لوسي. عانقتُها (وشعرتُ مرّة أخرى بأنّها كانت ترتعد). طلبتُ منها أن تنزع ثيابها، أن تتخلّص من كلّ ما يفصِلُ بيننا. كنتُ أداعبُ كلَّ جسدها وأتوسَّل إليها مرّات ومرّات، غير أنّها قالت لي أن أنتظر قليلاً، لأنّها لمْ تكن تستطيع ذلك، لم تكن تستطيعه حالاً، لم تكن تستطيعه فوْراً.

أمسكتُ بيدها وجلسنا على السّرير. ألصقتُ رأسي على بطنها وبقيتُ لحظة بدون حراك، وفجأةً تبدّت لي فظاظة عُريي (المكشوف على نحو خافت بالضوء المُتّسخ لمصباح الزّقاق)، وانتبهتُ إلى أنّ كلَّ شيءٍ كان يجري بخلاف ما حلمتُ به: لمْ تكن هناك فتاة عارية إلى جانب رَجُل بملابسه، بل كان هناك رجُلٌ مُجرّدٌ من ملابسه ملصِقاً رأسه على بطْن فتاةٍ بكامل ثيابها، فانتابني الشعور بأنّي المسيحُ مصلوباً بين يدَي مريم الرحيمة، وسرعان ما أفزَعني هذا الشعور، لأنني لمْ آتِ للبحث هنا عن الرّحمة، بل عن شيء آخر، فأخذتُ مرّةً أخرى أقبّلُ لوسي على وَجْهها وفستانها الذي كنتُ أسعى إلى فكّ أزراره خفية.

غير أنني فشلت، وابتعدَت لوسي: فقدتُ حماسي الأوّل وتلهُّفي الواثق، واستنفدتُ مخزوني من الكلمات والمُداعَبات. بقيتُ مُمَدَّداً على السَّرير، جامداً عارياً، ولوسي جالسة قرب رأسي مُداعِبة وَجهي بيديْها الخشنتيْن. وفي أثناء ذلك، كانت المرارة والغضب ينجليان: وأخذتُ أذكّرُ لوسي، في مُخيِّلتي، بكلّ ما تجشّمتُه من مُخاطرة لأجل لقائها اليوم، ذكّرتُها (في مُخيِّلتي) بكلِّ العقبات التي كان يمكنُ أن تترتّبَ عن خروجي في هذا الليل. غير أنّ هذا العتاب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لمْ يُلامس إلّا الظاهر (كان بمقدوري، في مخيّلتي على الأقل، الاعتراف به للوسي). أمّا المصدر الحقيقيّ لغيظي فكانت جذورُه أعمق بكثير (كنتُ أخجلُ من الاعتراف لها به): كنتُ أفكّرُ في بُؤسي، بؤسي الكئيب لضياع شبابي، بُؤسي في تلك الأسابيع الطويلة الظّمأى، والخزي اللانهائيّ للرّغبة المكبوحة، كنتُ أستحضِرُ استمالتي الفاشلة لماركيتا، وابتذال تلك الشقراء فوق الآلة الزراعيّة، ثم مرّة أخرى استمالتي الفاشلة للوسي. فاعترتني الرّغبة في الصّراخ بشكواي: لِمَ عليّ أن أكون راشداً في كلّ شيء؛ راشداً وأنا أحاكَم، وأنا أفصَل، وأنا أتَّهَم بالتروتسكيّة، راشداً وأنا أرسَلُ إلى المناجم، في حين لا حقّ لي أن أكون راشداً في الحُبّ وعليّ تجرّع كلَّ خِزيِ عدم النُّضج؟ كرهتُ لوسي، ولا سيما لمعرفتي بحُبّها لي، مما كان يجعلُ صَدَّها غريباً ومُبْهَماً ويضطرُّني للغضب. هكذا، بعد نصف ساعة من الصمت العنيد، عدتُ من جديد إلى المُواجَهة.

انقضضتُ عليها مُستعيناً بكلّ قوّتي، وتمكّنتُ من رَفع تنورَتها، وتمزيق صدريتها والإمساك بصدرها عارياً، غير أنّ لوسي كانت تُدافعُ عن نفسها بدون توقف وبحدّة شديدة (في سَورة عُنف أشدّ من عنفي) ثمّ ابتعدتْ، قفزتْ من السّرير واتكأت على الدّولاب.

«لِمَ تَصُدّينني؟» صرختُ. غمغمتْ، عاجزة عن الجواب، أنّ عليّ أن أغضب وأنّها لا تودّ إثارة غضبي، لكنّها لمْ تقل شيئاً مُوَضِّحاً ولا منطقيّاً. أخذتُ أصرخ: «لِمَ تصدّينني؟ ألا تعلمين إذاً كمْ أحبّك؟ إنّكِ في غاية الجنون! - اطرُدني إذاً، قالت وهي مستندة دوماً إلى الدولاب. - أجل، سوف أطردك، لأنّك لا تُحبّينني، لأنّك تسخرين منّي!». صرختُ مُخيِّراً إيّاها بصورةٍ نهائيّة بين أن تُطاوعني وإلّا فإنّني لم أعُد أريد رؤيتها إلى الأبد.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ثمّ ذهبتُ نحوها من جديد وقبّلتُها. لمْ تصدّني هذه المرّة، غير أنّها كانت بيْن يدي خائرة القوى كما لوْ أنّها ميّتة. صحتُ: «ماذا تحسبين نفسكِ بعُذريتك، لِمَن تودّين صيانتها؟». لاذت بالصمت. «لِمَ تلوذين بالصّمت؟ - ردّت: أنتَ لا تحبّني. - أنا، لا أحبّك؟ - نعم، لقد خُيِّل إليّ أنّكَ كنتَ تُحبُّني...» وانهارت بكاءً.

جثوتُ أمامها، قبّلتُ ساقيْها، توَسّلتُ إليها. كانت تُردِّد وهي مجهشة في البكاء، أنّني لمْ أكن أحبّها.

ودفعة واحدة، تملّكني غضبٌ حادّ. كما لوْ أنّ قوّةً كانت تعترضُ طريقي مُنتزعة منّي دوماً ما لأجله كنتُ أحيا، ما كنتُ أرغبُ فيه، ما كانَ لي. بدا لي أنّ هذه القوّة هي نفسُها التي سرقت منّي الحزب، والرّفاق، والكليّة، وهي التي كانت في كلّ مرّة تنزعُ منّي كلّ شيء، ودوماً إمّا عبر مُوافقةٍ أو رفض من غير أيّ تعليل. أدركتُ أنّ هذه القوّة الخارقة كانت تُروِّضُ لوسي ضدّي، وكرهتُ أن تُصبح لوسي أداةً في يدِ هذه القوّة، فلطمتُها على وجْهها مُعتقداً أنّني نِلتُ لا مِن لوسي ولكن من هذه القوّة العدوانيّة، وأخذتُ أصرخُ بأنني أكرهها، ولمْ أعُد أريد رؤيتها، لا أريد رؤيتها إلى الأبَد في حياتي.

قذفتُ لها بمعطفها البُنّي (المتروك فوق الكرسي) وصرختُ فيها أن تُغادر.

ارتدَت معطفها وغادرت.

ثم استلقيتُ فوق السّرير وقد تملّكني خواءٌ روحيّ، كنتُ على وشك النّداء عليها من جديد، لأنني افتقدتُها منذ اللحظة التي طردتُها فيها، ولأنني كنتُ أعرفُ أنّ من الأفضل ألف مرّة أن أكون مع لوسي مُتمرِّدة ومرتدية ملابسها من أن أكون بدون لوسي.

كنتُ أعرفُ ذلك، إلّا أنني لمْ أُقبِل على أيّ خطوةٍ لإرجاعها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لوقتٍ طويل بقيتُ مُمدَّداً فوق سرير هذه الغرفة المُعارَة، لأنّه كانَ مُستبْعَداً في هذه الحالة الذهاب للقاءِ أشخاص بالمنزل المُقابل للثكنة والتسلّي معهم بالإجابة عن أسئلتهم المرحة.

ومع ذلك انتهيتُ (في وقت مُتأخّر جدّاً من الليل) إلى ارتداء ملابسي وغادرتُ الغرفة. كان مصباح الزقاق يُلقي دوماً، من الرصيف المقابل، بأشعّته على المنزل الذي غادرت. قمتُ بدورة حول الثكنة، وطرقتُ النافذة (لم يكن يتسرّبُ الآن منها أي ضوء)، انتظرتُ ثلاث دقائق، ثم نزعتُ أسمالي بحضور عامل المنجم الذي كان يتثاءب، أجبتُ بشكل ضبابيّ عندما كان يسألني عن غنيمتي الجيّدة، واتّجهتُ (بقميص النوم والسروال العسكري مرّةً أخرى) نحو الثكنة. لمْ أعِر اهتماماً لمكان تواجُد الحارس بكلبه المُدرَّب، انتبهتُ لضوء المصباح الكاشف فقط. اندسستُ من تحت السياج، وتقدّمتُ بهدوء نحو مرقدي بالبيوت الخشبيّة. حاذيتُ بالضبط سور المصحّة عندما سمعتُ: «قف!» فتوقفت. أضاءني بمصباح في يده، قائلاً: «ماذا تصنعُ هنا؟

- أتقيّأ، أيّها الرقيب الرفيق، كنتُ أقول مُتكِئاً بيَد على السور.

- تابع، تابع!»، قال الرقيب وواصل دورته التفقّدية رفقة كلبه.

14

بدون أيّ حادث بلغتُ سريري (فقد كان العريف نائماً بعُمق)، وبقيتُ مع ذلك عاجزاً عن إغماض جفني، بحيث فرحتُ لمّا ارتفع صوتُ العريف الفظّ (صارخاً: قِفوا)، واضعاً حدّاً لهذه الليلة التّعسة. دسستُ قدميّ في نعلي وركضتُ نحو المغسلة كي أرشّ نفسي بماء

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بارد. في أثناء عودتي، لمحتُ تجمّعَ زمرة من الجنود كانوا بنصف لباسهم حول سرير ألكسيج يضحكون من غير صخب. فهمتُ أنّ ألكسيج كان نائماً (وهو مُستلقٍ على بطنه تحت الغطاء ورأسه مدفون في الوسادة) مثل صخرة جامدة. ذكّرني فوراً في فرانتا بتراسيك، الذي لِغضَبه من رئيس فصيلته تظاهرَ ذات صباح بنوم عميق، حتّى إنّ ثلاثة من رؤسائه، برُتب متعاقبة، حرّكوه بالتناوب من غير نتيجة، وهو ما اقتضى بعد اليأس من تحريكه نقلَهُ فوق سريره إلى الباحة، حيث لم يفرك عينيْه بتكاسُل إلّا بعد إغراقه ماءً. لم يكن وارداً اتّهام ألكسيج بالتمرّد، وليس لنومه العميق من سبَب، بلا شك، سوى ضعفِ بنيته الجسديّة. وصلَ العريف (رئيس مرقدنا) من ممرٍّ في الغرفة حاملاً بين يديه قِدراً كبيرةً مليئة بالماء وحوله العديد من جنودنا الذين أوْحوا إليه، على ما يبدو، بحركة صبّ الماء القديمة البليدة هذه، التي تتناسبُ تماماً مع عقول ضبّاط الصفّ في كلّ الأزمنة.

أغاظني هذا التواطؤ المُؤلم بين الجنود والعريف (المُحتقَر عادةً بشدّة)، إذ أثار سخطي أن أرى كلّ الحسابات القديمة بينهم تتلاشى فجأةً بسبب كراهيتهم المُشترَكة لألكسيج. جميعهم مَنحوا، بوثوق، كلمات القائد الذي تحدّثَ أمس عن ألكسيج مُخبرٍ معنى مُستمدّاً من ارتيابهم الشخصيّ فيه، وشعروا بالمدّ الدافئ لتواطئهم مع القائد وقسوتِه. حنقٌ أعمى صعِد إلى رأسي، حنقٌ على هؤلاء جميعاً حولي، لسرعة تصديقهم لأوّل اتّهام، ولقسوتهم الجاهزة دوماً، فتقدّمتُ العريفَ ورَهْطه. وعلى حافّة السرير، صِحتُ بأعلى صوتي: «قمْ ألكسيج، لا تكُن غبيّاً!».

في تلك اللحظة، أحدٌ من الخلف لوى معصمي، مِمّا أرغمني على السقوط على ركبتي. التفتُّ، فإذا هو بيتر بيكني الذي همس في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أذني: «أتُريدُ إذاً أيّها البولشفي إفساد العُرس؟»، تحرّرتُ من قبضته وسدَّدتُ إليه صفعة. كنّا على وشك الدخول في عراك، غير أنّ الآخَرين أسْرعوا لتهدئتنا خوفاً من استيقاظ ألكسيج قبل الأوان. ومع ذلك، بقِيَ العريف ينتظرُ حاملاً قِدرهُ. صاح وهو واقف فوق سرير ألكسيج: «قُم!»، وأفرغ فوقه ليترات الماء العشرة.

ثمّ وقع شيءٌ غريب: لقد بقِيَ ألكسيج مستلقياً كما كان. ظلَّ العريفُ مندهشاً لبضع ثوان، ثمّ صاح: «أيّها الجنديّ، قمْ!»، لكنّ الجنديّ ظلَّ جامداً. انحنى العريفُ وحرَّكه (كان الغطاءُ قد تبلّل، كما تبلّل السرير والشراشف، وكانت قطراتٌ تتساقط على الأرضية الخشبيّة)، تمكّنَ من قلب جسد ألكسيج، فبدا لنا وجهُه واهناً شاحباً جامداً.

صاح العريف: «الطبيب!». لا أحد تحرّك، الكلّ كان ينظرُ إلى ألكسيج في قميص نومه المُبتلّ، صاح العريف من جديد: «الطبيب»، وعيَّنَ جنديّاً انطلق مُسرعاً.

(كان ألكسيج يرقدُ بلا حَراك، أكثر نحولاً، أكثر سُقماً، أكثر شباباً، مثل طفل، ما عدا شفتيْه اللتيْن كانتا مضمومتيْن بشدّة لا تشبه طريقة الأطفال، كانت قطراتٌ تتساقط تحته. أحدٌ قال: «إنّها تُمطر...»).

أخذ الطبيبُ الذي حلَّ بسرعة زندَ ألكسيج وقال: «حسناً...». ثمّ أزال الغطاءَ المُبتلّ: فرأيناه في كلّ امتداده (القصير) بسرواله الطويل الأبيض المبتلّ، وصفحتا قدميْه الحافيتيْن مُعلّقتان في الهواء. تقصَّى الطبيبُ حول السّرير، فالتقط أنبوبيْن من على لوحة رأس السرير، فحَصَهُما (كانا فارغيْن) وقال: «إنّهما كافيان للإجهاز على شخصيْن»، ثمّ سَحبَ غطاء السرير المُجاور ومدّدهُ فوق ألكسيج.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كلُّ ذلك أخّرَنا، فاقتضى الأمْر تناوُلَ فطورنا ونحن نركض، وبعد ثلاثة أرباع الساعة نزلنا إلى السّراديب. لمّا انتهت الأشغال، انطلقتْ من جديد حصّة تداريب، وتربية سياسية، ونشيد إجباريّ، وأعمال تنظيف، وبحلول وقت النّوم، أخذتُ أفكّرُ في ستانا الذي لمْ يعُد هُنا، وهونزا، أقرب أصدقائي، الذي لمْ يعد هو أيضاً هُنا (أبداً لمْ أرَه مرّةً أخرى، كلُّ ما بلغني عنه أنّه هاجرَ سرّاً إلى أستراليا عندما أنْهى مُدّة خدمته) وكنتُ أفكّرُ أنّ ألكسيج، الذي ما عاد هو كذلك هنا، قد اضطلَعَ بدوْره المجنون بعَمىً وشجاعة، فليس الخطأ خطَأهُ إنْ هو لمْ يعُد، فجأةً، بمقدوره إطلاقاً أداء دوره، إنْ هو لمْ يَعُد يعرف بتاتاً البقاء في الصّفّ بقناع الكلب، إنْ كانت القوّة قد خانتْهُ. لم يكن ألكسيج صديقاً لي، كان يبدو لي، بتفكيره العنيد، غريباً، غير أنّه كان، من زاوية مصيره، الأقرب إليّ من بين الجميع، وعنَّ لي أنّه أضمَرَ بموته شيئاً تجاهي، كما لوْ أنّهُ أراد أنْ يُفهِمَني أنّه انطلاقاً من اللحظة التي يطردُ فيها الحزبُ شخصاً، لا يعود لهذا الشخص مِن مُسوِّغ للحياة. شعرتُ فجأةً بالذنب لكوني لمْ أحبّه، ولأنّه الآن رحل، مضى من غير رجعة، ولأني لمْ أقم بأيّ شيءٍ من أجله، مع أنني كنتُ الوحيد القادر هنا على فعل شيءٍ من أجله.

غير أنني لمْ أفقد ألكسيج فقط، ولم تكن تلك هي المناسبة الوحيدة لإنقاذ شخص، ففي ذلك الحين فقدْتُ، بمنظوري اليوم إلى الأشياء، دِفءَ التضامُن مع رفاقي السّود، وفقدتُ تبعاً لذلك الإمكانَ الأخير لإحياء ثقتي بالنّاس. لقد أخذتُ أشكّ في قيمة تضامُننا النّاجم فقط عن ضغط الظروف وغريزة البقاء التي جعلتنا نلتحمُ مثل قطيع مُتراصّ. وبدأتُ أفكّر أنّ جماعتنا، نحن السّود، كانت قادرة على الإيقاع بشخص (الحُكم عليه بالمنفى أو بالموت) تماماً مثل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جماعة القاعة السابقة، ولربّما مثلما هي حال كلّ جماعة.

كنتُ، في تلك الأيام، كما لوْ أنّ صحراءَ اخترقتني، كنتُ صحراءَ في الصحراء، وكنتُ أشعُرُ برغبة في الاتّصال بلوسي. لمْ أستطِع فجأةً أن أفهم لِمَ اشتهيتُ جسدَها بجنون، هُيِّئ إليّ اليوم أنّها لربّما لمْ تكن امرأةً من لحْم، بل عموداً شفّافاً من الدِّفء، الذي كان يخترقُ إمبراطورية برودة لانهائيّة، عموداً شفّافاً كان ينأى عنّي، وأنا مَنْ كنتُ أبعدهُ عنّي.

ثمّ حلّ يومٌ آخَر، وفي أثناء التداريب بالساحة، لمْ تُفارق عيناي السياج، مُنتظراً مجيئها، لكن، خلال كلّ ذلك الوقت، لمْ تأتِ إلّا عجوزٌ توقّفت وأرَتْنا ابنها الوَسِخ. وفي المساء، كتبتُ رسالة طويلة مُتيّمة، ناشدتُ فيها لوسي أن تعود، كتبتُ إليها أنّ عليّ رؤيتها، وأنني لمْ أعد أطلبُ إلّا حضورَها، وأن أتمكّن من رؤيتها ومعرفة أنّها معي وأنّها...

كما لوْ بدافع الهُزء، صحا الجوّ، كانت السماء زرقاء، وتشرين الأول/ أكتوبر كان رائعاً. تلوّنت الأشجار واحتفت الطبيعة (طبيعة أوسترافا الفقيرة هذه) بتوديعها للخريف بنشوةٍ مجنونة. كان عليّ أن أرى في ذلك هُزءاً ما دامت رسائلي المُتأسِّفة ظلّت بدون صدى، ولأنّ أشخاصاً غريبين بصورةٍ مُخيفة هم فقط مَن كانوا يقفُون بالسياج (تحت شمس مزعجة). بعد خمسة عشر يوماً أعاد إليّ البريدُ إحدى رسائلي، كان العنوان على الظرف مشطوباً، وبقلم الرّصاص كُتِبَ: لقد رحلت دون أن تترك عنواناً.

اجتاحني الذعر. استرجعتُ منذ آخر لقاء لي مع لوسي ألف مرّة كلَّ ما دار بيننا حينذاك، مائة مرّة لعنتُ نفسي، مائة مرّة برّرتُ الأمر لذاتي، مائة مرّة اعتقدتُ أنني تخلّيتُ عنها إلى الأبد، مائة مرّة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

طمْأنتُ نفسي أنّ لوسي رُغم كلّ شيء سوف تتفهّمني وتُسامحني. بيْد أنّ عبارةَ ساعي البريد بقلم الرّصاص دقّت مثل حُكم قضائيّ.

تحت وطأةِ انفعالٍ لمْ أتمكّن إطلاقاً من السيطرةِ عليه، أقبلتُ، في اليوم الذي تلا وصولَ الظرف، على جُنون جديد. أقول جنوناً، لكنّه لم يكن أكثر خطورةً من تسلّلي الأخير من الثكنة، ما هو أخرق في هذا الإقدام لمْ يتكشّف إلّا عند استرجاعه، وبالأحرى بسبب فشله أكثر منه بسبب مَخاطره. كنتُ أعرف أنّ هونزا أقدَم قبْلي أكثر من مرّة على الشيء نفسه عندما كان يخرجُ، خلال الصيف، مع بلغارية كان زوجها يعمل صباحاً في الخارج. لقد قلّدتُ إذاً نَهْجَه: بعد أنْ سجّلتُ حضوري رفقة الآخَرين في فرقة الصباح، سحبتُ بطاقتي ومصباح الأمان ولطّختُ وجهي بالتراب وتسلّلتُ، ركضتُ نحو إقامة لوسي وسألتُ عنها العجوز بالباب. علمتُ أنّ لوسي غادرت منذ خمسة عشر يوماً، بحقيبة صغيرة حيث جمعت كلَّ ما كانت تملكه، لا أحد كان يعرفُ إلى أين ذهبت، لم تقل شيئاً لأيٍّ كان. انتابني الذعر: ماذا لوْ كان قد أصابها مكروه؟ نظرَت إليّ البوّابة وصدرت عنها حركة لا مُبالية وقالت: «هكذا دوماً تفعل هؤلاء الصبايا اللواتي يأتين إلى العمل الجماعيّ، يأتين ويُغادرن من غير أنْ يقلن شيئاً لأحَد». اتّجهتُ إلى مصنعها للاستعلام عنها، وبمكتب العمّال لم أعرف شيئاً كثيراً. بعد ذلك تسكّعت بأوسترافا، وعُدتُ إلى المنجم قبل انتهاء الأشغال، راغباً في الاختلاط بحشدِ الرفاق في أثناء صعودهم من السرداب، غير أنّ أمْراً واحداً فقط فاتَني في خُطّة هونزا بشأن هذا النّوع من النُّزه، فتمّ القبضُ عليّ. بعد ذلك بأسبوعيْن، مثَلتُ أمام المحكمة العسكريّة وحُكِم عليّ بعشرة شهور بتُهمة الفرار.

أجل، ففي هذه اللحظة التي أضعتُ فيها لوسي ابتدأتْ كلّ تلك

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المرحلة الطويلة من اليأس والفراغ، التي ذكّرني بها ذلك الديكور المُوحِل لضواحي مدينتي التي قدِمتُ إليها لإقامة قصيرة. أجل، في تلك اللحظة فقط ابتدأ هذا: في أثناء الشهور العشرة وراء القضبان، توفيت والدتي ولم أتمكّن حتى من حضور دفنها. وبعد ذلك، عدتُ إلى أوسترافا، عند السّود، وقضيتُ أيضاً سنة أخرى من الخدمة. في هذه الفترة، وقّعتُ على الالتزام بالعمل ثلاث سنواتٍ في المناجم بعد إنْهاء خدمتي العسكريّة، لأنّه ذاعَ أنّ مَن سيمتنعون عن التوقيع سوف يُحتفظُ بهم في الثكنة لسنواتٍ أخرى إضافيّة. هكذا نزلتُ من جديد إلى السّراديب لمدّة ثلاث سنوات بصفتي المدنيّة.

لا أحبُّ التفكير في ذلك، لا أحبُّ الحديث عنه، ولنقل في سياق ذكره، لا أقدّرُ اليوم الأشخاص، الذين تمَّ نبْذهم مِثلي مِن قِبَل الحركة التي كانوا بها يُؤمنون، عندما يتباهوْن بمصيرهم. صحيح أنني أنا أيضاً جعلتُ مصيرَ طرْدي بُطوليّاً، غير أنّ ذلك كان كبرياءً زائفاً. ومع مُرور الزمن، كان عليّ أن أتذكّر بلا تساهُل أنني لمْ أُحْشَر مع السود بسبب شجاعتي، ولا بسبب مقاومتي، ولا لأنني تصدّيتُ بفكرتي لأفكار أخرى، لا، إنّ سقطتي لمْ تنجم عن أيّ مأساةٍ حقيقيّة، لقد كنتُ موضوعاً لقصّتي أكثر منّي مُؤلِّفاً لها، ومن ثمّ فليس لي (بغضّ النظر عن قيمة المعاناة والأسى والفشل) أدنى مُسوّغ لأن أعتمدها للتّباهي.

وماذا عن لوسي؟ آه، أجل: لقد مضت خمسة عشر عاماً دون أن أراها، بل بقيتُ فترةً طويلة من غير أن أعرف عنها شيئاً. غير أنه بلغني، بعد إنْهاء خدمتي العسكريّة، أنّ مِنَ المُمْكن أنْ تكونَ في مكان ما غرْب بوهيميا. إلّا أنني لمْ أبحث عنها أبداً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

القسم الرّابع

جاروسلاف

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

1

أرى طريقاً وسط الحقول. أرى أرضَ هذا الطريق مُخدَّداً بعجلاتِ عربات المُزارعين. العشبُ شديدُ الاخضرار على طول الطريق، بحيث لا أقوى على مُقاومة رغبتي في لمْسِه.

من كلّ جانب، حقولٌ صغيرةٌ لا المساحاتُ الشاسعة المُوحَّدة مِن قِبَل التعاونيات. كيف؟ أليس ما أقطعُه مشهداً طبيعيّاً من زمننا؟ أيُّ مشهدٍ هو إذاً؟

أتوغّلُ بعيداً، وها هي أمامي زهرةُ نسرين عند حافّة حقل. إنّه مليءٌ بأزهار بريّةٍ صغيرة. أتوَقّفُ مُبتهِجاً. أجلسُ على العشب عند بداية دغل وسرعان ما أتمدّد. أحسُّ بظهري يُلامسُ الأرض المُعشبة. به أتحسَّسُها. أمسكُ بها بظهري وأرجوها ألّا تخشى الإثقال عليّ وأن ترتاح فوقي بكلّ حِمْلها.

ثمّ أسْمعُ وَقعَ حوافر. ومن بعيد سحابة غبار دقيق ترتفع. وكلّما اقتربَت تُصبحُ نصف شفّافة، كاشفة عن فرسان. إنّهم شبّان على سُروج جيادهم بلباس مُوَحَّد أبيض. ولكن، كلّما اقترَبُوا أكثر، تتبدّى بصورة أجلى بدلة لباسهم الرّسمي. بعضُهم بسترات مربوطة بأحزمة إلى الأكتاف ومشدودة بأزرار ذهبيّة، وبعضُهم بصدور عارية، وثمّة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مَن هُم بقمصان. بعضُهم يعتمِرُ قبّعات وبعضهم برؤوس عارية. آه لا، لا يتعلّقُ الأمْرُ بفصيل نظاميّ، إنّهم هاربون، مُنشقّون، قطّاع طرق! إنّهم فرساننا. نهضتُ أنظرُ إليهم قادمين. استلَّ الفارسُ الأوّلُ سيْفه ورفعَه. فتوَقّفت الكوكبة.

انحنى الرّجُل ذو السيف على عُنق جواده ليتفرّس في وجهي.

«أجل، هو أنا، قلتُ.

– الملك! قال الآخر مُندهشاً، لقد عرفتُك».

أحنيتُ رأسي مُبتهجاً. منذ قرون عديدة وهُم يركضون على الخيول وقد عرفوني.

«كيف تعيشُ يا مليكي؟ سألَ الرّجل.

– أنا خائفٌ يا أصدقائي، قلتُ.

– أيُلاحقونك؟

– ليس ذلك، ثمّة ما هو أسوأ. شيءٌ ما يُحاكُ ضدّي. فأنا لا أعرفُ النّاس الذين مِنْ حوْلي. أعودُ إلى بيتي، فلا الغرفة غرفتي ولا المرأة امرأتي، كلُّ شيءٍ مُختلف. أقول في نفسي لا بُدّ أنني أخطأت، فأخرجُ من جديد، ولكنّ المنزلَ حقّاً منزلي. إنّه مِن الخارج هو، ومن الدّاخل غريب. والأمر على هذه الحال أينما التفتُّ. تحدُثُ أشياءُ تُخيفني يا أصدقائي».

سألني الرّجُل: «ألا تزال تُحسنُ ركوبَ الخيل؟» حينذاك أنتبهُ أنّ ثمة جواداً بجواره، مَطية مُسرّجة بدون فارس. يدُلّني الرّجُل عليها. أدسّ قدَماً في ركاب السّرج وأمتطي. يعترضُ الحصان، لكنّ ركبتيّ إذاك تضغطان على جنبيْه بالتذاذ. يسحبُ الرّجُل من جيْبه قناعاً أحمرَ يمُدّه إليّ قائلاً: «ضَعْه على وجهك حتى لا يتعرّفوك!».

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أصبحتُ، والقناع على وجْهي، أعمى. يصِلني صوتُ الرّجُل: «الحصانُ سوف يقودك».

كلُّ الكوكبة انطلقت. إلى جانبي كنتُ أشعرُ بمَن بجواري يركضون فوق خيولهم. كانت رَبلتا ساقيّ تُلامسان ربلاتهم، وكان يصِلني أحياناً نفيرُ خيولهم المُتقطّع. ربّما بقينا لمدّة ساعة هكذا نركض بخيولنا، جسداً بجوار جسد. ثمّ توقّفنا. صوتُ الرّجل ذاته يقول لي: «لقد وصلنا يا مليكي!

- أين نحن؟ سألتُه.

- ألا تسمعُ هديرَ النّهر الكبير؟ ها نحنُ على ضفّة نهر الدّانوب. أنت هُنا في أمان، يا مليكي.

- حقّاً، إنني أشعرُ بالأمان، قلتُ. وكنتُ أريد خلْعَ قناعي.

- لا ينبغي أن تقوم بذك، يا مليكي، ليس الآن. ما حاجتك إلى عينيْك؟ لا يُمكنُ لعينيْك إلّا أن تخدعاك.

ولكنّني أريدُ رؤية دانوبي، أريدُ رؤية نَهْري!

- لستَ بحاجة إلى عينيْك يا مليكي! سوف أصفُ لك كلّ شيء. سيكونُ ذلك أفضل. ثمّة مِن حولنا سهلٌ لا يحدّه النظر. وثمّة مَراعٍ. عُلّيقٌ هنا وهناك، منتصبٌ هنا وهناك، ورأسُ بئر، لكنّنا فوق العشب، على حافّة النّهر. وعلى مسافة خطوتيْن، يتحوّلُ العشب إلى رمْل، لأنّ نهر الدانوب، في هذه النّواحي، رَمْليّ. والآن انزلْ من فوق حصانك، يا مليكي!».

نزلنا، وجلسْنا أرضاً.

يُواصلُ صوتُ الرّجل: «للفتيان أن يُشعلوا ناراً، فالشمسُ تذوبُ هناك في الأفق، وبُرودُ الجوّ لن يتأخّر.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- أريدُ أن أرى فلاستا، أقول فجأةً.

- سوف تراها.

- أين هي؟

- ليست بعيدة. سوف تذهبُ إلى لقائها. حصانك سوف يقودك».

قفزتُ وطلبتُ الذهاب إليها حالاً. غير أنّ قبضة رجوليّة أمسكت بكتفي. «ابْقَ جالساً، يا مليكي. عليْك أن تستريح وتتناول الطعام. وفي أثناء ذلك، سوف أحدّثك عنها.

- اِحكِ، أين هي؟

- ثمّة، على مسافة مِن هنا، منزلٌ خشبيّ صغير بسَقفٍ مِن قشّ. وهو مُحاطٌ بحباك صغير.

- أجل، أجل، كلّ شيءٍ فيه مِن خشب، قلتُ والقلبُ مُفعمٌ بالسّعادة. وهو بذلك في غاية الرّوعة، لا أريدُ مسماراً واحداً في هذا المنزل الصّغير.

- أجل، يُواصلُ الصوْت، الحِباك المُنتصب بالكاد مُشذّبٌ بحيث نتعرّفُ الشّكلَ الأصلي للأغصان.

- كلُّ الأشياء المنحوتة من الخشب تُذكّرُ بقطّ أو كلب، قلتُ. إنّها كائناتٌ أكثر منها أشياء. أحبُّ عالَمَ الخشب. فيه فقط أكونُ في بيتي.

- خلفَ الحباك ينمو عَبّاد الشمس وحشيشة القمر والدّهلية، ثمّ هُناك شجرةُ تُفّاح هَرِمَة. وها هي فلاستا واقفة على العتبة!

- كيف هي؟

- إنّها ترتدي تنّورةً من كتّان مُلطّخة قليلاً، لأنّها عائدة من

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الإسطبل. تحملُ دلواً خشبيّاً صغيراً. حافية القدميْن. غير أنّها جميلة، لأنّها شابّة.

- إنّها فقيرة. هي خادمة فقيرة.

- أجل. ومع ذلك فهي ملِكة. ولأنّها ملكة، ينبغي أنْ تبقى مُتوارية عن الأنظار. حتّى أنتَ لا يُمكنك الاقتراب منها مخافة أن تُكتشف. يُمكنك ذلك إذا كنتُ فقط مُقنّعاً. الحصانُ يعرفُ الطريق».

كانت حكاية الرّجل شديدة الرّوعة، بحيث اعتراني خدرٌ لذيذ. كنتُ نائماً فوْق العشب أصغي إلى الصوْت، ثمّ خفَتَ الصوْت ولمْ يَعُد يُسمَع إلّا هدير الماء وطقطقة النّار. كان ذلك في غاية الجَمال حتى إنّني لمْ أجرؤ على فتْح عينيّ. ولكن، لمْ يكن من ذلك بُدّ. كنتُ أعرفُ أنّ الوقتَ قد حان وأنّ عليّ أنْ أفتح عينيّ.

2

كانت المرتبة تَحتي موضوعة على خشب مُبَرْنق. وأنا أكرهُ الخشب المُبرْنق. القوائم، التي عليها تنهضُ الأريكة، معدنيّة، وهو ما أكرههُ أيضاً. وفوقي تتدلّى من السّقف كرةٌ زجاجية ورديّة تُطوّقها ثلاثُ لِفافاتٍ بيضاء. أكرهُ هذه الكُرة أيضاً. أكرهُ الخزانة الزجاجية التي تعكسُ واجهتُها أشياء زجاجيّة أخرى عديدة لا تصلحُ لأيّ شيء. وحدهُ الهارمونيوم في الزاوية مصنوع من الخشب. هو فقط ما أحبّه في هذه الغرفة. إنّه تذكارٌ من والدي الذي تُوفي قبْل عام.

نهضتُ من الأريكة. كنتُ لا أزالُ أشعرُ بالتعب. كان يوم جمعة بعد الظهر، أي قبل انطلاق موكب الفرسان الملوك بيوميْن.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فأنا مَنْ يضطلعُ بالأعباء جميعها. وعليّ يُعوَّلُ دوماً في كلٍّ ما له علاقة بالفولكلور في مُقاطَعتنا. لذلك لمْ أعرف إلى الراحة سبيلاً لِمدّة خمسة عشر يوماً، بسبب الانشغالات والتحضير والجدال.

ثمّ دخلت فلاستا الغرفة. غالباً ما تُفاجئُني فكرةُ أنّ عليها أن تُصبحَ بَدينة. فالنِّساء القويات يُصبحن طيّبات. فلاستا نحيلة، لها تجاعيدُ دقيقة على الوَجْه. سألتني إذا ما كنتُ مررتُ، في أثناء عودتي من المدرسة، بالمَصبنة لإحضار الملابس. كنتُ قد نسيتُ. قالت لي: «لقد خمّنتُ ذلك»، وأرادت أن تعرف إن كنتُ، ولوْ لِمرّة واحدة، أنوي اليوم البقاء بالبيت. وهو ما اضطرّني إلى أن أجيبها بالنّفي. لقد كان لديّ بعد قليل لقاءٌ بالمدينة، في المقاطَعة. «لقد كنتَ تعهّدتَ بمُساعدة فلاديمير على إنجاز واجباته المدرسيّة»، قالت. رددتُ بهزّ كتفي. «مَنْ سيحضرُ هذا اللقاء؟»، سألتْ. كنتُ أعرضُ عليْها أسماءَ عندما قاطعَتني قائلة: «لاهنزليك أيضاً؟ - قلتُ: طبعاً». استشاطت فلاستا غيْظاً. فتعكّرَ كلُّ شيء. لقد كانت للسيدة لاهنزليك سُمعة سيّئة. وكان معروفاً أنّها ضاجعَت بيير وبول. لمْ يكن الشكُّ يُساورُ فلاستا تجاهي، إلّا أنّها كانت تحتقِرُ كلَّ اللقاءات التي تُشاركُ فيها لاهنزليك. لمْ يكن ثمّة سبيلٌ للتحدّث إليها. فكان من الأفضل الانسحابُ فوْراً.

كانَ الاجتماعُ مُخصَّصاً لآخِر الإعدادات المُتعلّقة بموكب الفرسان الملوك. عوائق من كلّ جانب كانت تعترضُنا. ذلك أنّ اللجنة الوطنيّة شرَعت في تقليص النّفقات التي كانت تدعمنا بها. قبْل سنواتٍ قليلة، كانت تُخصِّصُ مبالغَ مهمّة للاحتفالات الفلكلورية. أمّا اليوم، فنحنُ مَنْ عليْهم دعم مالية اللجنة الوطنيّة. وبما أنّ اتحاد الشباب لم يعُد يُمارسُ أيَّ تأثير على الشباب، فقد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تقرّر أنْ يُعْهَدُ إليه تنظيمُ موكب الفرسان الملوك لردّ الاعتبار إليه.

وإذا كانت عائداتُ موكب الفرسان الملوك تُستثمَرُ سابقاً في تمويل مشروعات فولكلوريّة أخرى أقلّ ربْحاً، فإنّها سوف تعود هذه المرّة إلى اتّحاد الشباب الذي سوف يستغلّها في ما يريد. قدّمْنا طلباً إلى مصالح الأمن قصد تعليق حركة المرور في أثناء تظاهرة موكب الفرسان، إلّا أننا تلقينا، خلال يوم اجتماعنا ذاته، جواباً بالرّفض. لمْ يكن مُمْكناً، وفقَ ما قيل، إرباك حركة المُرور بسبب حفل موكب الفرسان الملوك. ولكن، ما الصّورة التي سيكونُ عليها هذا الموكب بخيول مُحاطة بسيارات؟ إنّها انشغالاتٌ لا تنتهي.

طالَ اللقاء، وحوالي الثامنة كنتُ عائداً إلى البيت. وفي الساحة لمحتُ لودفيك. كان يسيرُ في الاتّجاه المُعاكس، على الرّصيف المُقابل. اعترَتني رَعشة انشراح. ما الذي قادهُ إلى هُنا؟ فوجئتُ بالنظرةِ الخاطفة التي رَمَقني بها قبْل أن يُشيح ببصره سريعاً. لقد تظاهَرَ بعدم رُؤيتي. زميلان قديمان قضيَا بالمدرسة على مقعدٍ واحدٍ ثماني سنوات! ويتظاهرُ بعدم رؤيتي!

كان لودفيك أوّل صدْع في حياتي. أمّا اليوم فقد تعوّدتُ على ذلك. فحياتي بيتٌ يفتقرُ إلى الصلابة. لمّا ذهبتُ في الأيام القليلة الماضية إلى براغ، قصدتُ واحداً من تلك المسارح الصغيرة التي شهدتْ افتتاحَها بوَفرة في الستينيات، وسرعان ما عرفَتْ إقبالاً بفضل مُنشّطين شبّان ذوي فكر طلابيّ. في هذا المسرح، تمّت تأدية تمثيليّة هزليّة، وأغان مُسلّية، وموسيقى جاز رفيعة، ثمّ فجأةً أخذ العازفون يضَعون على رؤوسهم تلك اللبدات الدائريّة ذات الريشة التي كانت تُعتَمَر في بلدتنا مع بدلة شعبيّة، وأخذوا يُقلّدون جوقة السنبالوم. كانوا يُصدرون بابتهاج أصواتاً شديدة مُتقطّعة، مُحاكين رقصَنا وتلك

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الحركة المُميَّزة، أي رفع الذراع مستقيمة في اتجاه السماء. كان الجمهور ينفجرُ ضحكاً. لمْ أصدِّق ما رأيْت. قبل خمس سنوات فقط، لا أحد كان يجرؤ على الاستهزاء منّا بهذه الطريقة. وفوق هذا لمْ يكن ذلك لِيُضْحك أحداً. وها نحنُ اليوم مثل مُهرِّجين. لِمَ أصبحْنا فجأةً مثل مُهرِّجين؟

وفلاديمير. لقد استطاع أن يُذيقني الكثيرَ من العناء في الأسابيع الأخيرة. كانت اللجنة الوطنيّة قد أوْصَت اتحاد الشباب باختياره ملِكاً لهذه السنة. مثل هذا الاختيار كان دوماً يعني تكريماً للأب. فكّروا فيَّ. كانوا يُريدون، من خلال ابني، مُكافأتي على كلّ ما قمتُ به من أجل الفنّ الشعبيّ. وفي المُقابل تنبيه فلاديمير، الذي أخذ في المُراوغة ما أمْكنه. فقدْ قال إنّه أراد الذهاب هذا الأحد إلى برنو لِمُشاهدةِ سباق الدرّاجات النّاريّة، بل أصرَّ أنه كان خائفاً من الخيول. وفي الأخير، أعلن رفضَه أن يكون ملِكاً، لأنّ ذلك كان نتيجة قرار منْ فوق. وكان هو يرفضُ الوساطة.

كمْ تألّمتُ بسبب ذلك. كما لوْ أنّه كان حريصاً على أنْ يمحوَ من حياته كلَّ ما يُذكّره بحياتي. لمْ يشأ مُخالطة مجموعة الأطفال للغناء والرّقص التي أسَّسْتُها على هامش فرقتنا. كان يُراوغ. وكان يزعمُ أنّه ليس موْهوباً في الموسيقى. رُغم أنه كان يعزفُ جيّداً على القيثارة، ويجتمعُ دوماً بأصدقاء كيْ يُغنّوا ما لا أدريه من عبارات أميركيّة مُكرَّرة.

صحيح، إنّ فلاديمير لا يبلغ من العمر إلّا خمس عشرة سنة. وهو يُحبّني كثيراً. لقد كانَ لنا هذه الأيام حوارٌ وَجْهاً لوَجه، لربّما يكونُ قد فهمني.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

3

أتذكّرُ جيّداً. كنتُ جالساً على مقعد دوّار، وفلاديمير أمامي على الأريكة. كنتُ أضعُ مرفقي على الغطاء المنخفض للهارمونيوم، هذه الآلة الأثيرة لديّ. كنتُ أستمعُ إليها منذ طفولتي. كان والدي يعزفُ عليها يوميّاً، ولا سيما الألحان الشعبيّة ذات الإيقاعات البسيطة. كما لوْ كنتُ أستمعُ إلى خرير الينابيع البعيدة. لوْ أنّ فلاديمير كان يَقبلُ الإنصات لها. لوْ أنّه عزمَ على فهْمِها.

في القرنيْن السابع عشر والثامن عشر، كفَّ الشعبُ التشيكي، تقريباً، عن الوجود. وفي القرن التاسع عشر، شهدَ ولادَتَه الثانية. كان الشعبُ التشيكي طفلاً في دائرة الأمم الأوروبية القديمة. لا شكّ أنّه هو أيضاً كانَ له ماض مَجيد، ولكنّه انفصلَ عنه بهوّةِ قرنيْن. خلالهما، لاذتِ اللغة التشيكيّة بالبوادي نازحة من المُدن، ولمْ تعُد تنتمي إلّا إلى عامّة النّاس. ومع ذلك، فقد واصلتْ، حتّى بينهم، خلقَ ثقافتها. ثقافة بسيطة محجوبة عن عيون أوروبا. إنّها ثقافة الأغاني والحكايات وطقوس العادات والحِكم والأمثال. فقد كانت هذه الثقافة الجُسَيْر الوحيد المُشيَّد فوق هذيْن القرنيْن.

الجُسيْر الوحيد، والقناة الصغيرة الوحيدة. المَمرّ الوحيد لتراث لمْ ينقطع أبداً. فوقه تحديداً أرْسى مُؤسِّسو الآداب التشيكيّة الجديدة، في فجر القرن التاسع عشر، إبداعاتهم. لذلك كان أوّلُ شعرائنا حريصين على استثمار الحكايات والأغاني. أشعارُهم الأولى كانت تُشبهُ ألحاناً شعبيّة.

فلاديمير، يا صُغيري، لتتكرّم بفهْم هذا. ليس والدُكَ مُجرّدَ ممسوس بالفولكلور. لربّما هناك شيءٌ مِنْ هذا، ولكنّه يرمي، من

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وراء هذا الهوس، إلى ما هو أعمق. يرومُ، عبر الفنّ الفولكلوري، بناءَ النّسغ الذي بدونه لن تكون الثقافة التشيكيّة إلّا شجرةً يابسة.

أدركتُ ذلك كلّه خلال الحرب. لقد أرادوا إيهامَنا أنْ لا حقّ لنا في الوُجود، وبأنّنا ألْمان فقط كانوا يتحدّثون التشيكيّة. وهو ما أوْجبَ علينا الاطمئنان على أنّنا وُجدنا ونوجد. وكلّنا، في تلك المرحلة، عُدنا إلى الينابيع.

كنتُ حينذاك أعزفُ على الكونترباص في فرقة صغيرة لتلاميذ الثانوي، كانت تعزفُ موسيقى الجاز. وذات يوم جاء أعضاء حلقة مورافيا للبحث عنّي كي نؤسِّس جوقة سنبالوم.

مَن كان بمقدوره أن يرفض في تلك الفترة؟ فذهبتُ رفقتهم للعزف على الكمان.

كنّا ننتزعُ الأغنيات القديمة من سُبات الموت. في القرن التاسع عشر، عندما وثّقَ المواطنون الفنَّ الشعبيّ في كتُب، كانوا قد وَصلوا إلى اللحظة الأخيرة. ذلك أنّ الحضارة الحديثة كانت قد شرعت في إزاحة الفولكلور. هكذا ظهرت، في بداية قرْننا، حلقاتٌ فولكلوريّة لإدماج الفنّ الشعبيّ المحفوظ في الكتُب داخل الحياة من جديد، حياة المدن أوّلاً ثمّ حياة البادية بعدها. جرَى ذلك في مورافيا تحديداً. فتمّ تنظيمُ حفلاتٍ شعبيّة ومواكب الفرسان الملوك، وتمّ تشجيع الفرق الشعبيّة. إنّه مجهودٌ هامّ، لكنّه كان مُهدَّداً بأن يبقى عقيماً: لمْ يكن المُهتمّون بالفولكلور يعرفونَ إحياءَهُ بسُرعة تفوقُ حرْصَ المدينة على إقباره.

حلّت الحرب لتُمدّنا بقوّة جديدة. فنظَّمْنا موْكباً للفرسان الملوك في السنة الأخيرة للاحتلال النّازي. كانت هناك ثكنة بالمدينة، ومن بيْن الحشود على الرّصيف، ضبّاطُ صفّ كانوا يدفعون النّاس. لقد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

غدا موْكبنا تظاهرة، بكوكبة فتيان مُبرقشين والسيوف في الأيدي. كان ذلك إحياءً للسحيق في التاريخ. كلُّ التشيكيّين حينذاك كانوا يفهمونه بهذه الطريقة وعيونهم كانت تشِعّ. كنتُ في الخامسة عشرة من عمري وانتُخبْتُ ملكاً. كنتُ أضعُ قناعاً على وَجْهي وأحثُّ جوادي على الإسراع، مُحاطاً بخادميْن. فخوراً كنتُ. وأبي أيضاً. كان يعرفُ أنّ انتخابي ملكاً تكريمٌ له. كان مُعلّماً بالقرية ووطنيّاً، والجميع كان يُحبّه.

فلاديمير، يا صغيري، أؤمنُ بأنّ للأشياء معنىً. أؤمنُ أنّ المصائرَ الإنسانيّة يلحُمُها رباطٌ من الحِكمة. يبدو لي انتخابُك هذه السنة ملِكاً ذا دلالة. أنا فخورٌ مثلما كنتُ قبل عشرين سنة، وأكثر. فأنا مَنْ يَوَدّون تكريمَه من خلالك. ولا أنكِرُ أنّ لهذا التكريم قيمة بالنسبة إليّ. أريدُ أنْ أقلِّدَكَ مُلكي. أريدُ أنْ تسْتلِمه مِن يدي.

لربّما قد فهمني. فقد وعدَني بقبول اختياره ملكاً.

4

ليْته كان يُريدُ فهْمَ مدى أهمية ذلك. لا أستطيعُ تخيُّل أمْرٍ أهمّ، أمْرٍ أكثر جاذبيّة.

الأمرُ التالي على سبيل المثال. لطالما زعَم علماء الموسيقى البراغيون أنّ أغاني أوروبا الشعبيّة تتحدّرُ من الفنّ الباروكي، وأنّ موسيقيّين قرويّين كانوا يُمارسون العزفَ والغناء في جوقات القصور، قبْل أن ينقلوا فيما بعد ثقافة النّبلاء الموسيقيّة إلى حياة عامّة النّاس. وفقَ هذا الرأي، فإنّ الأغنية الشعبيّة لمْ تكن إطلاقاً تُمثّلُ فنّاً فريداً. فهي مُشتقّة من الموسيقى العالِمة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إلّا أنّه مهْما كان عليه الوضْعُ في حالة بوهيميا، فإنّ الألحان التي تُغنَّى في مورافيا تتملّصُ من هذا التفسير؛ وأساساً من زاوية المقامات. فالمقاماتُ المُستعمَلة في موسيقى العصر الباروكي كانت مقامات كبيرة أو صغيرة. كما أنّ أغانينا تُؤدَّى بمقامات لا يُمكنُ أن تتصوّرها جوقاتُ القصور.

مثلاً مقام الليديان. وهو الذي يحتوي على رابعةٍ زائدة. يُذكّرني دوماً بحنين الغزليّات الرعويّة للزّمن الغابر. فيتراءَى لي إلهُ الوثنيين بان وتَصِلُني أنغامُ نايهِ:
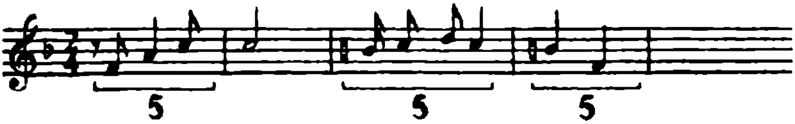
لقد كانَ لِموسيقى الفترة الباروكيّة والعصر الكلاسيكيّ إجلالٌ مُفرط لِنظام السابعة الكبيرة الجميل. ولمْ تكن تعرفُ مِن طريقٍ إلى الأساسيّة إلّا بالمُرور عبر العلامة الموسيقيّة الحسّاسة، إذ كانت السابعة الصغيرة الصاعدة إلى الأساسيّة عبر الثانية الكبيرة تُرعِبُها. ما أحبُّهُ شخصيّاً في ألحاننا الشعبيّة هو تحديداً هذه السابعة الصغيرة، سواء انتمت إلى مقام الإيوليان أو مقام الضوريان أو الميكسوليديان. وذلك لطابَعها الكئيب ورَفْضِها الانتقالَ السريع ببلاهة إلى النغمة الأساسيّة التي بها ينتهي كلُّ شيء؛ الغناء والحياة:

ولكنَّ ثمّة أغانيَ، بشأن هذه النّقطة، ذات مقامات مُتفرّدة، بحيث مِنَ المُستحيل تسميتها وفقَ أيّ مقام من المقامات المنسوبة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إلى الكنيسة. أمام هذه المقامات أبقى مشدوهاً:
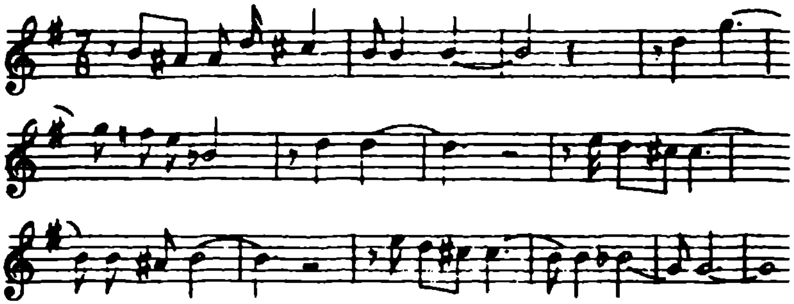
تَستعملُ الأغاني الموراڤيّة مقاماتٍ مُركّبة بصورةٍ تفوقُ الخيال. فترابُطُها النّغميّ غامضٌ، يبدَأ بالمقام الصّغير وينتهي بالمقام الكبير، وهي تبدو مُتردّدة بين مقامات مختلفة. وغالباً ما لا أتمكّنُ من فهْم المقام عندما يتعيّنُ عليّ توزيعها بشكل هارمونيّ.

ولها الغموض ذاتُه في النّظام الإيقاعيّ، خصوصاً الألحان البطيئة التي ميّزَها بيلّا بارتوك بمصطلح بارلاندو، بحيث ليس ثمّة أيّ وسيلةٍ لكتابةِ هذا الإيقاع بواسطة نظام التدوين المُستعمَل. وبعبارةٍ أخرى، فكلُّ المُغنّين الشعبيّين، من منظور نظام تدوينِنا، يُؤدّون هذه الأغاني على إيقاعاتٍ غير مُحدَّدة.

كيف نُفسِّرُ ذلك؟ كان ليوس جاناسيك يُؤكّدُ أنّ هذا الطابعَ المُركّب للإيقاع، المُتمنّع على الاستيعاب، ناجمٌ عن تقلّبات مزاج المُغنّي اللحظيّة. فانطلاقاً من الطريقة التي بها يُغنّي، يتجاوَبُ مع ألق ألوان الزّهور، ومع الوقت الذي فيه يُؤدّي الأغنية، ومع اتّساع المنظر الطبيعي.

لكن، أليس هذا التأويلُ مُفرطاً في الشاعريّة؟ لقد أطْلعَنا أحَدُ الأساتذة، منذ سنتنا الأولى بالجامعة، على إحدى تجاربه. كان قدْ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

طلبَ من مجموعة من المُغنّين الشعبيّين أنْ يُؤدّوا، بشكلٍ مُنفصل، اللحنَ ذاتَهُ على إيقاع مُختلفٍ عمّا هو مُدوَّنٌ لديه. فأثبتت القياساتُ التي حصل عليها بواسطة آلاتٍ إلكترونيّة دقيقة أنّ الجميعَ كان يُغنّي بطريقةٍ مُتطابقة.

لا يعودُ إذاً الطّابَعُ المُركّبُ لإيقاع هذه الأغاني إلى خَلل في الدّقة أو إلى مزاج المُغنّي، بل يخضَعُ إلى قوانينه السرّيّة. هو الأمرُ كذلك في بعض أنماط الأغنية المورافيّة الرّاقصة، حيث يُؤدَّى، مثلاً، الشّقّ الثاني من الحقل الموسيقيّ دائماً أطول من الشّقّ الأوّل بجُزءٍ من الثانية. ولكن، كيف نرمزُ إلى هذا الطابَع المُركّب في المُدوَّنة الموسيقيّة؟ يقومُ التقسيمُ الإيقاعيّ للموسيقى العالِمة على التّناظُر. فالمُستديرة تُساوي بيضاويْن، وبيضاء تُساوي سوداويْن، وينقسِمُ الحقلُ الموسيقي إلى زمنيْن أو ثلاثة أو أربعة مُتساوية القيمة. ولكن كيف نُدوِّنُ حقلاً يحتوي على زمنيْن غير مُتساوييْن؟ ما يشقّ علينا اليوم هو كيفيّة تدوين الإيقاع الأصلي للأغاني المورافيّة.

الأمْرُ المُؤكّد إذاً هو أنّهُ لمْ يكن مُمْكناً لأغاني بلدتنا أنْ تتولّد من الموسيقى الباروكيّة. لربّما تسنّى ذلك لأغاني بوهيميا، لأنّ مُستوى التمدّن في بوهيميا كان عالياً، وكانت الصلة بين المُدن والأرياف أوْثق، وهو ما كان قائماً بين القرويين والقصر. لقد كانت هناك قصورٌ أيضاً في مورافيا، غير أنّ العالَمَ القرويّ كان أكثر بدائية، بما جعلهُ أكثر انعزالاً. ولمْ يكن شائعاً بتاتاً انضواء موسيقيّين ريفيّين إلى جوقةِ قصر. في ظلٍّ هذه الشروط استطاعت الأغاني الشعبيّة، حتى تلك المُوغلة في القِدم، أن تبقى مصونة. هو ذا ما يُفسِّرُ اختلافَها. إنّها تُوثّقُ لِمُختلف أطوار تاريخها الطويل البطيء.

عندما تكونُ أمام موسيقانا الشعبيّة بكاملها فكما لوْ أنّك تُتابعُ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المرأة التي كانت ترقصُ في ألف ليلة وليلة وهي تُزيحُ بالتتابُع قناعاً وراء قناع.

انظر! فالقناعُ الأوّلُ قماشٌ مُطبَّعٌ بزخارفَ عادية. يتعلّقُ الأمْر بالأغاني الأكثر فتوّة للخمسين أو السبعين سنة الأخيرة، وهي التي جاءت من الغرب، من بوهيميا، وكان المعلّمون يُلقّنونها لأطفال مدارسنا. أغلبُها كان على المقام الكبير، إلّا أنّها كُيِّفت قليلاً مع تقاليدنا الإيقاعيّة.

ولكنّ القناع الثاني أكثر ألواناً بصورةٍ واضحة، يتعلّقُ الأمْر بتلك الأغاني ذات الأصل المجَري، وكانت مُصاحِبة لاتّساع اللغة المجريّة. وقد نشرتْها الجوقاتُ الغجريّة في القرن التاسع عشر بألحان الكزرداس واللازمات المُحدّدة.

عندما تخلَّصتِ الرّاقصة من هذا القِناع، ظهَر الذي تحته. إنّه الأغاني السلافية الأصيلة للقرنيْن السابع عشر والثامن عشر.

إلّا أنّ القناع الرّابع هو الأجْمل. إنّه الأغاني التي تعودُ إلى القرن الرابع عشر. في تلك الفترة، كان يُهاجرُ إليْنا عبر مرتفعات الكاربات فالاشيّون قدِموا من الجنوب الشرقي، هم رعاةٌ لا تخضعُ قصائدُهُم الرّعويّة وأغاني قطّاع طرُقهم لأيّ توافقات أو لعلم انسجام الأصوات. وهي مبنية بطريقة لحْنية خالصة؛ مقاماتُها عتيقة مُحدّدة بآلتيْ المصفار والشبّابة.

بسقوط هذا القناع، لمْ يبْقَ مِنْ قناع آخر تحته. وها هي المرأة ترقصُ عارية تماماً. ذلك ما يُجسِّدُ الألحان الأقدم، التي ظهرت في الأزمنة الوثنيّة، وهي تنهضُ على أقدم نسَقٍ للفكر الموسيقيّ. إنّه نسقُ التيتراكورد، أي تسلسل أربعة أصوات. إنّها أغاني أوان الحصاد، وأغاني الجزاز، والأغاني المُرتبطة بطقوس الضيعات البطريركيّة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الغناء أو تقاليد الاحتفال الشعبيّ هما نَفَقٌ تحت التاريخ، فيه تمَّ إنقاذ جُزءٍ مهمّ مِمّا دمَّرَتْه فوقه، مُنذ زمن طويل، الحروبُ والثورات والمدنيّة. نفقٌ أرى عبرهُ بعيداً إلى الوراء. أرى روستيسلاف وسفاتوبلوك؛ أوّل أميرَيْن مورافيّيْن. أرَى العالَم السّلافي القديم.

ولكن، لماذا الحديث عن العالَم السلافي وحدهُ؟ إنّنا نتيهُ في التخمينات أمام غموض نصّ أغنيّة. فيها يُتغنّى بحشيشة الدينار انطلاقاً مِمّا لستُ أدريه من علاقة غامضة بعَربة وعنزة، واحدٌ في الأغنية يتقافزُ فوق عنزة وواحدٌ آخر يتجوّل فوق عربة. ويتمُّ امتداح حشيشة الدينار التي تُحوِّلُ العذارى إلى خطيبات. حتّى المُغنّون الشعبيّون أنفسهم، الذين كانوا يُؤدّون هذا اللحن، لمْ يكونوا يفهمون كلماتِ الأغنية. وحْدها المُقاوَمة السّلبيّة لتراثٍ سحيق هي ما حافظَ داخلَ الأغنية على ترابُطِ كلماتٍ أصبحت مُبْهَمة منذ ما لا يُحصى من السنين. وأخيراً ظهر التفسير الوحيد المُمْكن: ديونيسيات الإغريق القديم، حيثُ سَتير[1] على ظهْر تيس وباخوس مُلوّحاً بصولجانه مُحاطاً بحشيشة الدينار.

العصور القديمة! بدا لي ذلك غيْر قابل للتصديق! ومع ذلك كان عليَّ فيما بَعد أن أدرُس في الجامعة تاريخ الفكر الموسيقيّ. لقد كانت بنية أقدم أغنياتنا الشعبيّة تتوافقُ مع الموسيقى القديمة. فالتيتراكورد الليديان والفريجيان والدوريان، هي سلالمُ موسيقيّة نازلة، بحيثُ تُعتَبَرُ أساسيةُ المقام فيها هي العلامة الموسيقيّة الحادّة وليس العلامة المُنخفضة، ولن يتمّ التعامُل مع السلالم الموسيقيّة بشكلٍ تصاعُديّ إلّا عند التفكير في الهرْمَنة. إنّ أغنياتنا الشعبية

(1) شخصٌ خرافيّ عند الوثنيّين، نصفهُ الأعلى بشر والأسفل ماعز. (المترجم)

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المُوغلة في القِدم تنتمي إذاً إلى عصر الفكر الموسيقيّ نفسِه الذي تنتمي إليه أغنيات الإغريق القديم. إنّها تصونُ لنا الأزمنة الغابرة.

5

في هذا المساء، لمْ أكُف في أثناء وجبة العشاء، عن استحضار لودفيك وهو يتحاشاني ببصَره. وكنتُ أشعرُ كمْ زادَ ذلك من تعلّقي بفلاديمير. فانتابَني فجأةً خوفٌ مِن أن أكون قد أهْمَلتُه ومن أن أعجز بصورةٍ نهائيّة عن اجتذابه إلى عالَميّ الخاصّ. لمّا انتهيْنا من وجبة العشاء، بقيتْ فلاستا في المطبخ وانتقلتُ رفقة فلاديمير إلى قاعة الجلوس. حاولتُ أن أحدّثه من جديد عن الأغاني، غير أنّ الأمْرَ بدا مُتعثّراً. كان لديّ إحساسُ مُعلّم، وخشيتُ أن أضايقه. بقيَ هو، طبعاً، جالساً بصمت كما لوْ كان يُنصتُ لي. لقد كان دوماً لطيفاً معي. ولكن، كيف لي أنْ أعرف ما الذي يدور حقّاً في رأسه؟

مَرَّ وقتٌ غيرُ يسير كنتُ فيه أرهِقُ فلاديمير بعِظاتي عندما ظهرت فلاستا وقالت إنّ وقتَ النّوم قد حان. ما العمل؟ إنّها روحُ البيت، هي مُقسِّمة أوقات مهامّه وضابطة زمنه.

لنْ نخرقَ النظام بالحكايات، هيّا يا بنيّ، ليلة سعيدة.

تركتُهُ في غرفة الهارمونيوم، ففيها ينامُ على الأريكة ذات الأرجل المطلية بالكْروم. أمّا أنا فأنامُ في الغرفة المُجاورة على السرير الذي أتقاسمُهُ مع فلاستا. لن أذهب فوْراً إلى الفراش، لأنني إنْ فعلتُ لن أتوقّفَ عن التقلّب وأخشى إيقاظَها. سوف أقضي وقتاً آخَر خارج المنزل. كان الليلُ دافئاً. وخلف المنزل القديم الوَطِئ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الذي نسكنه، كانت الحديقة مليئة بروائح الماضي الريفيّة. وتحت شجرة الكُمّثرى هناك مقعدٌ خشبيّ.

لِمَ جاء لودفيك اللعينُ اليوم بالضبط؟ أخاف أن يكون ذلك علامة شؤم! إنّه أقدمُ أصدقائي. كمْ مرّات جلسْنا تحت شجرة الكُمَّثرى هذه عندما كنّا صغيريْن. أحْببْتُه كثيراً منذ الصفّ السادس، الفترة التي تعرّفتُ إليه فيها. كان يفوقنا معرفة جميعاً، غير أنّ لم يكن أبداً يتباهَى بذلك. لمْ يكن يُعيرُ اهتماماً بالمدرسة ولا بالأساتذة. ما كانَ يُسلّيه هو القيامُ بكلِّ ما كان يتعارَضُ مع نظام المدرسة.

لِمَ شكّلنا معاً ثنائيّاً؟ أهو الموت؟ رُبّما. لقد كانَ يتيمَ أحَد أبوَيْه مثلي. توفيت والدتي بسبب مُضاعَفات الولادة. وعندما بلغ لودفيك الثالثة عشرة من عمره، كان الألمان قد اعتقلوا والده في أحَد المُعسكرات ولمْ يَرَهُ بعد ذلك أبداً.

كان لودفيك الابن البكر، والوحيد في تلك الفترة بعد موت أخيه الصغير. لمّا اعتُقِل الأبُ، لمْ يكن للأمّ والابن أحدٌ. بؤسُهما كان كبيراً. وأصبح الذهاب إلى الثانويّة مكلّفاً. وكان على لودفيك، وفق ما بدا، التوَقّف عن الدراسة.

غير أنّ الخلاص جاء في آخر لحظة.

كان لوالد لودفيك أختٌ نجحت في الزواج قبل الحرب بوَقتٍ طويل من أحَدِ المُقاولين المحليّين الأغنياء. ومنذ ذلك الحين، كفّت عن لقاء أخيها البنّاء، غير أنّ اعتقاله ألهبَ فجأةً قلبَها الوطنيّ. فعرضت على زوجة أخيها التكفّل بلودفيك. هي نفسُها لمْ يكن لها غيرُ ابنة مُتخلّفة قليلاً عقليّاً، بحيث كانت نباهة ابن أخيها تُثيرُ لديها شعوراً بالغيرة. لمْ يكتفيا بإعانته مادّيّاً، بل حرَصا على استضافته

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يوميّاً. وقدّماه إلى نخبة أغنياء المدينة الذين كانوا يوجدون في بيتهما باستمرار. كان مُضطرّاً إلى أن يُظهر إليهما امتنانه، إذ كانت دراسته مُتوقّفة على دعمهما. وهكذا فإنّ حُبّه لهما شبيهٌ تقريباً بعلاقة النار بالماء. كان اسمهما العائليّ كوتيشكي، ومنذ ذلك الحين أصبحْنا نستخدمُ هذا اللقبَ للدلالة على كلِّ المُدَّعين.

كانت السيدة كوتيشكي تنظرُ إلى زوجة أخيها باحتقار، وتحتفظ بضغينة تجاه أخيها الذي لمْ يُحسن اختيارَ زوجته. وحتّى عندما تمَّ اعتقالُه، لم يتغيّر رأيُها فيها. كانت مَدافعُ إحسانها مُسدَّدة نحو لودفيك وحده. كانت ترَى فيه وريثَ دَمِها وترغبُ في جعْله ابناً لها. أمّا وجود زوجة أخيها فليْس بالنسبة إليها غير خطأ مُؤسف. لمْ تدْعُها إلى البيت ولو مرّة واحدة، كان لودفيك يُلاحظُ كلَّ ذلك ويكظمُ غيظَهُ. وقد أراد مرّات عديدة أن يثور، غير أنّ والدته اضطرّتْهُ ببكائها وتوسّلاتها إلى أن يتصرَّفَ بحكمة.

لهذا السّبب كان يشعرُ بسعادةٍ أكبر بيننا. كنّا مثل توأم. وكاد والدي يُفضّله عليّ لابتهاجه بحرص لودفيك على التهام مُؤلّفات مكتبته التي كان يعرفُ كلَّ عناوينها. وفي أثناء انضمامي إلى فرقة موسيقى الجاز بالثانوي، حرَص على الالتحاق بي. اشترى كلارينيت من سوق السّلع المستعمَلة بأربعة فلوس، وسرعان ما تعلّم العزفَ عليها بصورةٍ جيّدة. بَعد ذلك كرَّسْنا نفسيْنا لموسيقى الجاز، ومعاً انضمَمْنا إلى فرقة عزف على السنبالوم.

تزوّجَت ابنة السيدة كوتيشكي في نهاية الحرب تقريباً، وأقامت لها والدتُها حفلاً باهراً رفقة خمسة أزواج شرف؛ فتيان وفتيات يمشون خلفها. وأُسندَت مشقّة أحد هذه الأدوار إلى لودفيك ليقترن في هذه المُناسبة بابنة صيدلي المدينة البالغة من العمر إحدى عشرة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سنة. كان خَجِلاً من أداء دور مُهرّج في هذا العرس التنكّري لمُتنفّجي مقاطعة فرعيّة. كان يتلهّفُ على المثول بوصفه راشداً، إلّا أنّه شعر بالخزي في مدٍّ ذراعه إلى مخاطبية في الحادية عشرة من عمرها. واستشاطَ غضَباً لاضطراره، في أثناء الحفل، إلى تقبيل صليب عليه لُعاب. ولمّا حلَّ الليل، فرَّ من المأدبة للالتحاق بنا في الغرفة الخلفيّة للحانة. كنّا حوْلَ آلاتِ السنبالوم، نحتسي الخمرَ ونسخرُ منه. انفجر وأعلن كراهيته للبورجوازيّين. ثمّ لعنَ بذخ الزّواج الدّينيّ، وأعلنَ أنّه كان يبصقُ على الكنيسة وسوف يحرصُ على تشطيب اسمه من سجلّ المُؤمنين.

لمْ نأخذ كلام لودفيك على محمل الجدّ، لكنّه قام، بعد نهاية الحرب بأيام قليلة، بما سبقَ أن أعلنه. وهو ما مثّلَ فضيحة قاتلة لأسرة كوتيشكي. أمّا هو فلمْ يُزعجه ذلك، إذ قطع بفرح علاقته بهما. أخذ يحضُرُ للعروض التي كان يُلقيها الشيوعيّون. كانت منطقتنا كاثوليكيّة بصورةٍ قويّة، وخصوصاً مدرستنا. ومع ذلك، فقد كنّا مُستعدّين لِمُسامحة لودفيك على انحرافه الشيوعيّ. كنّا نُقِرّ له بمزاياه.

في عام سبعة وأربعين، حصّلنا على البكالوريا. ومنذ الخريف واصلَ لودفيك دراستهُ ببراغ، فيما واصلتُها ببرنو. ولمْ أرَه السنة بكاملها.

6

في عام ثمانية وأربعين، انقلبت الحياة بكاملها. ولمّا زارَنا لودفيك بحلقتنا في أثناء العطلة، استقبلناه بنوْعٍ من الارتباك. ذلك

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أنّ انقلاب الشيوعيّين في شباط/ فبراير بدا لنا انطلاقة رُعب. كان لودفيك قد حمل معه الكلارينيت، غير أنّه لمْ يكن بحاجة إليها، لأنّنا قضيْنا الليْل في النّقاش.

أحينذاك انبثقَ الخلافُ بيننا؟ لا أعتقد. تلك الليلة أيضاً نال تقديري. لقد تحدّثَ عن فرقتنا الموسيقيّة مُتجنِّباً، ما أمْكنه، إثارة النقاشات السياسيّة. كان يتعيَّنُ علينا، في اعتقاده، استيعابُ معنى عمَلنا وفق منظور أوسع من السابق. فما جدوى الاكتفاء بإحياء ماضٍ مفقود؟ ذلك أنّ مَنْ يلتفت إلى الوراء سوف ينتهي مثل امرأةِ لوط.

ولكن ما الذي يتوَجَّب علينا، نحن، إذاً فعله؟

أجاب أنّ علينا، بطبيعة الحال، أن نُدبِّرَ ثرات الفنّ الشعبيّ، وإنْ كان ذلك لا يكفي. نحنُ نعيشُ في زمن جديد، وثمّة آفاقٌ واسعة تنفتِحُ أمام عمَلنا. علينا تهذيبُ الثقافة الموسيقيّة الشعبيّة، ثقافة سائر الأيام، من تلك اللازمات، وتلك المقاطع الغنائيّة التافهة التي بها يُلقّمُ البورجوازيّون عموم النّاس، وتعويضها بفنّ الشعب الأصيل.

اللافت أنّ ما كان يقوله لودفيك هو نفسه الطوباويّة القديمة لأكثر المُواطنين المورافيّين مُحافَظة. هُم دوماً كانوا يُندِّدون بفساد ثقافة مدينة بلا إله. كانت أنغام الشارلستون تُمثّلُ بالنّسبة إلى أسماعهم مزمار الشيطان! لمْ يكن لذلك كلّه من أهميّة. ذلك أنّه لمْ يمنح كلام لودفيك إلّا مزيداً من الوضوح بالنّسبة إلينا.

وفضلاً عن ذلك، كان التصوّر الذي أدلى به فيما بعد أكثرَ أصالة. لقد تحدّث عن موسيقى الجاز. قال إنّ الجاز يتحدّرُ من موسيقى السُّود الشعبيّة وقد فتنَ الغربَ بكامله. أمّا بالنّسبة إلينا،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فيُمْكنهُ أن يكونَ دليلاً مُحفزّاً على أنّ الموسيقى الشعبيّة تمتلكُ سلطة رائعة، وأنّ بإمْكانها أن تُوَلِّد في عصْرٍ أسلوباً موسيقيّاً عامّاً.

كنّا ونحنُ ننصتُ للودفيك نشعرُ تجاهه بالإعجاب والنّفور في آن. كانت ثقتُه بنفسه تُغيظنا. كانت له الهيأة التي أظهرَها حينذاك جميعُ الشيّوعيّين. كما لو أنّ له حتى مع المُستقبَل عهداً سرّيّاً يمنحُه توْكيلاً للحديث باسْمه. وإذا كان يُزعجنا، فلأنّه أيضاً بلا شكّ بدا فجأةً مُختلفاً عن الشّاب الذي كنّا نعرفه. لقد كان دوماً، بالنسبة إليْنا، الشابَّ الطيّب السّاخر. وها هو الآن مُنساقٌ وراء التشدّق بالمُصطلحات الكبيرة بلا حياء. من المؤكّد أيضاً أنّه خيّبَ ظنّنا بهذه الطريقة في الرّبط السريع السّهل بين مصير جوْقتنا ومصير الحزب الشيوعي وإن لمْ يكن أيّ منّا شيوعيّاً. ولكن، كان خطابه، من جانب آخر، يجذبنا. أفكارُهُ كانت تتجاوَبُ مع أحلامنا الأكثر خفاءً، كانت ترفعُنا فجأةً إلى مستوى السّموّ التاريخيّ.

في سريرتي، أسمّيه صائد الجُرذان[1]. وهكذا فعلاً كان. نفخة من نايه تكفي كي نُسرع إلى اللحاق به. وهنا حيث كانت أفكارُهُ غير مُكتملة، كنّا نهبُّ لنجدته. أتذكّرُ تفسيري الخاصّ. كنتُ أتحدّثُ عن تطوّر الموسيقى الأوروبية منذ العصر الباروكيّ وعلى أنّها وجدَت نفسَها بعد فترة الانطباعيّة مُرهَقة من ذاتها. كانت تقريباً قد استنفدَت نُسغها تماماً، من حيث سوناتاتها كما من حيث لازماتها. لذلك

(1) الإحالة هنا إلى خرافة تحكي أنّ رجلاً غريباً حلّ بهاميلن، وقدّم نفسه لسكّانها بوصفه صائد جرذان. والتزم بتحرير المدينة من كلِّ ما بها من جرذان وفئران مقابل قدر مالي. فأخرج مزماراً صغيراً وانطلق في النّفخ، وسرعان ما خرجت كلّ الجرذان من البيوت وتجمّعت حوله. ولمّا تأكّد من أنّها خرجت كلّها، غادر المدينة وتبعته إلى أن أغرقها في الماء. (المترجم)

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

شكّلت لها موسيقى الجاز نوعاً من المُعجزة. لمْ يسحر الجاز ملاهيَ أوروبا الليليّة ومراقصَها فقط، بل سحرَ أيضاً سترافنسكي وهوكينز وميلهود، الذين بنوا ألحانَهم على إيقاعاته. ولكن لننتبه. ففي هذا الوقت نفسه أو قبْله بعشر سنوات كانت الموسيقى الأوروبيّة قد احتفظت بمخزون من الدّم الطريّ لفولكلور القارّة القديمة السحيق، الذي لم يبْق له من حياةٍ إلّا عندنا في أوروبا الوسطى لدى جاناسيك وبارتوك. وهكذا، فإنّ تاريخ الموسيقى ذاتَه كان يُوازي بين الطبقات القديمة للموسيقى الشعبيّة الأوروبيّة وموسيقى الجاز. كلتاهما ساهَمَتْ بالتساوي في نشأة الموسيقى الحديثة الجادّة للقرن العشرين. إلّا أنّ الأمورَ بالنسبة إلى موسيقى الجماهير الواسعة جرَت بصورةٍ مُخالفة. فالألحان القديمة لشعوب أوروبا لمْ تترُك عليْها أيَّ أثر. وفي هذا، كانت السيادة لموسيقى الجاز. وهنا تبدأ مهمَّتُنا.

أجل، تلك كانت قناعتنا: في جذور موسيقانا الشعبيّة، تنبثقُ القوّةُ ذاتُها التي لموسيقى الجاز. لهذا الأخير لحنُهُ الخاصّ، حيث يتكشّفُ الإكزاكورد البدائي؛ النظام الموسيقي السداسيّ الصوت لألحان السّود القديمة. ولكنّ أغنيتنا الشعبيّة تمتلكُ لحنَها هي أيضاً، وهي من ناحية المقامات أشدُّ تنوُّعاً. فموسيقى الجاز تنطوي على أصالة إيقاعيّة تكوَّنَ طابَعُها المُركَّبُ الخارق خلال عشرات القرون من ثقافة عازفي الطّبول والطبلات الصغيرة الأفارقة. وعلى نحو مُماثل لذلك، فإنّ إيقاعات موسيقى بلدتنا لا تنتمي إلّا إلى ذاتها. وأخيراً، فإنّ موسيقى الجاز انبنت على الارتجال. ولكنّ تناغمَ عازفي الكمان المُدهش الذين لمْ يعرفوا أبداً قراءةَ نوتاتهم يقومُ أيضاً على الارتجال.

ثمّة شيءٌ واحدٌ يفصلنا عن موسيقى الجاز، أضافَ لودفيك. هو

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أنّها نَمَت وتحوّلت سريعاً. أسلوبُها مُتحرّك. كان طريقها وعراً؛ من تعدّد الأصوات في أورليان الجديدة مروراً بأوركسترا سوينغ إلى البوب وما بعده. لمْ يكن بإمكان أورليان الجديدة، ولوْ في الحُلم، استيعاب الهارمونيا التي تعرفُها موسيقى الجاز في أيامنا. أمّا موسيقانا الشعبيّة، فهي فتاة جميلة تنامُ بين الشجر قروناً كاملة. وعليْنا إيقاظها. عليْها أن تندمجَ في الحياة الرّاهنة وتنموَ وتتفاعلَ معها، على غرار ما شهدته موسيقى الجاز. وذلك من غير أن تكفّ عن الحفاظ على ذاتها، من غير أن تفقدَ شيئاً من ألحانها ولا من إيقاعاتها، عليها أن تكتشفَ أطواراً جديدةً لأسلوبها. هو أمرٌ شاقّ. إنّه مهمّة جليلة. لا يُمْكنُ إنجازُها إلّا في إطار الاشتراكيّة.

ما دَخْل الاشتراكيّة؟ اعترَضْنا على قوله.

ثمّ شرحَ لنا ذلك. كانت القرية قديماً تعيشُ في تلاحُم. وكان ثمّة طقوسٌ تُميّزُ مراحلَ السنة الفلاحيّة من أوّلها إلى نهايتها. ذلك أنّ الفنّ الشعبيّ لمْ يكن يحيا إلّا داخل الطقوس. في العصر الرومانسيّ، كانوا يتخيّلون أنّ مُزارعة في الحقول يزورُها الإلهام، فينبجسُ الغناءُ حالاً من شفتيْها كما ينبجس الماء من الصخر. غير أنّ الأغنية الشعبيّة تولَدُ بصورةٍ مُخالفة لقصيدةٍ عالِمة. الشاعر يُبدعُ كي يُعبّر عن ذاته ويُفصحَ عن الفريد فيها. أمّا في الأغنية الشعبيّة، فلم يكن التميّزُ مسعاها، بل التوحّد مع الآخرين. لقد تكوّنت على طريقة الترسّب الكلسي في سُقوف المغاور، وهي تتغلّفُ نقطة نقطة بموضوعاتٍ وتنويعاتٍ جديدة. وقد تمّ نقلُها من جيل إلى جيل، وكلّ مُغنٍّ أضافَ إليها عناصرَ جديدة. لكلّ أغنيّة من هذه الأغاني حقّاً مؤلّفون، هُم جميعاً توارَوا بتواضُع خلف إبداعهم. وليس ثمّة أغنية شعبيّة واحدة وُجدت عبثاً، ولأجل ذاتها. لقد كانت لها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وظيفتها الدّقيقة. ثمّة أغنياتُ زفاف، وأخرى لمواسم الحصاد والكرنفال وعيد الميلاد والجزاز، ثمّة أغنياتٌ للرّقص ولمراسم الدفن. حتى أغاني الحُبّ لمْ يكن وجودُها منفصلاً عن بعض التقاليد؛ نزهاتُ الغروب، سيريناد، طلبات الزواج؛ كلّ ذلك كان طقوساً جماعيّة، فيها كان للأغاني مكانها المصون.

لقد دمّرت الرأسماليّة هذه الحياة الجماعيّة. وفقدَ الفنّ أساسَه وعِلّة وجوده ووظيفتَه. عبثاً يُرامُ إحياؤهُ داخل مجتمع يعيشُ فيه الإنسان بمعزل عن الغيْر، يعيش لأجل نفسه وحسْب. لكن، ها هي الاشتراكيّة سوف تُخَلّصُ النّاس من رِقّ العُزلة. سوف يعيشون في تلاحُم جديد. تجمعُهم مصلحة واحدة مُشترَكة. سوف تتوحّدُ حياتُهُم الخاصّة بالحياة العامّة. سوف يرتبطون بطقوس جماعيّة. بعضها مُستمَدٌّ من الماضي، مثل حفلات الحصاد، وأمسيات الرّقص، والتقاليد المُرتبطة بالعمل، وبعضها الآخر مُبتَكَر، مثل احتفال الأول من أيار/ مايو، المهرجانات السياسيّة، عيد التحرّر، والاجتماعات. في كلّ مكان سوف يجدُ فنّ الشعب مكانه. وفي كلّ مكان سوف يتطوّرُ ويتحوّلُ ويتجدَّد. فهلْ سنفهمُهُ أخيراً؟

وتبعاً لذلك، سرعان ما سيتكشّفُ أنّ ما لا يُصدَّق غدًا واقعاً. لا أحد أبداً حقّقَ لفنّنا الشعبيّ ما حقّقته له الحكومة الشيوعيّة. لقد خصّصت ميزانية ضخمة لتأسيس فرق جديدة. وأصبحت الموسيقى الشعبية؛ المعزوفة بالكمان والسنبالوم، جزءاً من البرنامج الإذاعيّ لسائر الأيام. واكتسحت الأغنياتُ الموروثة الجامعات واحتفالات الأول من أيار/ مايو، وحفلات رقص الشباب والمهرجانات الرّسميّة. ولم تختفِ موسيقى الجاز تماماً في وطننا وحسب، بل رمزت أيضاً إلى الرأسماليّة الغربيّة وأذواقها المُنحطّة. تخلّى الشبابُ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عن التانغو وعن رقصة البوجي وُوجي، وفضّلوا رقصة دائريّة جماعيّة، فيها يضعُ كلّ واحد يديْه على كتفِ مُجاوريْه. لقد كان الحزب الشيوعيّ حريصاً على خلق أسلوب حياةٍ جديد. وكان يستندُ إلى التعريف الشهير الذي كان ستالين أعطاهُ للفنّ الجديد: مُحتوى اشتراكيّ اعتماداً على شكلٍ وطنيّ. لا شيء يُمكنه أن يمنح هذا الشكلَ الوطنيّ لموسيقانا ورقصِنا وشعرنا سوى الفنِّ الشعبيّ.

راحت فرقتنا الموسيقيّة تُبحرُ فوق الأمواج العاتية لهذه السياسة. وسرعان ما ذاع صيتُها في الوطن بكامله. ارتفعَ عددُ مُغنّيها وراقصيها، وأصبحت مجموعة هائلة، كانت تعرضُ في مئاتِ المسارح، وتُنظِّمُ جولة بالخارج كلَّ سنة. لمْ نَعُد نؤدّي على الطريقة القديمة أغنية قاطع الطريق الذي قتلَ عشيقتَه فقط، بل أيضاً ألحاناً كنّا نحن مَنْ يُؤلِّفها. مثلاً، أغنية عن ستالين، أو عن حصاد التعاونيات. لمْ تعُد أغنيتُنا استحضاراً بسيطاً للأزمنة القديمة. لقد أصبحت جُزءاً من التاريخ الأكثر مُعاصَرَة. كانت تُصاحبُه.

كان الحزبُ الشيوعيّ يدعمنا. وتلاشَى سريعاً تكتُّمنا السياسيّ. سوف أنضَمُّ إلى الحزب منذ بداية عام سبعة وأربعين. والتحقَ بي أعضاءُ الفرقة واحداً تلو الآخر.

7

ولكنّنا بقينا دوماً صديقيْن. متى إذاً بدَأ الجفاءُ يتسرّبُ إلى علاقتنا؟

أعرفُ طبعاً البداية. أعرفها تماماً. لقد كان ذلك يوم زواجي. كنتُ أدرسُ الكمان في برنو بمعهد الدراسات الموسيقيّة العليا،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وأتابعُ في الآن ذاته دروس علم الموسيقى بالجامعة. وفي السنة الثالثة شعرتُ بسوء أحوالي. في البيت، كانت الحالة الصحيّة لوالدي في تدهور مُستمرّ إثر إصابته باحتقان في الدّماغ. بعد أن تمّ إنقاذه، كان عليه أن يظلَّ شديد الحذر. كان تفكيري في عُزلته يُلازمني. إذا هو أصابَه مكروه، فلن يتمكّن حتّى من إعلامي ببرقية. ومن شدّة قلقي عليه، كنتُ أزوره كلّ سبت، وأغادر البيت بقلق جديد صباح الاثنين. ذات يوم، أصبح هذا القلقُ أقوى منّي، عَذبني يوم الاثنين، وبصورةٍ أشدّ يوم الثلاثاء، وبحلول يوم الأربعاء جمعتُ كلّ أمْتعتي في حقيبة، وسدَّدتُ حسابي للمُؤجّرة وأعلمْتُها أنّني ماضٍ ولن أعود.

لا أزال أرى نفسي على الطريق من المحطّة إلى بيتنا. كان عليّ كي أبلغ قريتنا المُجاورة للمدينة المرور عبر الحقول. كان الفصلُ خريفاً، والشمس تميلُ إلى المغيب، والريح تهبّ، ومن فوق خطوط الحقول كان الصِّبية يُطلقون في اتجاه السماء طائرات ورقيّة تتعرّجُ في أطراف خيوط لا حدّ لها. أنا أيضاً كان والدي، في الماضي، قد صنعَ لي واحدة. كان يصحَبُني إلى الحقول فيُطْلقها ويركض كي يتسنّى للهواء أن يدفع الطائر الورقيّ ويرفعه عالياً جدّاً. لمْ يكن ذلك يُسلّيني كثيراً، خلافاً لوالدي الذي كان يتسلّى به أكثر. هذه الذكرى كانت توقظُ فيَّ حناناً، فأسْرعُ الخطو. عنَّ لي منها أنّ والدي كان يُرسلُ تلك الطائرات الورقيّة إلى أمّي.

أتخيَّلُ أمّي دوماً في السّماء. كلّا، لا أؤمنُ إطلاقاً بالإله، ولا بالحياة الخالدة، أو ما شابه ذلك. لا دخْل للأمر بالإيمان، بل بتخيّلات. لا أدري لِمَ عليّ التخلّص منها. بدونها سوف أشعرُ بنفسي يتيماً. تأخذ عليّ فلاستا كوني حالِماً. يبدو أنني لا أرى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الأشياءَ كما هي. أبداً، فأنا أراها كما هي، ولكن إضافة إلى الأشياء الظاهرة أرى أشياءَ أخرى خفيّة. ليس عبثاً وجود التخيّلات. فهي ما يجعلُ بيْتنا بيتاً شخصيّاً.

لـمْ أرَ إطلاقاً أمّي. لذلك لـمْ أبْكها أبداً. كنتُ، على العكس من ذلك، أبتهجُ بمعرفتي أنّها شابّة وجميلة في السماء. لـمْ يكن للأطفال الآخَرين أمّهاتٌ في مثل شبابها.

أحبُّ أن أتخيَّل القدّيس بطرس، جالساً على مقعدٍ قرب نافذته الصغيرة التي منها تُرى الأرض. غالباً ما تذهبُ أمّي للقائه على نافذته. لأجلها سوف يفعل بطرس أيّ شيء، لأنّها جميلة. يسمحُ لها بأنْ تُبصر. فترانا، أنا ووالدي.

لـمْ يكن وجْه أمّي كئيباً أبداً. على العكس. كانت في الغالب تضحكُ عندما تنظرُ إلينا من نافذة مقصورة بطرس. مَن يَعشْ في الأبديّة لا يعرفُ الحزن. يعرفُ أنّ حياةَ البشر لا تدومُ سوى ثانية، وأنّ اللقاء بمَن افتقدْناهُم وشيك. غير أنّ وجْه أمّي كان يبدو لي حزيناً مُثقلاً باللّوْم لمّا كنتُ ببرنو تاركاً والدي وحيداً. وقد كنتُ أسعى إلى العيش في سلام مع أمّي.

لذلك كنتُ أسرعُ الخطو نحو البيت وأنظرُ إلى الطائرات الورقيّة مُعلّقة في السماء. لـمْ أكن نادماً على أيّ شيء مِمّا تركتُه. كنتُ طبعاً مُتعلِّقاً بكماني وبعلم الموسيقى، لكنّني لـمْ أكن أتحرّقُ للنجاح في ذلك. حتى النجاح الباهر لـمْ يكن بمقدوره مضاهاة فرحي بالعودة إلى البيت.

عندما أعلنتُ لوالدي أنّني لنْ أعودَ أبداً إلى برنو، احتدم غيظاً. لـمْ يقبل أن أجرؤ على إفساد حياتي بسببه. لذلك قلتُ له إن نتائجي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الضعيفة هي ما اضطرّني إلى التوقّف عن الدراسة. ولمّا اقتنع بتعليلي، اغتاظ أكثر، لكنّ ذلك لَمْ يُزعجني إطلاقاً، خصوصاً أنّني لم أرجع لأمكث من غيْر شغل. لقد عدتُ إلى مكاني عازفاً للكمان بجوقة فرقتنا. وإلى جانب ذلك، حصلتُ على وظيفة أستاذ كمان بالمدرسة البلديّة للموسيقى. هكذا تمكّنتُ من تكريس حياتي لِما كنتُ أحبّه.

وهو ما كان له معنى أيضاً بالنسبة إلى فلاستا. كانت تسكنُ قرية مُجاورة تُشكّل اليوم، مثل قريتي، إحدى ضواحي المدينة. تعرّفتُ إليها في أثناء دراستي ببرنو، وقد أسْعدَني أن ألتقي بها من جديد يوميّاً تقريباً بعد عودتي، لأنّها كانت ترقصُ بفرقتنا. غير أنّ لحظة الحُبّ الحقيقيّة لن تلوح بصورة مُفاجئة إلّا بعد ذلك بقليل خلال أحد التداريب الموسيقيّة، حيث تعرَّضتْ لسقطة مُزعجة للغاية حتى إنّ ساقها تكسّرت. حملتُها بين ذراعيّ إلى سيارة الإسعاف التي تمّ الاتّصال بها على وَجْه السّرعة. أحسستُ بجسدها وهو بين ذراعي رقيقاً هشّاً نحيفاً. وانتبهتُ فجأة باندهاش إلى طولي البالغ متراً وتسعين سنتمتراً ووزني مائة كيلوغرام، انتبهتُ إلى أنني قادرٌ على قطْع أشجار السنديان، فيما كانت هي شديدة الهشاشة.

كانت تلك بارقة ضوء. رأيتُ فجأةً في هذا الكائن الصغير الجريح شخصيّة أخرى معروفة أكثر. كيف لَمْ أنتبه إلى ذلك من قبْل؟ لقد كانت فلاستا «الخادمة الفقيرة»، شخصية العديد من الأغنيات الشعبيّة! الخادمة الفقيرة التي ليس لها إلّا نزاهتها، الخادمة الفقيرة التي تُهان، الخادمة الفقيرة بثياب رثة، الخادمة الفقيرة اليتيمة.

من المُؤكّد أنّ الأمر لَمْ يكن كذلك بالضبط. لقد كان لها أبوان، لَمْ يكونا إطلاقاً فقيريْن. ولكن العهد الجديد شدّدَ على

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أسرتها الخناق، لأنّ والدها من كبار المُزارعين. كانت فلاستا في مرّات عديدة تأتي باكية إلى تداريب جوقتنا. لقد تمّ اعتبار والدها من الغولاك، وفُرضت عليهم أداءاتٌ هائلة. صودر جرّارُه وآلاته الزراعيّة. وهُدِّد بالاعتقال. كنتُ أشفقُ لحالها. وأداعبُ فكرةَ الاهتمام بها. بالخادمة الفقيرة.

منذ أن عرفتُها على هذا النّحو مضاءةً بكلام أغنياتٍ شعبيّة، كنتُ كما لوْ أحاكي حُبّاً عيشَ ألفَ مرّة. كما لوْ كنتُ أعزفه على توزيع موسيقيّ سحيق. كما لوْ كانت الأغنياتُ تَتَغنّى بي. مهجوراً على هذا المدّ الصوتي، كنتُ أحلمُ بالزواج.

قبل الحدث بيوميْن، حلَّ لودفيك من غير سابق إعلام. استقبلتهُ بحرارة. وسرعان ما أطْلعتُه على الخبر المهمّ، وأضفتُ أنني أعوّلُ عليه، بوصفه أعزّ أصدقائي، ليكون شاهدي. وعدَني بذلك، ثمّ جاء.

كان أصدقائي بالفرقة قد حرَصوا على أن يُنظِّموا لي زواجاً مورافيّاً حقيقيّاً. وهكذا قدِموا، منذ الساعة الأولى، إلى بيتنا ببدلاتهم وآلاتهم الموسيقيّة. كان الوصيفُ عازفَ سنبالوم ماهراً في الخمسين من عمره، هو الأكبر سنّاً. إليه أسْنِدَت مهامّ «البطريرك». قبل كلّ شيء، قدَّم والدي لكلّ واحدٍ خمراً من الخوخ وخبزاً وقطعة من لحم الخنزير. ثمّ بإشارةٍ من البطريرك عمّ الصّمت، فأنشد بصوتٍ رنّان:

«أيّها الفتيان المُبجّلون، أيتها العذراوات
أيها السادة، أيتها السيدات!
دعوتموني إلى هذا المكان
لأنّ فتى هذا البيت توسّلَ إلينا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كي نصحبهُ إلى بيت والد هذه
التي اختارَها زوجة، هذه العذراء النبيلة. . . »

البطريرك هو رئيسُ تقاليد الحفل بكاملها، هو روحها ومُحرّكها الأساس. وقد كان، خلال عشرة قرون، دوماً كذلك. أمّا المُقبل على الزّواج فلم يكن أبداً فاعلاً في زواجه. لمْ يكن يتزوّج، بل يتمُّ تزويجه. كان الزواج يُداهمه ويحمله مثل موْجة عاتية. ليس هو مَن يتصرّف ويتحدّث. البطريرك مَن كان يقومُ بذلك مكانَه، بل ليس البطريرك ذاتُه مَن يقوم بذلك. إنّها تقاليد الأجداد تخترقُ الرجال واحداً واحداً، وتجذبهم إلى تيارها الناعم.

بقيادة البطريرك، انطلقنا إلى قرية خطيبتي. كنّا نسيرُ وسط الحقول وأصدقائي يعزفون مشياً. أمام منزل فلاستا، كان أهلها ببدلاتهم في انتظارنا، فأعلن البطريرك:

«نحنُ مسافرون مُجهَدون
دعونا ندخل
يا أهل الكرم
تحت سقفِ بيتكم الشريف».

من الجمْع الذي كان واقفاً أمام الباب، برزَ رجلٌ مُسنّ وقال: «إنْ كنتم ناساً طيّبين، فمرحباً بكم!». ثم دعانا إلى الدّخول. دلفنا صامتين. قدّمَنا البطريرك مثل مُسافرين عاديّين من الضواحي، ولمْ يكن علينا أن نُفصح في البدء عن مبتغانا. ثمّ شجَّعَنا الرجلُ المُسنّ، الناطق باسم أهل الخطيبة، قائلاً: «إن كان ثمّة ما يُثقلُ على قلوبكم، فتكلّموا!».

حينذاك شرع البطريرك في الكلام، في البدء بطريقة غامضة،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عبر ألغاز، فكان مُحاورُه يجيبه بالطريقة ذاتها. وبعد تلميحات عديدة، انتهى إلى الكشف عن الغاية من زيارتنا.

على إثر ذلك، سأله الرجل المُسنّ قائلاً:

«أسألكم، يا عزيزي،

لِمَ يودّ هذا المُتيّمُ الشريف عقدَ قرانه بهذه المصونة

أمِن أجل الزهرة أم مِن أجل الثمرة؟»

أجاب البطريرك:

«الجميع يعلمُ جيّداً أنّ الزهرةَ تتفتّحُ جمالاً وبهاءً فتُبْهجُنا

غير أنّ الزهرةَ تتلاشَى

فتحُلُّ الثمرة

وخطيبتُنا ليست إطلاقاً من أجل الزّهرة، بل من أجل الثمرة، لأنّ الثمرة تُطعمنا».

تَواصَلَ الحوارُ بينهما للحظة أخرى إلى أن انتهى الرّجلُ المُسنّ قائلاً: «في هذه الأحوال، لِندْعُ الخطيبَة كي تُبدي مُوَافقتها أو اعتراضها». ثمّ انتقلَ إلى الغرفة المُجاورة، وعاد بعد لحظة وهو يُمسِكُ بيَدِ امرأةٍ نحيفة طويلة بارزة العظام، وجهها مُغطّى بوشاح: «ها هي ذي خطيبتك!».

غير أنّ البطريرك حرّك رأسه رافضاً، وصِحنا نحن أيضاً في جلبة مُعبّرين عن رفضنا. اضطرَّ أخيراً، بعد أن حاولَ قليلاً تزيين الأمر لنا، إلى إرجاع المرأة المُقنّعة. حينذاك فقط أحْضرَ فلاستا. كانت تنتعلُ سَوقاء سوداء، مُرتدية مئزراً قرمزياً وبوليرو بألوان فاتحة، وعلى رأسها إكليل مضفور. بَدَت لي جميلة. أمسكَ بيدها ووضعها في يدي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ثمّ التفتَ الرجلُ المُسنُّ نحو أمّ العروس وقال لها بصوت شجيّ: «آه، أيّتها الأمّ الصّغيرة!».

على إثر هذه الكلمات سحبَتْ خطيبتي يدَها من يدي وجثت بخشوع أمام والدتها، مُطأطِئة رأسها. واصلَ الرجل المُسنّ:

«أيتها الأمّ الصغيرة العزيزة، اغفري لي الألَمَ الذي أحدَثتُه لك!

أيتها الأمّ الصغيرة الحبيبة، لأجل الربّ، اغفري لي الألم الذي أحدثتُه لك!

أيتها الأمّ الصغيرة المحبوبة، لأجل آلام المسيح الخمسة، اغفري لي الألمَ الذي أحدثتُه لك!».

لمْ نكن نقومُ إلّا بتقليدٍ صامت لنصٍّ سحيق. كان النّصُّ جميلاً جذاباً، وكلّ ذلك كان حقيقيّاً. انطلقَ العزفُ فيما بعد من جديد وأخذنا الطريق نحو المدينة. تمَّ الزواجُ المدنيّ بمقرّ العمدة في أجواء العزف دوماً. ثمّ تناولنا وجبة الغذاء، والجميع رقصَ بعد الظهر.

في المساء، نزعت الوصيفاتُ لفلاستا ضفيرةَ إكليل الجبل ووضعْنَها على رأسي في جوٍّ احتفاليّ. وبشَعرها المحلول جدلن ضفيرةً ولففنها على رأسها وغطّيْنها بطاقيّة مُترهّبة مُحْكمة. كان هذا الطقسُ تجسيداً للانتقال من حالة العذرية. طبعاً، لمْ تكن فلاستا منذ وقت طويل، عذراء. لهذا لمْ يكن لها الحقّ في رمز الإكليل. غير أنّ ذلك بدا لي غيْر ذي أهمّية. هي الآن فقط كانت، بمعنى أبعد وأكثر أهمية، تفقدُ عذريتها، في تلك اللحظة التي كانت الوصيفاتُ تضَعْن إكليلها على رأسي.

يا إلهي، لِمَ تُثيرني ذكرى هذا الإكليل الصغير أكثر من عناقنا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الأوّل، أكثر من دم عذرية فلاستا الحقيقيّ؟ لا أدري، ولكنّ الأمر كان هكذا: كانت النساء تغنّي، وكان هذا الإكليل، في أغنياتهنّ، يطفو فوق الماء والتيار يفكّ ضفائره الحمراء. كانت تحذوني رغبة في البكاء. كنتُ ثملاً. كنتُ أرى هذا الإكليل طافياً، تُسْلمُه الساقية الصغيرةُ إلى الجدول، والجدولُ إلى النّهر، والنّهرُ إلى الدانوب، والدّانوبُ إلى البحر. كنتُ أرى إكليلَ العذرية يمضي من غير عودة. أجل، من غير عودة. كلُّ الوضعيّات الأساسيّة في الحياة لا تكونُ إلّا مرّةً واحدة. إنّها لا تعود. وكي يكونَ الإنسانُ إنساناً، لا بدّ أن يكون واعياً تماماً بهذه اللاعودة. أن لا يغشّ، وأن لا يتظاهر بأنّه لا يعرفُ شيئاً. الإنسانُ الحديث يغشّ. يجهدُ في التحايُل على كلّ اللحظات التي بلا عودة، وفي المضي من الولادة إلى الممات هكذا من غير مُحاسَبة. أمّا الإنسانُ الشعبيّ فأكثرُ نزاهة. ينزلُ وهو يغنّي بعيداً إلى عُمْق كلِّ وضعيّة أساسيّة. عندما وضعتْ فلاستا دماً على المنشفة التي فرشتُها تحتها، كنتُ متأكّداً من أنني لن أصادفَ الوضعيّة الأساسية التي بلا عودة. ومع ذلك، فقد كانت وضعيّة ما لا يعود حاضرةً في تلك الدقيقة من الاحتفال وأداء الأغنيات. لقد كانت النساء تؤدّي أغنيات وداع. انتظِر، انتظِر، يا عشيقي الوديع، كي أستأذن أمّي الصغيرة بالانصراف. انتظِر، انتظِر، أوْقفِ الحصان، فأختي الصغيرة تبكي، وفراقها قاسٍ. وداعاً، وداعاً رفيقاتي العزيزات، أنا راحلة إلى الأبد، راحلة من غير عودة.

بعد ذلك جنّ الليل، فصاحَبَنا موكبُ العرس حتّى منزلنا.

فتحتُ الباب. وعلى العتبة التفتت فلاستا للمرّة الأخيرة نحو أصدقائها المُجتمعين أمام المنزل. حينذاك، صدحَ واحدٌ منهم بأغنية أخيرة:

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«كانت على العتبة
كم كانت تبدو جميلة
وردة، وردتي الصغيرة
بعبورها العتبة
امّحى الجَمال
ذابلة أصبحت وردتي الصغيرة»

ثمّ أغلِقَ البابُ علينا. كنّا وحدنا. كانت فلاستا في العشرين من عمرها، وهو ما لمْ أكن أتجاوزُه كثيراً أنا أيضاً، لكن كنتُ أقول في نفسي إنّها اجتازت العتبة، وابتداءً من هذه الدقيقة السحريّة سوف يتساقطُ جَمالها كما تتساقطُ أوراقُ الشجَر. كنتُ أرى فيها سقوطَ الأوراق المُقبل. السقوط الذي انطلقت بدايتُه. كنتُ أقول في نفسي إنّها ليست إلّا وردةً، ولحظة الثمرة المُقبلة كانت حاضرةً في هذه اللحظة. كنتُ أشعرُ في ذلك كلّه بالنظام الحتميّ الذي كنتُ أتماهَى معه، راضياً به. كنتُ أفكّرُ في فلاديمير الذي لمْ أكن حينذاك أعرفه ولمْ أكن أخمّنُ حتّى مظهرَه. كنتُ، مع ذلك أفكّر فيه، وعبرَهُ كنتُ أنظرُ إلى ذريته البعيدة. ثمّ تمدّدنا، فلاستا وأنا، على السرير، فشعرتُ أنّ حِكمة استمرار النّوع البشريّ اللانهائيّ كانت تحملنا بين يَديْها العذبتيْن.

8

ما الذي صدَر عن لودفيك تجاهي يوم زواجي؟ لا شيء على وجه التحديد. فمُه كان، ذلك اليوم، جامداً، وكان هو غريبَ الأطوار. في أثناء الرقص بعد الظهر، قدّمَ له الرفاقُ كلارينيت.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانوا يُريدون رؤيته يعزفُ رفقتَهم، لكنّه رفضَ. وبعد قليلٍ، اختفى. لِحُسْن الحظّ أنني كنتُ ثمِلاً، فلمْ أنتبه للأمْر. ومع ذلك، لاحظتُ في الغد أنّ اختفاءَهُ شكّلَ لطخة صغيرةً ليلة أمس. وما إن أخذ أثرُ الكحول يخِفُّ في دمي، حتّى بدأتْ هذه اللطخة تَتّسع. وقد وسّعتْها فلاستا أكثر من الكحول، هي التي لمْ يسبق لها أن استلطفت لودفيك أبداً.

عندما أخبرْتُها أنّه سيكونُ شاهدي، لمْ يبْدُ عليها أنّها مُتحمِّسة تماماً للفكرة، بحيث هيَّأ لها اختفاؤُهُ أنْ تُذكّرني، في اليوم التالي لزواجنا، بتصرُّفه والهيأة التي ظهَرَ بها كما لوْ أنّ هذا المُغترّ لا يُطيقُ الجميع!

في المساء نفسِه، زارَنا لودفيك، حاملاً هدايا لفلاستا ومُعتذراً عمّا صدرَ عنه. طلبَ منّا مُسامحتَهُ، لأنّه كان في وضْع صعب أمس. وحكى لنا ما وقع. فقد تمّ طرْده من الحزب ومن الكلية، وهو يجهلُ ما سيؤول إليه مصيره.

لمْ أصدّق ما سمِعتُه ولمْ أعرف بما أجيب. وفضلاً عن ذلك لمْ يكن لودفيك يستسيغُ الإشفاقَ عليه، لهذا سارعَ إلى تغيير موضوع الحديث. كان على فرقتنا أن تنطلق، خلال خمسة عشر يوماً، في جوْلة إلى الخارج. وكنّا، نحن أبناء الريف، نشعرُ بابتهاج كبير. راح لودفيك يسألني عن هذه الجولة. وسرعان ما تذكّرتُ حُلمَه منذ الطفولة بالسّفر إلى الخارج، إلّا أنّه الآن حُرم تماماً من تحقيق حُلمه. فمَنْ تضمّنت ملفاتهم السياسيّة ملاحظاتٍ تأديبيّة، لا يُسمَحُ لهم باجتياز الحدود. كنتُ أرى بجلاء أنّ أحوالنا أخذت، منذ ذلك الحين، في التبايُن بصورة كاملة. كان يستحيلُ عليّ إذن أن أتحدّث بصوتٍ مُرتفع عن جولتنا إلى الخارج، مخافة إضاءةِ الهُوّة التي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

انفتحَت بيْن مصيريْنا. وهكذا كنتُ في انشغالي بالتعتيم على هذه الهُوّة، أتجنَّبُ أيّ كلمة يُمْكنها أن تُبرزَها. غير أنني لمْ أهْتدِ إلى أيّ كلمة تُخفي هذه الهُوّة. أدنى عبارةٍ تمَسّ قليلاً حياتَنا كانت تكشِفُ أننا كنّا بعيديْن الواحد عن الآخَر، أنّ رؤية كلٍّ مِنّا وحياته قد انفصلتا في وجْهتيْهما. لقد حُمِلْنا في اتجاهيْن مُتعاكسيْن. سعيتُ إذاً إلى الحديث عن أمور تافهة، لكنّ ذلك كان أسوأ. سرعان ما غدا اللامعنى المُتوخّى من الحديث شفّافاً وأصبح الحوارُ لا يُطاق.

استأذنَ لودفيك وانصرف. ذهبَ هو طوْعاً إلى العمل بمكان ما خارج بلدتنا، فيما ترأستُ أنا فرقتنا إلى الخارج. منذ ذلك الحين، لمْ أرهُ لسنواتٍ عديدة. بعثتُ إليه برسالة أو رسالتيْن إلى المُعسكر بأوسترافا. وفي كلّ مرّة، كان يتولّدُ لديّ عدم الرضا الذي شعرتُ به في آخر حوار بيننا. لمْ أكن أقوى على مُواجَهةِ سقطة لودفيك، وكنتُ خجلاً من نجاحي. لمْ أكن أحتمِلُ التوجّه إليه، من أعلى نجاحي، بعبارات التشجيع والشفقة. سعيتُ بالأحرى إلى التظاهُر بألّا شيء تغيّرَ بيننا. كانت رسائلي تُطلعُه على تفاصيل ما كنّا نقومُ به، بالأمور الجديدة التي تعرفها فرقتنا، كيف كان العازف الجديد للسنبالوم يُثبتُ نفسه. كنتُ أبسطُ هذا العالَمَ الخاصَّ بي أمامه كما لوْ ظلَّ مُشترَكاً بيننا.

وذات يوم، تلقى والدي ورقة نَعْي. كانت أمّ لودفيك قد توفيت. لا أحد في بيتنا كان على عِلم بمرَضها. فعندما اختفى لودفيك من أفقي، لمْ أعُدْ أرَاها هي أيضاً. أمسكتُ الورقة المحاطة بالسواد، واكتشفتُ لامبالاتي تجاه الناس الذين لأقلّ شيء خرجوا من مسار حياتي ومن نجاحي. شعرتُ بنفسي مُداناً. ولمْ أنتبه إلى شيء أرْبكني إلّا بعد ذلك. ففي أسفل ورقة النّعي ذُكِر من كلّ الأسرة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الزوجان كوتيشكي. ولمْ يتم إطلاقاً ذِكْر لودفيك.

حلَّ يومُ الدفن. وقد أصابني منذ الصباح ارتباكٌ لتخيُّلي اللقاء بلودفيك. إلّا أنّه لم يحضر الدّفن. أشخاصٌ قليلون هم فقط مَن كان يمشي خلف النعش. سألتُ أفرادَ أسرة كوتيشكي عن مكانه، فهزّوا أكتافهم وقالوا إنّهم يجهلون ذلك. توقّفَ الموكب الصغير قرب قبْر باذخ بشاهدةٍ باهظة وتمثال ملاك أبيض.

وبما أنّ كلّ أملاك المُقاول الغنيّ وأسرته قد تمّت مُصادرتُها، فإنّ هؤلاء الأشخاص كانوا الآن يعيشون بأجر زهيد. لمْ يبقَ لهم إلّا قبر العائلة المَهيب هذا، وتمثال ملاك. كنتُ أعلمُ هذا الأمْر، لكنني لمْ أتبيّن الدافع إلى دفن النعش هنا بالضبط.

علمتُ بعد ذلك فقط أنّ لودفيك كان في تلك الفترة في السجن. كانت أمّه وحدها مَن يعلمُ ذلك في مدينتنا. ولمّا توفيت، استولى الزوج كوتيشكي على جثمان زوجة الأخ المنبوذة. فقد تمكّنَا أخيراً من الانتقام من ابن الأخ الجاحد. لقد سرقا منه والدته. وأخفيا جثمانها تحت شاهدة مرمر يعلوها تمثال ملاك. لمْ يكُف هذا الملاك، بشَعره المجعّد حاملاً غصناً صغيراً، عن المثول أمام عيني منذ ذلك الحين. كان يحومُ فوق حياة صديقي السليبة الذي اختُطِفَ منه حتى جثمانَا والديْه. إنّه ملاك الخراب.

9

لا تُحبّ فلاستا الغلوّ. الاسترخاء على المقعد في الحديقة ليلاً غلوّ. لذلك سمعتُ طرقات قويّة على الزجاج. كان الظلّ الصارمُ لهيأة أنثى بقميص النوم مُنتصباً خلف النافذة، فامتثلتُ. فأنا أعجزُ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عن صدِّ مَن هُم أشدّ ضعفاً. وبما أنني كنتُ بطول متر وتسعين سنتمتراً وقادراً على رفع كيس من مائة كيلوغرام بيدٍ واحدة، فلم يسبق لي أبداً أن صادفتُ شخصاً يُمْكن أن أصدّه.

هكذا سوف أدخل للنوم قرب فلاستا. ما إن قلتُ إنني صادفتُ لودفيك، حتى قالت بلامبالاة مُتعمَّدة: «وماذا بَعد؟». كان نفورها منه أمْراً محسوماً، وهي اليوم أيضاً لا تُطيقه. ولكن لا حق لها في الشكوى. فهي لمْ ترَه إلّا مرّةً واحدة منذ زواجنا، عام ستة وخمسين. في تلك المرّة لمْ أستطع أن أخفي الهُوّة التي كانت تفصِلُ بيننا.

كان لودفيك قد أنهى خدمته العسكريّة وفترة السجن وسنوات عديدة من العمل في المنجم. كان يودّ استئنافَ دراسته ببراغ، وهو إن كان قد عاد من جديد إلى مدينتنا، فلكي يُسوّي بعض الإجراءات فقط بمخفر الشرطة. كانت فكرةُ مصاحبته من جديد تُربكني، لكن الشخص الذي التقيتُ لم يكن له أيّ ملمح يدلّ على الهشاشة. كان لودفيك الذي أمامي مُختلفاً عن الذي كنتُ أعرفه من قبْل. كان يمتلكُ شدّة وصلابة، ولربّما سكينة أكبر. لا شيء فيه كان يُمكن أن يدعو إلى الشفقة. وبدا لي أنّنا كنّا سنتخطّى بلا عناء الهُوّة التي كانت تُرعبني. ولتلهّفي على لأمِ الصّدع بيننا، استقدَمْته إلى تدريبٍ لجوقتنا. كنتُ أعتقدُ أنّها دوماً جوقته هو أيضاً. فلا أهمية أن يكون عازف السنبالوم شخصاً آخر والعازف الثاني للكمان شخصاً جديداً، وأن يكون حتى العازف على الكلارينيت قد تغيَّر، فأنا وحدي مَن بقيَ من الحرس القديم.

كان لودفيك قد جلسَ على كرسيّ قرب عازف السنبالوم. عزفنا في البدء أغنياتنا المُفضّلة، تلك التي تعلّمناها ونحن بعد في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الثانوي. ثمّ أغنيات جديدة كنّا عثرنا عليها في القرى المهجورة على سفوح الجبال. وأخيراً جاء دورُ الأغنيات التي نفتخرُ بها أكثر. لمْ تكن هذه المرّة أغنيات تقليديّة أصيلة، بل أغنيات من ابتكارنا على طريقة الفنّ الشعبيّ. هكذا أدّينا أغنيات عن شسوع حقول التعاونيات أو عن الفقراء الذين أصبحوا اليوم أسياداً في بلادهم أو عن سائق الجرّار الذي وفّرت له التعاونيّة كلَّ شيء. كانت موسيقى هذه الأغنيات تُشبهُ الألحان الشعبيّة الحقيقيّة وكلماتها أكثر راهنية من خطاب الصُّحف. كنّا، في هذه المختارات، نهتمّ أساساً بالأغنية الخاصّة بفوسيك، البطل الذي عذّبه النازيون إبّان الاحتلال.

كان لودفيك جالساً على كرسي صغير يُتابع بعينيه ضربات عازف السنبالوم. وغالباً ما كان يسكبُ لنفسه النبيذ. كنتُ أنظرُ إليه من فوق مسند كماني. كان مُستغرقاً، لم يرفع رأسه ولو مرّة واحدة.

ثمّ دخلت زوجاتٌ؛ واحدة تلو الأخرى، بما يعني أنّ التدريب مُوشكٌ على الانتهاء. دعوتُ لودفيك ليَصحبني إلى البيت. هيّأت لنا فلاستا شيئاً للعشاء، ثمّ ذهبَت لتنام وتركتنا وجْهاً لوجه. تحدّثَ لودفيك عن أشياء هنا وهناك. إلّا أنني أحسستُ أنّه ما كان يُثرثرُ إلى هذا الحدّ إلّا ليَسكت عمّا كنتُ أودّ الحديث عنه. ولكن، كيف لا أقول شيئاً لأعزّ أصدقائي عمّا كان يُشكّلُ لنا معاً غنىً ثميناً؟ هكذا قطعتُ ثرثرةَ لودفيك. سألته ماذا يقول عن أغنياتنا. أجاب أنّها راقية. لمْ أدَعْه يتملّصُ بهذه اللباقة، فسألته أكثر عن رأيه في الأغنيات الجديدة التي من تأليفنا نحن.

كان لودفيك يتجنّبُ النقاش. ومع ذلك فرضتُهُ عليه تدريجيّاً، إلى أن انتهى إلى الكلام. كانت باقة الأغنيات الشعبية القديمة، بالنسبة إليه، بالغة الجمال، أما الباقي من قائمة أغنياتنا فليست ذات

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قيمة. نحنُ نُراعي أكثر ذوق أيامنا. لا غرابة في ذلك. بأدائنا أمام جمهور واسع، نسعى إلى إرضائه. وبذلك ننزع من أغنياتنا الشعبيّة كلَّ خصائصها المُتفرِّدة. ننزعُ منها الإيقاعَ المُتمنِّع على التقليد ونُخضعها لوزن متعارَف عليه. نعتمدُ الطبقة الكرونولوجية الأقلّ عُمقاً، لأنّ ذلك يُحقّقُ انتقالاً أسْهل.

اعترضتُ على قوله. لسنا إلّا في البدايات. والأمر بالنسبة إلينا يتعلّقُ بتحقيق انتشار الأغنية الشعبيّة الأقصى. لهذا يتعيّنُ علينا مُلاءمَتها قليلاً مع عادات العدد الأكبر من الجمهور. والمهمّ هو أننا خلقنا فولكلوراً مُعاصِراً، أغنيات شعبية جديدة تتحدّثُ عن حياتنا اليوم.

لم يكن مُتّفقاً. فهذه الأغنياتُ الجديدة كانت تُمزّقُ أذنيْه. يا له من بديل مُثير للشفقة! يا له من بهتان!

لقد شقّ عليّ استساغة ذلك. مَنْ كان يُهدّدنا بالانتهاء إلى مصير امرأةِ لوط إنْ تعنّتْنا في الالتفات إلى الوراء؟ مَن كان يقول لنا إنّ موسيقى الشعب سوف تُنتِجُ أسلوبَ العصر الجديد؟ ومَن كان يحثّنا على إعطاء دفعة لهذه الموسيقى الشعبيّة لإلزامها بالسّيْر إلى جانب تاريخ زمَننا؟

كلّ هذا كان نوعاً من الطوباويّة، قال لودفيك.

نوعاً من الطوباويّة، كيف؟ إنّ لهذه الأغنيات حضوراً بيننا! إنّها موجودة!

ضحكَ ساخراً منّي. صحيح أنّ مجموعتكم تُغنّيها. ولكن دُلَّني على شخصٍ واحد خارج المجموعة يتغنّى بها! اذكُر لي عضواً في تعاونيّة واحداً يُدندنُ من أجل مُتعته الذاتية بلازماتكم عن نصْر التعاونيات! إنّها تجعله يُكشّرُ وَجْهه بمقدار ما هي عليه هذه الأغنياتُ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

من خداع! إنّ نصّ الدعاية يَبرزُ من هذه الأغنيات الشعبية الزائفة مثل ياقة غير مُستوية! أغنية شبه مورافية عن فوسيك! يا له من تحدٍّ للذوق السليم! ما الذي يجمع هذا الصحافيّ البراغيّ بمورافيا؟

قلتُ مُحتجّاً: فوسيك مِلكٌ للجميع، ولنا نحنُ أيضاً الحقّ في أن نتغنّى به على طريقتنا.

على طريقتنا تقول؟ إنّكم تُغنّون على طريقة التحريض الدّعائيّ وليس إطلاقاً على طريقتنا! ثم قبل ذلك، لماذا أغنية عن فوسيك؟ ألم يكن في المقاومة إلّا هو؟ ألمْ يتم تعذيب آخرين؟

إنّه فوق ذلك الأكثر شهرة!

هذا أمْرٌ طبيعيّ! فالجهازُ المُكلَّفُ بالدّعاية ساهرٌ على التراتُب الجيّد في رواق الموتى الكبار. لا بُدّ مِنْ بطل قائد من بين الأبطال.

ما الجدوى من هذه السّخرية؟ أليْس لكلِّ فترةٍ رُموزها؟

ليكن، ولكن من المهمّ معرفة مَنْ تَمَّ اختيارُهُ ليؤدّي دور الرّمز! مئاتٌ حينذاك كانوا هُم أيضاً أبطالاً وتمَّ نسيانهم. كانوا في الغالب شخصيات خارقة؛ سياسيّين، كتّاباً، علماء، فنّانين. ولمْ يُحوَّلوا إلى رموز. لا تُزيِّنُ صُورُهم جدران السكرتاريات والمدارس وإن تَركوا، في الغالب، أثراً. ولكن الأثر هو تحديداً ما يُزعج. ثمّة صعوبة لتدبّر أمره وتحويره وتعديله من الدّاخل. الأثر هو ما يُزعج في رواق الدعاية للأبطال.

لا أحد منهم كتبَ روبورتاجاً وهو تحت المشنقة!

إنّنا في عمق المسألة! كيف نُعامِلُ بطلاً يلوذ بالصّمت؟ بطلاً يتجنّبُ استخدام لحظاته الأخيرة في صناعة الفرجة؟ في جعْلها درساً بيداغوجيّاً؟ كان فوسيك، رغم أنّه لم يُخلّف أيّ أثر، قد خمّنَ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الأهمية الرئيسة في إبلاغ العالَم بما كان يُفكّرُ فيه في السّجن، بما كان يحِسّه ويحياه، بما كان أخبَر به البشريّة وأوصاها به. هذه الأشياء، التي سجّلها في أوراق صغيرة، كلّفت مَنْ هرَّبوها خارج السجن بغاية الاحتفاظ بها في مكان آمِن، حياتَهُم. يا للأهمية الفائقة التي كانَ يلزمُه إيلاءها لأفكاره وأحاسيسه! يا للأهمية البالغة التي كان يوليها لذاته!

هنا، لمْ أعُد أقوى على الاحتمال. أكان الزّهو، ببساطة، هو ما أفسَد فوسيك؟

فوسيك كان شبيهاً بحصان هائج. أبداً، ليس الزّهو تماماً ما كان قادَهُ إلى الكتابة، بل الضعف. ذلك أنّ الشجاعة في العُزلة؛ من غير شهود ولا رضا الآخَرين، وجهاً لوجْهٍ مع الذات، تتطلّبُ اعتزازاً كبيراً بالذات وكثيراً من القوّة. فوسيك كان في حاجةٍ إلى دَعْم الجمهور. كان يصنعُ لنفسه، في عُزلة زنزانته، جمهوراً مُتخَيَّلاً على الأقلّ. كان بحاجة إلى أنْ يُرَى، أن يتقوّى بالتصفيقات! تصفيقات خياليّة، في غياب أخرى واقعيّة. لقد حوَّلَ زنزانتَهُ إلى مسرحيّة، وجعلَ مصيرَهُ قابلاً للتحمّل عبر استعراضه والتباهي به.

كنتُ مُهَيَّأً لانهيار لودفيك ولحدَّتِه، لكن هذا الحنق وهذا الاستهزاء الحقود فاجآني. ما الذي سبّبهُ الشهيد فوسيك له من سوء؟ إنّ قيمة المرء، وفق ما أرى، في وفائه. أعرفُ أنّ لودفيك تعرَّضَ لعقابٍ جائر. ولكن الأمر يُصبح أكثر خطورةً! لأنّ دوافع تغييره لآرائه تكونُ حينذاك أكثر شفافيّة. أيُمْكنُ للمرء أن يقلبَ موقفه تماماً من الحياة فقط لأنّه تعرّض للإهانة؟

كنتُ قد قلتُ للودفيك كلَّ ذلك بحدّة. ثمّ حدثَ شيءٌ لمْ يكن منتظَراً. لمْ يُجبْني. كما لوْ أنّ حمّى الغضب هذه قدْ فارَقتْهُ بغتة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان يتفحّصُني بقلق، ثم طلبَ منّي بصوتٍ خفيض وهدوء ألّا أغضب. من المُمكن أن يكون قدْ أخطأ. قال ذلك بصورةٍ غريبة، وبُرودةٍ كشفت لي بوضوحٍ نفاقه. لمْ أكُن أريدُ لحوارنا أن ينتهي بمثل هذا النفاق. أيّاً كانت المرارة التي استشعرتُها، فقد احتفظتُ برغبتي الأولى، كنتُ أريدُ استجلاءَ الأمور مع لودفيك وترميمَ صداقتنا. ومهما كان التصادم حادّاً، فقد كنتُ آمُلُ مع ذلك أن يكون في نهاية خلافٍ طويل، ركنٌ لأرض مُشترَكة حيث كان الودّ يسودُ في الماضي، وحيث يُمكننا أن نقيمَ من جديد. غير أنّ جهودي في مُوَاصَلة النقاش لمْ تَجدْ أيّ صدى. لقد أخذ يُفيضُ في الاعتذار: استسلمَ مرّةً أخرى لهوسه بالمُبالغة. ورجاني أن أنسى الكلام الذي صدرَ عنه.

أنسى؟ لِمَ يتعيّنُ، بحقّ الشيطان، نسيان حوارٍ جدّيّ؟ أليس من الأفضل أن يحثّنا على مُوَاصَلته؟ لمْ أستشف معنى طلب لودفيك إلّا في الغد. كان قد أمْضى الليْلَ معنا وتناولَ وجبة الإفطار. بعد ذلك كانت لا تزال أمامنا نصف ساعة للحديث. حكى لي الإجراءات المُعَقدة للحُصول على ترخيص يُخوِّلُ له إنهاءَ دراسته الجامعيّة في السنتيْن المُقبلتيْن، ومقدار الوصمة التي كان يُمثّلها فصله من الحزب على وجوده، وكيف كان الارتيابُ الذي جُوبهَ به ذائعاً في كلّ مكان، ولربّما أمْكنهُ بفضل قلّةٍ من أصدقائه الذين عرفوه قبل فصْله من الحزب استئناف دراسته. ثمّ تحدَّث عن بعض المعارف حيث كانت وضعيتهم تشبهُ وضعيتَه. وأكّدَ أنّهم كانوا مُراقَبين وأنّ حديثهم كان مُسَجّلاً بدقة، وكان محيطهم يُستجوَبُ، وأيّ شهادة مُتحمّسة أو ذات نيّة سيّئة كان يُمكنها في الغالب أن تُكلّفهم بضع سنوات إضافيّة من المتاعب. ثمّ حوَّلَ الحديث من جديد نحو أمور تافهة. ولمّا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حلّت لحظة الفراق، أعلنَ أنّه كان سعيداً برؤيتي وكرَّرَ رجاءَهُ ألّا أفكِّر في ما قال لي أمس.

كانت العلاقة بين رجائه وإيحاءاته إلى ما عاشهُ أصدقاؤهُ واضحة للغاية. كنتُ منذهِلاً. لقد أوقفَ لودفيك الحديث معي لأنّه كان خائفاً! خائفاً أن يتمّ إفشاء نقاشنا! خائفاً من الوشاية! خائفاً منّي! كان ذلك مُرعباً، ومرّةً أخرى غير متوقّع تماماً. كانت الهُوّة بيننا أعمق مِمّا كنتُ أعتقد، أعمق من أن تُمَكّننا من إكمال حوار بيننا.

10

لقد خلدت فلاستا، الصّغيرة المسكينة، إلى النّوم. وبيْن الفينة والأخرى يصدُرُ عنها شخيرٌ خفيف. كلّ شيء نائمٌ في البيت. تمدّدتُ، عريضاً طويلاً ضخماً، أفكّرُ كم كنتُ بلا قوّة. وانتابَني هذه المرّة لذلك شعورٌ بالغ القسوة. سابقاً، كنتُ أعتقدُ بسذاجة أنّ كلَّ شيءٍ كانَ بين يدي. لا أحد منّا، لودفيك وأنا، سبقَ له إطلاقاً أن آلَمَ الآخَر. ما الذي يمنعُني، بقليل من الإرادة الطيّبة، من أن أصبح قريباً منه من جديد؟

الحجّة بيّنة، فالأمرُ ليس بيَدي. لا قطيعتنا ولا تقاربنا كانا بيَدي. لقد وضعْتُهما بيَد الزمن إذاً. كان الزمنُ ينقضي. تسع سنوات مرّت على لقائنا الأخير. أنهى لودفيك دراسته وعثرَ على وظيفة ممتازة، عاملاً علميّاً في مجال يهمّه. أتابعُ مصيرَهُ من بعيد. بمحبّة أتابعُه. لن أستطيعَ أبداً عدَّ لودفيك عدوّاً أو شخصاً غريباً. إنّه صديقي، غير أنّ سِحراً مسَّه. الأمرُ شبيهٌ بصيغةٍ مُجدّدة للحكاية التي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يتمّ فيها تحويلُ خطيبةِ أمير إلى حيّة أو ضفدع. في تلك الحكايات، يُمَكِّنُ صبْرُ الأمير الوفيّ دوماً من إنقاذ كلّ شيء.

ولكنّ الزمن، في حالتي، لمْ يُخلِّص صديقي من السّحر الذي مسَّه. فقد بلغني مرّات عديدة، خلال هذه السنوات، أنّه مرَّ من مدينتنا، لكنّه لمْ يزُرني بالبيت ولو مرّة واحدة. واليوم صادفتُهُ، وتحاشاني هذا اللعينُ لودفيك.

كلُّ شيءٍ بدَأ بعد أن تحاوَرْنا في المرَّة الأخيرة. كنتُ، من سنة إلى أخرى، أشعُرُ بالصحراء تمتدُّ من حولي وبقلقٍ ينبتُ في قلبي. لقد أخذت الأتعابُ في التنامي والأفراح والنجاحات في التقلّص. كانت الفرقة تقومُ، في كلّ سنة، برحلةٍ إلى الخارج، ثمّ أخذت الدَّعواتُ تقلّ، واليوم لمْ نعُدْ نُدْعَى تقريباً إلى أيّ عرْض. نعملُ باستمرار، نُضاعفُ الجهود، ولكنّ الصمت يُطوِّقنا. لقد بقيتُ في قاعةٍ فارغة. وبَدَا لي أنَّ لودفيك هو مَنْ أمرَ بعُزلتي. فليْس الأعداءُ مَنْ يحكمُ على الإنسان بالعُزلة، بل الأصدقاء.

منذ ذلك الوقت، اعتدتُ تدريجيّاً على الهرب باستمرار عبْر أرض هذا الطريق المُحاط من جانبيْه بحقول صغيرة. عبر هذا الطريق وسط الحقول، حيث تنمو زهرة نسرين وحيدةً على تلعَةٍ. هنا أعثرُ من جديد على آخِر المُخْلصين. هناك الفارّ من الجنديّة مع فيْلقه، وهناك موسيقيٌّ جوّال. ووراء الأفق، بيتٌ من خشب وفلاستا، الخادمة الفقيرة، بداخله.

يدعوني الفارُّ من الجنديّة مليكَهُ، ويُقْسمُ أنّ بإمكاني أن أكون، في كلّ وقت، تحت حمايَته. يكفي أن آتي قرب زهرة النسرين، وسيكونُ دوماً في الموعد.

العثور على السكينة بسيطٌ للغاية في عالَم المُتخيَّل! لكنني

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سعيتُ دوماً إلى العيش في العالمَيْن معاً، من غير أن أتركَ أحدَهُما لألتحقَ بالآخَر. لا حقَّ لي في مُغادَرةِ العالَم الواقعيّ رغم أنني أفقدُ فيه كلَّ شيء. لربَّما سيكفي، في نهاية النهايات، أن أنجح في شيءٍ واحد، شيءٍ أخير:

أنْ أسَلِّمَ حياتي كرسالة واضحة جليّة إلى الشخص الوحيد الذي سوف يفتحُها، ويحملها بعيداً جدّاً. وإلى أنْ يحينَ ذلك، لا حقّ لي في أنْ أذهبَ مع الفارّ من الجندية إلى نهر الدانوب.

هذا الشخصُ الوحيدُ الذي أفكِّرُ فيه، أمَلي الأخير بعد إخفاقاتٍ عديدة، ينامُ وجدارٌ يفصله عنّي. سوفَ يمتطي بعد غدٍ حصاناً. سيكونُ وجهُهُ مُقنَّعاً. سوفَ يُدْعى مليكاً. تعالَ يا صغيري. فأنا أغفو. سوف ينادون عليك بمنصبي. سأخلد إلى النّوم. أريدُ أن أراك في حُلمي تمتطي حصاناً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

القسم الخامس

لودفيك

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

1

نِمتُ طويلاً بعُمق. استيقظتُ بعد الثامنة، لمْ أكن أتذكّرُ أيّ حُلم؛ لذيذٍ أو مُزعج، لمْ يكن رأسي يوجعُني، إلّا أنني ببساطة لمْ أرغب في النّهوض، فبقيتُ إذاً مُستلقياً؛ كان النومُ قد أقامَ بيني وبين لقاءِ أمس ما يُشبهُ حاجزاً، لا لأنّ لوسي تلاشت من وعيي، بل لأنّها أصبحت تجريداً.

تجريداً؟ أجل: بعد اختفائها الغامض والمؤلِم في أوسترافا، لمْ تكن لي في البدء أيّ وسيلة عمليّة للبحث عن أثرها. وبتوالي السنين (بعد خدمتي العسكريّة)، كنتُ أفقدُ تدريجيّاً الرغبة في هذا البحث. كنتُ أقولُ في نفسي إنّ لوسي لمْ تكن، أيّاً بلغت قوّةُ حُبّي لها وأيّاً بلغ تفرّدها التامّ، مُنفصلة عن الظرف الذي تعرّفنا فيه إلى بعضنا وأغرِمَ أحَدُنا بالآخَر. ليس رأياً سديداً، فيما يبدو لي، فصْلُ المرأةِ المحبوبة عن مُجمَل الظروف التي فيها تمَّ اللقاءُ بها وتمّت مُخالطتُها، من الخطأ تخليصها، لأجل استغراق ذهنيّ مُتصلّب، من كلِّ ما لا يمتُّ لذاتها، أي من القصّة التي عيشت معها وكانت تمنحُ شكلَها للحُبّ.

والواقع أني أحبُّ في المرأة لا ما هي عليه في ذاتها، بل ما به تتوجّهُ إليّ، ما تُمثّله بالنسبة إليّ. أحبُّها بوصفها شخصيّة في قصّتنا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نحنُ الاثنيْن. أيُّ قيمة ستبقى لهاملت مفصولاً عن قصْر إلسينور وعن أوفيليا، عن كلّ الوضعيات الملموسة التي يجتازها، أي عن سياق النصّ المُحدِّد لدوره؟ ماذا سيبقى سوى ما لا أدري من جوْهر صامتٍ ووَهْميٍّ؟ وعلى نحو مُماثل، فإنَّ لوسي، بدون ضواحي أوسترافا والزّهور المدسوسة من تحت السياج، بدون الفساتين الرثّة وأسابيع الانتظار الطويلة بلا أمَل، لنْ تكونَ، بلا شكّ، لوسي التي كنتُ أحبّ.

هكذا كنتُ أتصوّرُ الأشياء وأستجليها لنفسي، وبمرور السنين، أصبحتُ تقريباً خائفاً أنْ أراها من جديد، إذ كنتُ أعرفُ أنّنا كنّا سنلتقي في مكان لنْ تكونَ فيه لوسي هي لوسي، ولنْ يكون لي ما به أرأبُ الصّدع. لا أريدُ القوْل بهذا إنّني توقّفتُ عن حُبّها ونسيتها، وإنّ صورتَها شحبت. على العكس، فقد كانت تسكنني ليل نهار مثل حنين صامت، كنتُ أرغبُ فيها كما نرغبُ في الأشياء المفقودة إلى الأبد.

وبما أنّ لوسي أصبحت بالنسبة إليّ ماضياً تماماً (لقد ظلَّ بوصفه ماضياً حيّاً دوماً، لكنّهُ مات بوصفه حاضراً)، فقد أخذتْ تفقدُ تدريجيّاً، بالنسبة إليّ، مظهرَها الجسديّ الماديّ الملموس، لتتحوَّلَ أكثر فأكثر إلى خزانة أسطورةٍ مكتوبة على رَقّ ومُخبَّأة في خزينة من حديد مُودَعة في عمق حياتي.

ربّما لذلك، أصبح ما لا يُتصوَّر مُمكناً، أي تردّدي في تعرُّف وجهِها لمّا كنتُ على مقعدِ صالون الحلاقة. ولذلك أيضاً شعرتُ هذا الصّباح أنّ ذلك اللقاء لمْ يكُن واقعيّاً، بل كان ينبغي أنْ يجري هو أيضاً على مستوى الأسطورة، مستوى الكَهانَة أو الأحجية. وإذا كان الوجود الواقعيّ للوسي مساء أمس فاجأني وألقى بي فجأةً في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الزّمن البعيد حيث كانت لها السيادة، فإنني، صباح السبت هذا فقط، تساءلتُ بقلبٍ هادئ (أراحه النوم): لِمَ صادفتُها؟ ما دلالة هذه الصّدفة وماذا لها أن تقول لي؟

هل تقولُ القصص الشخصيّة شيئاً يتجاوَزُ وُقوعَها؟ رغم كلّ نزوعي الارتيابيّ، فقد بقيَ لديّ قليلٌ من الاعتقاد الغيْبيّ، مثل هذه القناعة الغريبة بأنّ كلَّ حدَثٍ يقعُ لي يحملُ فوق ذلك معنى، إنّهُ يدلُّ على شيءٍ ما، وأنّ الحياةَ تُحدّثنا عبر قصَّتِها الشخصيّة، تكشفُ لنا بالتدريج سرّاً، تَهَبُ نفسَها بوَصفها لغزاً لِفكِّ شفرَتِه، وأنّ القصصَ التي نعيشها تُشكِّلُ أيضاً أسطورةَ حياتنا وأنّ هذه الأسطورة تحتفظُ بمفتاح الحقيقة والسّر. أهُوَ وَهْمٌ؟ مُمْكن، بل مُرَجَّح، إلّا أنّني لا أستطيعُ أنْ أكبَحَ الحاجة إلى الاستمرار في فكّ شفرات حياتي الخاصّة.

مُمَدَّداً دوماً على سرير الفندق الذي يُحدثُ صريراً، كنتُ أفكّرُ في لوسي التي تحوّلت من جديد إلى مُجرَّد فكرة، مُجرَّد علامة استفهام. كان السريرُ يُصدِرُ صريراً، وهذا الجُزَيْءُ الطافي من جديد إلى وعيي أحدثَ تحوّلاً (مُفاجئاً، ناشزاً) نحو التفكير في هيلينا. كما لو كان هذا السّرير المُحدِثُ للصرير الصّوتَ الذي يدعوني إلى الواجب، تنهّدتُ وأخرجتُ قدمي من السرير وجلستُ على حافته، تمطّيتُ، مرّرتُ أصابعي على شعَري، ناظراً إلى السماء من خلال زجاج النافذة، ثمّ نهضتُ. كان لقاء لوسي بالأمس قد قلَّصَ أيضاً اهتمامي بهيلينا وكتَمَه، ذلك الاهتمام الذي كان قبْل أيام قليلة قويّاً للغاية، لمْ يعُد الآن إلّا ذكرى اهتمام، إلّا شعوراً بالواجب تجاهَ اهتمام مفقود.

دنوتُ من المغسلة، نزعتُ سترةَ المنامة وفتحتُ الصنبور كلّياً،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ضمَمتُ يدي تحت الدّفق وألقيتُ سريعاً برشّات جيّدة على العنق والكتفيْن والجسم، ثمّ تنشّفت. كنتُ أريدُ أن أنعشَ دمي. لقد أخافني فجأةً عدم اكتراثي لمجيء هيلينا، خفتُ أن تُفسدَ هذه اللامبالاة مُناسبةً استثنائيّة كانت فرصةُ تكرارها نادرةً جدّاً. وَعدْتُ نفسي بوجبةٍ دسمة مُعزّزة بالفودكا.

نزلتُ إلى مقهى الفندق، لكنّني لمْ أجد به غير موكب حزين من الكراسي المصفوفة، قوائمُها إلى الأعلى، فوق منضدات صغيرة بلا أغطية، وبينها عجوز قصيرة بوزرةٍ قذرة تُجرجرُ قدميْها.

بمكتب الاستقبال، سألتُ البوّاب، المُستغرق خلف الكونتوار في مقعد يُشبههُ في تراخيه، إن كان بالإمكان تناوُل وجبة الإفطار بالفندق. بدون أن تصدر عنه أيّ حركة، قال إنّ اليوم هو اليوم الذي يتوقفُ فيه المقهى عن العمل. خرجتُ إلى الشارع. كان النهارُ يُبشّرُ بجوّ جميل، السّحبُ الصغيرةُ كانت تتجوَّلُ في السّماء والرّيحُ الخفيفة تُثيرُ الغبارَ على الرصيف. حثثتُ الخطى نحو الساحة. كان ثمّة طابورٌ أمام محلٍّ للجزارة، نساءٌ بقفافٍ وشبكيّات ينتظرن بصبْر دورهنّ. وسرعان ما لاحظتُ أنّ من بيْن المارّة مَنْ يُمسِكُ بقبضته، مثل مشعلٍ صغير للغاية، قُرَيْناً من المُثلّجات تعلوه قلنسوة ورديّة كانوا يلحسونها. في الوقت ذاته، كنت بلغتُ الساحة الكبيرةَ. كان ثمّة مطعم للخدمة الذاتية بمنزلٍ ذي طابق واحد.

دخلتُهُ. كانت القاعة فسيحة بأرضيّة مُبلَّطة، وكان أشخاصٌ واقفين أمام طاولات عاليّة جدّاً، يتناولون هلاليات محشوة ويشربون القهوة أو الجعّة.

لمْ أكن أرغبُ في تناوُل الإفطار هنا. منذ أن استيقظتُ وأنا أتلهّفُ على وجبة بيض وشحم خنزير مُدخّن، مع كأس كحول كي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أنتعش. تذكّرتُ مطعماً بعيداً قليلاً، في ساحة أخرى، بها حديقة صغيرة وتمثال باروكيّ. لَمْ يكن بلا شكّ ما يُغري البتّة بالذهاب إليه، ولكنْ حسْبي أن أجدَ فيه طاولة وكرسيّاً ونادلاً مُستعدّاً لخدمتي.

مررتُ قرب التمثال: كانت قاعدته تسندُ قدّيساً، والقدّيسُ يسند سحابة، والسحابة ملاكاً، والملاكُ يسند سحابة أخرى، عليها كان يجلسُ ملاكٌ آخَر. رفعتُ بصري على امتداد التمثال؛ هذا الهرم المُثير من القديسين والسّحب والملائكة الذي تُصوِّرُ قاعدتُهُ الصخريّة الثقيلة السماوات وأعماقها، بينما بقيت السماءُ الحقيقيّة، ذات الزرقة الباهتة، شديدةَ البُعد من هذه القطعة الأرضيّة المُغبرّة.

عبرتُ إذاً الحديقة الصغيرة بأرضيتها الخضراء ومقاعدها (ومع ذلك، شديدة العُري بصورة كافية لئلاّ تُفسد جوّاً من الفراغ المُغبرّ). أمسكتُ قبضة باب المطعم. كان مُغلقاً. بدأتُ أدركُ أنّ المأدبة الصغيرة التي تمنيتُها كثيراً سوف تبقى حُلماً، وهو ما أقلقني، لأني كنتُ أعتبرها بعنادٍ طفوليّ الشرْطَ الحاسمَ في نجاح هذا اليوم. فهمتُ أنّ المدن الصغيرة لم تكن تهتمّ بغريبي الأطوار المُتمسّكين بتناوُل وجبة إفطار جالسين، لأنّها لم تكن تفتحُ مطاعمَها إلّا في وقتٍ مُتأخّر جدّاً. لذلك صرفتُ النظر عن البحث عن مطعم، استدرتُ وعبرتُ الحديقة الصغيرةَ في الاتّجاه المُعاكس.

كنتُ أصادفُ من جديد هؤلاء الأشخاص بقريْناتٍ تعلوها قلنسواتٌ ورديّة، وأعدتُ في نفسي من جديد أنّ هذه القريْناتُ كانت تُذكّرُ بمشاعل، وأنّ هذا المظهر ربّما كانت له دلالة مُعيّنة، باعتبار أنّ ما دعوناهُ مشاعل لَمْ يكن مشاعل، وإنّما محاكاة لها فقط، وهذا الأثر الهارب لمُتعة ورديّة، الذي كان فوقها على نحو احتفاليّ، لم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يكن لذةً حسّية، بل محاكاة لذة، وهو ما كان يُعبّرُ، وفق جميع الاحتمالات، عن خاصية المحاكاة الحتميّة لكلّ المشاعل واللذات في مدينة الغبار هذه. ثمّ قدّرتُ أنّ ثمّة فرصة إن عُدتُ من مسار حاملي المشاعل ولاحِسيها للعثور على محلّ حلويات به ركنُ طاولة وكرسيّ، وحتى قهوة سوداء وقطعة حلوى صغيرة أيضاً.

فعلاً وصلتُ إلى مقهى، كان ثمّة طابورٌ في انتظار الحصول على كوب شوكولا أو على حليب وهلاليات، وها هي مرّة ثانية المنضداتُ العالية، عليها يأكل الزبائن ويشربون، وبخلفية المحلّ كانت هناك بضع منضدات وكراس، غير أنّها مشغولة بكاملها. وقفتُ إذاً في الطابور الذي كان يتقدَّمُ بخطى صغيرة، وبعد عشرين دقيقة من الانتظار، حصلتُ على كأس شوكولا وهلاليتيْن، انتقلتُ إلى لويْح تكدّس فوقه ستة أكواب فارغة، وهناك، على ركن غير مبتلّ، وضعتُ كوبي.

أكلتُ بسرعة مُحزنة: وما كادت تمرُّ ثلاث دقائق حتّى كنتُ في الشارع من جديد. بلغت الساعة التاسعة، كانت لا تزال أمامي ساعتان: لقد أخذت هيلينا هذا الصباح أوّل طائرة من براغ إلى برنو كي تتمكّن من إدراك الحافلة التي تصِلُ إلى هنا قبل الحادية عشرة بقليل. كنتُ أعرفُ أنّ الساعتيْن سوف تكونان فارغتيْن تماماً.

بمقدوري طبعاً الذهابُ إلى زيارةِ الأماكن القديمة من طفولتي، الوقوف أمام بيتنا حيث عاشت أمّي حتى آخر أيامها. أفكّرُ فيها باستمرار، لكن ذكرياتي هنا تسمّمت، حيث يرقد جثمانها الصغير تحت شاهدة مرمريّة غريبة: الإحساسُ الحادّ بعجزي يُلهبها، وهو ما أتجنّبُهُ.

لمْ يكن أمامي سوى الجلوس على مقعد بالساحة، والقيام فوراً

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

للذهاب إلى الواجهات، تفحّص أغلفة الكتب بواجهة المكتبات، وفي الأخير اقتناء صحيفة رود برافو من محلٍّ لبيع السجائر، ثم العودة للجلوس على المقعد، إلقاء نظرة على العناوين التافهة، قراءة خبريْن، في زاوية الأخبار الخارجية، لهما بعض الفائدة، ثم النهوض وطيّ الصحيفة ووضعها كما هي في صندوق القمامة، ثم الدنوّ ببطء من الكنيسة، والتوقف أمامها والنظر إلى الناقوسيْن، ثم تجاوز السقيفة بخطى حثيثة، والدخول بوجل إلى جناح الكنيسة، لئلّا ينبهرَ الحاضرون من كون الزائر الجديد ليس من المؤمنين ولم يأتِ إلى هنا إلّا من أجل النزهة كما لو تعلّق الأمر بنزهة في حديقة.

عندما احتشدَ أشخاصٌ كثيرون، انتابَني شعورُ مُتطفّلٍ لم يكن يعرفُ أيَّ موقف يتّخذ في هذا المكان، فذهبتُ أنظرُ إلى الساعة ملاحظاً أنّ وقتي كان عسيراً. ولكي أستغلّ هذا الوقت الفارغ، انشغلتُ بتذكّر هيلينا والتفكير فيها، غير أنّ هذا التفكير أبى أنْ ينموَ، لقد بقيَ جامداً وبالكاد مكّنني من استحضار صورة هيلينا. الأمرُ معلومٌ، فضلاً عن ذلك: عندما ينتظرُ رجلٌ امرأةً، لا يقوى على التفكير فيها إلّا بمشقة، ولا يمكنه إلّا أن يذرع المكان مرّات عديدة تحت تأثير صورتها الجامدة.

ذلك ما أقدمتُ عليه. رأيتُ في الجهة المقابلة للكنيسة عشر عربات أطفال فارغة أمام عمارةِ مقرّ العمدة (هي التي أصبحت الآن اللجنة الوطنية للمدينة). لم أستطع استجلاء الأمر. بعد ذلك، وصلَ شابٌّ لاهثاً وصفَّ عربة إلى جوار باقي العربات، سحبتْ منها زوجتُه (المضطربة قليلاً) حزمة من القماش والمطرّزات البيضاء (محتوية بلا شكّ على رضيع) واختفى الزوجان بعجل داخل مقرّ العمدة. فكّرتُ أن أمامي ساعة ونصف للتزجية، فتبعتهما.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان ثمّة ابتداءً من السُّلم الواسع عددٌ غير قليل من المتسكّعين، وقد أخذ عددهم يتضاعفُ كلّما كنتُ أصعد. بدا ممرُّ الطابق الأوّل مكتظّاً، فيما كان السلّم الذي يقودُ إلى الأعلى شاغراً. لا بدّ أنّ الحدثَ الذي جذب كلَّ هذا الحشد كان إذاً يجري، على ما بدَا، في الطابق الأوّل، وبصورة محتمَلة في القاعة ذات البوّابة الكبيرة المفتوحة على الممرّ، التي كانت مزدحمة بحشد هائل. ولجْتُها، كان اتساعُها مُتواضعاً، ثمّة قرابة سبعة صفوف من الكراسي شغلها أشخاصٌ تظهر عليهم علامات انتظار مَشهد. وفي المقدّمة، كانت هناك منصّة تحملُ طاولة طويلة مُغطّاة بقمّاش أحمر، عليها وعاء به باقة زهور كبيرة، وفي الخلف على الجدار، طيّاتُ علَم بألوان الدولة مُسدلة، وفق تنظيم وعناية فنيّة. في مواجهة المنصّة، (على بعد ثلاثة أمتار من الصّفّ الأوّل للردهة) كان ثمّة ثمانية مقاعد مُنظَّمة على شكل نصف دائرة، وفي أقصى الطرَف الآخَر للقاعة، كان هناك هارمونيوم صغير، يجلسُ إليه رجلٌ مُسنّ بنظارتيْه، حانياً صلعته على الملامس المكشوفة.

كان ثمّة كراس عديدة لا تزالُ شاغرة. جلستُ على أحدها. لمدّة طويلة لمْ يحدث أيّ شيء، لكنّ الجمهور لم يُبدِ أيّ انزعاج، انحنى البعض هنا وهناك إلى مَن بجوارهم في حديث خافت. في أثناء ذلك، كانت المجموعاتُ الصّغيرةُ المُتأخّرةُ بالممرّ قد انتهت إلى ملءِ القاعة، مُتّخذةً أماكنَ الجلوس الأخيرة أو واقفة في جنبات القاعة.

أخيراً جرى شيءٌ: خلفَ المنصّة، انفتح بابٌ وظهرت سيّدةٌ بفستانٍ داكن ونظارتيْن على أنف طويل دقيق، جالت ببصرها على الحضور ورفعت يدَها اليُمْنَى. كان الصّمتُ يحيطُ بي. ثمّ عادت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نحو الغرفة التي منها ظهرت، كما لو لِتُوَجِّه إشارةً أو كلمة إلى أحد، ثمّ سرعان ما عادت وأسندت ظهرَها إلى الجدار بينما ارتسمت على وجهها في اللحظة ذاتها ابتسامة رسميّة جامدة. كلّ شيء كان مُتزامناً، إذ انطلقَ خلفي الهارمونيوم في الوقت ذاته الذي صدرت فيه الابتسامة.

ثوان بعد ذلك، ظهرت بالباب الخلفيّ للمنصّة شابّة لها وجهٌ أحمر وشعرٌ أصفر بتجعيدة فخمة، تضع مساحيق بارزة والحيرة تعلو ملامحها، بين ذراعيها كيسٌ أبيض مع الرضيع. ولكي تسهِّلَ لها السيدة ذاتُ الفستان الداكن المرور، التصقت أكثر بالجدار بينما كانت ابتسامتُها ترومُ تشجيعَ حاملةِ الرّضيع. كانت حاملة الرّضيع تتقدَّمُ بخطى مُتردّدة، ضامّة رضيعها. ثمّ ظهرت امرأةٌ ثانية بالكيس الأبيض ذاته وخلفها (بتتابع) موكب صغير. كنتُ أتابعُ دوماً المرأة الأولى: جالت عيناها، في البدء، قرب السقف قبل أن تنزلهما، وقد التقتا بكلّ تأكيد بنظرةِ أحدٍ داخل القاعة، لأنّها ارتبكت وحاولت فجأةً نقلَ بصرها إلى مكان آخر وأخذت تبتسم، غير أنّ هذه الابتسامة (هذا الجهد في الابتسام) سرعان ما شحبت في انقباض شفتيْها الجامدتيْن. كلُّ شيء انطبعَ على وجهها خلال بضع ثوان (التوقيت الذي بالكاد قطعتْ فيه ستّة أمتار انطلاقاً من الباب)؛ وبما أنّها توَجّهتْ إلى الأمام، فإنّها لمْ تنعطف في اللحظة المناسبة أمام المقاعد التي ترسمُ هلالاً، ممّا دفع السيدة ذات الفستان الداكن إلى الإسراع من الجدار (بملامح مُقطّبة قليلاً)، اقتربت منها لتُذكّرها (عبر لمسة خفيفة من يدها) بالوجهة الصحيحة. هكذا عدّلت المرأةُ فوراً انحرافَ وجهتِها، ورسمت حركة انعطافٍ متبوعة بحاملات رُضّع أخريات. ثمان كنّ في المجموع. لمّا أنهيْن أخيراً المسافة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المرسومة، توقّفن وقابلن الجمهور بظهورهنّ، كلّ واحدة منهنّ أمام مقعد. قامت السيدة ذات الفستان الداكن بإشارةٍ من الأعلى إلى الأسفل. فهمَت النساءُ (اللواتي كنّ دوماً مديرات ظهورهنّ إلى الجمهور) الإشارة، وببُطء جلست الواحدة تلو الأخرى (بحزمات الرضّع).

ابتسمت السيدة ذات الفستان الدّاكن من جديد وتوَجّهت نحو الباب الذي بقيَ مُنفرجاً. توقّفت لحظة على العتبة، ثمّ خطَت ثلاث خطوات سريعة أو أربع وعادت القهقرى داخل القاعة حيث أسندت ظهرها إلى الجدار من جديد. حينذاك ظهرَ شابٌّ في العشرين من عمره بلباس أسود وقميص أبيض ياقته مُزيّنة بربطة عنق ذات رسوم مُلوّنة ملتصقة بعنقه. كان رأسُه مُطأطأً وخطوُهُ وئيداً. كان يمشي خلفه سبعة رجال أعمارهم متباينة، لكنّهم جميعاً بلباس قاتم أنيق. أحاطوا بالنساء الحاضنات للرضّع، وتوقّف كلّ واحد منهم خلف كرسي. في هذه اللحظة، أبدى منهم اثنان أو ثلاثة نوعاً من القلق وألقوا نظراتٍ من حولهم كما لوْ كانوا يبحثون عن شيءٍ ما. هرعت السيدة ذات الفستان الدّاكن (فوراً علت من جديد وجهَها سحابة تفكّه كالتي ارتسمت عليه قبْل قليل)، همسَ لها واحدٌ من الرّجال الحائرين ببضع كلمات، وافقت برأسها، إثر ذلك غيّرَ الرجالُ فوراً أماكنهم.

عندما أصبحت السيدة ذات الفستان الداكن مُبتسمة من جديد، توجّهَت مرّة أخرى إلى الباب خلف المنصّة. لمْ تكن هذه المرّة بحاجة إلى إصدار إشارة معيّنة. ثمّ دخلت مجموعة جديدة، عليّ أن أقول إنّها كانت مُدرَّبة، تمشي حقّاً بمنتهى الإحكام بدون اضطراب، على طريقة المحترفين، كان الأطفال الذين تكوّنت منهم هذه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المجموعة في العاشرة تقريباً من عمرهم، يتقدّمون بالتتابُع، صبياناً وصبايا. كان الصّبيان يرتدون سراويل كُحليّة وقمصاناً بيضاء مع منديل أحمر مُثلّث، أحدُ رؤوسه كان مُسدلاً بين أكتافهم والرأسان الآخران معقودان تحت الذقن، وكانت الصّبايا ترتدين تنّورات صغيرة كُحليّة وكنزات بيضاء والوشاح ذاته الذي على الصبيان، والجميع يحملُ باقة زهور صغيرة. كانوا يمشون، كما قلتُ سابقاً، بثقة وأناقة شديديْن، لا مثل المجموعتيْن السابقتيْن: لا يتبعون نصف دائرة الكراسي، بل يسيرون على طول مقدّمة المنصّة، هنا توقّفوا، قاموا بربع دورةٍ، بحيث شغل صفّهم طول المنصّة بكامله، تجاه النساء الجالسات والقاعة.

مرّت بضع ثوان عندما ظهرَ بالباب شخصٌ آخر لا أحد كان يتبعهُ، توجّه مُباشرة نحو المنصّة ومائدتها الطويلة ذات الغطاء الأحمر. كان في متوسّط العمر برأس أصلع. كانت مشيته وقورة، وهيأته صارمة، يرتدي بدلة سوداء ويحملُ ملفّاً كبيراً، توَقف عند منتصف طول الطاولة وتقابلَ مع الجمهور وحيّاهُ بانحناءة. كنّا نرى وجهه المنتفخ، كان يضع على صدره وساماً أحمر وأزرق وأبيض عُلّقت فيه ميدالية ذهبيّة تأرجحت مرّات عديدة فوق المنصّة في أثناء انحناءته.

فجأة انطلق واحدٌ من الصّبيان المصطفّين في مقدّمة المنصّة في الكلام بصوت عالٍ. كان يقول إنّ الرّبيع قد حلّ والآباء والأمّهات مبتهجون والأرض بكاملها مُبتهجة. ثمّ واصَلَ للحظة على هذا المنوال، ثمّ قاطعَتْهُ واحدةٌ من الصّبايا لتقول أشياء مُماثلة، لم يكن معناها واضحاً تماماً، لكنّها كانت تتضمّنُ الكلمات نفسها: ماما، بابا، والربيع أيضاً وأحياناً كلمة ورد. بعد ذلك، قاطعَها صبيّ آخر،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ثمّ قاطعتْهُ هو أيضاً صبيّة أخرى، ليس ممكناً القول إنّهم كانوا في شجار، بما أنّ الجميع كان يؤكّد الشيء ذاته تقريباً. أعلنَ مثلاً أحدُ الصبيان أنّ الطّفل سلامٌ. في حين قالت الصَّبية التي تلتْهُ إنّ الطفل وردةٌ. تحقّقَ الاتفاقُ، فضلاً عن ذلك، حول هذه الفكرة الأخيرة التي ردّدتْها جوقة الأطفال على نحو جماعيّ وهي تتقدّمُ ممدودة الأذرع وباقة الزهور في طرف كلّ ذراع. وبما أنّهم كانوا ثمانية، تماماً مثل عدد النساء الجالسات على شكل نصف دائرة، فإنّ كلّ واحدةٍ تلقّت باقة. عاد الصبيان إلى جوار المنصّة ومنذ ذلك الحين لاذوا بالصمت.

في المقابل، فتحَ الرجُل الواقف على المنصّة ملفّه الكبير الأرجوانيّ وشرع في القراءة بصوت عالٍ، تحدّث هو أيضاً عن الربيع والورود والبابات والمامات، تحدث كذلك عن الحبّ الذي كان في نظره يحملُ ثماراً، لكن سرعان ما شهد قاموسه تحوّلاً، إذ لم يعد يتحدّثُ عن البابا والماما، بل عن الأب والأمّ، وأحصى كلّ ما كانت تمنحهُ الدولة (للآباء والأمّهات)، مُشدِّداً أنّ عليهم، بالمقابل، لأجل خير الدولة تربية أبنائهم ليكونوا مواطنين مثاليين. بعد ذلك، أعلن أنّ كلّ الآباء الحاضرين هنا سوف يُثبّتون التزامهم الرسميّ بتوقيعهم، ثمّ أشار إلى طرف المائدة حيث كان ثمّة سجلٌّ ضخم مُمدَّدٌ في غلافه المُجلّد.

في هذه اللحظة، جاءت السيدة ذات الفستان الداكن ووقفت خلف الأمّ الجالسة في طرف نصف الدائرة، لمست كتفها، فاستدارت الأمّ وأخذت السيدةُ الرضيعَ من بين ذراعيْها. ثمّ نهضت الأمّ وتوجَّهَت نحو الطاولة. فتح الرجل ذو الوسام السجل ومدّ قلماً للأمّ. وقّعت وعادت إلى مقعدها، فأعادت لها السيدة ذات الفستان

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الداكن الرضيع. تقدّمَ الأبُ نحو الطاولة للتوقيع بدوره، ثمّ استلمت المرأة ذات الفستان الداكن الرضيع من المرأة التالية، التي اتجهت نحو المنصّة، تلاها زوجها، فأمّ أخرى وزوج آخر وهكذا دواليك إلى أن وقّع الجميع. ثم أصدرَ الهارمونيوم سلسلة جديدة من النغمات بينما كان الجالسون إلى جواري يهرعون لمُصافحَة الأمّهات والآباء. كنتُ أتعقّبُ الحركة (كما لو كنتُ أنا أيضاً أريدُ المُصافحَة) عندما سمعتُ فجأةً أحداً ينادي عليّ باسمي من بعيد: إنّه الرجل ذو الوسام الذي سألني إذا كنتُ قد عرفته.

طبعاً لمْ أعرفه وإن كنتُ انتبهتُ إليه خلال خطابه بكامله. ولئلّا أقدّم جواباً سلبياً عن السؤال المزعج قليلاً، سألته كيف كانت تسيرُ أحواله. ردّ أنّها لم تكن سيّئة، فتذكّرتُه: إنّه كوفاليك، زميلٌ في الصفّ الثانوي. وبما أنّ ملامحه اختفت من جرّاء انتفاخ في مُحيّاه، فإنّني لمْ أستعدها إلّا الآن؛ وفضلاً عن ذلك، كان كوفاليك، من بين زملاء الدراسة، دوماً ذا طابع وسطيّ، لا شهماً ولا لئيماً، لا اجتماعيّاً ولا مُنعزلاً، متوسّطاً في دراسته، كان أعلى جبهته مُزيّناً في تلك الفترة بشَعر مُسْبل، لكنّه اليوم اختفى، فقد كنتُ معذوراً إذاً في ألّا أتعرّفه للتّوّ.

سألني عمّا كنتُ أقوم به هنا، ما إذا كان لديّ أقاربُ من بين الأمّهات. أجبتُه بالنفي، وبأنّي جئتُ بدافع الفضول فقط. أخذ، وهو يبتسمُ برضاً، يشرحُ لي أنّ اللجنة الوطنيّة للمدينة بذلت قصارى الجهود لتجري الأمور بصورة خليقة حقّاً بالاحتفالات المدنيّة، وأضاف، بزهو صامت، أنّ له، هو المكلَّف بالشؤون المدنيّة، يداً في ذلك، بل لقد نال بهذه الصفة تقريظاً من قِبَل رؤسائه. سألتُه إن كان ما جرى قبل قليل تعميداً. أجابني أنّ ذلك لمْ يكن تعميداً، بل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ترحيباً بمواطنين جدُد في الحياة. كان بيّناً ابتهاجُه بقدرته على الكلام. بالنسبة إليه، ثمّة مؤسّستان كانتا تتعارضان: الكنيسة الكاثوليكيّة بطقوسها وإرثها الممتدّ ألف سنة، وفي المقابل المؤسسات المدنيّة، حيث ينبغي أن تحلّ تقاليد احتفالها الحديثة محلّ هذه الطقوس الممتدّة لألف سنة. قال إنّ الناس لن يُقلعوا عن إحياء التعميد والاحتفاء بالزواج في الكنيسة إلّا عندما ستشهدُ احتفالاتُنا المدنيّة قدراً من الرّفعة والجمال المُساوي للاحتفالات الدينيّة.

قلتُ له إنّ الأمر، وفق كلّ المظاهر، ليس في غاية السهولة. اقتنع بذلك، وادّعى أنّه سعيدٌ لكون المكلّفين بالشؤون المدنيّة أنفسهم وجدوا أخيراً قليلاً من الدعم من قِبَل فنّانينا، الذين فهموا (نتمنّى ذلك) أنّه شرفٌ كبير أن ننظّم لشعبنا دفناً وزواجاً وتعميداً (فلتة لسان تدارَكها بحيويّة قائلاً: ترحيباً بمواطنين جُدُد) اشتراكيّاً حقّاً. أمّا عن الأبيات الشعريّة، التي ردَّدها الجنود الصّغار هذا اليوم، فقد أضاف أنّها كانت في غاية الرّوعة. وافقتُه، ثمّ سألته إذا لم يكن أكثر نجاعة لتحقيق إقلاع الناس عن عادة الاحتفالات الكنسيّة أن نمنحهم، خلافاً لذلك، فرصة كاملة للتّخلّي عن أيّ احتفال.

قال إنّ الناس لن يستسلموا أبداً لحرمانهم من احتفال زواجهم ومراسيم دفن ذويهم. وفضلاً عن ذلك سيكون من المؤسف، من زاوية نظرنا (وشدّد على ضمير الجمع المتكلّم كما لوْ لإفهامي أنّه انضمّ هو أيضاً إلى الحزب الشيوعيّ) ألّا نستعملَ هذه الاحتفالات لتقريب الناس من أيديولوجيتنا ومن دولتنا.

سألت رفيقي القديم في الصفّ الثانويّ كيف كان يتصرّفُ مع

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المتمرّدين إن وُجدوا، قال إنّ هؤلاء كانوا موجودين طبعاً، إذ لم يستوعب الجميعُ بعدُ العقليّة الجديدة، ولكن إنْ هُم قاطعوا الاحتفالات، تُرسَلُ إليهم دعوةٌ تِلو أخرى، بحيث ينتهي أغلبهم على كلّ حال إلى المجيء بعد ثمانية أيام أو أسبوعيْن. سألتُه إذا ما كان الحضورُ إلى هذا النوع من الاحتفالات إجبارياً. أجاب، والابتسامة على محيّاه، بالنّفي، ولكنّ اللجنة الوطنيّة تستند إلى هذا الحضور للحُكم على وعي المواطنين ومواقفهم من الدولة، وبما أنّ الكلَّ يعي في الأخير ذلك، فإنّهم جميعاً يأتون.

قلتُ لكوفاليك إنّ اللجنة الوطنية تُعامِلُ هؤلاء الأوفياء بصرامة لا تُبديها الكنيسة تجاه المؤمنين بها. ابتسمَ وقال ليس ثمة صيغة أخرى. ثمّ دعاني إلى قضاء وقت في مكتبه. أخبرتُه أنْ لا وقت لي للأسف، إذ عليّ انتظار أحد بالمحطّة الطرقيّة. سألني أيضاً إن كنتُ التقيتُ واحداً من «الصبيان» (كان يقصد زملاء الصفّ الثانويّ). أجبتُ بالنفي، وأعربتُ له عن سعادتي بلقائه، وبأنني لن أتردّد، عندما سيكون لي طفل للتعميد، في السفر حتى هنا والاتصال به. انفجر ضاحكاً وربّت على كتفي. تصافحنا ونزلت من جديد إلى الساحة، مفكّراً أنّ أمامي خمس عشرة دقيقة قبْل مجيء الحافلة.

لم تكن الخمس عشرة دقيقة وقتاً طويلاً جدّاً. لمّا بلغتُ الساحة، عبرتُ من جديد قرب صالون الحلاقة، ألقيتُ عليه نظرة جديدة عبر الواجهة الزجاجيّة (وإن كنتُ أعرفُ أنّ لوسي غائبة ولن تكون هنا إلّا بعد الظهر)، ثم أخذتُ أتسكّع قرب المحطّة الطرقيّة مستحضراً هيلينا: وجهها تحت صبغة باهتة، شعرها الأشقر كابٍ بحكم الزمن، قدّها الذي هو أبعد ما يكون عن الرشاقة، لكنه يحتفظ بالعنصر الأوّلي الذي يسمحُ بإدراك امرأة بوصفها امرأة، كنتُ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أستحضرُ كلّ ما كان يضعها على الحافّة الموقظة للنفور والإغراء، صوتها الذي كان خشناً أكثر منه وديعاً، إيماءاتها المفرطة التي كانت تكشفُ تلهّف هيلينا، رغم تكتّمها، على أن تكون قادرة على إثارة الإعجاب.

لَمْ أر هيلينا إلّا ثلاث مرّات في حياتي، وهو ما كان قليلاً جدّاً كي تحتفظ لها ذاكرتي بصورةٍ دقيقة. كلّ مرّة كنتُ أحاولُ فيها استحضارها، كانت بعض ملامح هذه الصورة تتضخّم إلى حدّ أنّ هيلينا كانت تتحوّل لديّ باستمرار إلى صورةٍ كاريكاتوريّة. ومع ذلك، فإنّ تخيّلي غير الدقيق كان فيما أعتقد يُدرك في هيلينا عبْر هذه التحولات تحديداً شيئاً أساسيّاً يتوارَى خلف مظهرها.

ما كنتُ، هذه المرّة، عاجزاً عن التحرّر منه هو أساساً صورةُ رخاوة جسد هيلينا، وهي علامة لا فقط على تقدّم سنّها وأمومتها، بل قبْل كلّ شيء على نفسيتها (شبقيتها) العزلاء وعجزها عن الصمود (المتخفّي حقّاً خلف قدرة كلامها) ونزوعها إلى أن تكون فريسة جنسيّة. هل كانت هذه الصورة تعكسُ حقّاً جوهر هيلينا أم صلتي بها فقط؟ من يدري. سوف تصل الحافلة بين ثانية وأخرى، وقد كنتُ أريدُ أن تظهر هيلينا بالصّورة التي صاغَها استيهامي. اختبأتُ تحت سقيفة إحدى عمارات الساحة المحيطة بالمحطّة الطرقيّة، كانت لديّ رغبة في رُؤيتها لوقتٍ وجيز جاحظة العينيْن صوب جميع الجهات وقد هاجمتْها فكرةُ أنّها سافرت عبثاً ولن تراني هنا.

توَقفت حافلة صغيرة على ركام من التراب، كانت هيلينا واحدةً من أولى مَن نزلن. كانت ترتدي واقياً من المطر بلون أزرق (الياقة مرتفعة فيما هو مشدودٌ جيداً بحزام) يُضفي عليها هيأة شابّة ورياضيّة. التفتت يميناً ويساراً، ومن غير أن تظلّ حائرةً استدارت وتوجّهَت بلا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تردّد نحو الفندق الذي به نزلتُ، حيث كانت هناك غرفة محجوزةٌ باسمها.

تحققتُ مرّة أخرى أنّ التخييل كان يمنحني صورةً مُشوّهة عن هيلينا. كانت هيلينا في الواقع تتكشَّفُ دوماً، لحسن الحظ، أكثر جمالاً من تلك التي في خيالي على نحو ما تكشّفَ لي مرّةً أخرى وأنا أنظرُ إليها من الخلف بكعبها العالي في الطريق إلى الفندق. وتبعتها.

كانت قد بلغت مكتب الاستقبال مُنحنية على الكونتوار حيث كان البوابُ اللامُبالي يُثبتُ اسمها في سجلّه. كانت تتهجّى له اسمها: «زيمانيك، زي - ما - نيك...». عندما وضعَ البواب قلمه، سألْتُهُ: «هل الرفيق جان نازلٌ بالفندق؟». تقدّمتُ ومن الخلف وضعتُ يدي على كتفها.

2

كلُّ ما جَرَى بيْني وبيْن هيلينا كانَ نتيجَة حساب مُدبَّر بدِقّة. ما مِنْ شكّ في أنَّ أهدافاً لاحَت لهَا مُنذ موْعدنا الأوّل، إلّا أنّ من المُحتمَل قليلاً أنْ يكونَ ما لاحَ لها قد تجاوزَ رغبة غامضة لامرأةٍ تودّ الحفاظَ على تلقائيّتها وشِعر أحاسيسها لِتبقى نتيجة ذلك مُنشغلة قليلاً بترتيب مجْرى الأحداث والتحكّم فيها سلفاً. أمّا أنا فقد تصرّفتُ منذ البداية كمُمَثّل في المُغامرة التي سوف أعيشها وكمُخرج لها في آن، ولمْ أدَع للصُّدفة اختيارَ كلامي ولا اختيار الغرفة التي كنتُ أودّ أن أنفردَ فيها بهيلينا. كنتُ أخشى أدنى حادث يُمكنُ أن يُضيِّعَ عليّ الفرصة الممنوحة التي كنتُ أتمسّكُ بها بقوّة، لا لأنّ هيلينا كانت،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بصورة خاصّة، شابّة لطيفة وجميلة، بل لسبَب واحد ووحيد هو الاسم الذي كانت تحملهُ، لأنّها كانت مُتزوّجة بالرّجل الذي كنتُ أكره.

لمّا تمّ إخباري بمؤسّستنا ذات يوم بزيارة رفيقة تُدعَى زيمانيك، صحافية بإذاعة سمعيّة، وأنّ عليّ أن أزوِّدها بالمُستنَدات عن محور أبحاثنا، تذكّرتُ للتوّ زميلي القديم في الدّراسة، غير أنّ التطابُقَ في الاسم بدَا لي مجرَّد صدفة، وإذا كان احتمالُ استقبالها قد أغاظني، فلِدواعٍ من طبيعةٍ أخرى تماماً.

فأنا أكرهُ الصّحافيّين. هُم في الغالب سطحيّون، مهاذير، غرورُهُم لا مَثيل له. غيْر أنّ ما أفترَ حماسي أكثر هو أنّ هيلينا قدّمتْ نفسَها بوَصْفها صحافيّة في الإذاعة السمعيّة لا في جريدة. يُمكنُ للجرائد في نظري أن تستفيد من ظرف تخفيف قويّ، إذ لا ضجيج تُحْدِثه. تفاهتُها تبقى صامتة، كما أنّها لا تفرضُ نفسَها، إذ من المُمكن رَميها في صندوق القمامة. على أنّ الراديو لا يتمتّع، على تفاهته هو أيضاً، بهذا الظرْف المُخفّف، إنّه يتبعُنا إلى المقهى والمطعم، بل خلال زياراتنا لأشخاص أصبحوا عاجزين عن العيش بدون قوتِ الآذان المُستمرّ.

وحتى طريقة هيلينا في الكلام نفّرَتْني. أدركتُ فوراً أنّ آراءَها عن مؤسَّستنا وأبحاثنا كانت جاهزة، بحيث لمْ يبقَ الآن غير انتزاعها بعضَ الأمثلة الملموسة لتجسيد كليشيهات مُعادة. بذلتُ أقصى جهدي لأعَقّد مهمّتها، مُستعملاً لغة صعبة غير قابلة للفهم وحريصاً على قلب كلّ آرائها المُسبقة. وعندما لاح لي خطَرُ إقبالها، رغم كلّ شيء، على استيعاب شروحي، سعيتُ إلى الهروب إلى أمور حميمة؛ قلتُ لها إنّ شقرة شعرها كانت تُناسبُها للغاية (كنتُ أعتقِدُ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

العكس تماماً)، سألتُها عن عمَلها في الإذاعة، عن قراءاتها المُفضَّلة. وانتهيتُ في تأمّلٍ صامت، خلال نقاشنا، إلى أنّ التطابُقَ في الاسم لم يكن عرَضيّاً بالضرورة. إنّ لهذه الصحافية المُتشدّقة، المُتهيّجة، الوصوليّة، فيما بدا لي، شَبَهاً مع ذلك الشخص الذي عرفتُه هو أيضاً متشدّقاً، مُتهيّجاً، وُصوليّاً. وبنبرةِ غزَل خفيفة سألتُها عن زوْجها. كانت الطريقُ مُعبَّدة، إذ بسؤالين أو ثلاثة تحققتُ بيقين من هُويّة بافيل زيمانيك. عليّ أن أقول إنّي لمْ أفكّر، في تلك اللحظة، في التقرّب منها بالطريقة التي حدثت فيما بَعْد. على العكس: النفور الذي استشعرتُهُ تجاهها منذ دخولها ازداد بعد اكتشافي فقط. وأخذتُ فجأةً أبحثُ عن ذريعة تُتيحُ لي قطْعَ الحوار مع الصحافيّة اللّحوح وذلك بإحالتها على زميل، بل كنتُ أفكّرُ في الانتشاء الذي سوْف أشعرُ به إنْ أنا طردتُ هذه المرأة التي لا تكُفّ عن الابتسام، وكان الندّم يُساورني لاستحالة القيام بذلك.

ولكن، في اللحظة ذاتها التي أصبحتُ فيها أكثر ضجراً، أبْدَتْ هيلينا حركاتٍ أنثويّة تماماً، استجابةً للنّبرة الحميمة لأسئلتي ومُلاحظاتي (ذات الوظيفة الاستقصائيّة الصِّرف التي لا يُمكنُ أن تَظهرَ لها) حتّى إنّ ضغينتي تغلّفت فجأةً بلون جديد: فميّزتُ تحت قناعِ تصنّع هيلينا المِهنيّ امرأةً جديرةً بأن تُؤدّي دورَ امرأة. كنتُ في البدْء اعتقدتُ، في تهكّم باطنيّ، أنّ زيمانيك استحقّ فعلاً مثل هذه الزوجة التي كانت عقاباً كافياً له، لكن سرعان ما لزمَني أن أستدرك تقريباً: إنّ هذا الحُكمَ المُتعجرف كان ذاتيّاً للغاية، بل مقصوداً بقوّة، ذلك أنّ هذه المرأة كانت بلا شكّ جميلة تماماً، ولا شيء كان يُجيزُ الاعتقاد أنّ بافيل لمْ يَعُد اليوم يعتبرُها عن طيب خاطر امرأة. كنتُ أمدّدُ الدّعابة مُجامَلةً، دون أن أظهِرَ ما كنتُ أفكّرُ فيه. لا أدري ما

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان يدفعني، أقصى ما يُمكن، إلى متابعة اكتشاف ملامحَ أنثويّة لدى الصحافية الجالسة أمامي، وكانت هذه المُتابَعة تُحدّدُ مجرى حديثنا.

إنّ توسّطَ امرأةٍ قابلٌ أن يَبُثّ في الكراهيّةِ بعضَ الملامح المُميّزة للاستلطاف، مثل الفضول، الجدوى الجسديّة، رغبة اختراق عتبة الحميميّة. وقد أفضَى بي ذلك إلى نوْعٍ من الوجد. كنتُ أتخيّلُ زيمانيك وهيلينا وكلٌّ عالمهما (كان عالَماً شديدَ الغرابة بالنسبة إليّ)، وبنشوة مُتفرِّدة، كنتُ ألامسُ ضغينتي (ضغينة مُجامِلة، ناعمة تقريباً) تجاه مظهر هيلينا، ضغينة تجاه شَعرها الأشقر، تجاه عينيْها الزرقاويْن، تجاه هُدبيْها المُشذبيْن على نحو رقيق، ضغينة تجاه وجهها المُستدير، تجاه أنفها الشّهوانيّ، ضغينة تجاه التباعد الخفيف بين قواطعها، ضغينة تجاه امتلاء الجسد النّاضج. كنتُ أنظرُ إليها كما يُنظَرُ إلى النساء المحبوبات، كنتُ أنظرُ إلى كلٍّ تفصيل كما لوْ لِتَرْكيبه في ذكرياتي، ولكيْ أخفي اهتمامي الحاقد، كنتُ أختارُ كلماتٍ خفيفة أكثر فأكثر، ودودةً أكثر فأكثر، بحيث أصبحتْ هيلينا أنثويّة أكثر فأكثر. لم أستطع إبعادَ التفكير في أنّ فمَها وثدييْها وعينيْها وشَعرها تخصّ زيمانيك، وكنتُ، في سريرتي، أمسكُ بكلّ ذلك، ألامسُهُ، أختبرهُ، كنتُ أحاولُ أن أحدّد هل سيكون مُمكناً الضغطُ عليه بيْن راحتَي بشدّة أو سَحْقه على جدار، ثم كنتُ أنظرُ إلى ذلك كلّه مرّةً أخرى بانتباه، مُحاولاً النظر إليْها بعيْنيْ زيمانيك ثمّ بعيني من جديد.

لربّما عنّت لي فكرة، وإن كانت مُتعذّرة التنفيذ وغير عمليّة تماماً، أنّ بمقدوري اقتيادُ هذه المرأة من شطّ حديثنا المغناج إلى السّرير. غير أنّ الفكرة كانت من تلك الأفكار التي تُومضُ في الرأس ثم تنطفئ. أعلنتْ هيلينا عن شُكرها لي على إفادتي وعن كونها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سوف تلومُ نفسها إنْ هي أمْسَكتْني وقتاً أطول. استأذن كلٌّ مِنّا من الآخر، وكنتُ سعيداً لانصرافها. كان الحماسُ الغريبُ قد خبَا ولم أعُد أشعرُ تجاه هذه المرأة إلّا بالنّفور الذي ساوَرَني قبْل قليل، وبدا لي مُؤسفاً أن أكونَ قد أفرطتُ في إبداء إشاراتٍ مُباشِرة تُعربُ عن الاهتمام والودّ (حتى وإن كانت مُراوغة).

كانت الأمورُ سوف تبقى عند هذا الحدّ لولا أنّ هيلينا اتصلت بالهاتف بعد بضعة أيام تطلبُ موعداً. من المُمكن أن تكون حقّاً قد شعرَت بالحاجة إلى أن تعرضَ عليّ نصَّ برنامجها، ومع ذلك أحسستُ فوراً أنّ اتصالها مجرّد ذريعة، وأنّ النبرةَ التي بها كانت تُحدّثني تنتسِبُ إلى الجانب الخفيف والودّي من حوارنا الأخير أكثر من انتسابها إلى الجزء الجدّيّ والمهنيّ. تبنّيْتُ فوراً هذه النبرة دون تفكير ولمْ أعُدْ أتخلّى عنها. التقيْنا بالمقهى، وبقيتُ غير مكترث، على نحْو جليّ، لكلّ ما يتعلّقُ بما دوّنتْهُ على وَرَقتها، وتغاضيتُ بلا حشمة عمّا كانت تهتمّ به بوصفها صحافية. حيّرَها موقفي، ولكنّني لاحظتُ في الآن نفسه أنّني بدأتُ أسيْطرُ عليها. اقترحتُ عليها نزهة خارج براغ. اعترضَت وذكّرَتني أنّها مُتزوّجة. لا شيء يُمْكنه أن يُبهجني أكثر من هذه الطريقة في التصدّي. توقفتُ عند اعتراضها الغالي بالنسبة إليّ، كنتُ أتسلّى به، أمزحُ بشأنه، وأخيراً كانت في غاية السعادة لِتمَكّنها، بقبول الدعوة، من التخلّص من هذا الموضوع. بعد ذلك، كلّ شيء سارَ خطوةً خطوةً وفق خُطّتي. وهو ما كنتُ حلمتُ به بقوّةٍ خمس عشرة سنة من الضّغينة، وكنتُ أشعرُ بيقين غامض أنّ ذلك سوف ينجحُ ويتحقّق.

أجل، كانت الخُطّة تتحقّقُ على نحو جيّد. أخذتُ حقيبة هيلينا الصّغيرة من قرب مكتب الاستقبال، وصعدتُ برفقتها حتى غرفتها،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

التي كانت أيضاً رديئة مثل غرفتي. وهو ما اضطرّت هيلينا إلى الإقرار به رغم ميْلها الغريب إلى استحسان كلّ الأشياء حتى وإن لمْ تكن كذلك في الواقع. قلتُ لها بألّا تقلق بهذا الشأن وأنّنا سوف نعرف كيف نتصرّف. رمَقتْني بنظرةٍ مُثقلة بالمعاني. وقالت فيما بعد إنّها تودُّ أن تتزيّن قليلاً، أجبْتُها أنّها فكرة جيّدة، وأنّني سأنتظرُها في ردهة الفندق.

لمّا نزلتْ (كانت ترتدي تحت معطفها المفكوك الأزرار تنّورةً سوداء وكنزة ورديّة)، استطعتُ أن أقرَّ مرّةً أخرى بأناقتِها. قلتُ إنّنا سوف نذهبُ لتناوُل وجبة الغذاء في مطعم مُتواضع، إلّا أنّه الأفضل في هذا المكان. قالت بما أنّي وُلدتُ هنا، فإنّها سوف تُسْلِمُ نفسَها لي وتُذعن لكلِّ شيء (كان بادياً اختيارها مُعجَماً ذا معنى مُضاعَف نوعاً ما؛ وكان هذا الاستعمال مُضحكاً بقدر ما كان مُبهجاً). اتّخذنا طريقي الصّباحيّة التي قطعتُها حين كنتُ أبحثُ عبثاً عن مطعم لتناوُل وجبة فطور جيّدة، أعربتْ هيلينا في مناسبات عديدة عن فرحتها بتعرّفها مدينتي، ولكنّها لمْ تكن، حتى وإنْ لمْ يسبق لها أن زارتْها، تنظرُ إلى ما حولها، لم تهتم بما يُؤويه هذا الصّرح أو ذاك كما يتعيّنُ على زائر مدينة يجهلها أنْ يفعل. كنتُ أتساءَلُ إذا ما كانت هذه اللامبالاة صادرة عن تصلّب روحٍ لمْ تَعُد تُحسُّ بالفضول العادي أم أنّ هيلينا لمْ تَعُد مُنشغلة بأيّ شيءٍ آخَر بعد تركيز اهتمامها تماماً عليّ؛ كنتُ أودّ تصديقَ الافتراض الثاني.

مررْنا قرب التمثال الباروكي؛ حيث كان القدّيسُ يسندُ السحابةَ، والسحابةُ الملاكَ، والملاكُ سحابة أخرى، وهذه تسنُدُ ملاكاً آخَر، كانت زرقة السّماء أشدّ ممّا كانت عليْه في الصّباح، نزعَت هيلينا معطفها الواقي، وَضعتْهُ على ذراعها وقالت إنّ الجوّ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حارّ، كانت هذه الحرارة تُقوّي أيضاً الإحساس اللّجوجَ بالفراغ المُغبرّ، كان التمثالُ مُنتصباً في وسط الساحة مثل شَظِيّة من السّماء ليس بمقدورها العودة إلى أصْلها، فقلتُ في نفسي إنّنا أيضاً نحنُ الاثنيْن قد ألقِيَ بنا في هذه الساحة القاحلة على نحو غريب، بحديقتها ومطعمها، ألقِيَ بنا نهائيّاً، وبينما كانت أفكارُنا وأحاديثنا ترتقي الأعالي ببهاء، كانت تصرّفاتُنا خسيسة مثل هذه الأرض ذاتها.

أجل، لقد هاجَمَني بقوّة الإحساسُ بخسّتي؛ كنتُ مُنذهلاً من ذلك، لكنّني انذهلتُ أكثر من عدم انزعاجي وقبولي هذه الخسَّة بلذة، بل بابتهاج وارتياح، وضاعفَ هذه اللذةَ اليقينُ بأنّ المرأة التي كانت تسيرُ إلى جانبي تركت نفسَها مُنقادَةً نحو الساعات غير المُؤكَّدة لِما بَعْد الظهر بدوافعَ كانت بالكاد أرقى من دوافعي الشّخصيّة.

كانَ المطعمُ قد فتحَ أبوابَهُ، لكنّ قاعة الأكل فارغة: لمْ تكن الساعة قد بلغت سوى الثانية عشرة إلّا رُبعاً، الطاولاتُ مُهَيَّأة وأمام كلّ مقعدٍ صَحْنُ حساء مغطّى بمنشفة ورقيّة تشابكت فيها ملعقة وشوكة وسكّين. لمْ يكن بالقاعة أحد. أخذنا مكاناً بإحدى الطّاولات، أمسكنا الملعقة والشوكة والسكّين والمنشفة ووضعناها على جانبَي الصحن وبقينا ننتظر. بعد بضع دقائق، ظهرَ نادلٌ بباب المطبخ، أجالَ للحظةٍ نظرةً كسلى حوْل القاعة، وقد تأهَّبَ للانصراف.

ناديتُه: «أيّها النادل!»

استدار وتقدّم نحو طاولتنا. ومن على بُعد خمس خطواتٍ أو ستّ، قال: «أتريدون شيئاً؟ - نُريدُ أكلاً»، قلت. أجابَ: «ليس قبْل الثانية عشرة!»، واستدار مرّةً أخرى مُتوَجّهاً نحو ملجَئه. «أيّها النادل!»، ناديتُ من جديد. التفت، فقلتُ له: «من فضلك، وقد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اضطررتُ إلى رَفعِ صوتي بسبب المسافة، هل لديكم فودكا؟ - لا، لا نتوفّرُ على فودكا. - إذاً، ماذا يُمْكنُ أن تُقدِّم لنا؟ - خمر العرعر، أجابَ من بعيد. - إنّه رديءٌ، صحتُ، أحْضِر لنا كأسيْن!».

قلتُ لهيلينا: «لمْ أسْألك إن كنتِ تتناوَلين خمرَ العرعر».

أخذت تضحك: «لا، ليس من عادتي!

- لا عليك، قلت، سوف تتعوَّدين على ذلك. فأنتِ في مورافيا، وخمر العرعر هو المُفضّلُ لدى سكّان مورافيا.

- ومنذ الصباح الباكر! قالت مُتعجّبة بابتهاج تامّ. لا شيء بالنسبة إليّ يُضاهي مطعماً صغيراً لا تكلّف فيه، حيث يلتقي السّائقون والخرّاطون، وفيه تُؤكَلُ وتُشربُ أشياءُ عادية تماماً.

- لربّما لك عادة صبّ كأس من الرّوم في كوب الجُعّة؟

- ليس الأمْرُ تماماً كذلك! قالت هيلينا.

- ولكنَّك تُحبّينَ الأمْكنة الشَّعبيّة.

- هذا صحيح، أنا أكرهُ الحانات الأنيقة وتلك الرهوط من الخدم بسلسلةِ صحونهم.

- أتّفقُ معك تماماً، لا شيءَ يُساوي حانة صغيرة، حيث النّادلُ لا يعرفك، مكانٌ دخنانٌ تُشتمُّ فيه رائحة رديئة! وبوَجهٍ خاصّ، ليس ثمّة ما هو أفضل من خمر العرعر. عندما كنتُ طالباً لم أكن أتناولُ سواه.

- أنا أيْضاً أحبُّ الوجبات البسيطة جدّاً؛ فطيرة من البطاطس أو نقانق بالبصل، لا أعرفُ ما هو أفضل من ذلك...».

لديّ بشأن هذا الأمْر ارتيابٌ راسخ؛ إذا أفْضَى إليّ أحدٌ بما يُحبّ أو بما لا يُحبّ، لا لآخذ كلامَهُ على محمل الجدّ، أو بتعبير

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أدقّ، لا أرى في ذلك إلّا دليلاً على الصّورة التي يَودُّ تقديمَها عن نفسِه. لمْ أصدِّق ولو للحظةٍ واحدة أنّ هيلينا كانت تتنفّسُ بابتهاج في الأماكن القذِرة التي لها جوٌّ مُماثل، مُفضّلة إيّاها على المطاعم النظيفة والمُكيَّفة بصورةٍ مُلائمة، أو أنّها كانت تُفضِّلُ خمراً رديئاً على خُمور جيّدة. وهذا لا يمنعُ أنّ جهرَها برأيها كان ذا قيمةٍ في نظري، فقد كشفت فِعْلاً ميْلها إلى تصنّعٍ تمَّ تجاوُزُهُ منذ زمن طويل، كان قد ازدهر في سنواتِ الحماس الثوريّ، حيث كان المرءُ يبتهجُ بكلِّ ما هو «عادي»، و«شعبيّ»، و«بسيط»، و«ريفيّ»، وكان يُبْدي استعداداً للازدراء بكلِّ أشكال «الترف»، و«الأناقة». كنتُ أتعرَّف في هذا التصنُّع مرحلةَ شبابي، وفي هيلينا كنتُ أتعرّف زوجةَ زيمانيك قبْل كلّ شيء. أخذ خمولي الشارد لهذا الصّباح يتلاشى، وبدأتُ في التركيز.

ظهرَ النادل من جديد بصينيّةٍ صغيرة عليها كأسان من خمر العرعر، وضعَها على الطاولة ووضعَ في الآن نفسه ورقة مرقونة حيث تُقرأ (بصعوبة، إذ كانت النسخة الألف) قائمة الطّعام.

رفعتُ كأسي قائلاً: «هيّا، لِنشرب نخب خمر العرعر، هذا الشراب الشّعبيّ!».

ضحكت، وقرعت بكأسها كأسي، مُعلِنة حينها: «لقد كان لديّ دوماً الحنينُ إلى شخصٍ بسيط ونزيه، لا تصنّع فيه، شخص شفّاف».

أخذنا جرعة، فقلت: «أمثال هذا الشخص نادرون.

- لكنّنا نُصادفهم، قالت هيلينا. وأنتَ واحدٌ مِنهم.

- أتعتقدين ذلك؟ قلت.

- أجل، أجل».

تمَلّكني الذهولُ أمام قدرةِ الإنسان الخارقة على إعادةِ صوْغ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الواقع على صورةِ مَثله الأعلى، ولكنّني لمْ أتردَّد ووافقتُ على تأويل هيلينا لِشَخصي.

«مَنْ يدري. من المُمكن، قلت. نزيه وشفّاف. لكن ماذا يعني ذلك؟ المهمّ أن يكون المرءُ كما هو، ألّا يخجلَ من إرادةِ ما يُريدُه، ومن الرّغبة في ما يرغبُ فيه. النّاسُ مُكبَّلون بالضوابط. أحدٌ ما قال لهم إنّ عليهم أن يكونوا على هذا المنوال أو على ذاك. لذلك يجهدون في الإذعان له، ولا يُدركون أبداً ما كانوا ولا مَنْ هُم. والنتيجة أنّهُم لا أحد. يتعيّنُ على المرْء، أكثر من أيّ شيءٍ آخَر، أن يَجرؤ على أنْ يكونَ نفسَه. أعلنُ لك، يا هيلينا، أنّك منذ البدء تروقينني وأرغبُ فيك، حتى وأنتِ مُتزوّجة. لا يُمْكنني أن أقول لك ذلك بطريقةٍ أخرى كما لا يُمكنني إلّا أن أقولَه».

ما كنتُ أقولهُ كانَ مُزعجاً، لكنّهُ ضروريّ. فتوْجيهُ تفكير المرأة ذو قواعد صُلبة، ليس لِمَنْ يضعُ في حسبانه إقناع امرأةٍ ودحضَ وجهة نظرها اعتماداً على حُجَج وَجيهة سوى حظوظٍ ضئيلة في بُلوغ مرامه. لذلك من النبّاهة مُلاحظة الصورة التي تُريدُ هي تقديمَها عن نفسِها (مبادئها، مُثلها، قناعاتها)، ثمّ مُحاوَلة إقامةِ صِلة (على نحو صوفيّ) مُنسَجمة بيْن هذه الصورة والسّلوك الذي نُريدُ أن نراها عليه. مثلاً، كانت هيلينا تُبجّلُ «البساطة»، و«الطبيعيّ»، و«الشّفافيّة». وقد كانت هذه المُثل صادرةً عن الطّهرانيّة الثوريّة القديمة ومُتداخلة مع فكرةِ الإنسان «الطّاهر»، «بدون وصمة»، المُنغلق والصّارم أخلاقيّاً. وبما أنّ عالَمَ مبادئ هيلينا لمْ يكن ينهضُ على تفكير، بل (كما هي الحال بالنّسبة إلى أغلب النّاس) على بعض المُقتضَيات من غيْر رابطٍ منطقيّ، فإنّه لمْ يكن ثمّة أسهل مِن رَبْط صورةِ «شخصٍ شفّاف» بسُلوكٍ لا أخلاقيّ تماماً، وبذلك مَنْعُ السّلوك المُتوَخّى من هيلينا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

(الخيانة الزوجيّة) من الدّخول في تعارُضٍ مُؤذٍ مع مُثلها. للرّجُل الحقّ في أن يُريدَ ما يشاءُ من المرأة، لكنْ إنْ هو أرادَ ألّا يتصرَّفَ مثل شخصٍ فظّ، عليْه أنْ يلجأ إلى طريقةٍ تجعلُهُ قادراً على التّصرّف بانسجام مع أوْهامها الأكثر غوْراً.

في أثناء هذا الوقت، أخذ الزبائن يصلون واحداً تِلوَ الآخَر، وشغلوا مُعظم الطّاولات. قام النّادلُ، الذي ظهَرَ من جديد، بدورة سائلاً عن الطّلبات. كنتُ قد مرّرتُ قائمة الطّعام إلى هيلينا. فأعادتْها إليّ قائلة إنّني كنتُ أدرَى منها بالمطبخ الموراڤي.

لمْ يكن مُجدياً طبعاً معرفة ما في المطبخ الموراڤي، ذلك أنّ قائمة الطّعام لمْ تكن تختلِفُ في كلمةٍ واحدة عن كلِّ المطاعم الأخرى التي من هذا الصّنف، وكانت تشتملُ على لائحة مُختصرة لبعض الأطباق المتداولة بكثرة التي لا تدري أيّها تختار. كنتُ أتفحّصُ (بحزن مُبهم) القائمة، غير أنّ النادل كان هنا نافد الصّبر، منتظراً الطّلب.

قلتُ له: «لحظة من فضلك.

- منذ ربع ساعة كنتما تودّان تناوُل طعامكما، ومع ذلك لمْ تُحدِّدا اختياركما بعد!»، قال مُستنكراً واستدار على عقبيه.

لحسن الحظ سرعان ما عاد، فاضطررنا لطلب طبقيْن من اللحم المفروم وكؤوس أخرى من خمر العرعر وماء غازيّ.

أعلنت هيلينا (وهي تمضغُ) روعةَ (كانت مفتونة بهذا النعت) أنْ نجد نفسيْنا جالسيْن فجأةً في مدينة لمْ تكن تعرفها، وكانت تحلمُ دوماً بزيارتها عندما كانت ضمن مجموعة فوسيك، التي كانت تُغنّي ألحان هذه المنطقة. قالت أيضاً إنّ الأمْرَ سيّئٌ بلا شكّ، لكن ليس بمقدورها فعل أيّ شيء، وهي سعيدة بجواري، فالأمرُ أقوى منها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أجبتُ أنّ خجلَ المرء من مشاعره نفاقٌ مُقزِّز. ثم ناديتُ النادل لتسديد الحساب.

خارج المطعم، كان التمثالُ الباروكيّ منتصباً أمامنا. بدا لي مُضحكاً. أشرتُ إليه بأصبعي قائلاً: «انظري يا هيلينا إلى هؤلاء القدّيسين البهالين! انظري كيف يتسلّقون! إلى رغبتهم في الصّعود إلى السّماء! والسماء غير مكترثة لهم! السماء تجهلُ حتى إن كانوا موجودين، مساكين هؤلاء المزارعون المُجنّحون!

- إنّها الحقيقة، أكّدت هيلينا وقد ضاعفت الرّيحُ لديها مفعولَ الكحول. ماذا تفعلُ هنا تماثيل القدّيسين هذه؟ لِمَ لا يتمّ عوضها تشييد نصْب لتمجيد الحياة لا تمجيد الدين؟». لا بدّ أنّها كانت لا تزال تحتفظ ببذرة صحو ما دامت قد أضافت: «هل أهذي؟ قل إنّني أهذي!

- كلاّ، أنتِ لا تهذين يا هيلينا. أنتِ على حقّ تماماً. الحياةُ جميلة ولا نحتفي بها أبداً بما يكفي.

- أجل، قالت. يُمكنُ للنّاس أنْ يقولوا ما يشاؤون، فالحياةُ رائعة، ثمّ إنّ لي من التّعاسة ما يُرعب، وإذا أنا شئتُ أن أشكو، فإنّ دوافعي تفوقُ أيّاً كان، غير أنني أتجنّبُ ذلك، لِمَ الشكوى، لنعترف عندما يحدث أن نحظى بيوم مثل هذا، إنّ الأمرَ في غاية الرّوعة: مدينة لمْ يسبق لي أن زُرتها وبصحبتك...»

واصلتْ هيلينا حديثها وسرعان ما بلغنا بناية جديدة.

قالت هيلينا: «أين نحن؟

- إنّ هذه الحانات مُضجرة. أقترح عليكِ حانة صغيرة مُتميّزة، هي عندي في هذا المنزل. هيّا، تعاليْ!

- إلى أين تقودني؟ احتجّت هيلينا وهي تتبعني بمدخل العمارة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إلى الحانة الخاصّة الحقيقيّة، ذات النّمط الموارفيّ. ألا تعرفينها؟

لا.»، قالت هيلينا.

بالطّابق الثالث، فتحتُ الباب ودخلنا.

3

لمْ تتوقّف هيلينا بتاتاً عند كوني أقتادُها إلى شقّة مُستعارَة، ولم تكن بحاجة إلى أيّ تعليق. على العكس، لمّا اجتزْنا العتبة، بَدَت عازمة على الانتقال فوْراً من لعبة الغنج الملتبسة إلى هذا التصرّف الذي لم تكن له سوى دلالةٍ واحدة، الاعتقاد بأنّه ليس لعباً، بل هو الحياة ذاتها. توقفتْ وسط الغرفة، نصفَ مُلتفتة نحوي، وأطْلعَتْني نظرَتُها أنّها لمْ تعُد تنتظرُ سوى دنُوّي وقُبلتي وعناقي. في تلك اللحظة، كانت تماماً هيلينا أحلامي: منزوعة السّلاح تحت رحمتي.

ذهبتُ إليها، رفعتْ وجهها نحوي، وعوض تقبيلها (المُنتظَر بلهفة)، ابتسمتُ وأخذتُ بين أصابعي كتفَيْ معطفها الأزرق الواقي. فهمتْ قصدي وفكّت أزرارَه فحملتْه إلى المدخل وعلّقتْه على المشجب. والآن بعد أن أصبحَ كلُّ شيءٍ مُهيَّأ (اشتهائي واستسلامها)، لم أشأ التسرّع والمُجازفة لربّما، بدافع العجلة، بفقدان عُنصُرٍ منْ كاملِ ما كنتُ أريدُ امتلاكَه. شرعتُ في الكلام عن أيّ شيء، واجتذبتُها إلى الجلوس، وأطْلعتُها على كلِّ تفاصيل الشّقة، ثمّ فتحتُ الدولاب حيث كانت زجاجة الفودكا التي أثارَ كوستكا أمس انتباهي إليها، وضعتُها على الطّاولة الصغيرة مع كأسيْن صغيرتين وملأتهما.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قالت: «سوف أسكر.

- سنسكر نحنُ الاثنيْن»، قلت (رغم أنّني كنتُ أعرفُ أنّني لن أسكر، فقد قرّرتُ الاحتفاظَ بكامل وَعيي).

لمْ تنبسط أساريرُها، شربت بصرامة وقالت: «تعلمُ يا لودفيك أنّه سوف يُؤلمني كثيراً أن تعتبرَني واحدةً من أولئك النّساء الطيّبات اللواتي تعجّ ذاكرتهنّ بالمُغامرات بسبب نكد حياتهنّ. أنا لستُ ساذجة وأعلمُ أنّكَ عرفتَ نساء عديدات علّمْنك النّظرَ إليهنّ بدون احترام. أمّا أنا فسأكونُ تعسة...

- أنا أيضاً سأكونُ تعِساً إن أنتِ كنتِ لستِ إلّا واحدةً من أولئك النّساء، تَقبلين باستخفاف أيَّ مُغامرةٍ تُبعدك عن زوجك. إذا كنتِ مثلهنّ، فإنّ لقاءَنا سوف يفقدُ كلَّ معناه.

- أصحيحٌ ما تقول؟

- أجل، يا هيلينا. أنتِ على حقّ، لقد عرفتُ نساء عديدات وعلّمْنني ألّا أخشى مُبادلتَهُنّ الاستخفاف، غير أنّ لقاءَنا، بالنسبة إلينا، شيءٌ آخر.

- أنتَ لا تقولُ ذلك لمُجرّد الكلام؟

- أجل، لمّا رأيْتكِ لأوّل مرّة، انتبهتُ توّاً أنني كنتُ أنتظركِ منذ سنوات، أنتِ تحديداً.

- لستَ مُتشدّقاً على كلِّ حال! لمْ تقُل ما قلتَهُ وأنتَ لا تشعُر به.

- أنا واثقٌ مِمّا أقول، أنا لا أتصنَّعُ في أحاسيسي، بل هي الشيء الوحيد الذي لمْ تنجح النّساء إطلاقاً في تلقينه لي. وأنا لا أكذب عليك يا هيلينا حتى وإن بدا الأمرُ قليلاً غيرَ قابل للتصديق:

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بلقائِكِ، تأكّدتُ أنّك أنتِ مَنْ كنتُ أنتظرها منذ زمن بعيد. كنتُ أنتظرُك مِن غير أنْ أعرفك. وأنا الآن أريدك لي. فالأمْرُ حتميٌّ كالقدَر.

- يا إلهي»، قالت هيلينا. خفضت عينيْها، كانت الحُمرةُ تعلو أجزاء من وجهها، وكانت أكثر فأكثر هيلينا التي في أحلامي: منزوعة السّلاح تحت رحمتي.

«لو أنّكَ تعرفُ يا لودفيك! الأمرُ نفسُه بالنّسبة إليّ! لقد أدركتُ فور رُؤيتك لأوّل مرّة أنْ لا علاقة للأمر بمُغازَلة، وهو تحديداً ما أخافني، لأنني مُتزوّجة، وكنتُ أدرك أنّ كلَّ ما جرى بيننا كان حقيقيّاً، أنّك كنتَ حقيقتي ولا يدَ لي في ذلك.

- أنتِ أيضاً، يا هيلينا، أنتِ حقيقتي»، قلتُ لها.

كانت جالسة على الأريكة تنظرُ إليّ مُوسِّعة عينيْها بينما كنتُ على المقعد المُقابل أرنو إليها بلهفة. وضعتُ يدي على ركبتها، ثمّ ببطء رفعتُ تنّورتها حتى كشفتُ عن حدّ الجوارب الطويلة والرباطات المطّاطة التي كانت على فخذيها السميتيْن المُثيرتيْن لِما لا أدري من حزن وبُؤس. بقيَت هيلينا جامدة وأنا ألمسُها، من غير حركة ولا نظرة.

- آه، لو كنتَ تعلمُ كلَّ...

- لو كنتُ أعلمُ ماذا؟

- كيف أعيش.

- كيف تعيشين؟

- تنهّدَت بمرارة.

خشيتُ فجأةً أن تُخرجَ الذريعة التافهة للزوجات الخائنات، مفترية على زواجها، وأن أؤدّي الثمن في اللحظة ذاتها التي أصبحتْ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فيها فريستي: «لن تقولي إنّك تعسة في بيتك وإنّ زوجك لا يتفهّمك!»

دافعَت هيلينا عن نفسِها مُضطربة قليلاً أمام هجومي: «لمْ أرد قوْل ذلك وإنْ. . .

- وإنْ كنتِ تُفكّرين اللحظة في ذلك. كلُّ امرأة تُفكّرُ في ذلك عندما تجدُ نفسَها على انفراد مع رجُلٍ آخَر، ولكن هُنا تحديداً يبدأ الكذب، في حين أنتِ تُريدين يا هيلينا أنْ تبقيْ صادقة، أليس كذلك؟ من المؤكَّد أنّكِ قد أحببْتِ زوجَك، لمْ تَقبَلي الارتباط به بدون حُبّ.

- أجل، اعترفَت بهُدوء.

- أيّ نوع هو، في العُمق، زوجك؟»

هزّت كتفيْها وابتسمت: «رجُل.

- هل مرَّ وقتٌ طويل على تعارفكما؟

- ثلاث عشرة سنة من الزّواج، وكُنّا مُرتبطيْن من قبْل.

- لمّا كنتُما بعدُ طالبيْن؟

- أجل، في السنة الأولى من الدراسة. . .»

أرادتْ تعديلَ تنّورتها فأمْسكتُ بيديْها ومنعتُها. واصلتُ استفسارَها: «وأين التقيتِ به؟

- في التداريب الموسيقيّة للمجموعة.

- للمجموعة؟ أكان زوجك يُغنّي في الجوقة؟

- أجل، مثلنا جميعاً.

- هكذا، في مجموعة غناء تعارفتُما. . . إنّه سياقٌ جيّد لحُبٍّ وليد.

- آه، أجل.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- وفضلاً عن ذلك، كانت هذه الفترة بكاملها جميلة.

- هل تُحبُّ أنتَ أيضاً تذكُّرَها؟

- إنّها أجملُ فتراتِ حياتي، ولكن أخبريني، هل كانَ زوجك حُبَّك الأوّل؟»

اعترضت: «لا أرغبُ إطلاقاً في تذكّره!

- هيلينا، أريدُ أنْ أعرفك. أودُّ، مُنذ الآن، معرفة كلِّ شيء عنك. كلّما رأيتُك بوُضوح أصبحتِ لي. إذاً، هلْ كنتِ تعرفين أحداً قبْله؟»

حرّكت رأسها: «أجل».

قلّصَ اقترانُ هيلينا في مقتبل شبابها برجُلٍ من أهمية تماهيها مع زيمانيك، وهو ما كاد يُثيرُ خيْبتي: «أكان حُبّاً حقيقيّاً؟»

حرّكت رأسها: «كانَ فضولاً أحمق.

- إذاً حبُّك الأوّل كان، مع ذلك، هو زوجك.

- أجل، وافقت، ولكن ذلك قديمٌ جدّاً.

- كيف كانت هَيْأتُهُ؟ ألحَحْتُ بصوتٍ خفيض.

- لِمَ تُلحّ على معرفة ذلك؟

- لأنّني أريدُك كاملة، بكلِّ ما لديك في هذا الرأس!» وداعبتُ شَعرها.

إذا كان ثمّة شيءٌ يَمنعُ امرأةً مِنْ أن تحكي عن زوجها لعشيقها، فنادراً ما يكونُ المانعُ هو النّبل أو اللطف أو الوقار الأصيل، بل مُجرّد الخوف من مُضايقة العشيق. وعندما يُزيلُ العشيقُ هذا الخوف، فإنّ عشيقته تصبحُ مُمتنّة له، تشعرُ بنفسها أكثر ارتياحاً، خصوصاً أنّ ذلك يُتيحُ لها ما تتحدّثُ فيه، فمواضيع الحديث المُمكنة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لا حدّ لها، والحديث عن الزوج يمنحُ المرأةَ المُتزوّجة الموضوعَ المنشود، فيه فقط تشعرُ أنّها واثقة من نفسها، هو الموضوع الوحيد الذي تتناوله عن تجربة، فكلّ إنسان، في نهاية المطاف، يكونُ سعيداً بأن يَظهرَ بوصفه خبيراً وأنْ يزهوَ بذلك. هكذا، عندما طمْأنتُها أنّ ذلك لنْ يُضايقني، شرعتْ هيلينا في الحديث عن بافيل زيمانيك، مأخوذةً بالذكرى إلى حدّ أنّها لمْ تُلحق بصورته الشخصيّة أيّ لطخةٍ سوداء، حكتْ لي كيف أغرمت به (بهذا الفتى الأشقر الذي كان نزيهاً)، وأيّ تقدير أوحى به إليها عندما أصبح مسؤولاً سياسيّاً عن مجموعتِنا، وكم كانت هي وصديقاتها مُعجباتٍ به (كان بارعاً في الحديث)، وكيف أنّ قصّة حُبّهما كانت تتماهَى في تناغُم مع كلّ تلك الفترة التي دافعتْ عنها بعبارتيْن أو ثلاث (هل كان يُساورنا أدنى شكّ في أنّ ستالين قد صفّى شيّوعيّين أوفياء؟)، لا بقصْدِ الاستطراد في الموضوع السياسيّ، بل لأنّها كانت تشعُرُ أنّها هي نفسها جُزءٌ من هذا الموضوع. الطريقة التي بها كانت تُدافعُ عن المرحلة وتتماهَى بها معها (كانت تتحدّثُ عنها كما لوْ كانت تتحدّثُ عن بيْتٍ أسريّ مفقود) أخذتْ تقريباً هيأةَ تظاهرة صغيرة، كما لوْ أنّ هيلينا كانت تريدُ تحذيري: أنا لك وبدون شروط سوى شرطٍ واحدٍ: أنْ تُتيحَ لي أنْ أكونَ ما أنا، أن تَقبلني بقناعاتي. إنّ لِمثل هذا الإعلان عن القناعات، في وَضْع لا علاقة له بالقناعات، بل بالجسد، شيئاً غيْرَ عادي يكشِفُ أنّ القناعات تحديداً تجرحُ بطريقة ما المرأة المعنيّة: إمّا أنّها تخشى أن يتمّ اتّهامُها بأنْ لا قناعة لها ولذلك تُسرعُ في التّظاهُر بها، وإمّا أنّها (وهو ما كان مُحتمَلاً جدّاً في حالة هيلينا) تشكّ خفية في قيمة هذه القناعات، وكيْ تُعيدَ القيمة لها تُخاطرُ لأجل هذه القناعات بما يكتسي في نظرها قيمة لا يطولها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الشّكّ: إنّهُ فِعْلُ المُضاجَعة ذاته (لربّما تشعرُ باطمئنان ماكر أنّ فِعلَ المُضاجَعة أهمّ بالنّسبة إلى العاشق من نزاعٍ بشأن قناعة). من ناحية هيلينا، لم تكن هذه التظاهُرة لأجل إثارَةِ اشمئزازي، لأنّها قرَّبتْني من حبكة شغفي.

«أُنظر، أترى هذا؟»، كانت تُريني صفيحة فضّيّة صغيرة جدّاً، مشدودة بسُلَيْسلة إلى سوار ساعتها. عندما انحنيتُ لأرى، كانت هيلينا تشرحُ لي أنّ الرّسمَ المنقوشَ تمثيلٌ للكرملين. «هي هدية من بافيل»، قالت، ثمّ حكت لي قصّة هذه الحُلية التي أهْدَتها في السابق فتاةٌ روسيّة إلى عشيقها ساشا عندما رحل للمُشاركة في الحرب الطويلة التي قادَهُ طوْرُها الأخير حتّى براغ، التي أنقذها من الكارثة ولكن فيها لقيَ حتفَه. كان الجيش الروسيّ قد أقام حينذاك مُستوصفاً بطابق الفيلا التي كان يقطنها بافيل زيمانيك ووالده، فيه قضى المُلازم ساشا المُصاب بجرح عميق أيّامَهُ الأخيرة صحبة بافيل الذي توثقت صلته به. ولأجل الذكرى، قدّم ساشا، في أثناء احتضاره، مُنمنمة الكرملين هذه لبافيل الذي وضَعَها طوال الحرب على عُنقه مشدودة بطرف خيط. لقد احتفظ بافيل بهذه الهديّة بوصفها أغلى تذكار لديه. وذات يوم، وكان بافيل وهيلينا ما زالا مخطوبيْن، نشبَت بينهما خصومة حتى فكّرا في الانفصال، حينذاك جاء بافيل ليُقدِّم لها، كإشارة للصلح، هذه الحُلية الرخيصة (والتذكار الغالي جدّاً)، ومنذ ذلك الحين، لمْ تنزع هيلينا إطلاقاً هذا الشيء الصّغير، الذي يُمَثلُ بالنسبة إليها رسالة ما (سألتُها عن فحواها، فأجابت: «رسالة فرح») عليْها أن تظلّ تحمله إلى آخر أيامها.

كانت تجلسُ أمامي والحُمرة مُرتسمة على خدّيْها (كانت تنّورتُها المرفوعة تكشفُ عن رباطيْن مشدودين إلى سروال داخليّ أسود

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اللون مُلائم لذوق العصر)، إلّا أنّها توارت في هذه اللحظة خلف صورةِ شخصٍ آخَر: بفظاظة، كانت حكاية الحلية التي أهدِيَتْ ثلاث مرّات قد أدّت إلى انبثاق شخص بافيل زيمانيك كاملاً أمامي.

لمْ أصدّق إطلاقاً وجود الحارس الأحمر ساشا حتّى وإنْ كانَ ثمّة واحدٌ بهذا الاسم، فوجودُه الواقعيّ تلاشَى على كلّ حال خلفَ غرور تصرُّف بافيل زيمانيك الذي حوَّلهُ إلى شخصيّة أسطوريّة لاستثمارها في حياته، حوّله إلى تمثال مُقدّس، أداةٍ لجلب العطف، حجّة عاطفيّة، موضوعِ ورع سوف تُبجّله زوجتهُ (بيقين راسخ يفوقُ يقين زوجها) وذلك (بحماس وتحدٍّ) حتّى مماتها. كان قلبُ بافيل زيمانيك (قلبٌ استعراضيّ بصورة مُخلّة) يبدو لي ماثلاً هنا، فرأيتُ نفسي فجأةً من جديد وسط المشهد القديم الذي يعودُ إلى خمس عشرة سنة خلت: المدرّجُ الكبير بكليّة العلوم، وفي منتصف المائدة الطويلة على المنصّة يجلسُ زيمانيك، إلى جانبه فتاة بدينة مُمتلئة الوجه، بشَعر شُدّ في ضفيرة، ترتدي كنزة بشعة، في الجانب الآخَر شابٌّ هو مندوب المقاطعة. خلف المنصّة، مستطيلُ السبّورة السوداء الواسع، وعلى اليسار صورةُ فوسيك مُعلَّقة على الجدار. أمام المنصّة، كانت مقاعدُ المُدرّج حيث أخذتُ مثل الجميع مكاناً، وها أنا الآن، بالعودة خمس عشرة سنة إلى الوراء، أنظرُ بعيْنيْ تلك الفترة إلى زيمانيك مُعلناً انطلاق دراسة «حالة الرفيق جان»، أنظرُ إليه وهو يُعلنُ: «سوف أقرأ عليكم رسالتَيْ شيّوعيّيْن». توقّفَ وقفة قصيرة، وأمْسكَ بما يُشبه دفتراً رقيقاً، مرّرَ يدَه على شَعره الطويل المُتموّج، ثم بصوتٍ نافذٍ، هادئ تقريباً، شرعَ في القراءة.

«لقد لزمكَ وقتٌ طويلٌ كي تحُلّ أيّها الموتُ السّيّد! ومع ذلك كنتُ آمُلُ كثيراً ألّا أعرفك قبْل سنين طويلة، أن أواصِلَ حياةَ إنسان

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حُرّ، أواصلَ العمل كثيراً وأحبّ كثيراً وأغنّي أيضاً وأتجوّل عبر العالَم. . . ». كنتُ قد تبيّنتُ أنّه روبورتاج فوسيك المكتوب تحت المشنقة: «كنتُ أحبُّ الحياة، ولأجل جمالها ذهبتُ إلى الحرب. لقد أحببْتكم أيّها الناس، كنتُ سعيداً عندما كنتم تبادلونني هذا الحُبّ، وكنتُ أتألّمُ عندما لم تكونوا إطلاقاً تفهمونني. . . ». هذا النّصّ المكتوب سرّاً داخل زنزانة السّجن، الذي طُبعَ بعد الحرب في ملايين النُّسَخ وأذيعَ على الأمواج وتمّ تلقينه في المدارس بصورة إلزاميّة، كان كتابَ المرحلة المُقدَّس، كان زيمانيك يتلو علينا المقاطعَ الأكثر شهرة، التي يحفظها الجميعُ عن ظهْر قلب. «ألّا يقترنَ الحزنُ أبداً باسْمي. إنّها الإرادةُ الأخيرةُ التي أعبّرُ لكم عنها، أنتم جميعاً، أبي، أمّي، أختَيْ، حبيبتي غوستينا، رفاقي، يا مَن أحْببْتُهم جميعاً. . . ». كانت صورةُ فوسيك مُعلّقة على الجدار، وهي نُسخة عن اللّوحة الشّهيرة لماكس سفابينسكي، الرسّام العجوز في مطلع القرن العشرين، البارع في تصوير أيقونات النساء البدينات، والفراشات، والجميلات، يُقال إنّ الرفاق قصدوا بيتَه غداة انطلاق الحرب وطالبوه برسْم لوحة لفوسيك انطلاقاً من صورةٍ فوتوغرافيّة، وقد أنجزَها سفابينسكي بالقلم (رسم جانبيّ) بهذه الدّقة الخارقة التي أمْلاها عليْه ذوقه: ولولا القليل لكانت اللوحة تعبيراً عن ملامح فتاة بوجه مُشبع بالحماس والتوق، شفّاف وجميل للغاية بحيث أنّ مَنْ عرفوا الموديل كانوا يُفضّلون هذا الرّسم على ذكرى الوجه الحقيقيّ. كان زيمانيك يُواصِلُ القراءةَ بينما كان الجميع في الغرفة التي عمّها الصّمت يُنصتُ باهتمام، ولمْ تكُف الفتاةُ البدينة على المنصّة عن النّظر بإعجاب إلى الخطيب الذي غيّر فجأةً طبقات الصوت فأخذت النبرةُ تتلوّنُ بالتّهديد، إذ انتقل إلى الخائن ميريك: «لقد كان رجلاً

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مقداماً، لم يكن يفرّ من الرّصاص لمّا حاربَ على الجبهة بإسبانيا، لمْ يَنْحن أمام الاختبار الشّاقّ لمُعسكر الاعتقال بفرنسا! والآن، جعلهُ قضيبُ شرطي من الغستابو يمتقعُ ويخون كي يظفر بجلده. كم كانت هذه الشجاعة مُصطَنَعة، إذ كفتْها بعضُ الرّجّات كي تمّحي! كانت مُصطَنعة مثل قناعاته... لقد فقدَ كلَّ شيء منذ اللحظة التي فيها أخذ يُفكّرُ في نفسه. لكي ينجُوَ بجلده، ضحّى بمُرافقيه. لقد استسْلمَ للجُبن، وبالجُبن خان...». على الجدار كان الوجه الجميلُ لفوسيك يحلمُ مثلما كان يحلمُ على جدران القاعات العموميّة الأخرى ببلدنا، شديد الجمال، بالملامح المتألّقة لفتاةٍ عاشقة، وكنتُ وأنا أتأمّله أشعرُ بالخزي، لا تجاه خطئي فقط ولكن أيضاً تجاه وجْهي. ثمّ واصَل زيمانيك: «بمقدورهم حقّاً أن ينتزعوا منّا الحياة، أليس كذلك يا غوستينا؟ لكن ليس بمقدورهم أن يسلبونا شرَفنا وحُبّنا. آه، أيّها الشجعان، هل يُمكنكم تخيّل ما ستكونُ عليه الحياةُ لو التقيْنا بعد كلِّ هذه المحنة؟ كي نُواصل حياةً حُرّةً يُجَمّلها عملٌ خلاّق؟ عندما سيتحقّقُ ما كُنّا نتطلّعُ إليه، ما كنّا نوجّهُ له قوانا، وما مِن أجله الآن نموت؟». بعد نُطق زيمانيك العبارات الأخيرة بنبرةٍ مُؤثرة، لاذ بالصّمت.

ثمّ قال: «لقد كانت هذه رسالة شيّوعيّ كُتبت في ظلّ المشنقة. والآن، سوف أقرأ عليكم رسالة أخرى». فتلفّظ بالعبارات الثلاث الوجيزة والمُضحكة والبغيضة الواردة في بطاقتي البريديّة. ثمّ لاذ بالصّمت الذي عمّ المُدرّج أيضاً، فأدركتُ أنّني ضِعْت. دام الصمتُ طويلاً، وكان زيمانيك، هذا المُخرجُ البارع، حريصاً على تمديده. وفي الأخير دعاني إلى إبداء رأيي. كنتُ أعرفُ أنّني لن أقوى على إنقاذ أيّ شيء، إذا كان دفاعي سابقاً عن نفسي مرّاتٍ عديدة لمْ يُجْدِ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نفعاً، فأيّ أثر سوف يكونُ له اليوم بعد أن أقدمَ زيمانيك على قياس عباراتي الصّغيرة بمحنة فوسيك الهائلة؟ لمْ يكن أمامي إلّا أنْ أقف وأتكلّم. ومن جديد شرحتُ أنني كتبتُ هذه البطاقة لمُجرّد المزاح، واعترفتُ مع ذلك بالألفاظ التي في غير مواضعها وبفظاظة الدّعابة وخشونتها، وتحدّثتُ عن فردانيتي وعمّا لديّ من تذبذبِ «المثقف»، عن بُعدي عن الشعب، بل وكشفتُ عن زهوي وعن نزوعي الارتيابيّ، ووقاحتي، إلّا أنني أقسمتُ بأنّني كنتُ رغم ذلك كلّه وفيّاً للحزب، ولم أكن في أيّ حال من الأحوال عدوّاً له. انطلقَ النّقاش الذي منحَ الرفاقَ الفرصة لرفض وجهة نظري بعَدِّها مُتناقضة، وسُئلتُ بأيّ طريقة يُمْكنُ لشخصٍ يعترفُ بوقاحته تلقائيّاً أن يكون وفيّاً للحزب، وذكّرَتْني إحدى زميلات الدراسة بكلام فاحش وأرادت أن تعرفَ إذا ما كان مثل هذا الكلام مقبولاً أن يصدر عن شيّوعيّ، وأفاض آخرون في الحديث عن اعتباراتٍ مُجرّدة بشأن عقل البرجوازيّ الصّغير حتى يتسنّى لهم اعتباري تجسيداً لنموذج ملموس، وعموماً فقد تمّ تقويمُ نقدي الذاتيّ بأنّه لمْ يتوجّه إلى العُمق وكان يفتقرُ إلى الصّدق. بعد ذلك سألتْني الفتاةُ البدينة التي كانت تجلسُ خلف المنبر إلى جوار زيمانيك: «ماذا كان مُمكناً، في نظرك، أن يقوله حقّاً عن كلامك الرّفاقُ الذين عَذبهُم الغيستابو ولمْ ينجوا من الموت» (تذكّرتُ والدي وتنبّهتُ إلى أنّ الجميع كان يتظاهرُ بتجاهُل النهاية التي لقيَها)، بقيتُ صامتاً. كرّرَت سؤالها. وقد ألزمتني بالجواب، فقلتُ: «لا أدري. - هيّا، فكّر قليلاً، ألحّت، لربّما تهتدي إلى الجواب!». كانت تريدُ أن أصْدِرَ، بفم الرّفاق الموتى المُتخيّل، حُكماً قاسياً في حقّ نفسي، لكنّ موْجة غضب اجتاحتني فوْراً بصورةٍ لا مُتوَقّعة ولا مُنتظَرَة، بحيث قلتُ وقد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أنْهكتْني الأسابيعُ الماضية التي قضيتُها في نقد ذاتيّ: «هؤلاء رأوا الموتَ أمامهُم، هؤلاء لم يكونوا بالتأكيد تافهين. لوْ كانوا قرؤوا بطاقتي، لربّما كانوا سيضحكون!»

كانت الفتاةُ البدينة قد منحتْني في الحقيقة فرصة إنقاذِ شيءٍ ما على الأقلّ. كانت الفرصة الأخيرة لفهم نقد الرفاق القاسي، للدنوّ منه والتّماهي معه، كي أتمكّن بواسطة هذا التّماهي من استجداء تفهّم ما منهم مُقابله. ولكن بجوابي المُفاجئ انفصلتُ بضربةٍ واحدة عن دائرة تفكيرهم، رفضتُ تأديّة الدور الذي كان عادةً يُؤدَّى خلال مئات اللقاءات، مئات الإجراءات التأديبيّة، بل خلال مئات المُحاكمات، دور المُتّهَم الذي كان باتّهامه لنفسِه بحماس (وتماهيه بالطريقة ذاتها مع مُتَّهَميه) يسعى إلى استجداء الشفقة.

عمّ صمتٌ جديد. فوضَعَ له زيمانيك حدّاً. قال إنّه عاجزٌ عن تخيُّل ما المُثير للضحك في عباراتي المُعادية للحزب. توسّلَ مرّةً أخرى بكلام فوسيك وأكّد أنّ المُراوغة والارتياب يتحوّلان في الأزمات إلى خيانة وأنّ الحزب قلعة لا تحتمِلُ الخوَنة بين أسوارها. وأضاف أنّ مداخلتي أبانت أنّني لمْ أفهم أيّ شيءٍ على الإطلاق وأنْ لا مكان لي في الحزب، بل لم أكن أستحقّ أن تُوَفّر لي الطبقة العاملة الوسائل لتأمين دراستي. وهكذا اقترحَ فصْلي من الحزب ومن الكلّيّة. رفعَ مَنْ في القاعة أيديهم وقال لي زيمانيك إنّ عليّ إرجاع بطاقة الحزب والانصراف.

نهضتُ لوَضْع بطاقتي على المنصّة أمام زيمانيك. لمْ ينظر إليّ، كان قد كفّ عن النظر إليّ. غير أنّي الآن أنظرُ إلى زوجته جالسة سكرى أمامي، مُتوقّدة الخدّيْن بتنّورة مطوية حتّى الحزام. كان أعلى ساقيْها المُمتلئتيْن مُطوّقاً بسواد سروال داخليّ مطاط، كانتا في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

انفتاحهما وانغلاقهما يرسُمان إيقاع حوالي عشر سنوات من حياة زيمانيك. مرّرتُ يدي على ساقيْها بإحساس الإمساك بحياة زيمانيك نفسِها. نظرتُ إلى وجه هيلينا، كانت عيناها نصف مُغمضتيْن وأنا ألمسها.

4

«اخلعي ثيابك، يا هيلينا»، قلتُ بصوتٍ خفيض.

نهضَت من الأريكة، فانبسطت حاشية تنّورتها على مُستوى ركبتيْها. كانت تنظرُ في عينيّ، من غير أن تنبس بكلمة (ومن غير أن تكُف عن النظر إليّ) فتحَت ببُطءٍ تنّورَتها، فانزلقت إلى أسفل ساقيْها، سحبَت قدمها اليُسرى ورفعت تنّورتَها باليُمنى، أمسكتْ بها ووضعَتْها على كرسي. بقيَت حينذاك بكنزة وقميص داخليّ. بعد ذلك نزعت كنزتها وهي تُمرّرها عبر رأسها وألقت بها فوق التنّورة.

«لا تنظر إليّ، قالت.

- أريد أنْ أراك، قلت.

- لا، ليس وأنا أخلعُ ملابسي».

دنوتُ منها. لمّا أمْسكتُها من الجانبيْن تحت إبطيْها، انحدرتُ بيدي نحو وركيْها، كنتُ أشعرُ من تحت القميص الداخلي المُتعرّق قليلاً برخاوةِ جسدها. مدَّت وَجْهها وانفرجت شفتاها وفق العادة الطويلة (في تشنّج) للتقبيل. غير أنّني لمْ أكن أرغبُ في تقبيلها، ما كنتُ بالأحرى أودّه هو النظر إليْها طويلاً، أقصى وقت مُمكن.

«إخلعي ثيابك، قلتُ مرّةً أخرى وأنا أبتعدُ قليلاً كي أنزع سترتي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- ثمّة ضوءٌ كثيرٌ هنا، قالت.

- ذلك ما ينبغي»، قلت ووضعْتُ سترتي على مسند مقعد.

تجرّدَت من قميصها الدّاخليّ وألقت به فوقَ الكنزة والتنّورة، ثمّ نزعت الجوربَ الأوّل فالثاني، لمْ تُلق بهما، بل انتقلت نحو الكرسي لتضعهما بعناية، حدّبت صدرها ومرّرت يديْها خلف كتفيْها، ثوانٍ عديدة انقضت قبل ارتخاء كتفيْها المُمطّطتيْن وهي الحركة ذاتها التي أزاحت الصّدريّة عن الثديين اللتيْن تكوّرتا الواحدة جنب الأخرى بين يديها والكتفيْن، كبيرتيْن مُمتلئتيْن شاحبتيْن، وطبْعاً ثقيلتيْن قليلاً.

«اخلعي ثيابك، يا هيلينا»، قلتُ لها للمرّة الأخيرة. كانت تنظرُ إليّ في عيني ثمّ تخلّصت من سروالها الداخلي الأسود المطّاطي الملتصق بشدّة، وألقت به إلى جانب زوج الجوارب والكنزة. كانت عارية.

كنتُ أسجّلُ أدنى تفاصيل هذا المشهد باهتمام بالغ: لم أكن أروم بلوغ مُتعة سريعة مع امرأة (أيّ امرأة)، كنتُ أحرصُ على أن يتملّكني عالَمٌ حميم غريب ودقيق تماماً، كان عليّ أن أظفر به في ظهيرةٍ واحدة، في مُضاجَعة واحدة حيث عليّ أن لا أكون فقط مَن يستسلمُ للذة، بل أيضاً من يترصّدُ فريسةً هاربة وعليه إذاً أن يحتفظ بحذر تامّ.

إلى حدّ هذه اللحظة، تملّكتْني هيلينا بالنظر فقط. والآن أيْضاً أقفُ على مسافةٍ منها، بينما كانت هي توّاقة إلى حرارة الوصال الذي سوف يقي جسدَها المعروض لبرودة النظر. كنتُ أشعرُ حتّى على بُعد هذه الخطوات بنداوة فمها ولهفة لسانها الشهوانيّة. ثانية فأخرى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وكنتُ مُلتصقاً بها. بيْن الكرسيّيْن، حيث كانت تتكدّسُ ملابسنا، تعانقنا واقفيْن وسط الغرفة.

كانت تهمسُ «لودفيك، لودفيك، لودفيك...». اقتدتُها نحو الأريكة ومدَّدتُها. كانت تقول: «تعال، تعال، قريباً منّي، قريباً منّي...»

من النّادر جدّاً أن يتماهَى الحُبُّ الجسديّ بالحُبّ الرّوحي. ما الذي تقومُ به الرّوح عندما يتوحَّدُ الجسدُ (عبر هذا الفعل السّحيق، الكونيّ والثابت) بجسدٍ آخَر؟ إنّ كلَّ ما تجهد في إبداعه، خلال هذا الوقت، يُعيدُ تأكيدَ سمُوّها على رتابة الحياة الجسديّة! ما أقوى الرّوح على السّخرية من جسدها الذي لا يُسعفها (مثل جَسد الآخَر) إلّا في اتّخاذه ذريعة لتخيُّل وصالٍ أشدّ شهوةً ألف مرّة من الجسديْن المُلتصقيْن! أو على نحو معكوس: كم هي حاذقة في تحقيره بترْكه في حركةِ صعودِه ونزوله الصّغيرة المُتراقصة بينما هي تنأى بأفكارها (المُرهَقة قبْلاً بنزوات الجسد) بعيداً تماماً: نحو لعبة شطرنج، نحو ذكرى وجبة غذاء أو نحو قراءة.

ليس نادراً أنْ يمتزج جسدان غريبان عن بعضهما. حتّى تَوَحُّد الرّوحيْن يُمكنُ أحياناً أنْ يتحقّق. ولكن من النادر ألف مرّة أن يتوحَّد جسدٌ بروحه ويتجاوب معها في اقتسام شغفٍ ما.

ما الذي قامت به روحي إذاً عندما كان جسدي يُضاجعُ هيلينا؟

لقد رأت روحي جسدَ امرأة. وكانت غيْرَ مكترثة له. كانت تعرفُ أنّ هذا الجسدَ لم يكن له معنى بالنسبة إليها سوى لأنّه كان أيضاً في العادة منظوراً ومحبوباً من قِبَل شخص لمْ يكن هُنا، كما أنّها كانت تسعى إلى النظر إلى هذا الجسد بعينيْ الثالث الغائب، جاهدةً كي تُصبح وسيطَ هذا الثالث، كانت تنظرُ إلى عُرْي جسدٍ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أنثويّ، إلى ساقه المثنية، إلى ثنية البطن، وإلى الثدي، لكن هذا كلّه لم يكن يكتسي معنى إلّا في اللحظات التي كانت فيها عيناي تنظران بعيْنيْ هذا الثالث الغائب، كانت رُوحي قد اندسّت حينذاك فجأةً في نظرةِ الآخَر هذه وتماهَت معها، تملّكت روحي الساقَ المثنية وثنية البطن والثديَ مثلما كان الثالثُ الغائب يراها.

لم تعُد روحي وسيطاً لهذا الثالث وحسب، بل أمَرتْ جسدي أنْ يُصبحَ جسدَه، وبذلك ابتعدتْ كي تُلاحظ تشابُك جسديْ الزّوْجيْن، ثمّ أمَرت فجأةً جسدي باسترجاع هُويّته وولوج هذا الوصال الزوجي وتفكيكه بعُنف.

ازرَقّ وريدٌ في عُنق هيلينا المُرتجّ من التشنّج، أدارت رأسَها وغرزت أسنانها في مخدّة.

همسَت باسمي وكانت عيناها تتوسّلان مهلة للرّاحة.

غير أنّ روحي كانت تأمُرني أن أواصل، أن أطاردَ هيلينا من شهوةٍ إلى شهوة، أن أرغمَ جسدها على كلِّ الأوضاع كي أنتزع، سرّاً وفي الظّلّ، كلَّ الزّوايا التي منها كان هذا الثالث الغائبُ يراها، ومن غير توقّف بوجه خاصّ، عليّ أن أوقظ فيها مرّات عديدة هذه الارتعاشة التي فيها تكونُ على حقيقتها وأصلها بلا تصنّع، التي بها هي راسخة في ذاكرةِ هذا الثالث الذي ليس هُنا، راسخة مثل دمغة، ختم، رقم، شعار. عليّ إذاً أن أسرقَ هذا الرّقم السّريّ! هذا الختْمَ الملكيّ! أن أسطوَ على غرفةِ بافيل زيمانيك السرّيّة، أن أفتّش أدقّ تفاصيلها، أن أقلِب كلّ شيءٍ فيها.

كنتُ أنظرُ إلى وجه هيلينا المُحمرّ الذي جعله التشنّج قبيحاً، فوضعْتُ يدي عليه مثلما تُوضعُ على شيء يُمكنُ قلبهُ وإعادة قلبه، عجنه ودلكه، وكنتُ أشعرُ أنّ هذا الوجه كان فعلاً يَقبلُ هذه اليدَ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

على هذا النّحو: بوصفه شيئاً مُتلهّفاً لأنْ يُعجَن ويُدلك، أدرتُ رأسَها إلى اليمين ثمّ إلى اليسار مرّات عديدة، ثمّ تحوّلتْ هذه الحركة إلى صفعة، فثانية، فثالثة. وأخذت هيلينا في النّحيب والصّراخ، قطعاً لا من الألم، بل صرخت من اللّذة وذقنها ممدودٌ نحوي، كنتُ أصفعها بدون توَقّف، ثمّ رأيتُ أنّ الذقن لم يكن وحدهُ ممدوداً نحوي، بل أيضاً صدرها الذي ارتفع صوبي وسرعان ما انطلقتُ (وأنا فوقها) في جلْد الذراعيْن والخاصرة والثدييْن. . .

لكلّ شيء نهاية، وقد بلغَ هذا السطو الجميلُ هو أيضاً نهايتَه. كانت مُستلقية على بطنها على عرض الأريكة، مُرهَقة مُنهكة. على ظهرها شامة وفي الأسفل آثار ضربات حمراء على الردفيْن.

نهضتُ واجتزتُ الغرفة مُترنّحاً، فتحتُ باب الحمّام وأدرتُ صنبوراً وغسلتُ بماء بارد غزير وجهي ويدي وكامل جسدي. رفعتُ رأسي ونظرتُ في المرآة، كان وجهي يبتسم، وعندما فاجأتهُ على هذه الحال (مُبتسماً)، بدَت لي الابتسامة مُضحكة فانفجرتُ ضحكاً. بعد ذلك تنشّفتُ وجلستُ على حافة المغطس. كنتُ أودّ أن أمكث بضع دقائق على الأقلّ وحدي لأستمتع بعزلتي المُفاجئة، لأستمتع بفرحي.

أجل، لقد كنتُ فرحاً، ولربّما سعيداً تماماً. كنتُ أشعرُ بنفسي مُنتصراً، وكانت الدقائق والساعات التالية تبدو لي من غير نفع ولا جدوى.

ثم رجعتُ.

لم تَعُد هيلينا مُستلقية على بطنها، بل مُمدّدة على جانبها، كانت تنظرُ إليّ ثمّ قالت: «حبيبي، تعال بقربي».

كثيرون يظنّون بَعد وصالٍ جسديّ أنّ وصالاً روحيّاً قد تحقّق،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فيعتقدون أنّه يُتاحُ لهم على نحو آليّ، وفق هذا الاعتقاد الخاطئ، رفع الكلفة في التّخاطب. وبما أنّني لمْ يسبق أبداً أن آمنتُ بالتناغُم المُتزامن للرّوح والجسد، فإنّ توجُّه هيلينا إليّ بضمير المخاطَب حيّرني ونفّرني. غير مُبالٍ بدعوتها، مضيتُ نحو الكرسي حيث ملابسي كي أرتديَ قميصي.

«لا تلبس ثيابك...»، رَجَتْني هيلينا ويدها ممدودة نحوي، وقالت مرّةً أخرى: «تعال بقربي!»

لمْ تكن لي إلّا رغبة واحدة: ألّا تحُلّ اللّحظاتُ المُقبلة، وإذا كانت رغبتي مُستحيلة، فعلى الأقلّ أن تتلاشَى هذه اللحظات في اللامعنى، أن تكون بلا ثِقل، أخفّ من غبار، لمْ أعُد أرغبُ في مُلامسةِ هيلينا، وكانت فكرةُ الحنان تُخيفني، ولكن كان يُخيفني أيْضاً احتمال توتّرٍ أو تأزيمٍ للوَضْع، لذلك تركتُ قميصي مُرغَماً وتوجّهتُ للجلوس أخيراً على الأريكة بجانب هيلينا. كان الأمرُ مُرعباً: فقد دَنَت منّي ووضعَتْ وجهَها على ساقي وأخذت تُقبّلها، وسرعان ما ابتلّت ساقي، لكنّ البللَ لم يكن من القُبَل: عندما رفعتْ وجهها انتبهتُ إلى أنّها كانت تبكي. كانت تُجفّفُ دموعَها قائلة: «لا تؤاخذني إنْ أنا بكيت». والتصقت بي أيضاً بقوّة أكبر، طوّقت جسدي بذراعيها دون أن تقوى على التّحكّم في دموعها.

«ما بك؟»، سألتُها.

قالت وهي ترفعُ رأسَها: «لا شيء، لا شيء، يا مجنوني الصّغير»، وأخذت تَطبعُ على وجهي وكامل جسدي قُبَلاً محمومة. وأضافت فيما بعد: «أنا مجنونة عشقاً»، وبما أنّني لمْ أقل شيئاً، فقد واصلتْ «سوف تسخرُ منّي، غير أنّ ذلك لا يعنيني، أنا مجنونة عشقاً، أنا مجنونة عشقاً!»، وبما أنّني لمْ أقل أيضاً أيّ شيء، فقد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قالت: «وأنا سعيدة...»، ثمّ أشارت إلى الطاولة الصّغيرة، وزجاجة الفودكا التي لمْ تفرغ بعد وقالت: «صُبّ لي كأساً».

لمْ تكن لي أدنى رغبة في صبِّ كأسٍ لا لهيلينا ولا لي، كنتُ أخشى أن تنتهيَ كؤوس جديدة من الفودكا إلى تمديدِ خطِرٍ لهذه الجلسة (التي كانت بهيّة ولكن شريطة أن تنتهي، أن تُصبحَ ماضياً).

«حبيبي، أرجوك!»، كانت تُشيرُ دوماً إلى الطاولة الصّغيرة وأضافت على سبيل الاعتذار: «لا تؤاخذني، فأنا سعيدة، أريدُ أن أكون سعيدة...

- لستِ بحاجة إلى الفودكا من أجل ذلك، قلتُ.

- لا تؤاخذني، لديّ رغبة في ذلك!»

لم يكن لي ما أفعله، فملأتُ لها كأساً. «وأنتَ، ألمْ تعُد ترغب في الشرب؟»، سألتني، أجبتُها بإشارة من رأسي أنني لا أرغب في ذلك. احتست الكأس في جرعة واحدة، ثم قالت: «دع لي الزّجاجة هنا!»، وضعتُها لها مع الكأس الصغيرة على الأرضيّة الخشبية في مُتناول اليد من الأريكة.

وبسُرعة مُدهشة استعادت حيويّتها بعد الإنهاك الذي ألمّ بها قبْل قليل، لقد أصبحت فجأةً صبيّة وأرادت أن تبتهج، أن تمرح وتُظهرَ سعادتها. بَدَا واضحاً أنّها كانت تشعرُ بنفسها حُرّة للغاية وطبيعيّة في عُريها (لمْ يكن على جسدها سوى ساعتِها ذات السّوار حيث كانت ترنّ منمنمة الكرملين في طرف السّليْسلة)، كانت تُجرّبُ جميع الأوضاع كي تعرف أيّها مُريحٌ أكثر: شبكتْ ساقيْها تحتها على الطريقة التركيّة، ثم استندت إلى مرفقها بعد إبعادها لوهلة عقبيْها، ثمّ تمدّدت على بطنها ووجهُها غارقٌ بين فخذيْ. كانت تُكرّرُ باستمرار كم كانت سعيدةً، ساعية في الوقت نفسه إلى تقبيلي، وهو ما كنتُ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أتحمَّلُهُ على مضض، خصوصاً أنّ فمها كانَ مُبتلاً كثيراً، ولأنّها لم تقتصر على كتفي وخديْ، بل أخذت تُهاجمُ فضلاً عن ذلك شفتيْ (وأنا لا أحبُّ قبلة مُبتلّة إلّا في عمى الشّهوة).

قالت لي أيضاً إنّها لم يسبق أن عاشت شيئاً مُماثلاً، فأجبتُها (هكذا) بأنّها كانت تُبالغ. أخذت تُقسمُ أنّها لمْ تكن تكذب قط في الحُب، وأن لا حجّة لديّ كي لا أصدّقها. ثمّ أكّدت، مُبلورةً فكرتها، أنّها كانت قد حدست كلَّ شيء، حدستْهُ منذ لقائنا الأوّل، أنّ للجسد حدسَهُ الذي لا يُخطئ، وأنّها قد فُتِنتْ حقّاً بذكائي وحيويّتي (أجل، حيوية! من أين استوحت ذلك؟)، وقد كانت تعرفُ أيضاً، وإن لمْ تجرؤ على قوْل ذلك من قبْل، أنّ توافقاً سرّيّاً من تلك التوافقات التي لا تعرفها الأجساد إلّا مرّةً واحدةً في الحياة قد تحقّقَ فوْراً بيننا. «لهذا فأنا سعيدة تماماً، أتعلمُ ذلك؟». ثمّ انحنت لأخذ الزجاجة وملء كأس أخرى. لمّا احتست الكأس، ضحكت قائلة: «عليّ أن أشرب وحدي ما دمتَ لم تعُد ترغب في الشرب!»

ومع أنّ المُغامرة كانت بالنسبة إليّ منتهيّة، فإنّ عليّ أن أعترف أنّ كلمات هيلينا لم تُغِظني: كانت كلماتها تؤكّد نجاح خطّتي وعمق رضاي. والسبب الوحيد الذي جعلني أعترض عليها هو أنني لم أكن أعرف ما أقول ولم أشأ أن أظلّ صامتاً، فقلت لها بأنّها كانت بلا شك تُبالغ وهي تتحدّث عن تجربة لا تحدُث سوى مرّةٍ واحدة في الحياة، فماذا عن زوجها، ألمْ تعش معه حبّاً كبيراً؟

أغرقتْ كلماتي هيلينا في تأمّل جدّي (كانت جالسة على الأريكة وقدماها على الأرضيّة مُنفرجتان، مُتّكئة بمرفقيْها على ركبتيْها واليد اليُمنى مُمسكة بالكأس فارغة)، ثم انتهت إلى القول بصوتٍ خفيض: «بلى».

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانت تُقدِّرُ بلا شكّ أنّ التجربة العاطفيّة التي عاشتها للتوّ كانت تُملي عليها صدقاً ليس أقلّ عاطفيّة هو أيضاً. فكرّرَت: «بلى»، وقالت لربّما سيكونُ شنيعاً التنكّر لِما حصل سابقاً بفعل ما تحقّقَ للتوّ. احتست كأساً أخرى ثم بلوَرت فكرتها قائلة إنّ التجارب القويّة، بوجهٍ خاصّ، لا تَقبلُ المُقارَنة، وبالنّسبة إلى المرأة، فأنْ تُحبّ في العشرين من عمرها وتحبّ في الثلاثين أمران مُختلفان تماماً. وعليّ أن أستوعب هذا جيّداً: فالاختلاف ليس فقط من الزّاوية النفسيّة، بل الجسديّة أيضاً.

ثمّ (على نحو غير منطقيّ وبدون تماسُك) أكّدت أنّ لي بعض وجوه الشّبه مع زوجها! هي لم تكن تعرف تحديد هذا الشّبه بالضبط. طبعاً لم تكن لي على الإطلاق الهيأة التي له، لكنّها كانت لا تخطئ، إنّ لها حدسَها الثاقب الذي كان يُمكّنُها من التوَغّل أبْعد من المظهر الخارجيّ.

«أودّ حقّاً أن أعرف فيما أشبه زوجك»، قلت.

قالت إنّها تعتذرُ عن إثارة هذا الموضوع، فأنا مَن سألها عن زوجها، وأنّها لم تكن ترغبُ في الحديث عنه، ولم تجرؤ على ذلك إلا بسبب سؤالي، لكنّني إذا كنتُ أحرصُ على سماع الحقيقة التّامّة، فإنّ عليها أن تقول لي ذلك: مرّتيْن فقط في حياتها انجذبَت بقوّة مطلقة؛ كان ذلك مع زوجها ومعي. وما كان يُقرِّبُ بيننا، وفق قولها، هو نوعٌ من الحماس الحيويّ، الفرح الذي كان يشِعُّ مِنّا، الشباب الخالد، والقوّة.

في سعْي هيلينا إلى توضيح التشابُه بيني وبين بافيل زيمانيك، كانت تستعملُ كلمات مُلتبسة للغاية، ولكنّها كانت ترَى، بلا أدنى شكّ، هذا التشابُهَ وتُحسّه وتتمسّكُ به بعناد. لا يُمكنني القول إنّ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تأكيداتها كانت تُهينُني وتجرحُني، لقد كنتُ مُندهشاً من سخافتها التي لا حدّ لها فقط، فدنوتُ من الكرسيّ وشرعتُ في ارتداء ملابسي ببُطء.

«هل أغظْتُك، يا حبيبي؟». شعرَتْ هيلينا بتقزّزي فنهضتْ وقدِمت نحوي، داعبتْ وجهي ورَجَتْني ألّا أحقد عليها. كانت تمنعني من ارتداء ملابسي (لأشياء غامضة أجهلها، كانت تعتبرُ سروالي وقميصي عدوّيْن لها). قالت إنّها كانت حقّاً تُحبُّني، إنها لمْ تعتَد ابتذال هذه الكلمة، وسوف تعرفُ كيف تعثرُ على الفرصة لتُثبت لي ذلك، إنّها قد خمّنت منذ أسئلتي الأولى عن زوجها أنّ من البلادة الحديث عنه، لمْ تكن تريدُ حشْرَ شخص آخر، شخص غريب، في علاقتنا، أجل، شخص غريب، لأنّ زوجها لم يعُد يُشكّلُ منذ زمن طويل شيئاً بالنسبة إليها. «لأنّ الأمر، يا مجنوني الصّغير، قد انتهى بيْننا منذ ثلاث سنوات كاملة. لمْ نُقبل على الطلاق لأجل الصّغيرة، كلٌّ منّا يعيشُ حياته الخاصّة على انفراد، تماماً مثل غريبيْن، لم يعُد بالنسبة إليّ سوى ماضٍ بعيدٍ جدّاً...

- أهي الحقيقة؟ سألتُها.

- أجل، إنّها الحقيقة، قالت.

- كُفّي عن الكذب بهذه الطريقة، إنّه أمرٌ بشع، قلت.

- لكنّني لا أكذب! نعيش تحت سقف واحد، لكن ليس كزوجيْن، صدّقني، فمنذ سنوات لم نعد نتحدّث في الموضوع!»

كان الوجهُ المُتوسّل لعاشقةٍ مسكينة ينظرُ إليّ. ثم أكّدت لي مرّات عديدة أنّها كانت تتحدّثُ بصدق، وأنّها لم تكن تكذب، وليس لي أيّ دافع للغيرة من زوجها، فزوجُها يُمثّل الماضي، وأنّها اليوم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم تكن خائنة، إذ لم يكن لها مَنْ تخونه، وأنّ عليّ ألّا أنزعج، وأنّ فترةَ ما بعد الظهر التي قضيناها في الحُبّ لم تكن رائعة فقط، بل صادقة أيضاً.

أدرَكتُ فجأةً، وقد تملّكني ذعرٌ واضحٌ، أن ليس بمقدوري في العُمق عدم تصديقها. عندما لمحتْ ذلك بارتياح، طلبتْ منّي وكرّرت الطّلب أن أقول لها بصوتٍ عالٍ إنّها أقنعَتْني، ثمّ صبّت كأساً من الفودكا وأرادت أن تقرع كأسها بكأسي (فرفضْت)، قبّلتْني، ورغم نفُوري لمْ أقوَ على إدارة وجهي، كانت بلادةُ عينيْها الزرقاويْن وعريها (المُتحرّك والمرتعش) يجذبني.

لمْ أعُد أرَى هذا العُريَ كما من ذي قبْل، لقد أصبحَ فوراً عُرياً عارياً، عارياً من الطاقة المُثيرة التي كانت تحجُب كلَّ عُيوب سنِّه التي فيها كانت قصّة الزوجيْن زيمانيك تبدو مُركَّزة، وهي العيوب التي كانت جذبتْني تبعاً لذلك. الآن، وهي أمامي مُجرّدة، بلا زوج بلا علاقاتٍ زوجيّة، لا شيء سواها، كانت عيوبُ جسدها قد فقدَت فجأةً سحرَها الفاجر، ولمْ تعُد هذه العيوب هي أيضاً إلّا ذاتَها، لقد أصبحت مُجرّد عيوب جسديّة.

كانت هيلينا قد أصبحَت سكرى أكثر فأكثر، وتضاعفَ فرحُها، كانت سعيدة بتصديقي لحُبّها، لم تعرف كيف تُظهرُ شعورها بالسعادة: وفجأةً عنّ لها أن تفتح المذياع (استدارت وأقعَت أمامه وأدارت الزّرّ)، انطلقت موسيقى الجاز، فنهضت هيلينا بعينيْن مُشعّتيْن وباشرَت برعونة الحركات المتموّجة لرقصة تويست (كنتُ أنظر مذعوراً إلى الثدييْن تتمايلان يميناً ويساراً). وانفجرت ضاحكة: «هل أرقص جيّداً، لم يسبق لي أبداً أن رقصتُ على هذا الإيقاع». كانت تُقهقه وتقدّمت نحوي، كانت تريدُ أن أراقصها، اغتاظت من

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

رفضي، كانت تقول إنّها تجهلُ الرقص على هذه الإيقاعات وأنّ عليّ أنْ أعلّمها، وأنّها كانت تُعوِّلُ عليّ أنْ أعلّمها أشياء كثيرة وأنّها معي تودّ أن تصبح شابّة. رَجَتني أن أؤكّد لها أنّها ما زالت شابّة (فاستجبتُ لها). انتبهَت إلى أنّني قد ارتديتُ ملابسي فيما هي كانت لا تزال عارية، ضحكت، إذ بدا لها ذلك غريباً، وسألت ما إذا كان صاحبُ الشّقة يملك مرآةً كبيرة حيث يمكنها أن ترانا. لم يكن هناك على شكل مرآةٍ سوى حاجز زجاجيّ بالمكتبة، سعتْ فيه إلى تمييزنا، غير أنّ الصورة كانت تفتقرُ إلى الوضوح، اقتربَت من المكتبة وقهقهت من جديد أمام العناوين المثبتة على الكتب: **التوراة**، **المؤسّسة** لكالفان، **الأساقفة** لباسكال، **أعمال هوس**، ثم أخرجَت التوراة واستقامت في وضع احتفائيّ، فتحَت الكتاب كما اتّفق وأخذت تقرأ بنبرةٍ واعظ. حرَصت على أن تعرف إن كانت تُجسّدُ قسّاً بصورةٍ جيّدة. أعلنتُ لها أنّ هذه القراءة المُقدّسة كانت تُناسبُها كثيراً، إلّا أنّه سيكون من الأفضل أن ترتديَ ملابسها لأنّ السيد كوستكا سوف يأتي. سألتني: «كم الساعة؟ - السادسة ونصف»، أجبت. أمسكت بمعصمي الأيسر، حيث أضع الساعة وصاحت: «كاذب! السادسة إلّا ربع! تريد التخلّص منّي!»

كنتُ أتمنّى أن تنأى بعيداً، أن يتحلَّل جسدُها (الماديّ للأسف) ويذوب وينجرفَ في سيل مائيّ، أو أن يتبخّر ويختفي عبر النافذة، غير أنّ هذا الجسدَ كان هُنا، جسدٌ لمْ أسرقه من أحد، ولمْ أكن به لا مُنتصراً ولا مُدمّراً لأحد. جسدٌ كاسدٌ، تخلّى عنه الزوج، جسدٌ كنتُ أعتقدُ أنّني عبثتُ به في حين هو الذي عبثَ بي، جسدٌ كان يلتذّ بوقاحة بهذا النّصر، مُتقافزاً من الفرح.

لم يتسنّ لي تقصير زمن عقابي الغريب. وحوالي السادسة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ونصف شرعَت أخيراً في ارتداء ملابسها. حينذاك رأت على ذراعها حُمرةَ أثر ضرباتي، وقالت إنّه سوف يبقى تذكاراً لي حتّى لقائنا المُقبل، ثم استدركَت فوْراً: سوف نلتقي قبل أن يمّحي بكثير هذا التذكار من جلدها! كانت وهي واقفة أمامي (وقد ارتدت جورباً والآخَر بيدها) تريدُ أن أعِدها بأنّنا سنلتقي حقّاً قبل ذلك بكثير، وافقتُ بإشارةٍ من رأسي، لكنّ الإشارة لم تكْفها وأصرّت على تصريحي أنّنا سوف نلتقي من جديد مرّات عديدة قبل ذلك.

أمْضت وقتاً طويلاً في ارتداء ملابسها. وانصرفت دقائق قليلة قبل السابعة.

5

فتحْتُ النافذة تَوْقاً إلى تيار هواءٍ يجرفُ كلَّ ذكرى فترة ما بعد الظهر هذه، عديمةِ الجدوى، وكلَّ بقايا رائحة أو إحساس. أزلتُ الزجاجة ورتّبتُ وسائدَ الأريكة، ولمّا بدا لي اختفاء كلّ أثر، استرخيتُ على المقعد قرب النافذة في انتظار كوستكا (المُلحّ تقريباً): انتظار صوته الرّجوليّ (لقد كنتُ بحاجة ماسّة إلى صوت رجُل، إلى صوتٍ عميق)، انتظار قامته الطويلة بصدره المُسطّح، وحديثه الوديع، وفي انتظار ما سيُطلعُني أيضاً عليه بشأن لوسي، التي كانت، خلافاً لهيلينا، شديدةَ الوداعة في لا مادّيّتها، مُجرّدةً، أنأى ما تكون عن الصّراع والتّهويل والمآسي، ومع ذلك ليست تماماً دون تأثير على حياتي، وعنَّ لي أنّ هذا التأثير كان يَحدُثُ بالطريقة ذاتها التي كانت تُحدِثُهُ حركاتُ النّجوم، حسب علماء الفلك، في الحياة الإنسانيّة. وفي عُمق المقعد (قبالة النافذة المفتوحة التي كانت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تُزيحُ رائحة هيلينا)، كنتُ أفكّرُ أنّني اهتديتُ إلى مَغزى لغزي الخرافيّ، مُخمِّناً لِمَ اخترقتْ لوسي سماءَ هذيْن اليوميْن: لقد اخترقتهُما من أجل إبطال انتقامي فقط، تحويل كلِّ ما قادَني إلى هُنا إلى سحابة، لأنّ لوسي، هذه المرأة التي أحببْتُها كثيراً وأفلتَتْ منّي بصورةٍ غامضة في آخر لحظة، كانت رَبّة الفرار، ربّة الاقتفاء العبثيّ، ربّة السُّحُب، إنّها لا تزال تُمسك برأسي بين يديْها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

القسم السّادس

كوستكا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

1

لمْ نلتق مُنذ زَمن طويل، ولكنّنا في الواقع قلّما التقيْنا. إنّه أمْرٌ غريب، لأنّني كنتُ، على مستوى الخيال، ألتقيه باستمرار، فغالباً ما كنتُ أتوجّهُ إلى لودفيك جان بمناجياتي بوصفه خصمي الرئيس. كنتُ قد تعوّدتُ تماماً على حُضوره اللاماديّ إلى أنْ صادفتُهُ أمس لحماً ودَماً بعد سنواتٍ عديدة، فبقيتُ منذهلاً.

لقد سمّيتُ لودفيك خصمي. ألي الحقّ في تسميته كذلك. والحال أنني كنتُ بالصّدفة أجدُ نفسي، كلمّا كنّا نلتقي، بلا دَعم تقريباً، وهو دوماً مَنْ ساعدَني. ومع ذلك، انطوَى هذا التحالف باستمرار على خلافٍ عميق. أجهلُ إذا ما كان لودفيك قد قاسَهُ مثلي. على كلّ حال، لقد كان يُعطي أهميّة لعلاقتنا الخارجيّة أكثر من اختلافنا الدّاخليّ. هو لا يُصالحُ الأعداء الخارجيّين، إلّا أنّه مُتسامحٌ مع المُختلفين داخليّاً. أمّا أنا فلا، أنا نقيضُه تماماً، وذلك لا يعني أنّني لا أحبّ لودفيك. أنا أحبُّهُ كما نُحبُّ خُصومَنا.

2

تعرّفتُ إليه خلال أحَد اللقاءاتِ الصّاخبة التي كانت تعجُّ بها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الكلّيّة عام سبْع وأربعين. كان مُستقبَلُ الأمّة في الميزان. كنتُ، في كلّ النقاشات والنّزاعات والانتخابات، إلى جانب الأقليّة الشيوعيّة ضدّ مَن كانوا فترتئذٍ يُشكّلون الأغلبيّة في الجامعات.

كثيرٌ من المسيحيّين؛ كاثوليكيّين أو بروتستانتيّين، كانوا يحقدون عليّ. كانوا يعتبرون تضامُني مع حركةٍ أدرَجَت الإلحاد في شعاراتها خيانة. والذين ألتقيهم اليوم بالصّدفة، يعتقدون بعد مُضي خمس عشرة سنة أنّني أدركتُ خطئي، لكنّني مُضطرٌّ إلى تخييب ظنّهم. فأنا إلى الآن لمْ أغيّر موقفي.

بَدَهي أنّ الحركة الشيوعيّة بلا إله. غير أنّ المسيحيّين وحدهم أمكنهم فقط بتغاضيهم عن عيوبهم مؤاخذة الشيوعيّين. أقولُ المسيحيّين. ولكن أين هُم بالضبط؟ لا أرى حولي إلّا أشباهَ مسيحيّين يعيشون تماماً مثل مَنْ لا إيمانَ لهُم. فأنْ يكون الإنسانُ مسيحيّاً معناه أن يعيش على نحو مُخالف، أن يَقفُوَ طريق المسيح، أن يُقلّده. معناه التحرّر من المصالح الشخصيّة، من الترف والسلطة الشخصيّتيْن، والالتفات نحو الفقراء والمُهانين، نحو مَنْ يُعانون. أهذا ما قامت به الكنائس؟ لقد كان والدي عاملاً في عطالة مُستمرّة، كسيراً في إيمانه. كان يُصوّبُ وجهَهُ نحو الإله، لكنّ الكنيسة لمْ تُصوّب وجهَها أبداً نحوه. وبقِيَ مُهمَلاً وسط أمثاله، مُهمَلاً في قلب الكنيسة، وحيداً مع الإله إلى حين مرضه وموته.

لمْ تفهم الكنائسُ أنّ الحركة العمّاليّة كانت حركة المُهانين والمُتعطّشين إلى العدل. لم تكن مُنشغلة بأنْ تُؤسّس معهم ولهم مملكةَ الإله في الأرض. لقد تحالفت مع الطّغاة وبذلك أبْعَدت الإله عن الحركة العمّاليّة. وها هي تدّعي مُؤاخذة الحركة على كونها بلا إله. يا له من نفاق! صحيح أنّ الحركة الشيوعيّة مُلحدة، غير أنّني

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هنا أرى تأنيباً إلهيّاً مُوَجَّهاً نحونا، نحن المسيحيّين! تأنيباً على ضعف عطفنا تجاه المعدمين والمقهورين.

ما الذي عليّ القيام به في هذه الحالة؟ أن أنزعج من تناقص عدَد المؤمنين؟ أفزعَ من تلقّي التلاميذ بالمدرسة فكراً مضادّاً للدّين؟ كلّا. ليست الحقيقة الدينيّة أبداً بحاجة إلى دَعم السلطة العلمانيّة. فليس للعدوانية العلمانيّة من أثر آخر سوى تقوية الإيمان.

أوهل عليّ محاربة الاشتراكيّة لأنّها مُلحدة بسبب خطئنا؟ لا يُمكنني سوى أن أحزن على الخطأ المأسويّ الذي أبْعَدَ الاشتراكيّة عن الإله، لا يُمكنني سوى أنْ أسعى إلى إضاءتهِ والعمل على إصلاحه.

وفضلاً عن ذلك، لِمَ هذا القلق أيّها المسيحيّون، يا إخوتي؟ كلُّ شيء يتمّ بإرادة الإله، وغالباً ما أتساءل إذا لم يكن الإله عمداً يُعرّفُ البشرَ أنّ الإنسان لا يعرفُ الجلوس دون عقاب على عرشه، وأنّ نظام أشياء العالَم مهما كان عادلاً لا يُمكنُ أن يجري خارج مشاركته إلّا بصورةٍ مُتعثرة وفاسدة.

أتذكّرُ تلك السّنوات التي كان الناسُ بيننا قد اعتقدوا أنّهم على مسافة خطوتيْن من الجنّة. وكم كانوا مُتباهين: كانت جنّتهم، وكانوا سيبلغونها دون مُساعدة أحد من أعلى السّماوات! إلّا أنّ ذلك تبخّر فيما بَعد تحت أنظارهم.

3

قبل شباط/ فبراير 1948، كانت مسيحيّتي تروقُ الاشتراكيّين. كانوا يُحبّون سماعي وأنا أشرحُ المحتوى الاشتراكيّ للإنجيل، أندّدُ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بذلك العالَم القديم المنخور الذي ينهارُ تحت خيراته وحروبه، أوضَحُ القرابة بين المسيحيّة والشيوعيّة. كان الأمرُ بالنسبة إليهم يتعلّقُ باستقطاب طبقات واسعة لصالح قضيتهم واستقطاب المؤمنين أيضاً. ولكن بعد شباط/ فبراير، كلُّ شيء أخذ يتغيّر. كنتُ تكلّفتُ، بوصفي مُعيداً، بالدّفاع عن العديد من الطّلبة المُهدَّدين بالطرد من الكليّة بسبب الأفكار السياسيّة لآبائهم. وقد كلّفني اعتراضي صداماً مع إدارة المؤسّسة. كما ارتفعت أصواتٌ تقولُ إنّ شخصاً بقناعاتٍ دينيّة واضحة لا يُمكنه تربية الشباب الاشتراكيّ. كان بادياً أنّ عليّ أن أقاوم كي أستمرّ. حينذاك، بلغني أنّ الطالب لودفيك جان جاء ليُدافعَ عنّي في أثناء جمْعٍ عامّ للحزب. وقد عدّ في مداخلته أنّ نسيانَ الحزب مطلع شباط/ فبراير ما مثلتُه بالنسبة إليه كان جحوداً خالصاً. ولمّا اعترضُوا عليه بمسيحيّتي، أجاب بأنّ الدين لن يكون في حياتي سوى فترةٍ عابرة سوف أتجاوزُها لأنّني ما زلتُ صغيراً.

كنتُ ذهبتُ لأشكرهُ على دعمه. وقلتُ له، في الوقت ذاته، بأنّني أكبرُ منه سنّاً وأنْ لا أمل في أن «أتجاوز» إيماني. فانطلقَ بيننا نقاشٌ عن وجود الإله، عن الزّوال والخلود، عن موقف ديكارت من الدّين، عن معرفة إذا ما كان سبينوزا مادّيّاً وعن قضايا أخرى عديدة. لمْ نتوصّل إلى التّفاهُم. وفي الأخير، سألتُ لودفيك إن كان نادماً على دعْمه لي بعد أنْ بدوتُ له مُتمسّكاً بإيماني. أجابَني بأنّ إيماني مسألة شخصيّة وهي في نهاية المطاف لا تخصّ أحداً غيري.

لمْ تُتَح لي فرصةُ لقائه مرّةً أخرى بالكليّة. وتأكّد أنّ مصيرَيْنا فُرض عليْهما أن يكونا مُتقاربيْن أكثر. بعد قرابة ثلاثة أشهر من نقاشنا، تمَّ طرْدُ جان من الحزب والكليّة، وبعدها بستّة أشهُر جاء دوري في مغادرة الجامعة. هل تمّ طردي؟ لا أدري ما أقول.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

صحيح أنّ الأصوات تضاعفت ضدّ شخصي وقناعاتي. وصحيح أنّ بعض زملائي ألحوا إليّ أنّ عليّ أن أقدّمَ تصريحاً علنيّاً مطبوعاً بصبغة الإلحاد. وصحيح أيضاً أنّ دروسي تخلّلتْها مُداخلاتٌ عنيفة من قِبَل شيّوعيّين كانوا يحتقرُون إيماني. وبدأ مُقترحٌ برحيلي ينتشرُ بين الأوساط. وصحيحٌ مع ذلك أنّ من بين الأساتذة الشيّوعيّين أصدقاءَ عديدين كانوا يُقدّرونني بسبب مواقفي قبل شباط/ فبراير. ربّما كان يكفي قليلاً أن أشرع في المُقاومة. ومن المؤكّد أنني كنتُ سأجدُهم إلى جانبي. غير أنّني لمْ أفعل شيئاً.

4

قال يسوع لتلاميذه «اتبعوني»، ومن غير اعتراض تركوا شباكهم وقواربهم وبيوتهم وأسَرهم وتبعوه. «مَنْ يتعب في عمله ويلتفت ليس خليقاً بمملكة الإله».

إذا سمعنا نداءَ يسوع، توجّبَ علينا أن نتبعَهُ بلا شرط. كلٌّ ذلك معلوم تماماً من طريق الكنيسة، ولكنّ هذا الكلام ليس، في العصر الحديث، سوى صدى لخرافات. ما الذي يُمْكنُ أن يعنيه نداءٌ مثل هذا في نثر وجودنا؟ إلى أين يتعيّنُ علينا الذهاب، ومَنْ يتوجّبُ علينا أن نتبع ونتركَ شباكنا؟

ومع ذلك، فإنّ صوتَ النداء يرنُّ حتى في عالمنا شريطة أن نتوفّر على سمْع ثاقب. لا يأتينا النّداء، طبعاً، عبر البريد مثل برقية مضمونة، بل يأتي مُقنَّعاً. وقلّما يأتي مثل تنكّر ورديٍّ فاتن. لقد كتب لوتر: «ليس ما يُناسبك هو ما سوف تختار، بل عليك أن تُخلص لِما سوف يحدثُ مُضادّاً لاختيارك، مُضادّاً لتفكيرك، ومُضادّاً لرغبتك،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فهُناك يوجدُ دربك، فيه أناديك وفيه عليك أن تتبعني، فمِنهُ مَرَّ مُعلِّمك. . . ».

كانت لديّ دواعٍ عديدةٌ للتمسّك بمنصبي مُعيداً بالكليّة. فهو نسبيّاً منصبٌ مُريح، إذ كان يُوفّرُ لي وقتاً حُرّاً لمُتابعة دراستي وتحصيل منصب أستاذ بالجامعة في ما تبقّى من أيامي. ولكنّ ما كان يُفزعُني على وجه التحديد هو تمسّكي بمنصبي. أفزعني ذلك كثيراً كلّما كنتُ أرى أشخاصاً مُحترَمين؛ مُربّين وطلبة، يُبعَدون بالقوّة عن عملهم. وهكذا، خفتُ التعلّقَ بوضعية مُريحة سوف تفصلني آفاقُها المُطَمْئنة عن المصير العابر لأمثالي. فأدركتُ أنّ الإشارات الرّامية إلى إبعادي من الكليّة كانت نداءً. كنتُ أسمَعُ أحداً يُذكّرُني. كان يُحذرُني من وَضْع مهنتي المُريح القابل لتكبيل تفكيري ومُعتقدي وحتّى وعيي.

كانت زوجتي، التي أنجبت لي طفلاً كان حينذاك في الخامسة من عمره، تُلحُّ عليّ طبعاً بشتّى الطّرُق أن أدافع عن نفسي، أن أستخدم كلّ الوسائل للحفاظ على منصبي بالكليّة. كانت تُفكّرُ في الصّغير وفي مُستقبل الأسرة. ولا شيء آخر كان يعنيها. عندما كنتُ أنظرُ إلى ملامحها الذابلة، كنتُ أصابُ بالذعر من هذا الانشغال الذي لا حدّ له، الانشغال بالغد وبالسنة المُقبلة، الانشغال بسائر الأيام وبالسنوات القادمة. كنتُ أصابُ بالذعر من هذا الثّقل وكنتُ أسمعُ كلام يسوع في روحي: «لا تشغل بالك بالغد، لأنّ الغد سوف يُدبّرُ أمرهُ. تكفي كلّ يوم مشقّته».

كان أعدائي يظنّون أنّ الهموم سوف تُضنيني، وها أنذا أشعرُ بلامبالاة غير مُتوقّعة. كانوا يعتقدون أنّني سوف أشعُرُ بحُرّيّتي مُقيّدة، والحال أنّني في تلك اللحظة بالضبط اكتشفتُ حُرّيتي الحقيقيّة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أدركتُ أن ليس للمرء ما يخسرُهُ، أن مُقامه في كلّ مكان، في كلّ مكان قصَدهُ يسوع، وهو ما يعني: كلّ مكان بين البشر.

دهِشاً في البدء ثمّ مُنسحقَ القلب، استبقتُ أذى خصومي. قبلتُ الأذى الذي فرضوه عليّ مثل نداء مُشفّر.

5

يفترضُ الشيوعيّون، بطريقة دينيّة تماماً، أنّ مَنْ يُدينه الحزب يُمْكن أن ينال الغفران إنْ هو توجَّه إلى العمل فترةً من الزّمن إلى جانب المُزارعين أو العمّال. وعلى هذا النّحو، توَجَّه كثيرٌ من المثقفين، خلال السنوات التي تلت شباط/ فبراير، إلى العمل لفترةٍ تطول أو تقصر في المناجم والمصانع والأوراش وفي ضيعات الدّولة، حيث كان بإمكانهم، بعد تطهير غامض في أجواء هذه الأماكن، الاندماج من جديد في الإدارات والمدارس أو السكرتاريات.

لمّا تقدّمتُ إلى إدارة الكليّة بقرار رحيلي من غير طلب التعيين في منصب باحث علمي، راغباً على العكس في عمَل شعبيّ، مفضّلاً الاشتغال عاملاً مُتخصّصاً في مكان ما بضيعة من ضيعات الدولة، فسَّرَ زملائي الاشتراكيّون، الأصدقاء منهم أو الخصوم، اختياري في ضوء مُعتقدهم لا في ضوء مُعتقدي، مُعتبرين ما أقبلتُ عليه تعبيراً عن قابليّة استثنائيّة للنّقد الذاتيّ. وبما أنّهُم ثمّنوا ذلك، فقد ساعدوني على العثور على مكان مُفضَّل في ضيعة للدولة ببوهيميا الغربية، يرأسها مديرٌ طيّب ويحيطها مشهدٌ طبيعيّ رائع. ودعماً لهذه المُساعدة، أعدّوا لي بطاقة شخصيّة بملاحظاتِ ثناءٍ مُتميّزة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

غمرَتني وضعيتي الجديدة بفرحٍ حقيقيّ. كنتُ أشعرُ أنّني أولدُ من جديد. كانت ضيعة الدولة مُحدَثة في بلدة مهجورة، قريباً من الحدود، بالكاد أعيدَ إعمار نصفها منذ إبعاد السّكان الألمان عقب الحرب. كانت تمتدُّ من حولها تلالٌ قطِعت أغلب أشجارها وتنتشرُ بها المراعي. كانت البيوتُ الصّغرى للقرى المُجاورة مُوزّعة في أقصى الأوداء. وكانت السّحبُ العابرة من هنا تحطّ مثل ستار بيني وبين الأرض المأهولة بالسكّان، بحيث كان العالَمُ يبدو شبيهاً باليوم الخامس للخلق لمّا كان الإله يتردّدُ إنْ كان سيعهَدُ به للإنسان.

حتى النّاس كانوا أكثر صلابة. كانوا في مُواجهة الطبيعة ومراعٍ بلا حدّ وقطعان البقر والشياه. كنتُ سعيداً في صُحبتهم. وسرعان ما اهتديتُ إلى الاستثمار الأفضل لنباتات هذه المشاهد الطبيعيّة كثيرةِ الأدوية: سماد، تخزين عقلاني للعلف في الأهراء، حقول لتجريب نباتات طبّيّة، حقول زجاجيّة. وقد كان المدير مُعترفاً بمُبادراتي وكنتُ مُمتنّاً له لإتاحته لي كسبَ قوتي عبر مهمّة مُجدية.

6

كنّا في عام 1951. شهر أيلول/ سبتمبر كان بارداً، غير أنّ الجوّ أصبح فجأةً دافئاً حوالي مُنتصف تشرين الأول/ أكتوبر، فاستمرّ الخريفُ جميلاً حتّى نهاية شهر تشرين الثاني/ نوفمبر. كانت روائح الأكوام، التي تجفّ جنب المرج، تفوحُ في كلّ الجهات. في العشب، كان يلمعُ نباتُ سورَنجان الهزيل، وفي البيوت الصّغيرة بالأرباض، بدأ الحديث عن الفتاة المتشرّدة.

كان أطفال قريةٍ مُجاورة مشاغبون قد ذهبوا نحو المروج التي تمّ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حصادُها. وحين أخذوا بصخب في سرد حكاياتهم، لمحوا فتاةً خارجة من كومة، على شَعرها المُشعّت قشّاتُ عشب جافّ، لم يسبق لأحدٍ منهم أن رآها هنا. التفتت فزعةً إلى جميع الجهات قبل أن تفرّ نحو الغابة. وفي الوقت الذي خطر لهم ملاحقتُها، كانت قد اختفت عن أنظارهم.

انضافت إلى ذلك حكاية مُزارعة من المنطقة ذاتها: ذات يوم بعد الظهر وهي مُنهمكة بالباحة في العمل، ظهرت فتاةٌ في العشرين من عمرها بمعطف رثّ تطلبها مطأطئةً رأسها قطعة خبز. «إلى أين إذاً تذهبين هكذا؟»، قالت المرأة. أجابت الفتاة أنّ أمامَها طريقاً طويلاً لتقطعه. «وتقومين بذلك على الأقدام؟» - لقد أضعْتُ النقود التي بقيت لي. لمْ تُلحّ المرأة وأعطتها خبزاً وحليباً.

ثمّ سردَ راعينا هو أيضاً حكايتَهُ: كان مرّةً قد وضع، وهو في المُرتفعات، قطعة خبز بالزبدة وإناءَ حليب إلى جانب أرومة شجرة. وابتعد لحظة نحو قطيعه، وعندما عاد، كان الخبز والإناء قد اختفيا بصورةٍ غامضة.

سرعان ما استولت هذه الأخبار على الأطفال الذين كان خيالُهُم يُضاعفها بنَهم. كان يكفي أن يتمّ إعلان ضياع شيءٍ ما كي يعثروا فيه على ما يُثبتُ وجود هذه الفتاة المجهولة. في بداية تشرين الثاني/ نوفمبر، كان الماءُ شديدَ البرودة ومع ذلك رأوها لحظة الغروب تستحمّ في مستنقع قريب من القرية. كما سُمع، مرّةً أخرى، غناءٌ ضعيفٌ من مكانٍ بعيدٍ لصوتٍ أنثويّ. عدَّ الكبارُ الأمرَ مُتعلّقاً بمذياع في أحَدِ البيوت الخشبيّة بالمُنحدرات، أمّا الصّغار فكانوا يعلمون جيّداً أنّها هي، الفتاة المتوحّشة، التي كانت تمشي فوق القمم بشَعر مجنون وتُغنّي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ذات مساء آخَر، أشعلوا وهُم في أحد الحقول ناراً من أوراق الشّجر. وألقوا حبّات بطاطس في الرّماد المُلتهب. ثمّ نظروا إلى طرف الغابة، فصاحتْ طفلة أنّها رأتْها تُراقبهم من الظّلمة. إثر هذه الكلمات، أخذ أحَدُ الأطفال قطعة طين ورماها في الاتجاه الذي كانت الطّفلة قد عيّنَتْهُ. الغريب أن لا صرخة سُمِعت، ولكنّ شيئاً آخر حدَث. كلُّ الأطفال هاجَموا مَنْ ألقى قطعة الطّين وكادوا ينقضّون عليه.

أجل هكذا كان الأمْر: لمْ توقظ حكاية الفتاة التائهة القسوةَ الطفوليّة المُعتادة رغم الاختلاسات المرتبطة بفكرتهم عنها. فقد نالت منهُم تعاطفاً خفيّاً منذ اللحظة الأولى. هل كانت القلوبُ مُتأثرةً بالتّفاهة البريئة لتلك الاختلاسات؟ مُتأثرةً بسنِّها الفتيّ؟ أم هي يَدُ ملاك كانت تحميها؟

أن يكون الأمرُ على هذا النّحو أو على ذاك، فإنّ قطعة الطّين المُلقاة أجّجت حُبَّ الأطفال تجاه الفتاة التائهة. ولمّا غادروا نارهُم المُشرفة على الانطفاء، تركوا قريباً منها حبّات بطاطا مشوية تحت جمر خفيف لِحفظها فاترةً، وغُصن صنوبر فوقه. وعلى ورقة منزوعة من دفتر، كتبوا بقلم الرّصاص بحروف كبيرة: هذا لكِ، أيّتها الشريدة. وضَعُوا الورقة قرب حبّات البطاطس وفوقها قطعة طين. بعد ذلك، ذهبوا ليكمنوا في أشواك كي يُتابعوا دُنُوّ الطيف الخائف. كان سواد الليل يشتدّ ولا أحد ظهر. فاضطرّ الأطفالُ في الأخير إلى الخروج من مخابئهم والعودة إلى بيوتهم. وفي صباح الغد الباكر، عاد الجميعُ على عجل إلى الحقل. كانت حبّاتُ البطاطس قد اختفت كما اختفت الورقة والغصن.

أصبحت الفتاةُ جنّيّة يُدلّلها الأطفال، كانوا يضَعون لها إناءً صغيراً

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

من الحليب وخبزاً وحبّات بطاطس مع رسائل صغيرة. كانوا يُغيّرون دوماً مواضع هداياهُم. كانوا يتجنّبون وضْع أكلها في مكان واحد خلافاً لما به تتمّ مُعاملة مُتسوّل. كانوا يلعبون معها لعبة العثور على الكنز. انطلقوا من الموضع الذي كانوا قد تركوا لها فيه أوّل مرّة حبّات البطاطس المشوية، وأخذوا تدريجيّاً يبتعدون عن القرية ويتوغّلون في الحقول. كانوا يتركون كنوزَهُم قرب أرومات شجر، عند قدم صخرة، إلى جانب تلّ نُصب فوقه صليب، قرب زهرة نسرين. لا أحد علِمَ بهذه المخابئ. احتاطوا من أيّ خرْق في هذه اللعبة، لم يترصّدوا الشّريدة أبداً، ولا قطعوا طريقها. لقد قبلوها لا مرئيّة.

7

لن تستمرّ هذه الحكاية طويلاً. ذات يوم كان مُديرُ ضَيعتنا رفقة رئيس اللجنة الوطنيّة للبلدة، بعيداً في المُرتفعات، لوَضْع جَردٍ لقائمة العديد من المنازل غير المأهولة، التي يُرادُ تحويلها إلى مراقد لعمّال مُزارعين يشتغلون خارج البلدة. وفي الطّريق، داهمَتْهُما الأمطار. لم يكن بالقرب منهما سوى أجمة من الراتينجات الفتيّة، وفي حاشيتها هُرْيٌ صغير. رَكضَا نحوهُ وأزالا الوتد الخشبيّ الذي كان مُستعمَلاً كقفل وأوغلا داخل الهري. كان الضوءُ يتسرّبُ عبر الباب وشقوق السقف. وفي ركن، كانت الأعلافُ مضغوطة على شكل سرير. هناك، تمدّدا، كانا يُنصتان لصوت القطرات على السقف ويتنفّسان الرّائحة العنيدة ويتبادلان الحديث. وفجأةً لمسَ الرئيس، وهو يُوغلُ أصابعَهُ في جدار العلف المُرتفع على يمينه، سطحاً صُلباً تحت القشّ اليابس. كانت هناك حقيبة صغيرة من الكارتون بالية لا قيمة لها. لا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أدري كم من الوقت بقِي الرّجلان حائريْن أمام هذا السّرّ، لكنّ المؤكَّد أنّهُما فتَحا الحقيبة وعثرا فيها على أربعة فساتين جديدة رائعة لفتاةٍ في مُقتبل العمر. شكّلَ مظهرُ هذه الملابس الجميل، على ما بدا، تناقضاً مُفاجئاً مع مظهر الحقيبة الرّثّ، وأثار شكوكاً حول كونها مسروقة. كانت الفساتين تُغطّي بضعة ملابس نسائيّة داخليّة وحزمة رسائل مشدودة بخيط أزرق. كان ذلك كلَّ مُحتوياتها. ما زلتُ اليوم أيضاً أجهلُ كلَّ شيءٍ عن هذه الرسائل، أجهلُ حتى إذا ما كان المديرُ والرئيس قد قرآها. أعرفُ فقط أنّها كشفت لهُم اسمَ المُرسَل إليها: لوسي سيبيتكوفا.

لمّا تأمّلا جيّداً ما عثرا عليه، اكتشفَ الرئيس شيئاً ثانياً وسط الأعلاف، إناء حليب مُقشّر. الإناء بطلاء خزفيّ أزرق، الذي كان راعي الضيعة منذ خمسة عشر يوماً يتحدّثُ كلَّ مساء في الحانة عن ضياعه الغامض.

بعد ذلك، تابعَ الأمرُ مجراه. مكثَ الرئيسُ مُتربّصاً في الأجمة بينما نزل المُديرُ إلى البلدة حيث عجَّلَ بإرسال دركيّ. ولمّا حلّ الظلام، عادت الفتاةُ إلى مخبئها. أمْهَلاها حتى دخلت ودفعت البابَ وراءها وبعد دقيقة دخلا بدورهما.

8

كان الرّجلان اللذان أوْقعا بلوسي في الشّرَك بهُرْي الأعلاف طيّبيْن. الرئيس، العاملُ الزراعيّ سابقاً، كان رجُلاً نزيهاً، وهو أبٌ لستّة أطفال. أمّا الدركيّ فكان ساذجاً للغاية ورجُلاً طيّباً بشاربيْن كثيفيْن. لا أحد منهما يُمكنه أن يُسيء لذبابة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ومع ذلك، فقد شعرتُ بألم غريب في اللحظة التي علِمتُ فيها كيف ألقِيَ عليها القبض، وما زال قلبي، اليوم أيضاً، يختنقُ عندما أستحضرُ المدير والرئيس وهُما يُفتّشان في حقيبتها، وهما يمسكان بين أيديهما كلَّ حميميتها الماديّة، الأسرارَ الوديعة لملابسها الداخليّة المُتّسخة، وهما ينظران إلى حيث لا ينبغي أن ينظرا.

ينتابُني الألمُ ذاته عندما أستحضرُ الصورةَ الأخرى، صورةَ حُجر الأعلاف الهشّ هذا، من غير أيّ وسيلة للفرار، حيث المنفذ الوحيدُ كان يُحاصرُهُ اثنان قويّان بقامتيْن ضخمتيْن.

بمعرفتي أكثر لقصّة لوسي فيما بعد، أدركتُ بدهش أنّ جوهرَ مصيرها ذاتَهُ انكشف حينذاك توّاً أمامي عبر هاتيْن الصورتيْن المُعذِّبتيْن. لقد كانت هاتان الصّورتان تُجسّدان حالة اغتصاب.

9

منذ تلك الليلة لمْ تَعُد لوسي تنام في الهُرْي، بل على سرير من حديد في دكّان تمَّ تحويله لصالح خدمات مركز للأمن. في الغد، تمَّ استفسارها باللجنة الوطنيّة. وتبيّن أنّها كانت تعملُ حتى ذلك الوقت في أوسترافا حيث كانت تُقيم. وأنّها فرّت بعد أن عجزت على المكوث هناك مدّةً أطول. وعندما أرادوا منها تدقيقاً، تشبّثت بصمتٍ عنيد.

ما الدافع إلى هذا الفرار حتّى هُنا. في جوابها، قالت إنّ أبويْها كانا يسكنان في شيب. لِمَ لمْ تلجأ إليهما؟ كانت قد نزلت من القطار قبل بلوغ هذه المدينة، مُستسلِمة لخوفٍ رهيب، ذلك أنّ والدَها لمْ يكن يعرفُ غير تعنيفها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أعلنَ رئيسُ اللجنة الوطنيّة للوسي أنّه سوف يتمّ إرسالها إلى أوسترافا التي غادرَتْها من غير إذن خلافاً لما كان ينبغي لها أن تفعل. فقالت لهم لوسي إنّها سوف تنزلُ في أوّل محطّة. صرخوا قليلاً، ولمْ يلزمهم وقتٌ طويل كي يفهموا أنّ ذلك لنْ يحُلّ شيئاً. سألوها نتيجة ذلك إذا ما كان عليهم إرسالها عند أبوَيْها في شيب. حرّكت رأسَها رافضة بحدّة. أصبحوا مرّةً أخرى صارمين لبُرهة، ثمّ استسلمَ الرئيسُ لطيبَته قائلاً: «ماذا تريدين إذاً؟». كانت تريدُ أن تعرف إذا ما كان مُمكناً أن تبقى وتجدَ عملاً هُنا. هزّوا أكتافهُم وأجابوا أنّهم سوف يذهبون لتدبّر الأمر في ضيعة الدّولة.

كان نقصُ اليد العاملة يُسبّبُ للمدير صعوبات دائمة. لهذا وافقَ على اقتراح اللجنة الوطنيّة دون تردّد. بعد ذلك، أخبرَني بأنّني سوف أستقبلُ أخيراً العاملة التي طالما طالبتُ بها لفائدة الحقول الزّجاجيّة. وفي اليوم ذاته، أتى رئيس اللجنة الوطنيّة ليُقدّم لوسي إليّ.

أتذكّرُ جيّداً ذلك اليوم. كان شهر تشرين الثاني/ نوفمبر يوشكُ على الانتهاء، وأخذ الخريف للتوّ يُظهرُ، بعد أسابيع مُشمسة، وجْهَه الممطر المصحوب بالرّياح. في ذلك اليوم أمطرت السماءُ رذاذاً. كانت لوسي ترتدي معطفاً بنّيّاً، وتحملُ حقيبة، رأسُها مُنحنٍ وعيناها لامباليتان، واقفة بجانب الرئيس. كان هو ممسكاً بإناء الحليب الأزرق يتلفّظ على نحو رسميّ: «إنْ كنتِ أتيتِ شيئاً سيّئاً فقدْ صفحنا عنك، وسوف نمنحك ثقتنا. قد كان مُمكناً إرجاعك إلى أوسترافا، غير أنّه تمّ السّماح لك بالبقاء هُنا. إنّ الطبقة العاملة بحاجة إلى شُرفاء في أيّ مكان. فاحرصي على ألّا تُخيّبي ظنَّها!».

عندما كان مُتوجّهاً لوضْع إناء الحليب على المكتب لأجل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

راعينا، اقتدتُ لوسي إلى الحقل الزّجاجيّ، قدّمتُها إلى رفيقيْن في العمل وأطْلعْتُها على عملها.

10

تحجبُ لوسي، في ذاكرتي، كلَّ ما كنتُ أعيشه حينذاك. أمّا صورةُ رئيس اللجنة الوطنيّة، فرغم وضوحها التام فإنّ طيفَهُ يتقطّع. عندما كنتَ أمس جالساً أمامي يا لودفيك على هذا المقعد، لمْ أرد إثارةَ غضبك. الآن، وأنت معي من جديد مثلما عهدتك بالنّسبة إليّ، مثل صورةٍ، مثل ظلّ، سوف أقول لك ذلك: إنّ هذا العامل الزراعيّ القديم، الذي كان يريدُ تشييد جنّة لرفاقه المحرومين، هذا الرّجل الشريف الذي كان يتلفّظُ بحماس خالص بكلماتِ الصفح الكبير والثقة والطبقة العاملة، كان أقرب كثيراً إلى قلبي وفكري منك، وإن لم يسبق أبداً أن خصّني بامتياز شخصيّ.

كنتَ، في الماضي، تزعمُ أنّ الاشتراكيّة نهضَت على أساس العقلانيّة ونزعة الشكّ الأوروبيتيْن، بمنأى عن الدّين وفي تعارُض معه، وأنّها لمْ تكن مُستوْعَبَة خارج ذلك. ولكن، أتريدُ دوماً التمسّك حقّاً بانعدام أيّ إمكان لتأسيس مجتمع اشتراكيّ إلّا بالاعتقاد بأسبقيّة المادّة؟ أأنتَ واثقٌ حقّاً أنّ المؤمنين بالإله لا يُمكنهم تأميم المصانع؟

أنا واثقٌ تماماً أنّ السّلالة الرّوحيّة المُنبثقة من رسالة يسوع تقودُ إلى العدالة الاجتماعيّة وإلى الاشتراكيّة على نحو طبيعيّ للغاية. وعندما أتذكّرُ أكثر الشيّوعيّين حماساً في المرحلة الأولى ببلادي، مثل الرئيس الذي عهدَ بلوسي إليّ، يبدون لي أشدّ قرباً من

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المُتحمّسين الدينيّين منهم إلى الفولتيريّين الشّكّاكين. فالفترة الثورية لما بعد عام 1948، لم تكن لها قواسم كثيرة مع نزعة الشّكّ أو مع العقلانيّة. إنّها فترةُ الإيمان الجماعيّ الكبير. ما يُثبتُ ذلك، أنّ الإنسان المُنسجم مع هذه الفترة كان مسكوناً بمشاعرَ قريبة جدّاً من تلك التي يُوَلِّدها الدين: لقد كان يتخلّى عن أناه، عن مصالحه وحياته الخاصّة من أجل شيءٍ أسمى، شيءٍ فوق شخصيّ. صحيح أنّ أطروحات الماركسيّة ذات أصل دنيويّ، لكنّ الحمولة المُعترَف لها بها شبيهة بحمولة الإنجيل ووصايا التوراة. لقد تكوّنت عنها دائرةٌ من الأفكار غير قابلة للمساس، وهي إذاً، وفق مُصطلحاتنا، مُقدَّسة.

لقد كان لهذه الفترة التي هي في طور الانتهاء، أو التي قد انتهت، شيءٌ من روح الدّيانات الكبرى. ومن المُؤسف أنّها لم تعرف أن تقودَ معرفتَها الدينيّة بالذات إلى أقصاها! دينيّاً، كانت لها الحركات والمشاعر، لكنّها بقيت فارغة من الداخل بدون إله. ومع ذلك، فأنا كنتُ أعتقدُ دوماً أنّ الرّبّ سوف يُشفقُ ويتجلّى، بحيث يُطهِّرُ في الأخير هذا الإيمانَ الدنيويّ الكبير. غير أنّني كنتُ أنتظرُ عبثاً.

لقد خانت هذه الفترة، في النهاية، طابَعَها الدّينيّ وأدّت تكاليفَ الإرث العقلانيّ، الذي ما انحازت إليه إلّا لأنّها لمْ تفهمْ ذاتَها. مُنذ قرون ونزعة الشّكّ تتأكّلُ المسيحيّة. تتأكّلُها، لكن لن تهدمها. أمّا بالنسبة إلى النظريّة الشيوعيّة، مع أنّ هذه النزعة أساسٌ لها، فسوف تهدمها بعد بضعة عقود. وقد تهدّمت بداخلك يا لودفيك. وأنتَ تعلمُ ذلك جيّداً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

11

عندما ينجحُ النّاسُ في الفرار إلى مملكة الحكايات، يُمكنهم أن يفيضوا نُبلاً ورحمةً وشِعراً. أمّا في مملكة الحياة، فيُهَيْمنُ عليهم للأسف الحذر والارتياب والشكّ. هكذا كانوا يتصرّفون مع لوسي. ما إن خرَجَت من إمبراطورية حكايات الأطفال وأصبحت فجأةً حقيقيّةً تُقاسمُ باقي العامِلات النوم والانشغالات، حتّى غدَت للسّبب ذاته هدفَ فضولٍ غير مُتحرِّر من السّوء الذي يحتفظ به البشرُ للملائكة المُبعدة من السماوات وللجنّيات المطرودة من حكاية.

لمْ يكن طبْعُ لوسي الصامت يخدمها إلّا قليلاً. في غضون شهر، توصّلت ضيعة الدّولة بملف خدمتها من أوسترافا. كشفت لنا الملاحظاتُ المُثبتة فيه أنّها عملت، في البدء، حلّاقة مُتدرّبة في شيب. وإثر مُخالفة للأخلاق العامّة، قضت سنة في إصلاحيّة، منها توجّهت إلى أوسترافا، وفيها تأكّدت صفاتُها كعاملة على نحوٍ لا غبار عليه. كان سلوكها بالإقامة التي كانت تسكنُ بها نموذجيّاً. ارتكبت قبل اختفائها مخالفة قانونيّة واحدة غريبة تماماً: فقد تمّ إمساكها وهي تسرقُ زهوراً من المقبرة.

كانت المعلوماتُ مُقتضَبَة، وعِوَض أن تُضيءَ سرَّ لوسي جعلتْهُ أكثر غموضاً.

وَعدتُ المدير بالعناية بلوسي. فقد كانت تجذبني. صامتةً كانت تهَبُ نفسَها لعملها. كان ثمّة هدوءٌ في خجلها. لم أكن ألاحظ عليها أيّ ملمح غريب يُمْكنُ توقّعه من فتاةٍ عاشت مُتشرّدةً أسابيع طويلة. كانت تُصرّحُ بأنّها مُرتاحة في عملِها بالضّيعة وأنّها لا تُفكّرُ في مُغادرتها. كانت هادئة وسريعة الاستسلام في كلّ نزاع، بما جعلها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تنالُ رضا رفيقاتها. غير أنّ ذلك لم يمنع أنّ قلّة حديثها كانت تحتفظُ بما لا أدريه من علامة مصير مُؤلم وروحٍ مُمزّقة. لم أكن أتمنّى إلّا سماعها تعترفُ لي، ولكنّني كنتُ أعرف أنّها خضعت في حياتها لأسئلةٍ إجباريّة حتّمت اقترانها في خيالها باستجواب، لم أطلب منها شيئاً وأخذتُ أنا نفسي أحكي لها. كنتُ أحدّثها يوميّاً. كنتُ أشرحُ لها مشروعاتي لخلق حقل نباتات طبيّة بالضيعة. كنتُ أحكي لها أنّ المُزارعين كانوا، قديماً، يتداوون بغلْي نباتاتٍ مُختلفة أو نقعها في الماء. كنتُ أحدّثها عن نبتة البَلاّن التي استُعملت ضدّ الكوليرا أو الطاعون، عن نبتة كاسر الحجر التي تكسّرُ الحصاة في المثانة أو المرّارة. وكانت لوسي تُصغي إليّ. كانت تُحبُّ النباتات. ما أطهر هذه البساطة! إذ لم تكن تعرفُ عن النباتات شيئاً، كانت عاجزة عن تسمية واحدة منها.

حلَّ الشتاء ولم يكن للوسي، ما عدا فساتينها الصيفيّة الجميلة، ما ترتديه. كنتُ أساعدها على توزيع نقودها، واقتدتها لاقتناء معطف واقٍ من المطر وكنزة، وفيما بعد أشياء أخرى: أحذية، منامة، جوارب، معطف سميك...

سألتها يوماً إذا ما كانت تُؤمنُ بالإله. وبدا لي جوابُها لافتاً. لم ترُد لا بالسلب ولا بالإيجاب. بالكاد هزت كتفيْها وقالت: «لا أدري». سألتها إذا ما كانت تعرفُ يسوع. فردّت بالإيجاب. والواقع أنّها كانت تجهلُ كلّ شيءٍ عنه. كان اسمه يقترنُ لديها، على نحو ضبابيّ، بصورة عيد الميلاد، بضباب تمَثّليْن أو ثلاثة لم يكن لها أدنى معنى. لم تكن لوسي حتى ذلك الحين قد عرفت لا الإيمان ولا عدمه. وقد شعرتُ بدوار، لربّما مُطابق لذلك الدوار الذي يعرفه مُتيّمٌ عندما يكتشِفُ أن لا أحد قبْله مسّ جسدَ محبوبته. «أتريدين أن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أحدّثك عنه؟»، قلتُ لها، وافقت بإشارةٍ منها. كانت المراعي والتلال قد كستْها الثلوج. كنتُ أحكي ولوسي تُصغي إليّ. . .

12

كان ذلك عبئاً ثقيلاً على كتفيْها الهشّتيْن. هي بحاجة إلى مَن يُساعدها، لكن لا أحد عرفَ القيام بذلك. الغوث الذي يُقدّمُه الدينُ لك، يا لوسي، بسيط: اِمنحي نفسَك. امنحيها بعبئك الذي يجعلك تترنّحين. ثمّة راحة كبيرةٌ في منْح الذات. أعرفُ أنّه ليس لك مَنْ تمنحينه ذاتَك، لأنّك ترتابين في النّاس. ولكن هناك الإله. امنحيه نفسك. سوف تشعرين بنفسك خفيفة.

مَنْحُ الذات معناه التخلّي عن الحياة الماضيّة. انتزاعها من الرّوح. الاعتراف. أخبريني، يا لوسي، لماذا هربْتِ من أوسترافا؟ أبسبب تلك الزّهور فوق قبْر؟

ولكن لماذا أخذْتها؟

بسبب حُزنها. كانت تضَعُ الزّهور في وعاءٍ بغرفتها في الإقامة. كانت تقطفها أيضاً من الطبيعة، غير أنّ أوسترافا مدينة سوداء، لا طبيعة حولها، ليس ثمّة سوى رُكام الفُسالة، وحباكات، وأراضٍ قاحلة، وغابات صغيرة هنا وهناك مليئة بالسّخام. لم تكن لوسي تجدُ زهوراً جميلة سوى في المقبرة، كانت زهوراً رفيعة، احتفاليّة. زهور الدّلبوت أو زنابق. وأيضاً زهور الأقحوان برؤوس تويْجاتها الكبيرة الهشّة. . .

كيف أمْسكوا بك؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

غالباً ما كانت تذهبُ إلى المقبرة، كان المكانُ يستهويها. ليس فقط بسبب الزّهور التي تجلبُها منه، ولكن أيضاً بسبب الهدوء. كان هذا الهدوء يُريحُها. كلُّ قبْر كان في ذاته حديقة صغيرة، فكانت إذاً تتريّث قرب كلّ واحد بشاهدته وتدويناته الكئيبة. ولئلّا يتمّ إزعاجها، كانت تُقلّدُ طريقة بعض الزّوار، المُسنّين بوجه خاصّ، فكانت تجثو عند قدم القبور. ذات مرّةٍ كانت جاثية على هذا النّحو أمام قبر كان لا يزال حديثاً. كان النّعشُ قد دُفن به قبل أيام قليلة. تُربته كانت لا تزال رطبة وقد نُثرت فوقها الأكاليل. وفي مقدّمته إناء وُضعت فيه باقة زهور. كانت لوسي جاثية تحت صفصافة مُتدلّية الأغصان شبيهةٍ بقبّة سماويّة حميمة هامسة. كانت غارقة في سعادة لا حدّ لها. في اللحظة ذاتها، كان رجلٌ مُسنّ يقتربُ رفقة زوجته. رُبّما كان هذا قبرَ ابنهما أو أخيهما، مَن يدري. لمَحَا فتاةً جاثية قرب القبر. اندهشا. وتساءلا مَن تكون. بدا لهُما ظهورُها مُضمِراً لسِرّ، سرٌّ عائليّ، لربّما تعلّق الأمر بقريبة لمْ يسبق لهما أن رأياها، أو بعشيقة للفقيد. توَقّفا، لم يجرؤا على إزعاجها. أخذا ينظران إليها من بعيد وإذا بها تنهضُ وتسحبُ من الإناء باقة الزّهور التي كانا هُما مَن وضَعاها مُؤخّراً هناك، ثمّ استدارت وابتعدَت. حينذاك أسرَعا خلفها. سألاها: «من أنت؟». لم تعرف ما تقول، تلعثمت من الارتباك. وتبيّن لهما أنّها تجهلُ كلّ شيء عن فقيدهما. نادَيا على بستانية لمُساعدتهما. وأمروا الفتاة بإظهار أوراقها الشخصيّة، صرخوا في وجهها مُعلنين أن ليس ثمّة ما هو أبشعُ من سرقة الموتى. وأكّدت البستانيّة أنّها ليست المرّة الأولى التي تتعرّضُ فيها مقبرتها لسرقة الزّهور. ثم استدعوا شرطيّاً، فتعرّضت لوسي من جديد لوابل من الأسئلة واعترفت بكلّ شيء.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

13

«. . . ودَع الموتى يدفنون موْتاهم»، يقول يسوع. زهور القبور للأحياء. لمْ تكوني تعرفين الإله يا لوسي، ولكنّك كنتِ تتطلّعين إليه. كنتِ تجدين في جمال زهور الطبيعة التجلّي الخارق. تلك الزّهور، لمْ تكوني بحاجة إليْها لأجل أحد. كانت من أجلك أنتِ وحدك. من أجل الفراغ في روحك. وقد أمْسكوك وأهانوك. ولكن، أكان ذلك السببَ الوحيد الذي دفعك إلى الهرب من المدينة السّوداء؟

أحدٌ ما أساء إليك؟

أقرّت ذلك بإشارةٍ من رأسها.

اِحك يا لوسي!

كانت الغرفة صغيرةً للغاية. وكان يتدلّى من السقف مصباحٌ بلا غطاء، عارياً فاحشاً ومائلاً. وبمحاذاة الجدار سريرٌ عُلّقت فوقه صورةٌ، وفي الصورة رجُلٌ جميل جاثياً بجلباب طويل أزرق. لقد كانت «حديقة الجثمانيّة»، لكن لوسي لمْ تكن تعرفُ ذلك. كان إذاً قد اقتادها إلى هناك، كانت تُقاومه وتصرخ. كان يُريد اغتصابَها، كان ينزعُ ثيابها وتملصّت منه وفرّت بعيداً.

مَنْ هو يا لوسي؟

جُنديّ.

أكنتِ تُحبّينه؟

لا، لم تكن تُحبّه.

لِمَ إذاً ذهبْتِ معه إلى هذه الغرفة التي لم يكن فيها غير مصباح عارٍ وسرير؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لقد كان هذا الفراغ في روحها ما جذبها نحوه. وكي تملأ هذا الفراغ، لم تجد التّعسة غير غِرٍّ كان يُؤدّي خدمته العسكريّة.

ومع ذلك لم أتمكّن من استيعاب الأمر جيّداً يا لوسي. ما دُمت قد تبعته في البدء إلى هذه الغرفة حيث لا يوجد سوى سرير، لِمَ هربتِ فيما بعد؟

لقد كان فظّاً وعنيفاً مثل كلّ الآخَرين

عمّنْ تتحدّثين يا لوسي؟ مَنْ هم كلُّ هؤلاء الآخَرين؟

لاذت بالصمت.

من عرفتِ قبْل الجنديّ، تكلّمي يا لوسي، احك!

14

كانوا ستّة فيما هي كانت وحدها. أعمارُهم بين السادسة عشرة والعشرين وهي في السادسة عشرة. كانوا يُشكّلون عصابة يتحدّثون عنها باحترام كما لوْ أنّها طائفة وثنيّة. في ذلك اليوم تلفّظوا بكلمة المُسارّة. حملوا معهم زجاجات عديدة من خمر رديء. وقد شاركت في السّكر بخضوع أعمى، فيه كانت تصبّ كلَّ حُبّها الظّمِئ إلى أمّها وأبيها. شربت لمّا شربوا، وضحكت لمّا ضحكوا. بعد ذلك أمروها بنزع ملابسها. لم يسبق لها أن قامت بذلك في حضورهم. وبما أنّ رئيس العصابة أقدم على التّعرّي أمام تردّدها هو الأوّل، فقد فهمت أنّ الأمر لمْ يكن البتّة مُوجَّهاً ضدَّها، فاستجابت طوعاً. كانت تثقُ فيهم، تثقُ حتى في فظاظتهم. كانوا ملاذها، درعها، لم تكن تتصوّرُ فقدانهم. كانوا أمّها وأباها. شربوا وضحكوا ووجّهوا لها أوامرَ أخرى. فتحت ساقيْها. كانت خائفة وكانت تعرف ماذا يعني ذلك،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لكنّها أذعنت. صدرت عنها صرخة وسال الدّمُ منها. صاح الفتيان ورفعوا كؤوسَهم ورشّوا بالخمر الرديء المُرغي ظهْر الرئيس وجسدَ لوسي الهشّ وما بين فخذيْها، صاحوا بعباراتِ تعميدٍ ومُسارّة مُبهَمة، عندذاك وقف الرئيس مُبتعداً عنها، بينما تلاه واحدٌ آخر من العصابة، هكذا بالتناوب عبر ترتيب وفق السّن، فكان أصغرهم سنّاً هو الأخير، كان عمره ست عشرة سنة مثلها، ولمْ تعُد لوسي إطلاقاً تتحمّلُ الألم، كانت توّاقة إلى الرّاحة، توّاقة إلى العُزلة، وبما أنّه كان الأصغر، فقد تجرّأت على صدّه. ولكن، لأنّه كان على وجه التحديد الأصغر، لمْ يستوعب أن يُهان! فقد كان مُنخرطاً في العصابة! بصورة تامّة هو بالتحديد! وكان يُريدُ أن يُبرهنَ على ذلك، فصفع لوسي، لا أحد تحرّك من أجلها، لأنّ الجميع كان يعرفُ أنّ الأصغر سنّاً كان يُمارسُ حقّه ويطالبُ بما يستحقّ. انبجست الدّموع من عيني لوسي، لكنّها لمْ تجرؤ على التصدّي، ففتحت ساقيْها للمرّة السادسة. . .

أين كان ذلك يا لوسي؟

في بيت أحد أفراد العصابة. كان أبواه يعملان معاً في الفرقة الليليّة، كان ثمّة مطبخٌ وغرفة، وفي الغرفة طاولة وكنبة وسرير، وكُتبَ فوق الباب داخل إطار زجاجيّ: لِيمنحنا الإله السّعادة! وفوق السّرير إطارٌ لصورةِ سيّدةٍ جميلة بلباس أزرق تضمّ طفلاً إلى صدرها.

مريم العذراء؟

لكنّها لمْ تكن تعرف.

ثم ماذا وقع بعد ذلك يا لوسي؟

بعد ذلك، تكرّر هذا في البيت ذاته غالباً، وفي بيوت أخرى، وفي الخارج أيضاً بين الأشجار. صار الأمرُ عادةً بالنسبة إلى العصابة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أكان ذلك يرُوقك؟

كلّا، فقد أخذوا يُسيئون إليها أكثر فأكثر، أصبحوا قساةً أكثر فأكثر، ولكن لمْ يكن من وسيلة للفكاك، لا للتقدّم ولا للتراجع.

وكيف انتهى ذلك يا لوسي؟

في واحد من تلك البيوت الفارغة، باغتتهم الشرطة ذات مساء وقادت الجميع بسبب سطو قام به فتيان العصابة. لم تكن لوسي على عِلم بالأمر، إلّا أنّه كان شائعاً أنّها تُرافقُ العصابة وتمنحُ أعضاءها كلَّ ما يُمكنُ لفتاةٍ أن تمنحه. كانت مثار خزي في مدينة شيب بكاملها، وتعرّضت في بيتها لضرب عنيف. نال الفتيان عقوبات متنوّعة، فيما أرسِلت هي إلى إصلاحيّة. قضت بها سنة إلى أن بلغت السابعة عشرة من عمرها، بعد ذلك لم ترغب إطلاقاً في العودة إلى أسرتها. وهكذا حلّت بالمدينة السّوداء.

15

عندما أخبرَني لودفيك في الهاتف قبْل أمس أنّه كان يعرفُ لوسي، فوجئتُ وارتبَكت. لحُسن الحظ أنّه لم يكن يعرفها إلا من بعيد. لربّما رَبَطته في أوسترافا علاقة بفتاة كانت تقطُنُ معها. وإثر سؤال جديد عنها أمس، حكيتُ له كلَّ شيء. مُنذ زمن بعيد وأنا بحاجة إلى التحرّر من هذا العبء، لكن لم أجد أحداً أبوح له من غير خوف. لودفيك يُكنّ لي ودّاً وهو في الآن نفسه بعيدٌ بما يكفي عن حياتي وبعيدٌ أكثر عن حياة لوسي. لذلك لمْ يكن لي ما أخشاه بشأن سرّ لوسي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لـمْ أفش أسرار لوسي سوى للودفيك أمس. ومع ذلك فقد كان الجميعُ على علم بزهور المقبرة من طريق بطاقات مصلحة العُمّال. كانوا وَدُودين جدّاً معها، غيْر أنّهم كانوا يُذكّرونها دوماً بماضيها. هي بالنسبة إلى المدير «سارقة القبور الصّغيرة». لـمْ يكن يكفّ عن قول ذلك من غير مكر، بحيث كانت مثل هذه الأقوال تجعلُ خطايا لوسي القديمة حاضرةً دوماً. لقد كانت مُذنبة باستمرار. في حين أنّ ما كانت في أمسّ الحاجة إليه هو غفرانٌ تامّ. أجل يا لودفيك، الغفران هو ما كانت تحتاجه، هذا التطهيرُ الغامض الذي تجهله أنتَ ويتمنّعُ عليك فهْمه.

النّاسُ، في الواقع، لا يعرفون الصّفح انطلاقاً من ذواتهم، هو ليس حتى في قدرتهم. هُم عاجزون عن مَحو الخطيئة التي ارتُكِبَت. فذلك أمْرٌ يتجاوزُ قدرات الإنسان. إنّ جَعْلَ خطيئةٍ بلا اعتبار، محْوَها، إزالتَها من الزّمن، أو بتعبير آخَر تحويلَ شيء إلى عدم هو فِعْلٌ مُتمنّعٌ وخارق. وحدَهُ الإله قادرٌ على أن يغسلَ الخطايا، أن يمحوَها، أن يغفرَها، لأنّه منفلتٌ من قوانين هذا العالم السّفليّ، لأنّهُ حرٌّ ويعرفُ خلق المُعجزات. الإنسانُ لا يَقوى على مُسامَحة الإنسان إلّا بعَوْن المغفرة الإلهيّة.

وبما أنّك لا تؤمنُ بالإله، يا لودفيك، فإنّك لا تعرف الصّفح. أنتَ مُكبّلٌ بذلك الجمع العامّ الذي ارتفعتْ فيه جميعُ الأيدي ضدّك مُصادِقةً على تدمير حياتك. لم تغفر لهم أبداً ذلك، ولا لواحد منهم على الأقلّ. لقد كانوا مائة. وهو رقمٌ قابلٌ لتمثيل عيّنةٍ صغرى من البشر، لكنّك لمْ تصفح أبداً عن النّوع البشريّ. سحبْتَ منه، منذ ذلك الحين، ثقتَك وأفرطتَ في كُرهه. وحتّى إن استطعْتُ تفهُّمَك، فإنّ ذلك لنْ يُغيّر من كون مثل هذه الكراهيّة المُكرَّسة للبشر مُرعبة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ومُذنبة. لقد أصبحَتْ لعنتَكَ، التي حلّت بك. ذلك أنّ العيشَ في عالم بلا غفران، حيث الخلاصُ مرفوضٌ، شبيهٌ بالعيش في الجحيم يا لودفيك. إنّك تعيشُ في الجحيم يا لودفيك، وتثيرُ شفقتي.

16

كلُّ ما ينتمي إلى الإله على هذه الأرض يُمْكنُ أن ينتميَ إلى الشيطان، بما في ذلك أفعال العشّاق في الحُبّ. لقد تحوّلت هذه الأفعال، لدى لوسي، إلى عالَم من البشاعة. تداخلتْ عندها مع الوجوه المُتوحّشة لأفرادِ العصابة المُراهقين، ومع وَجه الجنديّ الهائج فيما بَعد. آه، أنا أيضاً أراهُ بوضوح كما لوْ كنتُ أعرفه! يخلطُ كليشيهات الحُبّ المعسولة والعذبة بالخُشونة الدنيئة لرجُلٍ محروم من الإناث وراءَ الأسلاك الحديديّة للثكنة! وتكتشفُ لوسي فجأةً أنّ الكلماتِ العذبة ليست سوى قناعٍ خادع على جَسدٍ حيوانيّ فظّ. وينهارُ عالَمُ الحُبِّ بكامله أمامَها وينزلَقُ في وحلِ الاشمئزاز.

كنتُ قد عرفتُ الجُرح، ومنه كان عليّ أن أبدأ. من المُمكن أن يكون الجوّالُ بالسّاحل، الذي يحملُ فانوساً في طرف ذراعه، معتوهاً. غير أنّ هذا الشّخصَ يُصبحُ مُنقذاً عندما تُهاجمُ الأمواجُ ليلاً قارباً أضاعَ وجهتَهُ. فالعالَمُ الذي فيه نعيشُ هو المنطقة الحدوديّة بيْن السّماء والجحيم. ليس ثمّة فعْلٌ حسَنٌ أو سيّئٌ في ذاته. وحدهُ موقعُه في النّظام يجعله خيْراً أو شرّاً. وعلى هذا النّحو، فإنّ العلاقات الجسديّة، يا لوسي، ليست في ذاتها فضيلة أو رذيلة. إنْ هي انسجَمَتْ مع النّظام الذي وَضَعَهُ الإله، وإنْ أنتِ عشتِ حُبّاً وفيّاً، فحتّى الحبّ الجسديّ يصيرُ نِعمةً وتصيرين سعيدةً. ذلك أنّ الإله

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قضى: «سوف يهجرُ الإنسانُ أباهُ وأمّه، وسوف يلتصقُ بزوجته، ويُصبحان جسداً واحداً».

يوماً بعد يوم، كنتُ أتحدّثُ مع لوسي، مُكرِّراً في كلِّ مرّةٍ أنّ الغفرانَ شَملها وأنّ عليها ألّا تُعذّبَ نفسَها، عليْها أن تفكَّ رباطَ قميص روحها الجبْريّ، عليْها أنْ ترتاحَ بخضوعٍ في النّظام الإلهيّ حيث الحُبُّ الجسديُّ نفسُهُ سوف يجدُ مكانهُ.

وكانت الأسابيعُ تنقضي.

ثمّ أطلَّ يومٌ ربيعيّ. كانت أشجارُ التّفّاح تُزهرُ فوق مُنحدَرات التلال وتُوَيْجاتُها تحت النسيم تُشبهُ أجراساً تتمايَل. أغمضتُ عيني لأصغي إلى صوتها المخمليّ. ثمّ فتحتُهما ولمحتُ لوسي ببذلتها الزرقاء ومعولٍ في يدها. كانت تنظرُ إلى المُنحدر جهة الوادي وكانت تبتسم.

كنتُ أنظرُ إلى تلك الابتسامة، مُستغرقاً بنَهم في قراءَتِها. أمُمْكنٌ هذا؟ فحتى ذلك الحين كانت روح لوسي في فرار مُستمرّ، فرار من الماضي والمُستقبل. كلُّ شيءٍ كان يُخيفها. لقد جسّدَ الماضي والمستقبل بالنسبة إليها دوّامتيْن. وكانت بهلع تتشبّثُ بمَرْكبِ الحاضر المثقوب، الملجأ المُتهاوي.

وها هي اليوم فقط تبتسم. بلا سبب. هكذا كما اتّفق. أنبأتْني هذه الابتسامة أنّها كانت تنظرُ بثقةٍ إلى المُستقبل. وأحسستُ بنفسي مثل بحّار يرْسُو بعد شهور على الساحل. كنتُ سعيداً. استندتُ إلى جذعٍ ثنائيِّ القرن وأغمضتُ عيني من جديد. كنتُ أنصِتُ للنّسيم ولِهَفيف أشجار التّفّاح البيضاء، أنصِتُ لزقزقة الطّيور، كانت هذه الزقزقة تتحوّلُ أمام عيني المُغمضتيْن إلى ألف ضوءٍ تحمله أيادٍ لا مرئيّة كما لو تعلّق الأمرُ بعُرس. لم أكن أرى تلك الأيادي، لكنّني

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كنتُ أسمعُ نبراتِ الأصواتِ الحادّة، وتَهيّأ لي أنّها لأطفال، لِمَوكب أطفال مَرح... وفجأةً حطّتْ يدٌ على وجْهي. وصدَرَ صوتٌ قائلاً: «أنتَ طيّبٌ للغاية، السيّد كوستكا...»، لم أعِدْ فتْح عيني. ولم أحرّك اليد. كنتُ أرى دوماً أصواتَ الطيور الصغيرة تتحوّلُ إلى رقصة فرندل بقناديل من ورق مُلوّن، كنتُ أسمعُ دوماً هفيفَ أشجار التّفّاح، وبخُفوتٍ كان الصَّوتُ يُواصل: «أحبّك...».

ربّما كان عليّ أن أنتظر هذه اللحظة ثم أرحل سريعاً ما دامت مهمّتي قد أنجِزَت. ولكن الضّعف شلّني قبْل أن أفهم أيَّ شيء. كنّا وحيديْن في هذا المنظر الطبيعيّ المفتوح وسط أشجار التّفّاح المسكينة، فقبّلتُ لوسي وتمدّدْنا فوق سرير الطبيعة.

17

لقد وقعَ ما لمْ يكن ينبغي أنْ يقع. عندما رأيتُ عبر ابتسامة لوسي أنّ السّكينة حلّت بروحها، كنتُ قد بلغتُ مبتغاي ولمْ يبقَ لي سوى أن أرحل، لكنّني لمْ أقم بذلك. وساءَ الأمْرُ فيما بعد. واصلْنا العيشَ في الضيعة ذاتها. كانت لوسي تتفتّحُ مثل الربيع الذي كان يتدرّجُ نحو الصيف بمهل من حولنا. ولكن عِوضَ أن أكونَ سعيداً مثلها، كنتُ فزعاً من هذا الرّبيع الأنثويّ الكبير بجواري، الذي أنا نفسي مَنْ أيْقظْتُه وهو الآن يَفتحُ لي كلَّ تُوَيْجاته التي كنتُ أعرفُ أنّها ليْست لي ولا ينبغي أن تكون لي. فقد كان لي ببراغ ابنٌ وزوجة تواقة لزياراتي القليلة للبيت.

كنتُ خائفاً من تكسير بدايةِ الحميميّة هذه، الذي كان سيُمزِّقُ لوسي، غير أنّني لمْ أجرؤ على تنميتها، إذ كان واضحاً لديّ أن لا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حقّ لي إطلاقاً في ذلك. كنتُ أشتهي لوسي وكنتُ، في الآن ذاته، أخافُ من حُبّها، لأنّني لم أكن أرى ما العمل حياله. ولمْ يتسنّ لي الاحتفاظ بما هو طبيعيّ في أحاديثنا السابقة إلّا عبْر مجهودٍ استثنائيّ. فقد انتصبَتْ شكوكي بيننا. كنتُ أشعرُ أنّ المساعدَة الرّوحيّة التي قدّمتُها للوسي قد انكشَفَ الآن قناعُها، وأنّني في الواقع قد اشتهيتُ جسدَها منذ الدقيقة الأولى التي ظهرَت فيها أمامي، وأنني كنتُ أتصرّفُ مثل غاوٍ مُتخفٍّ تحت قناع قسٍّ مُعزٍّ، وأنّ كلّ تلك الخُطَب الجميلة عن يسوع والإله لم تكن سوى تغليفٍ لأكثر الشهوات الجسديّة دناءةً. كان يبدو لي أنّني باستسلامي لجسدي قد دنّستُ طُهْرَ هدفي الأوّل وعصيتُ الإله تماماً.

ولكن، ما إنْ انتهيتُ إلى هذه الفكرة حتّى دارَ تفكيري حول نفسه: يا للصَّلف، قلتُ مُؤَنّباً نفسي، يا للرّغبة الكاذبة في الظّهور أهْلاً للتقدير وفي إرضاء الإله! ماذا تعني جداراتُ الإنسان أمامه؟ لا شيء، لا شيء، لا شيء. لوسي تُحبّني وصحّتُها مُتوَقّفة على حُبّي! أعليّ أنْ أزجَّ بها في اليأس من جديد لا لشيءٍ إلّا لانشغالي بطُهْري؟ ألن أجلبَ بهذا الأمر نفسه ازدراءَ الإله؟ وإذا كان شغفي خطيئة، فأيّهما أهمّ؛ لوسي أم براءتي؟ وبعد ذلك كلّه، سوف تكونُ خطيئتي، أنا وحدي مَنْ يتحمَّلها، لن تُضيّع هذه الخطيئة سواي.

وسط هذه الأفكار والشكوك، حدثَ طارئٌ غيرُ مُتوَقّع. فقد لفّقَت الإداراتُ المركزيّة تُهمةً سياسيّة ضدَّ مُديري. وبما أنّه دافعَ عن نفسه بكلّ قواه، فقد تمّت مُؤاخذتُه على استعانته في الضيعة بعناصرَ مشبوهة. وتمّ تعييني واحداً من هؤلاء، باعتباري مطروداً من الجامعة بسبب آرائي المُعارضة ونزوعي الإكليروسي. حرَصَ المديرُ عبثاً على إثبات أنّني لم أكن إكليروسيّاً وأنّني لمْ أطرَد من الجامعة. وكلّما كان

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يُدافعُ عنّي، كان يكشفُ تواطؤَنا ويُعقّدُ وَضْعَه. أمّا بالنسبة إليّ فقد أصبحَ الأمرُ لا يُطاق.

أهو ظُلمٌ يا لودفيك؟ أجل، وهي الكلمة التي تتلفّظُ بها في الغالب عندما تسمعُ هذه الحالة أو مثيلاتِها. أمّا أنا فلا أعرفُ معنى الظّلم. لوْ لم يكن فوق الأمور البشريّة شيءٌ، ولوْ لم تكن للأفعال غيرُ تلك الحمولة التي يمنحُها لها فاعلوها، لكانت فكرةُ الظّلم مشروعة ولكنتُ أنا نفسي مُؤهَّلاً لاستخدامها باعتباري طُردتُ من ضيعة الدولة التي بها كنتُ أعملُ بحماس. ولربّما كان أيضاً منطقيّاً التصدّي لهذا الظلم ومُقاومته بشدّة من أجل حقوقي الإنسانيّة البسيطة.

غير أنّ للأحداث عادةً معنى مُخالفاً لذلك الذي يمنحُهُ إيّاها صانعوها العميان، فهي ليست إلّا تعليمات خفيّة قادمة من أعلى، والذين تركوها تتحقّقُ ليْسُوا، من غير أن يدروا، إلّا رُسلاً لإرادةٍ عُليا لمْ تخطُر حتّى على بالِهم.

لقد كنتُ مُقتنِعاً بذلك، وهو ما وقع. هكذا تقبّلتُ الأحداث بالضيعة باعتبارها أمراً مُريحاً. فقد اكتشفتُ أنّها إشارةٌ واضحة تقول لي: اِبتعد عن لوسي قبْل فوات الأوان. مهمّتُك اكتملت. وثمارُها لا تخصّك. طريقك تمرُّ من مكان آخر.

وهكذا تصرّفتُ بالطريقة التي تصرّفتُ بها في كلية العلوم قبْل سنتيْن مَضَت. استبَقتُ الكارثة البيّنة، فودّعتُ لوسي وهي في حالة يأس والدموع تنهمرُ من عينيها. لقد اقترحتُ أنا نفسي ترْكَ ضيعة الدولة. صحيحٌ أنّ المدير أبْدَى اعتراضَه، لكنّني كنتُ أعرفُ أنّه قام بذلك مُجامَلةً، بينما كان في أعماقه مُرتاحاً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

غير أنّ سُلوكي الإراديّ في الخروج لم يُثِر هذه المرّة أحداً. لم يكن هناك أصدقاء من شيوعيّي ما قبْل شباط/ فبراير الذين كانوا في السابق قد رصفوا طريقَ خروجي بملاحظاتٍ ونصائح جيّدة. غادرتُ الضيعة بوصفي شخصاً اعترفَ بأنّه لمْ يعُد أبداً جديراً بإنجاز أيّ عمل مَهْما كان ضئيلَ الأهمّيّة في هذه الدولة. وهكذا أصبحتُ عاملَ بناء.

18

كان يوماً من أيام خريف عام 1956 عندما التقيتُ لودفيك لأوّل مرّة بعد مُرور خمس سنوات في عربة الطّعام بالقطار السّريع الرابط بين براغ وبراتيسلافا. كنتُ مُتوجّهاً إلى ورش بناءِ مصنعٍ شرقَ مورافيا. وكان لودفيك قد أنْهى مُؤخّراً خدمته بمناجم أوسترافا. وقد وضعَ للتّوّ طلباً ببراغ قصد السّماح له بإنهاء دراسته. ومن هناك كان عائداً إلى بيته في مورافيا. كِدنا ألّا نلتقي. ولمّا تعرّفنا إلى بعضنا، فوجئنا بتشابُه مصيرَيْنا.

أتذكّرُ جيّداً يا لودفيك الانتباهَ الكبير الذي به أصغيتَ إليّ عندما حكيتُ لك عن مُغادرتي للكلّيّة وعن الدّسائس بضيعة الدوْلة، التي جعلت منّي عاملاً في أوراش البناء. أشكرك على ذلك الاهتمام. فقد كنتَ مُغتاظاً وتحدّثتَ عن ظُلم وغباء، بل لقد غضبتَ منّي وآخذْتَ عليّ عدم دفاعي عن نفسي واستسلامي. كنتَ تقول إنّه لا ينبغي أبداً وفي كلّ مكان الرحيل برضاً تامّ. ينبغي لخصمنا أن يُرغَمَ على اللجوء إلى الأسوأ! ما جدوى تمكينه من راحة البال؟

أنتَ عامِلٌ في المناجم وأنا عاملٌ في البناء. مصيرانا مُتشابهان

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

للغاية، لكنّنا مُختلفان! أنا مُتسامحٌ أمّا أنتَ فترفضُ المُصالحة، أنا مُسالِمٌ وأنتَ ثائر، كم نحنُ مُتقاربان خارجيّاً، مُتباعدان في العُمق.

عن هذا التّباعُد الدّاخليّ، تعلمُ أقلّ منّي بكثير. كنتَ، وأنتَ تشرحُ لي فصْلكَ من الحزب، مُقتنعاً كما لو أنّ الأمر طبيعيّ للغاية أنّني كنتُ مُتّفقاً معك، ومصدوماً مثلك من تزمّت الرّفاق الذين عاقبوك لأنّك تناولتَ بالهزل ما كانوا يعتبرونه مُقدّساً. أكان في ذلك ما يدعوهم إلى الغضب؟ كنتَ تسألُ مُندهشاً حقّاً.

سوف أقول لك شيئاً: عندما كان كالفان يحكمُ بجنيف، كان بها شابٌّ لربّما يُشبهك، ذكيٌّ وميّالٌ إلى الهزل. وقد عُثرَ على كرّاساته مليئة بسخريّته من يسوع المسيح ومن الكتاب المُقدّس. أفي ذلك ما يدعو إلى الغضب؟ هذا ما قال في نفسه بلا أدنى شكّ هذا الشّابّ الذي كان يُشبهُك تماماً. إنّه، بعد كلّ شيء، لمْ يَصدر عنه أيّ سوء، لقد كان يمزح، هذا كلّ ما في الأمر. لم يعرف الكراهيّة إطلاقاً، لم يعرف بلا شكّ سوى السّخرية واللامبالاة. وقد تمّت تصفيته.

آه، لا تظنّ أنّني من أنصار مثل هذه القسوة! ما أودّ قوله فقط هو أن لا حركة كبرى تبتغي تغييرَ العالَم تتسامحُ مع التّهكّم أو السّخرية، لأنّهُما صدأ يتأكّلُ كلَّ شيء.

تفحّصْ فقط موقفك الخاصّ يا لودفيك. لقد فصلوك من الحزب والكليّة، وأدمجوك ضمن الجنود الخطرين سياسيّاً، وأرسلوك للعمل سنتيْن أو ثلاث في المناجم. وماذا عنك أنت؟ السّخط يتملّكك، وأنتَ مُقتنعٌ بظُلم فادح. ما زال هذا الإحساسُ بالظّلم يُحدِّدُ اليوم كلَّ سلوكك. أنا لا أفهمك! ما الذي يدفعك

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

للحديث عن الظلم؟ لقد أرسلوك ضمن السّود، أي أعداء الشيوعيّة. الأمرُ مفهوم! ولكن، أكان ذلك ظُلماً؟ ألم يكن بالأحرى فرصة كبيرةً بالنسبة إليك؟ كان بمقدورك أن تعمل على إصلاح الأعداء! أثمّة ما هو أهمّ وأسمى من هذه المهمّة؟ ألمْ يُرسل يسوع تلاميذه «مثل حُملان وسط الذئاب»؟ يسوع قال: «ليس مَن يتمتّعون بصحّة جيّدة مَن هُم بحاجة إلى طبيب، بل مَنْ يُعانون». «لقد جئتُ لا من أجل الأسوياء، بل من أجل المُذنبين». إلّا أنّك لمْ تكُن ترغبُ في الذهاب وسط المُخطئين ومَنْ كانوا يُعانون!

ستقولُ لي إنّ مُقارنتي غير مُلائمة. إنّ يسوع باركَ إرسالَ تلاميذه «وسط الذئاب»، في حين كنتَ أنتَ شيوعيّاً في البدء قبل أن تُعتبرَ ملعوناً وبعد ذلك فقط تمّ إرسالك مثل عدوّ وسط الأعداء، مثل ذئب وسط الذئاب، مثل مُذنب وسط المُذنبين.

ولكن، أتُنكِرُ حقّاً خطيئتك؟ ألا تشعُرُ بأيّ ذنب تجاهَ طائفتك؟ ما مصدر كبريائك؟ الإنسانُ الوفيّ لإيمانه إنسانٌ مُتواضع، وعليْه أنْ يَقبل العقوبة، حتى الظالمة، بخضوع. المُهانون سوف يُرَقّون. التّائبون سوف يُغفَرُ لهُم. ولأولئك الذين تَمَّ إلحاق الأذى بهم فرصة إثباتِ وفائهم. إنْ كنتَ تشعرُ بالمرارة تجاه أصدقائك لأنّهم أثقلوا كاهلك بحِمْلٍ ثقيل فقط، فذلك لأنّ إيمانك كان ضعيفاً، ولأنّك لم تخرُج مُنتصراً من الامتحان المفروض عليك.

لستُ مُتضامناً معك في خصومتك مع الحزب يا لودفيك، لأنّني أعرفُ أنّ الأشياءَ الكبيرةَ على هذه الأرض لا يُمكنُ أنْ تُخلقَ إلّا بطائفةِ أفرادٍ أوفياء بلاِ حدّ، ينذرون حياتَهُم بخضوع لهدفٍ أسمى. لستَ وفيّاً بلا حدّ يا لودفيك. هَشٌّ إيمانُك. وكيف لا يكونُ كذلك وأنتَ لم تَعُد إطلاقاً إلّا إلى نفسك وإلى عقلك البائس!

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لستُ جحوداً يا لودفيك، أعرفُ ما قمتَ به من أجلي ومن أجل آخَرين كُثر حطّمهم النّظام الحالي. بفضل علاقاتك، التي تعودُ إلى ما قبْل شباط/ فبراير، مع شيوعيّين وازنين، وبفضل وضعيّتك الراهنة أيضاً تبذل قصارى جهدك وتسارعُ إلى تقديم المُساعدة. أنتَ تراني صديقاً لك. غير أنّني أقولُ لك للمرّة الأخيرة: أُنظُر إلى أعماق روحك! فالدّافعُ العميقُ لطيبتك ليس الحُبّ، بل الكراهيّة! الكراهيّة تجاه مَنْ أساؤوا إليك في الماضي برَفْعِ أيديهم في القاعة الكبيرة! بجهلك للإله، تجهلُ روحُكَ الصَّفح. أنتَ ترغبُ في الانتِقام. أنتَ تُساوي مَن أساؤوا إليك في الماضي بمَن يُسيئون اليوم للآخَرين وتنتقم. أجل، تنتقم. أنتَ مليءٌ بالكراهيّة حتّى وإنْ ساعدْتَ النّاس. أشعرُ بذلك! أشعرُ به في كلّ كلمةٍ تتلفّظُ بها. ولكن، ماذا تُنتجُ الكراهيّة بالمُقابل سوى الكراهيّة وسلسلة انتقامات؟ إنّك تعيشُ في جحيم يا لودفيك، أكرّرُ لك إنك تعيشُ في جحيم، وأنا أشفقُ لحالك.

19

لوْ كان لودفيك يسمعُ مناجاتي لأمْكنَهُ أن يقول في نفسه إنّي جحود. أعرفُ أنّه ساعدني كثيراً. فقد تألّم لمصيري لمّا التقيْنا في القطار عام 1956، وسارع إلى البحث عن المهنة التي تُناسبني، وفيها يُمكنني أن أظهِرَ قدراتي. فاجأتْني حيويّتُهُ وفعاليّتُه. تحدَّث إلى أحد أصدقائه في مدينته بشأني. كان يُريدُني أن أدَرِّسَ العلوم الطبيعيّة بالتعليم الثانويّ. وهو أمْرٌ كان بالغَ الجُرأة. ففي وقتٍ بلغت فيه الدّعاية ضدَّ الدّين أوْجَها، كان شبه مُستحيل قبول شخصٍ مُؤمنٍ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مُدَرِّساً بالثانويّ. كان هذا، فضلاً عن ذلك، رأيَ صديقه الذي عثرَ لي على شي آخَر: العمل بمصلحة الجراثيم في المستشفى، حيث أنا الآن أزرعُ منذ ثماني سنوات الجراثيم والبكتيريا في فئران وأرانب.

هكذا تمّت الأمور. بدون لودفيك ما كان لي أن أسكن هُنا ولا لوسي أيضاً.

كانت قد تزوّجَت بعد سنواتٍ قليلة من مُغادرتي للضيعة. لم تستطع البقاء هناك، لأنّ زوجَها كان يبحثُ عن عملٍ في المدينة. وبما أنّهما كانا يتساءلان أين سوف يُقيمان، فإنّها انتهت إلى إقناعه بالانتقال إلى المدينة التي فيها كنتُ أقيم.

لمْ أتلقّ في حياتي أجملَ من هذه الهديّة ولا أغلى من هذه المُكافأة. حَمَلي، يمامَتي، الطّفلة التي عالجْتُها وأطْعَمْتُها من روحي، عادتْ إليّ. لا تُطالبُني بأيّ شيء. هي بصُحبة زوجها، لكنّها تودُّ أنْ تكونَ قريبة منّي. هي بحاجةٍ إليّ. بحاجة إلى الإصغاء إليّ في فتراتٍ مُتباعدة. أنْ تراني في قدّاس الأحد. أن تُصادفني في الشارع. كنتُ سعيداً وقد شعرتُ في تلك اللحظة أنّني لمْ أعُد شابّاً، أنّني أصبحتُ مُتقدِّماً في السّنّ أكثر مِمّا كنتُ أتخيَّلُه، وأنّ من المُمكن أن تكونَ لوسي الإنجازَ الوحيدَ في حياتي.

أهو شيءٌ قليلٌ يا لودفيك؟ لا، إنّه كافٍ وأنا سعيدٌ به، سعيدٌ، سعيد...

20

آه لقدرتي على خداع نفسي! لِتصلُّب يقيني مثل مهووسٍ أنّ طريقي هو الصحيح! لزهوي بقوّة إيماني أمام شخص غير مؤمن!

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أجل، لقد نجحتُ في إقناعِ لوسي بالإيمان بالإله. نجحتُ في إحلال السّكينة بروحها وفي مُعالجَتها. حرّرْتُها من رُعب الأمور الجسديّة. وفي الأخير ابتعدْتُ عن طريقها. أجل، ولكن بمَ أفَدْتُها؟

زواجُها لَمْ ينجح. زوجُها رجلٌ فظّ، يخونها أمام الجميع ويُشاعُ أنّه يُعنّفها. لَمْ تبُح لي أبداً بذلك. كانت تعرفُ الحُزنَ الذي سوف يُسبّبُه لي. كانت تجهدُ لتُظهر صورةً سعيدةً عن حياتها، لكن، لا شيء يبقى سرّاً في مدينةٍ صغيرة.

آه لِقدرتي على خداع نفسي! لقد تأوّلتُ الدّسائسَ السيّاسيّة ضدَّ مدير الضيعة بوصفها إشارةً إلهيّة تدعوني إلى الرّحيل. ولكن ما السبيلُ إلى معرفةِ صوت الإله بين أصواتٍ عديدة؟ وماذا إذاً لوْ كان الصوتُ الذي اجتذبَني ليس إلّا صوتَ نذالتي؟

ذلك أنّ لي زوجة وابناً ببراغ. لم أكن أهتمّ لأمرهما كثيراً ولكنّني لم أقوَ على فكّ الارتباط بهما. كنتُ أخافُ وضعاً مُتعذراً على الحلّ. كان حبُّ لوسي يُرعبُني. لم أكن أعرف ما العمل حياله. كنتُ أخافُ من المُضاعَفات التي يُمكنُ أن يقود إليْها.

كنتُ أتظاهرُ بأنّي الملاك الذي سوف يحملُ لها الخلاص، في حين لم أكن في الحقيقة سوى مُحتالٍ آخَر. بعد أن أحببْتُها مرّةً واحدةً ووحيدة تخلّيْتُ عنها. كنتُ أتظاهَرُ بجَلب الغفران لها في حين هي وحدها مَنْ عليْها أنْ تغفرَ لي. لقد بكتْ من الأسى يوم رحيلي، ومع ذلك ها هي بعد بضع سنواتٍ تُقيمُ هُنا من أجلي. كانت تتحدّثُ معي. تتوَجَّهُ إليّ مثل صديق. لقد سامَحَتني. وفضلاً عن ذلك، كلُّ شيءٍ واضحٌ. لم يحدث لي ذلك كثيراً في حياتي، لكنّ هذه الفتاةَ كانت تُحبّني. كنتُ أمسكُ حياتَها بين يدي. سعادتُها تتوقّفُ عليّ. ومع ذلك هربتُ. لا أحد كان مُذنباً تجاهها مثلي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فجأةً خطرَت بذهني فكرةُ أنّني أعتمدُ نداءاتٍ إلهيّة مزعومة مثل ذرائع بسيطة للتملّص من التزاماتي الإنسانيّة. النّساءُ يُخِفْنَني. أخشى دِفأهُنّ. أخافُ حُضورهنّ الدّائم. أخافني تصوّر العيش مع لوسي مثلما تُخيفني فكرةُ أن أقتسمَ بصورةٍ دائمة مع المُعلّمة في المدينة المُجاورة شقّتَها الصّغيرة.

لماذا اخترتُ، في الواقع، قبل خمس عشرة سنة مُغادرةَ الجامعة؟ لأنّني لمْ أكن أحبّ زوجتي التي تكبرني بستّ سنوات. لمْ أعُد أقوى على تحمُّل صوتها وملامحها وعلى تحمّل دقّات رقّاص الساعة المنزليّة المُطّرد. لمْ أعُد إطلاقاً أطيقُ العيشَ معها مدّةً أطول، ولمْ يعُد مُمكناً طعنها بالطّلاق، لأنّها كانت طيّبة ولم يسبق لها أن أساءت مُعاملتي. حينذاك سمعتُ فجأةً صوتَ النّداء العالي المُخلّص. سمعتُ يسوع يَعِظني بتمزيق شباكي.

يا ربّ، أحقّاً هو الأمرُ كذلك؟ أأنا بهذا الحدّ البائس من التّفاهة؟ قل إنّ الأمرَ ليس كذلك! امنحني الاطمئنان! دَع صوتك مسموعاً بصورةٍ أقوى! في فوضى الأصوات المُختلطة هذه، لا أسمعك إطلاقاً!

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

القسم السابع

لودفيك - هيلينا - جاروسلاف

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

1

عندما عدتُ في وقتٍ متأخّر ليلاً من شقة كوستكا إلى الفندق، كنتُ قرّرتُ العودة غداً باكراً إلى براغ، بعد أن لمْ يبقَ لي إطلاقاً ما أفعلهُ هنا: فقد انتهت المهمّة الخادعة في مدينتي. لسوء الحظّ، كان الخليطُ الذي يدورُ في رأسي من القوّة بحيث سبّب لي اضطراباً وقتاً طويلاً من الليل فوق سريري (الذي كان يُصدرُ صريراً) من غير أن أتمكّن من إغلاق جفنَي، وعندما اعتقدتُ أخيراً بأنّني استسلمتُ إلى النّوم، انتابتني ارتعاشاتٌ، مرّات عديدة، ولمْ أعرف النّوم الحقيقيّ إلّا عند الفجر. لذلك استيقظتُ مُتأخّراً جدّاً حواليْ التّاسعة، كانت حافلاتُ الصّباح والقطاراتُ قد غادرت، وهو ما يُوجبُ انتظارَ ساعتيْن بعد الظّهر من أجل الذهاب إلى براغ. كان هذا الأمرُ على وشك أنْ يُولّد لديّ يأساً: كنتُ أرى نفسي مثل غريق وأشعرُ بحنين مُباغت وحادّ إلى براغ، إلى عملي، إلى طاولة العمل في بيتي، إلى كُتُبي. ولكن ما من مفرّ، كان عليّ أن أكظم غيظي وأنزل إلى قاعة الأكل.

دلفتُ إليها بحذر مخافة وُجود هيلينا المُحتمَل في هذا المكان. إلّا أنّها لم تكن هناك (لا شكّ أنّها كانت تركض في القرية المُجاورة حاملة آلة التّسجيل، تُضايقُ المارّة بميكروفونها وأسئلتها)، كانت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

القاعة في المُقابل تضجّ بصخب جماعةٍ من الزبائن جالسين إلى طاولاتهم يُدخّنون أمام أكواب الجُعّة والقهوة السوداء والكونياك. سوف لن تنعم عليّ مدينتي للأسف حتى هذا الصّباح أيضاً بفطور مُناسب!

كنتُ قد خرجتُ إلى الرّصيف، سماءٌ زرقاء، سحبٌ صغيرة مُبدَّدة، علاماتُ ثِقل الجوّ الأولى، غبارٌ خفيفٌ مُعلّق، شارعٌ يقود إلى الساحة الفسيحة ببُرجها (أجل، ذاك الذي يُشبهُ فارساً مُرتزقاً يعتمرُ خوذته)، لَفَّني كلُّ هذا الديكور في نَفَس كآبتِهِ القاحلة. من بعيد، كان يصلُ صياحٌ مخمورٌ بأغنيّة مورافيّة رَتيبة. (فيها بدا لي مسحوراً الحنينُ والسّهلُ والمواكب الطويلة لفرسان مُرتزقة مُجنَّدين بالقوّة) وانبثقتْ لوسي في ذهني، هذه القصّة المنتهية منذ زمن طويل، التي كانت الآن تُشبهُ هذه الأغنية الرّتيبة، وتُؤنّبُ قلبي الذي كانت تعبرُهُ (كما لو أنّها تعبرُ السَّهل) نساء عديداتٌ، من غير أن يترُكن وراءهُنّ شيئاً مثلما لا يترك الغبارُ المُعلَّقُ أيّ أثر على هذه الساحة المُنبسطة. يرسُبُ بين حجَر التبليط ثمّ يطيرُ بعيداً بهبّةِ ريح.

كنتُ أتمشّى فوق هذا الحجَر المُغبرّ وأشعرُ بالخفّة الثقيلة للفراغ الذي كان يجثمُ على حياتي: كانت لوسي، ربّةُ الضباب، قد تمنّعت عليّ في الماضي، وأمس حوّلت انتقامي المُهيَّأ بدقّة إلى لا شيء، وسرعان ما جعلتْ منه ذكرى عنها هي ذاتها، ذكرى ما لا أدريه من سُخرية مُؤلمة، ما لا أدريه من خديعة مُضحكة، ما دامت تصريحاتُ كوستكا تشهدُ على أنّني تذكّرتُ، طوال كلِّ هذه السنين، امرأةً أخرى، باعتبار أنّني لمْ أعرف أبداً في الواقع مَن كانت لوسي.

كنتُ دوماً أحبُّ أن أردِّدَ في نفسي أنّ لوسي كانت بالنّسبة إليّ نوعاً من التّجريد، أسطورة، خرافة، لكنّني اليوم أستشِفّ خلف

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

شعريّة هذه الكلمات حقيقةً لا شِعْر فيها: أنا لم أكن أعرف لوسي، لمْ أعرف مَنْ كانت حقّاً، مَنْ كانت في ذاتها ولأجل ذاتها. لم أكن أدركُ (في تمركزي الذاتي فترةَ شبابي) غير جوانب شخصها المُلتفتةِ مُباشَرَةً نحوي (نحو عزلتي، نحو عبوديّتي، نحو حاجتي إلى العطف والحنان)، لم تكن بالنسبة إليّ سوى وظيفةٍ في الوَضْع الذي كنتُ أعيشُهُ، أمّا كلّ ما كان فيها يتجاوزُ الوَضْعَ الملموسَ لحياتي وكلّ ما كانتْهُ في ذاتها، فكان مُنفلتاً منّي، ولكن بافتراض أنّها لمْ تكن بالنسبة إليّ سوى وظيفةٍ في وَضْعٍ، فمن المنطقي أنّ هذا الوَضْع ما إنْ تغيّر (ما إنْ تلاهُ وضعٌ آخَر، ما إن تقدّمتُ في السّن وتغيّرتُ) حتّى اختفتْ لوسي، التي صنعَها خيالي، هي أيضاً، ما دامت لم تكن إلّا ما انفلتَ منّي، ما لم يكن يعنيني، ما كان يتجاوزني. لذلك كان منطقيّاً تماماً ألّا أتعرّفَها إطلاقاً بعد خمس عشرة سنة. مُنذ زمن طويل، كانت بالنّسبة إليّ (ولمْ أنظر إليْها إطلاقاً بصورةٍ أخرى إلّا «بالنسبة إليّ») شخصاً آخَر، شخصاً مجهولاً.

كانت بَرقية هزيمتي قد بحَثَتْ عنّي طوال خمس عشرة سنة ثمّ وصَلتْني. كان كوستكا (الذي لمْ يسبق أن أنصتُّ له بانتباه) يعني لها أكثر منّي، وقد عملَ من أجلها، وعرفها أكثر منّي وعرف كيف يُحبّها أحسن منّي (ولكن ليس أقوى منّي بلا شكّ، لأنّ قوّة حبّي كانت قد بلغت ذروتها): أسرّت إليه بكلّ شيء، أمّا أنا فلمْ تبُح لي بأيّ شيء، هو جَعَلها سعيدةً فيما أنا جعلتُها تعِسة، وقد نال جسدَها، في حين لمْ أنله أبداً. ومع ذلك، كان يكفي حينذاك لنيْل هذا الجسد المُشتَهَى سُدىً أمْرٌ بسيطٌ للغاية: فهْمُها، التوَجُّه نحوها، حُبّها لا فقط من أجل هذا الجُزء من شخصيّتها الذي كان مُوجَّهاً نحوي، بل أيضاً من أجل كلّ ما لمْ يكن مُباشرةً يعنيني، من أجل ما كانتْهُ في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ذاتها ولأجل ذاتها. أنا لمْ أكن أعرف ذلك، فأسأتُ إليْنا نحنُ الاثنيْن. مَوْجة غضبٍ من نفسي غمَرَتْني، غضب من سنّي حينذاك، من السّنّ الحالم الأرعن، الذي فيه يكونُ الفردُ وفق منظوره لغزاً كبيراً، بحيث لا يتسنّى له الاهتمام بالألغاز التي هي خارج ذاته، وفيه لا يكونُ الآخَرون (بما فيهم أعزّهم) سوى مرايا مُتحرّكة، فيها يعثرُ مُنذهلاً على صورةِ إحساسهِ الشخصيّ وعلى اضطرابه وقِيمته الشخصيّيْن. أجل، طوال الخمس عشرة سنة هذه، فكّرتُ في لوسي فقط كما لوْ كانت مِرآةً تحفظُ صورتي في الماضي.

فجأةً تراءتْ لي من جديد الغرفة العارية، بسرير واحد، مُضاءةً بمصباح الطّريق عبر النافذة المُتّسخة، وتراءت لي من جديد مُقاوَمة لوسي الشّرسة. كلّ ذلك كان يُذكّرني بمَزحةٍ رديئة: لقد كنتُ أظنّ أنّها عذراء فيما هي كانت تُقاومني لأنّها تحديداً لمْ تكن كذلك، كانت تخشى أن أكتشفَ الحقيقة، هذا إذا لم تكن مُقاومتُها تحتملُ تفسيراً آخَر (مُتجاوباً مع الطريقة التي كان كوستكا يَرَى بها لوسي): فقدْ بَصَمَتْها تجاربُها الجنسيّة الأولى بعُمق وجرّدتْ في عينيْها فِعلَ المُضاجَعة من دلالته التي يمنحُها إيّاه أغلبُ النّاس، أفرغَت فِعْلَ المُضاجَعة من كلِّ حنان، من كلِّ إحساس بالحُبّ. كان الجسدُ، بالنسبة إلى لوسي، شنيعاً والحُبُّ روحيّاً، وحلّت حربٌ صامتة وعنيدةٌ بين الرّوح والجسد.

ذكّرني هذا التفسير (كمْ هو ميلودراميّ، لكنّه مُستساغ تماماً) بالنّزاع المُؤلم (كنتُ قد عشتُ العديدَ من تنويعاته) بين الرّوح والجسد، وذكّرني (لأنّ المُحزنَ هنا كان يتداخلُ باستمرار مع المُضحك) بمُغامرةٍ أثارت ضحكي كثيراً في الماضي: كانَ رجُلٌ فيزيائيّ قد خَطبَ صديقة لي، كانت امرأةً مُتفتّحة (كنتُ ضاجعتُها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مراراً) وقرّرتْ أخيراً هذه المرّة أن تعيشَ الحُبّ، ولكن لكيْ تشعُرَ به كحُبٍّ حقيقيّ (مُخالف للعلاقات العديدة التي عاشتْها)، كانت قد منعَتْ خطيبَها من مُضاجعَتها حتى ليلة الزواج، كانت تتنزّهُ معه وقتَ الغروب، تضغطُ على يده، تُبادلهُ القُبَل تحت الفوانيس، وتسمحُ لروحها (المُتحرّرة من ثقل الجسد) أنْ تُحلِّقَ عاليّاً في الغيوم وتستسلم للدّوار. وبعد شهر من الزواج، طلّقتْه وشكتْ بمرارة أنّ زوجها خيّبَ إحساسَها الكبير، وبَدا عاشقاً رديئاً وعاجزاً تقريباً.

كان صوتُ الأغنية المورافية المخمور البعيد المُتواصِل يتداخلُ مع بقايا المذاق المُرّ لهذه الحكاية، مع فراغ المدينة المُغبرّ، ومع حزني الذي كان يُضاعفهُ أيضاً جوعي. بعد ذلك، وجدتُ نفسي على بُعد خطوتيْن من مقهى، أدرتُ قبضة الباب، لكنّه كان مُغلقاً. صاح أحدُ المارةّ في اتجاهي: «هاه، اليوم كلّ المحلاّت مُغلقة! - أبسبب موكب الفرسان الملوك؟ - أجل، إنّ موقفهم هناك».

تأفّفت، ولكن كان عليّ أن أستسلمَ للأمر، فتوجّهتُ صوب المكان الذي منه تصلُ الأغنية، نحو هذا الاحتفال الشعبيّ الذي كنتُ أفرُّ منه كما لوْ أنّهُ الطّاعون، كان تشنّج معدتي يجرّني.

2

تعبٌ. تعبٌ منذ الفجر، كما لو أنّني قضيتُ الليلة بكاملها في السُّكْر، مع أنّني نِمتُ الليْلَ كلَّه، لكن نومي لمْ يُمكّنّي من التخلّص من التعب. كنتُ وأنا أتناول وجبة فطوري أغالبُ التثاؤب. أخذ النّاسُ عندذاك يَصِلون. في البَدء أصدقاء لفلاديمير، ثم كلّ أصناف الشبّان. اقتاد شابٌّ من التعاونية إلى باحَتِنا حصاناً لفلاديمير. وظهر

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كالازيك، المسؤول الثقافي باللجنة الوطنيّة للمُقاطعة، وسط هذا الجمع. مُنذ سنتيْن وأنا في حزْب معه. كان يرتدي الأسود، بهيأة رسميّة، رفقة امرأةٍ أنيقة. هي براغية تعملُ صحافية بالإذاعة السمعيّة. الظاهر أنّ عليّ مُصاحَبتَهما. فالمرأةُ تريدُ تسجيلَ حواراتٍ لفائدةِ برنامجٍ عن موكب الفرسان.

لِتَذهَبا إلى الجحيم! أنا لا أريدُ أن أؤدّي دور المُهرِّج. كانت الصّحافيّة مُتحمِّسة لكونها تعرّفتْ إليّ وهو بالطّبع ما أظهرهُ كالازيك أيضاً. كان يبدو أنّ من واجبي السيّاسي أن أصحبهما. أن أكون مُهرّجاً. كنتُ سأقفُ في وَجههما، سأقولُ لهما إنّ ابني مَنْ سيُنصَّبُ ملِكاً، وأنّني أريدُ أن أكون هنا خلال استعداده. غير أنّ فلاستا خدعتْني. اعتبرَت إعداد الابن مهمّتَها. ولم يكن أمامي إلّا الذهاب لأتحدّث للإذاعة.

استسْلمتُ في الأخير. كانت الصّحافيّة قد استقرّت بإقامةٍ تابعةٍ للّجنة الوطنيّة. فيها وضعَت آلة التسجيل حيث كان شابٌّ يهتمّ بها. كم كانت تقوى على تشغيل لسانها حدَّ الابتذال، لمْ تكُف عن الضّحك وهي تتحدّث. بعد ذلك، وضعَت الميكروفون تحت أنفها وطرحت السّؤالَ الأوّل على كالازيك.

سعلَ سعلة خفيفة وشرعَ في الكلام. مُمارَسة الفنون الشعبيّة جزءٌ مُدمَجٌ في التربية الشّيوعيّة. واللجنة الوطنيّة للمقاطعة كانت واعية تماماً بذلك. لذلك كانت تخصّها بالدّعم الكامل. وتمنّى لهم نجاحاً تامّاً مُعرباً عن انخراطه التامّ معهم، وشكرَ كلَّ المُساهمين المُتحمّسين، وشباب المدارس المُتحمّس تماماً الذي. . .

تعبٌ. تعبٌ. العباراتُ السّرمديّة ذاتُها. منذ خمس عشرة سنة ونحن نسمعُ العبارات السرمديّة ذاتها، وها نحنُ نسمعها من فم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كالازيك الذي لمْ يكن يعنيه الفنّ الشعبيّ إطلاقاً. الفنّ الشعبيّ بالنسبة إليه وسيلة تُمكِّنُهُ من التّباهي بإنجاز جديد، من تحقيق هدف، ومن الإلحاح على مزاياه. لم يُسْهم بأدنى شيء في تنظيم موكب الفرسان الملوك، مُقتِّراً حتّى آخر فلسٍ. ومع ذلك، فإنّ موكبَ الفرسان سوف يُنسَبُ إليه. فهو مَن يتحكَّمُ في قطاع الثقافة على صعيدِ المُقاطعة، هو مَنْ كان في السّابق صبيّاً يحرسُ مخزناً لا يُميِّزُ فيه بين كمانٍ وقيثارة.

كانت الصّحافيّة قد أعادت الميكروفون أمام شفتيْها وسألتني إذا ما كنتُ راضياً هذه السنة عن موْكب الفرسان. كدتُ أضحكُ ساخراً منها، ذلك أنّ موكبَ الفرسان الملوك لمْ ينطلق بعد! لكنّها هي مَن ضحكت: إنّ على فولكوريٍّ مُحنَّكٍ مثلي أن يعرف ما الذي سيحدث. هُم، في الحقيقة، هكذا، يعرفون كلَّ شيء سلفاً. مجرى الأحداث المُستقبليّة معلوم لديهم مِن قبْل. المُستقبَلُ سبقَ أن حدثَ ولن يقوم بالنّسبة إليهم إلّا بتكرار نفسه.

كانت لديّ رغبة في أن أفضيَ إليها بكلِّ ما كان يُثقلُ على قلبي. أن أقول إنّ موكب الفرسان لمْ تعُدْ له القيمة التي كانت له في السّنوات السّابقة، إنّ الفنّ الشعبيّ كان يفقدُ أنصارَهُ أكثر فأكثر، والسّلطاتُ تخلّت عنه، إنّ هذا الفنّ قد مات تقريباً، ولا ينبغي أن ننخدعَ بسماع ما يُشبهُ الموسيقى الشعبيّة على الراديو باستمرار. فكلُّ هذه الفرق بآلات موسيقيّة، ومجموعات الغناء والرقص الشّعبيّيْن، هي بالأحرى تمثيليّة مُغنّاة أو عملٌ هزليّ، موسيقى لتزجية الوقت، ولكنّها ليست فنّاً شعبيّاً. إنّها جوقة بآلاتٍ شعبيّة وقائد وتقاسيم وقمطرات! إنّها تقريباً جوقة سمفونيّة! يا له من فساد! ما تقدّمه الفرق والمجموعات، سيّدتي الصحافيّة، هو فقط الفكر الموسيقي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الرومانسي القديم بآثار من اللحن الشعبيّ! أمّا الفنّ الشعبيّ فقد مات، سيّدتي العزيزة، لقد مات.

كنتُ أريدُ أنْ أفرغ ذلك دفعة واحدةً في الميكروفون، لكنّني قلتُ شيئاً آخَر. قلتُ إنّ موكب الفرسان كان غاية في الجمال، والفنّ الشعبيّ في كامل حيويّته. إنّه احتفالٌ مُتعدّدُ الألوان. وإنّني كنتُ منخرطاً فيه تماماً. وشكرتُ كلَّ المساهمين، ونوّهتُ بحماس المُنشّطين وشباب المدارس المُتحمّس تماماً الذي...

كنتُ أشعرُ بالخزي، لأنّني تحدّثتُ كما كانوا يُريدون لي أن أتحدّث. أأنا بهذا الجُبن؟ أو بهذا الأدب؟ أو بهذا التّعب؟

كنتُ فرحاً بإنهاءِ خطابي وتمكُّني من الانسحاب. مُتلهّفاً على بلوغ بيْتي. في باحته، كان جيشٌ من الشبّان والمُساعدين من كلّ صنف مُنهمكاً حول الجواد بسيْلٍ من الشرائط في اليد. كنت أريدُ حضورَ إلباس فلاديمير. دلفتُ إلى داخل المنزل، لكن غرفة الجلوس، حيث يتمّ إلباسُ فلاديمير كانت مُغلقة بالمفتاح. طرقتُ بشدّة وناديت. فأجابتني فلاستا من الداخل: ليس لك ما تعملُهُ هُنا، الملك يرتدي ملابسه. بحقّ الإله، لِمَ لا يُمكنُني أن أكون بالدّاخل؟ قلتُ. إنّ ذلك ضدَّ التقاليد، أجابَ صوتُ فلاستا. لمْ أكن أرى ما يتعارضُ فيه حضورُ الأب لإلباس الابن مع التقاليد، لكنّني لمْ أسْعَ إلى ثنْيها عن ذلك. كنتُ مُبتهجاً لانجذابهما إلى عالَمي. عالَمي الفقير اليتيم.

وهكذا عُدتُ إلى الباحة للحديث مع أولئك الذين كانوا يُزيّنون الجواد. كان مطيّة ضخمة بملامح تكشِفُ أنّها مُعارة من التّعاونيّة. صبورة وهادئة تماماً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ثمّ سمعتُ عبر بوّابة العربات جلبة في الشارع. بعد ذلك بقليل، تمَّ النّداء والقرع على الطّبْل. لقد حان وقتي. كنتُ مُتأثراً. فتحتُ البابَ وخرجت. كان موكبُ الفرسان الملوك مُصطفّاً هُنا أمام بيتنا. جيادٌ مُزركشة، مُزيَّنة بالأشرطة. يَمتطيها شبّانٌ يرتدون بدلاتٍ تقليديّة. مثلما كان الحال عليه قبْل عشرين سنة، عندما جاؤوا يرْجون والدي أن يُسلِّمهم ابنَهُ لِيُنصَّبَ ملكاً.

على رأس الموكب، أمام بابنا تماماً، كان الوصيفان على جواديْهما، بقناع امرأتيْن، والسيف في يد كلّ منهما. كانا ينتظران فلاديمير لاصطحابه ورعايته حتّى المساء. غادر أحد الفرسان الصّفّ وأوقفَ جوادَهُ ثمّ أنشد:

«أيّها الحضور، أيّها الحضور، أنصِتوا جميعاً!
أيّها الأب اللّطيف، لتسمح لنا بأخذ ابنك
ملكاً في موكب كبير!»

وَتعهّدَ بأنّهُم سوف يعتنون بملكهم جيّداً. سوف يجعلونه يجتازُ القوى الشّرّيرة بلا ضرر. لن يتركوهُ يقع بين أيدي الأعداء. إنّهم مُستعدّون للتصدّي.

التفتُّ: كان بظلال بوّابة العربات طيفٌ على جواده بزينةٍ نسائيّة تقليديّة ينفصلُ عن الكوكبة، بكمّيْن مُنتفخيْن، وأشرطةٍ مُلوّنة تتدلّى على وجهه. إنّه الملك فلاديمير. نسيتُ فجأةً تعَبي وضيْقي وشعرتُ بالارتياح. الملك العجوز يبعثُ إلى العالَم ملكاً شابّاً. توجّهتُ نحوه، قريباً جدّاً من الجواد، ووقفتُ على أطراف أصابع قدمي، شفتاي صوب وجهه المُقنَّع وهمستُ له: «سفراً سعيداً، يا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فلاديمير». لمْ يُجبْني ولمْ يتحرّك. وقالت لي فلاستا مُبتسمة: ليس له الحقّ في إجابتك. عليه أن يظلّ، خلال اليوم بكامله، صامتاً.

3

يكفيني أقلّ من ربع ساعة لبلوغ قريتي (في فترة مُراهقتي، كانت تفصلها حقولٌ عن مدينتي، أمّا اليوم فتُشكِّلُ معها كُلاًّ واحداً)، كانت الأغنيّة، التي كنتُ أسمعها قبل لحظة في المدينة تُدوّي الآن بقوّة في مُكبّرات الصوت المُثبتة على الواجهات وعلى أعمدة الكهرباء (كم أنا مُغفّلٌ دوماً: لقد تركتُ نفسي للحظة تغتمّ من الحنين والثمل المُزيّف لذلك الصوت البعيد، في حين لمْ يكن إلّا صوتاً منسوخاً صادراً من جهاز تقنيّ وزوج أسطوانات مُخدّدة!)، بمدخل القرية تمَّ نصْبُ قوس نَصرٍ مُقفَلٍ بلافتة كُتبَ عليها بحُروفٍ مُزخرفة: مرحباً بالجميع. وهنا كانت الحشود تكبر بأشخاص أغلبهم بلباس المدينة رفقة ثلاثة رجال مُسنّين أو أربعة كانوا مع ذلك قد ارتدوا لباس منطقتهم التقليدي: أحذية الجنود الخيّالة، سراويل قصيرة من الكتّان الأبيض، وقمصان مُطرَّزة بالصّور. بعد ذلك، كانت الطريق تتّسعُ إلى ساحة قرويّة طويلة: بين الطريق المُعبّد وصفّ البيوت الخفيضة، كان يمتدُّ فضاءٌ مُعشبٌ ببضعة أشجار فتيّة وبضع أجنحة (أعِدّت من أجل الحفل المقام اليوم) حيث كانت تُباعُ الجُعّة ومشروب الليمون والفستق والشوكولاتة وخبز الأبازير والنقانق بالخردل وأقراص العسل. وللمقهى المركزي هو أيضاً كشكه، حيث كان يُباع الحليب والجبن والزّبد واللبن الرائب والقشدة الحامضة، ومع أنّ أيّ جناح لمْ يكن يعرضُ الكحول، فقد كان الجميعُ تقريباً ثمِلاً، كانوا يتدافعون

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ويتزاحمون أمام البضائع ويتسكّعون، ومن وقت إلى آخَر كانت ذراعٌ تُرفعُ بحركة ثمِلة ويشرعُ أحدٌ في الغناء، غير أنّ ذلك لمْ يكن في كلّ مرّةٍ إلّا انطلاقة خاطئة، مقطعان أو ثلاثة من أغنية سرعان ما كانت تتبدّدُ في الضوضاء المحيط الطاغي عليه هو أيضاً مُكبّرُ الصوت. كانت كؤوس جعة من الورق المُقوّى وأوراقٌ مُلطّخة بالخردل مُبعثَرَةً (وإن كان الحفل بالكاد قد انطلق) في كلّ مكان بأرضيّة الساحة.

لم يكن جناح مُنتجات الحليب الذي لا كحول فيه يُثيرُ حماس المُشترين، وبما أنّني حصلتُ من غير انتظار تقريباً على كوب من الحليب وهلاليّة، فقد ابتعدتُ بضع خطوات عن تدافع المرافق لأتذوّقَ حليبي بجرعات صغيرة. في هذه اللحظة ارتفعت جلبة من الجهة الأخرى من الساحة: كان موكبُ الفرسان الملوك قد انطلق.

غصّت الساحة بلبدات سوداء صغيرة بقلنسوات دائريّة وريشة ديك، وقمصان بيضاء بأكمام واسعة مطوية، وسترات فضفاضة بخصلات خيوط من الصّوف الأحمر، وأشرطة ورقيّة مُلتفّة مُتدلّية من سروج الجياد، وكانت تتخلّلُ ضوضاءَ الأصوات البشريّة وأغنيةَ مُكبّر الصوت أصواتٌ أخرى: صهيلُ جياد وهتافات فرسان:

«أيّها الحضور، أيّها الحضور! أنصتوا جميعاً
يا أهل الوادي والسّاحل
لِما سوف يقعُ في أحَدِ العنصرة هذا
لنا مليكٌ مُعوزٌ
إلّا أنهُ فاضلٌ
لقد سُرقَ منه ألفُ كلب
من قصْره حيث لمْ يكن يملكُ شيئاً....»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تولَّدَت للسمع والرؤية صورةٌ مُشوّشة، كلٌّ عُنصُر فيها كان يُعارضُ الآخَر: فولكلور مُكبّرات الصوت مُقابل فولكلور الخيول، ألوان البدلات والخيول مُقابل التفصيلات الرديئة لِلِباس المُتفرّجين الدّاكن والرّماديّ، تلقائيّة الفرسان المُثابِرة مُقابل الانهماك الشاقّ لمَنْ كانوا يضعون أقمشة حمراء على سواعدهم راكضين بين الخيول والجمهور بغية الحفاظ على الفوضى في حدودها المعقولة، وهي مهمّة ليست يسيرة، لا بسبب شغَب المُتسكّعين فقط (الذين لم يكن عددهم، لحُسن الحظ، كبيراً)، ولكن أساساً لأنّه لمْ يتِم مَنْع وسائل السير في الطريق، كان مَن يضعون قماشاً أحمر على سواعدهم واقفين في مقدّمة الموكب ومؤخّرته، يُصدرون إشاراتٍ للسائقين للتخفيف من سرعة سياراتهم، وهكذا اختلطت الخيول بحافلات سياحيّة وشاحنات ودرّاجات ناريّة بأصواتها الصاخبة التي كانت تُزعجُ الخيول وتشوّشُ على الفرسان.

والحقّ أنّني كنتُ أخشى في إصراري على مُقاطعة هذا الحفل الفولكلوري (مثل غيره من الحفلات) شيئاً آخَر غير الذي رأيت: كنتُ أتوقّعُ ذوقاً رديئاً، خلطاً بيْن الفنّ الشّعبي الأصيل وبين ما هو مُبتذل وتافه، خُطبَ افتتاح سخيفة. أجل، كنتُ أتوقّعُ الأسوأ، البذخَ والبهرجة، لكنّني لمْ أتوقّع ما كان منذ البدء يطبعُ هذا الاحتفال، لمْ أتوقّع هذا الفقرَ المُحزن والمُثير للسّخط، لقد كان كما لوْ أنّه لصيقٌ بكلِّ شيء: بهذه النّفاية النحيفة من الأجنحة المُتنقّلة، بهذا الجمهور القليل، لكنّه مُفتقرٌ تماماً للنّظام وغير مُبال، بهذا الصّدام بين وسائل السّير والحفل الذي أخطأ زمنه، بهذه الخيول التي كانت ترفسُ عبثاً، بمُكبّر الصوت المُرعد الذي لم يتوقّف بجموده الميكانيكي عن الزّعيق بأغنيتيْه، حاجباً (مع ضجيج

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الدراجات الناريّة) جهودَ الفرسان الشبّان، الذين كانوا يصرخون بأبياتهم الشعريّة وأوداجُهم مُنتفخة.

أنْهيْتُ حليبي وألقيتُ الكوبَ، وبما أنّ الموكبَ أنجزَ استعراضه في الساحة بما فيه الكفاية، فقد انطلق عبر القرية في جولة لساعات عديدة. كلُّ ذلك كان معروفاً لديّ منذ زمن بعيد: ففي السنة الأخيرة من الحرب، كنتُ أنا نفسي قد أدّيتُ دورَ الوصيف (بلباسِ امرأة فضفاض وسيْفٍ في اليد)، مُحصِّناً جاروسلاف الذي نُصّبَ ملكاً. لم أكن أريدُ الاستسلام لتأثير الذكريات، ومع ذلك (كما لوْ أنّ فقر المشهد كان قد جرّدني من سلاحي) لمْ أرد أيضاً إرغامَ نفسي على إدارةِ ظهْري لهذه اللوحة، كنتُ أتْبعُ ببطء كوكبة الخيول التي كانت الآن تملأ كلَّ الطريق المُعبَّدَة، في الوسط كان ثالوثٌ يتقدّمُ: الملك مُحاطاً بوصيفيْه وهما بلباس نسويّ وسيف في يدِ كلٍّ منهما. وبعيداً منهم قليلاً، كان فرسانُ الموكب الملكيّ يركضون حولهم مُؤدّين دور الوزراء. وما تبقّى من الفرسان كان مُوزَّعاً إلى صفّيْن على طول جانبيْ الطريق، وهنا كانت الأدوارُ مُقسَّمَة بدقّة أيضاً: هناك حامِلُ العَلم (كانت عصا العَلم مغروزةً في ساق الحذاء، على نحو جعلَ حاشية قماش العَلم الأحمر تتموّجُ أعلى كشح الجواد)، وهناك المُبشّرون (الذين كانوا يردّدون بإيقاع أمام كلّ منزل نصّاً عن الملك المُعوز، والفاضل مع ذلك، الذي سُرق ألفُ كلبٍ من قصره حيث لا شيء يوجد فيه)، وهناك في الأخير المُسْتجْدون، الذين ينحصرُ دورهم بالكامل في التّوسُّل: «لأجل الملك، أيّتُها الأمُّ الصّغيرةُ، لأجْل الملك!»، مادّين سلّة من الخيزران.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

4

أشكرك يا لودفيك، ثمانية أيام فقط مرّت على معرفتي بك، ومع ذلك أحبُّك كما لمْ أحب أحداً من قبْل. أحبّك وأؤمنُ بك، من غيْر تفكير أؤمنُ بك، حتّى عندما يخدعُني العقل والإحساس والرّوح، فإنّ الجسدَ لا يخدَع، الجسدُ أصدقُ من الرّوح، وجسدي يعرفُ أنّهُ لمْ يسبق أبداً أنْ عاشَ ما عاشهُ أمس، شبَقاً، وحماساً، وقسوةً، ولذّةً، وعُنفاً. لم يسبق لجسدي أبداً أن حلمَ بشيءٍ مُماثل، أمس التزمَ جسدانا بعَهْدٍ، وليس لعقليْنا الآن إلّا أن يَمْتثِلا، ثمانية أيام فقط مرّت على معرفتي بك وأشكرك يا لودفيك.

أشكرك أيضاً لأنّك جئتَ في الدّقيقة الأخيرة، لأنّك أنقذتَني. جميلاً كان النّهارُ هذا الصّباح، السماء زرقاء، وكلّ شيء بداخلي أزرق، منذ الساعات الأولى سارَ كلّ شيء على ما يُرام، ذهبْنا إلى بيت الوالدين لنُسجّل موكب الفرسان الذي جاء يبحثُ عن مليكه، وهنا صادفتُهُ بغتة، شكّلَ ذلك صفعةً بالنّسبة إليّ، لمْ أكُن أنتظرُ عودتَهُ باكراً من براتيسلافا ولم أكن أنتظرُ منه أيضاً هذا القدر من القسوة، تصوّر يا لودفيك، لقد كانت له وقاحة اصطحابها معه!

وأنا مَنْ كانت تتخيّلُ مثل بلهاء أنّ بيْتَها لمْ يتهدَّم تماماً، وما زالت هناك وسيلة لإنقاذه، أنا البلهاءُ التي كادت تُضحّي بك من أجل هذا البيْت الفاشل، كادت ترفضُ هذا اللقاء هُنا، أنا البلهاءُ التي أوشكت على ترْك نفسِها تنخدع مرّةً أخرى بصوته المعسول عندما أخبرني أنّه سوف يتوقّفُ ليأخذني معه في أثناء عودته من براتيسلافا، وأنّ لديه أشياء كثيرة كان يريد أنْ يحدّثني بشأنها بكلّ صدق، وعوض ذلك ها هو قد عاد مُمسكاً بها، بهذه الصبيّة، هذه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الفأرة ذات الاثنتيْ وعشرين سنة، التي تصغرني بثلاث عشرة سنة. كم هو مُهينٌ أن أكون خاسرةً، لا لشي سوى لأنّني وُلدتُ قبْلها، وهو ما يدعو إلى الصّراخ من العجز، بيْد أنّ الأمر في هذه الحالة لمْ يكن مُمكناً، فكان عليّ أن أبتسم في وجهه وأصافحهُ بأدب، آه يا لودفيك أشكرك لأنّك منحتَني القوّة.

عندما ابتعدَتْ عنّا قليلاً، قال لي إنّ بإمكاننا نحن الثلاثة الحديث بإخلاص، سوف يكون ذلك أكثر صدقاً، الصّدق، آهٍ الصّدق، أنا أعرفُ صدقه، منذ سنتيْن وهو يَحُوم حولي بهذا الطّلاق، هو يعرفُ أنّه لن يجنيَ شيئاً من نقاشنا وَجْهاً لوَجه، ومن ثم فإنّ ما يتوقّعه هو أنّني سوف أرتبكُ أمام هذه الفتاة، وأتراجعُ أمام الدّور المُخزي للزوجة التي لا تُحتَمل، وأنّي سوف أنهار وأجهشُ بالبكاء وأستسلم. أنا أكرهُه لصفعته الدنيئة عندما كنتُ، خلال إنجازي للروبورتاج، في حاجة إلى الهدوء، كان عليه أن يحترم على الأقلّ عملي، أن يحترمه ولو قليلاً جدّاً، غير أنّ الأمرَ دام سنواتٍ على هذا النّحو، صدودٌ، وخيباتٌ، وإهاناتٌ مُستمرّة، لكنّني هذه المرّة ثرتُ، كنتُ أشعرُ بكَ خلفي، أنتَ وحُبّك لي، كنتُ لا أزالُ أشعرُ بك فوقي وبداخلي، وكان هؤلاء الفرسان الوسيمون في صياحم وابتهاجهم كما لوْ أنّهم كانوا يصيحون أنّ هناك لودفيك، هناك الحياة، هناك المُستقبل، فشعرتُ بالفخر الذي كِدتُ أفقدهُ من قبْل، غمرَني هذا الفخر، فنجحتُ في رَسم ضحكة جميلة وقلتُ له ليس من الضروري بلا شك أن أفرضَ عليكما حضوري حتى براغ، وإنّ بحوزتي سيارة الإذاعة، أما بشأن التّسوية التي تشغلك، فمن المُمكن إجراؤها سريعاً جدّاً، ومن السّهل أن أقدِّم لك الرّجُل الذي أرغبُ في العيش معه، لن نجد أي صعوبة للاتفاق جميعاً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لربّما ارتكبتُ حماقة، إذا كان الأمر كذلك فإنّه مؤسف، فقد كان الأمرُ بلا شكّ يستحقّ هذه الدقيقة من كبرياء لذيذ، وتوّاً تضاعفَ لُطفُه خمس مرّات، كان راضياً تماماً، لكنّه كان يخشى أن يكون ما قلتُه مُجرّد كلام، لذلك جعلني أكرّرُ ما أعلنْتُه له، وفي الأخير صرّحتُ له باسمك ونسبك، لودفيك جان، لودفيك جان، وقلتُ له: لا تخَف، أعِدُك بالطّلاق، لقد انتهيتُ من وَضْع العقبات في طريقك، لا تخَف، فأنا لم أعُد إطلاقاً أرغبُ فيك حتّى وإن كنتَ أنتَ ترغبّ فيّ. إذذاك قال إنّنا سوف نظلّ بكلّ تأكيدٍ صديقيْن، ابتسمتُ وأجبتُ أنّني لمْ أكن أشكّ في ذلك.

5

في الماضي، عندما كنتُ لا أزال أعزفُ على الكلارينيت وأنا عضو في الجوقة الموسيقيّة، كنّا نجهدُ فكرنا في مُحاوَلةٍ لفهْم دلالة موكب الفرسان الملوك. فالشائعُ أنّ الملكَ ماتياس فرَّ، إثر هزيمته، من بوهيميا نحو بلده هنغاريا، وكان مُضطرّاً، أمام التشيكيّين الذين لاحقوه، للاختباء هو والفرسان الذين معه في هذا المكان من مورافيا، حيث لمْ يتمكّنوا من العيش إلّا باستجداء طعامهم. كانت التقاليد تريدُ لموكب الفرسان الحفاظَ على ذكرى هذا المُعطى التاريخي للقرن الخامس عشر، غير أنّ مُعايَنة سريعة لوثائق قديمة كانت كافية للكشف أنّ هذا التقليد يعود إلى مرحلة مُتقدّمة بكثير عن المُغامَرة السيّئة للمَلك المجريّ. ما أصلهُ إذاً وما دلالتهُ المُحتمَلة؟ أيعودُ إلى الوثنيّة، إلى إحياء ذكرى الاحتفالات التي فيها كان المُراهقون ينتقلون إلى مرحلة الرّشد؟ وما دواعي ارتداء المَلك

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ووصيفيْه زيّاً نسويّاً؟ أهو تذكيرٌ بالحيلة التي تمكّنَ بفضلها فريقٌ من الرّجال المُسلّحين (رجال ماتياس أو آخَرين في عصر سابق) من العبور برئيسهم هكذا مُتنكّراً، من أرض العدوّ؟ أم هي مُخلّفات المعتقد الوثني القديم باسم التنكّر الحامي من الجنّ الأشرار؟ ولِمَ على المَلك التزام الصّمت من بداية الحفل إلى آخره؟ ولِمَ يُقال موكب الفرسان الملوك في حين لا يتعلّقُ الأمر سوى بمَلك واحد؟ ما دلالة ذلك كلّه؟ لا تُعوزُ الفرضيات، لكن لا واحدة مؤكَّدة. موكبُ الفرسان الملوك طقسٌ غامضٌ، لا أحد يعرفُ معناه ولا رسالته، ولكن مثلما هي الكتابة الهيروغليفيّة لمصر القديمة بالغة الجمال بالنّسبة إلى أولئك الذين لا يعرفون قراءتَها (ولا يُدركونها إلّا بوصفها رسوماً غرائبيّة)، يُمكنُ لموكب الفرسان الملوك أن يكون بالغ الجمال لأنّ محتوى خطابه ضاع منذ زمن بعيد ونجمت عنه بالأحرى الحركاتُ والألوانُ والكلماتُ، مُثيرةً الاهتمام حول ذاتها ومظهرها وشكلها.

كان ارتيابي الأوّل أمام الانطلاقة المُضطربة لهذا الموكب قد زال، وهو ما أثار استغرابي، إذ انجذبتُ فجأةً إلى مشهد الخيّالة هذا الذي كان ينتقلُ من منزل إلى منزل، وإلى جانب ذلك، فإنّ مُكبّرات الصوت، التي كانت إلى حدّ اللحظة تُذيعُ صوتَ مُغنّية حادّ، قد توقّفت ولم يَعُد يُسمَعُ (باستثناء دويّ وسائل النّقل التي اعتدتُ، منذ زمن طويل، على إبعادها من أحاسيسي السمعيّة) سوى الإيقاع الغريب للهتافات.

كنتُ أرغبُ في البقاء هناك، في إغماض عيني والسماع فقط: كان لديّ شعورٌ، في قلب قرية مورافيا هاته، أنّني أستمعُ إلى أشعار بالمعنى الأكثر بدائيّة لهذه الكلمة مثلما لم يسبق أن بلغَت سمعي لا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

من مذياع أو تلفاز أو خشبة مسرح، أشعار مثل نداءِ إيقاعٍ احتفاليّ على تخوم الكلام والغناء، أشعار كانت تسحرُ المُستمع بقوّةِ وزنها وحدَها مثلما كانت الأشعارُ في المدرّجات القديمة بلا شكّ تسحرُ مُستمعيها. كانت إيقاعاً سامياً ومُتعدِّدَ الأصوات: كلُّ مُبشِّرٍ كان يُنشدُ بنبرةٍ خاصّة، ولكن بارتفاعٍ مُختلف، بحيث كانت الأصواتُ تلتقي في تناغُم، من غير تعمّدٍ، كما أنّ هتافات المُبشّرين لم تكن مُتزامنة، كلّ واحدٍ كان يُطلقُ أشعارَهُ في لحظةٍ منفصلة عن غيره أمام منزل آخر، بحيث كانت الأصواتُ تتوزّعُ من مكان إلى آخَر، مُكوّنةً تناغُماً مُتعدِّد الأصوات، كان الأوّلُ ينتهي فيما الثاني في الوسط وقد انضافَ إليه الثالثُ بارتفاع آخَر.

عبْر الشارع الكبير، واصلَ موكب الفرسان طويلاً سيْرهُ (جافلاً بسبب السيّارات التي كانت تعبُر)، ثمّ انقسمَ الموكبُ في مُفترق طُرُق: واصلَ الجناحُ الأيمنُ مسارَهُ في خطٍّ مُستقيم فيما انعطف الجناحُ الأيسر عبر زقاق، وسرعان ما اجتذبهُ منزلٌ صغيرٌ بسياج خفيض وحديقة صغيرةٍ بها أزهار مُتعدّدة الألوان. كان المُبشّرُ مُهيَّأً لارتجال عباراتٍ مُداعِبة، فانطلق قائلاً: «للمنزل الصّغير أن يعتدّ بنافورته الجميلة، ابنُ ربّة البيت غولٌ مُضحكٌ»، كانت هناك فِعلاً مِضخّة بمدخل البيت، وقد ضحكت المرأةُ الأربعينيّة البدينة من صفة الإطراء الممنوحة لابنها، مُقدِّمةً ورقة نقديّة إلى الفارس (المُستجدي) الذي استلمَها مُتوسّلاً: «من أجل المَلك، أيّتُها الأمّ الصغيرة، من أجل المَلك!»، وما إنْ اختفت الورقة النقديّة في السلّة المُتدليّة من السّرج حتّى هبَّ مُبشّرٌ جديدٌ صائحاً إنّ المرأة الأربعينيّة كانت شابّة وجميلة، وأنّهُ ما زال يتذوّقُ بطيب خاطر شرابَها ثمّ أدار رأسَهُ مُتظاهراً بالشّرب وإحدى راحتيْه مُطبقة على شفتيْه. فانخرط كلُّ مَن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حوْله في الضحك، اختفت المرأةُ الأربعينيّة مُحرَجَةً ومُبتهِجة، لا شكّ أنّها كانت تتوقّعُ كلَّ شيء، لأنّها سرعان ما ظهرت من جديد حامِلةً زجاجة وكأساً وقدّمت الشّرابَ إلى الفرسان.

بينما كانوا يشربون ويمزحون، كان المَلكُ بعيداً قليلاً منهم مُحاطاً بوَصيفيْه، مُمتطياً جوادَهُ بحزم، ثابتاً وقوراً مثلما يليقُ بالملوك في هيأة وقارهم، غائبين ومُنعَزلين وسط ضوضاء جيوشهم. كان جوادا الوصيفيْن يُطوّقان مطيّة الملك من الجانبيْن، حدّ تماسّ حذاءيْهما بحذائه (كان على صدر كلّ جواد قلبٌ واسعٌ شديد الصّفرة مُغطّى بمرايا رقيقة، ومكسواً بذرّات مُلوّنة، وعلى جبينه زهور من ورق، فيما عُرفه مضفور بألوان زاهية). كان الفرسان الثلاثة المُلتزمون بالصّمت يرتدون لباساً نسويّاً: تنّورة واسعة، وكُمّين فضفاضيْن مطوييْن، على رأس الوصيفيْن غطاءٌ نسويّ مُزخرفٌ، أمّا الملك فكان يضعُ عوض ذلك الغطاء تاجَ فضّة برّاقاً، منه كانت تتدلّى ثلاثة أشرطة، أحمر في الوسط ومن الجانبيْن شريطان أزرقان، كانت تغطّي وجهَه تماماً وتمنحه مظهراً غريباً ومُؤثّراً.

بقيتُ على وجه التحديد أمام هذا الثالوث الجامد، فقبْل عشرين سنة، كنتُ مثلهم على صهوةِ جوادٍ مُزخرَف، وبما أنّني كنتُ أرى الموكب حينذاك من الدّاخل، فإنّني لمْ أرَ شيئاً. الآن فقط أراه حقّاً ولا أستطيع أن أشيح عنه بعيني: الملك على صهوة الجواد (على بُعد أمتار منّي) يُشبهُ تمثالاً ملفوفاً في عَلَم، محروساً بعناية، ومَن يدري، قلتُ فجأةً في نفسي، قد لا يكون ملكاً، بل ملكة، لربّما هي الملكة لوسي جاءت لتتظاهرَ بهيأتِها الحقيقيّة، لأنّ هيأتَها الحقيقيّة هي تحديداً هيأةُ التنكّر.

في هذه اللحظة، تنبّهتُ إلى أنّ كوستكا، الذي كان يجمعُ بعنادٍ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بين التفكير والهذيان، كان شخصاً غريبَ الأطوار، بحيثُ أنّ كلّ ما حكاهُ كان مُمْكناً ولكن ليس مُؤكَّداً، صحيح أنّه كان يعرفُ لوسي ولربّما كان يعرفُ عنها أشياء كثيرة، لكن فاتهُ بشأنها ما هو أساس: فالجنديّ الذي كان يُريدُ مُضاجَعتَها في بيْتٍ مُستعار من عامِل المناجم، كانت لوسي حقّاً تُحبّهُ، كيف يُمكنني أن آخُذ على محمل الجدّ قصّة أنّ لوسي كانت تقطفُ زهوراً بسبب ميْل إلى التّقوى عندما كنتُ أتذكّرُ أنّها كانت تقطفها من أجلي؟ وإذا هي لمْ تقُل شيئاً عن هذا لِكوستكا ولا عن الشّهور السّتّة الوديعة لحُبّنا، فلأنّها احتفظت بسرٍّ مصونٍ حتّى أمامه، وبذلك فهو أيضاً لمْ يكن يعرفها، ولم يكن، إذاً، واثقاً أنّ مِن أجله اختارت الإقامة بهذه المدينة، مِنَ المُمكن أن تكون قد استقرّت هنا بمحض الصّدفة، ولكن من المُمكن أيضاً أن تكون قد قامت بذلك بسببي لأنّها كانت تعرفُ أنّها مدينتي. كنتُ أشعرُ أنّ الاغتصابَ الذي تعرّضَت له لوسي وقعَ فعلاً، لكنّني كنتُ أشكّ في ظروفه الدّقيقة: فقد كانت قصّتُها تتلوَّنُ حسب الأماكن بنظرَةٍ مُخضّبة بالدّم لشخص كانت الخطيئة تُحرّكه، وفي لحظاتٍ أخرى بزرقةٍ شديدةٍ لا يُمْكنُ أن تصدُر إلّا من رجُلٍ اعتادَ التّأمّل في السّماوات، كان الأمرُ واضحاً: في حَكي كوستكا، كانت الحقيقة تتداخلُ مع الشعر خالقةً أسطورةً أخرى (لربّما أقرب إلى الحقيقة، ولربّما أجمل وأعمق) كانت تُغطّي الأسطورةَ القديمة.

كنتُ أنظرُ إلى المَلك المُتنكّر فرأيتُ لوسي تخترقُ (غير مُعترَف بها وغير معروفة) بجلال و(سُخرية) حياتي. ثمّ (بإكراهٍ خارجيّ غريب) مالَ بصري جانباً فالتقى مُباشرَةً ببصَر شخصٍ لا بُدّ أنّه كان يتفرَّسُ فيَّ وكان يبتسم. ثمّ قال: «أهلاً!» وتقدّمَ للأسف نحوي. «أهلاً»، أجبت. مدَّ يدَهُ فصافحتُه. بعد ذلك التفتَ ونادى على فتاة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم أكن قد انتبهتُ إليْها: «ما الذي يُبقيك بعيدةً؟ اقتربي لأقدِّمك!». اقتربَت الفتاة (كانت طويلة ورَشيقة بعينيْن سوداويْن وشَعر داكن) قائلة: «بروزوفا»، ومدَّت يدها فأجبتُها: «تشرّفتُ بمعرفتك، أنا جان». أمّا هو فهَتف بمرَح: «لم أرَك، عزيزي، مُنذ سنوات عديدة». لقد كان زيمانيك.

6

تعبٌ، تعبٌ. لم أتمكّن من التخلّص منه. الآن توجَّه الموكب، وقد أصبح له ملكه، نحو السّاحة، أمّا أنا فاكتفيتُ بالتّسكّع خلفه. كنتُ أتنفّسُ بعُمق للتغلّب على التّعب. وكنتُ أتوقّفُ أمام منازل الجيران الذين خرجوا ولمْ يَعُد لهُم ما يفعلونه. وسرعان ما شعرتُ أنّ الدّور قد جاء عليّ أنا أيضاً، أنّ فكرةَ السّفَر والمُغامرات قد انتهت، وأنّني كنتُ مُحتجَزاً نهائيّاً داخل زقاقيْن أو ثلاثة حيث كنتُ أقضي حياتي.

عندما بلغتُ السّاحة، كان الموكبُ قد ابتعدَ بطيئاً على طول الشارع الكبير. كنتُ قد أردتُ أن أعرج في أثره، إلّا أنّني رأيتُ فجأةً لودفيك. كان واقفاً فوق عشب حافّة الطريق، عيناه الحالمتان مُثبتتان على الفرسان. اللعين لودفيك! لِيذهَب إلى الجحيم! حتى الآن كان هو مَنْ يتجنّبني، أمّا اليوم فأنا مَن لا يريد رُؤيتَه. استدرتُ وتوجّهتُ نحو مقعدٍ تحت شجرة تفّاح من شجر الساحة. هكذا سوف أصغي، جالساً، إلى صدى هتافات الفرسان مُخفَّفاً.

بقيتُ جالساً فوق المقعد، مستمعاً ومُتأمِّلاً. كان موكب الفرسان الملوك يبتعدُ تدريجيّاً على نحو مُثير للشّفقة في مكان ضيّق

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

على الجوانب المُنحدرة للطريق المُعبَّدة، حيث حركة السّيارات والدرّاجات لا تعرفُ انقطاعاً. كان متبوعاً ببعض المُتسكّعين، أربعة صُلع وآخَر بشَعر مجزوز. كان مُشاهِدو الموكب في تناقُص. وكان لودفيك بالمُقابل هناك. ما الذي أتى به إلى هُنا؟ لتذهَب إلى الجحيم يا لودفيك. لقد فات الأوان الآن، فات في كلِّ شيء. لقد جئتَ مثل علامةِ نحس، علامة سوداء، وتحديداً عندما تمّ تنصيبُ ابني فلاديمير ملكاً!

جُلتُ ببَصري. لمْ يبقَ في ساحة القرية غير قليل مِمّن تأخّروا حول الأجنحة وأمام مدخل الحانة. كلّهم سكارَى تقريباً. فالسّكّيرون هم أكثر المُدافعين الأوفياء عن البرامج الفولكلوريّة. هم آخرُ المُدافعين عنها. إنّها تُهيّئُ لهُم من وقت لآخَر فرصة مُتميّزة لتناوُل كأس.

جلس بجواري الجَدّ بيشاميك، العجوز القصير. قال: الظّاهرُ أنّ الاحتفالَ لمْ يعُد كما كان. وافقتُه. لمْ يَعُد كما كان. كم كانت هذه المواكب جميلة قبْل عقود أو قرون. كانت بلا شكّ أقلَّ زخرفة مِمّا هي عليه اليوم. هي اليوم «كيتش»، بهرجة مُقنّعة بهذه القلوب شديدة الصُّفرة المُتدلّية من صدور الجياد وأطنان الأشرطة الورقيّة المُشتراة من المحلاّت الكبرى! في الماضي كانت البدلاتُ أيضاً مُلوّنة ولكن أكثر بساطة. لم يكن للجياد، من أجل كلّ زينة، غير وشاحٍ أحمر كبير مربوط بعنق الفرس. لم يكن للمَلك هذا القناع بأشرطة مُلوَّنة، بل مُجرّد لثام بسيط. وإلى جانب ذلك، كان يضعُ بين أسنانه وردةً كي يظلَّ صامتاً.

أجل أيّها الجَدّ، في الماضي كان الحفلُ أجمل. لا أحد كان بحاجة إلى تحفيز الشباب كي يَقبَلوا برضا المُشاركة في الموكب.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ولم تكن الحاجة إلى كلّ اجتماعات الإعداد هاته، بمُشادّاتها التي لا تنتهي، من أجل معرفة مَن سيتكفّلُ بالتنظيم ومَنْ سيجني منه ربحاً! كان الموكبُ ينبثقُ مثل نبْعٍ في حياةِ القرى. ينتقلُ من قريةٍ إلى أخرى استجداءً لفائدةِ ملكه المُقنَّع. وأحياناً كان يُصادفُ موكباً آخَر، من ضاحية أخرى، فتنشبُ المعركة. كلٌّ منهما كان يُدافعُ عن ملكه بشراسة. وغالباً ما كان الدَّمُ يسيلُ تحت لمعان الخناجر والسّيوف. وعندما كان الموكبُ يأسرُ ملكَ الموكب الآخَر، يشرَبُ نخبَ أسْره بالحانة حتى السّكر على نفقة والده.

أنتَ على حقّ أيّها الجَدّ. أنا أيضاً عندما تمّ تنصيبي ملكاً، في فترة الاحتلال، لم يكن الأمرُ قد غدا على ما هو عليه اليوم. وحتّى بعد فترة الحرب كان ما زال للأمر معنى. كان يُخيَّلُ إلينا أنّنا سوف نبني عالَماً جديداً تماماً وأنّ النّاس سوف يحيَون من جديد وَفق التقاليد القديمة، أنّ الموكبَ سوف ينبجسُ من عُمق حياتهم. كنّا نسعى إلى تشجيع هذا الانبجاس، نتعبُ لتنظيم احتفالاتٍ شعبيّة. غير أنّ ما لا يُمكنُ تنظيمه هو النّبع. إمّا أنْ ينبجس أو لا ينبجس. أتَرَى إلى أين وَصلتْ بنا الأمور أيّها الجَدّ: أغانينا الصغيرة ومواكبنا وكلّ شيء ليس إلّا تقطيراً. إنّها القطراتُ الأخيرة، ما تبقّى مِن قُطيْرات.

آه. لقد اختفى الموكب. انعطف بلا شكّ إلى زقاق مُستعرَض، لكنّ نداءهُ كان دوماً مسموعاً. كان بهيّاً. أغلقتُ عيني وتخيّلتُ لبُرهةٍ أنّني كنتُ أعيشُ في زمن آخَر، في قرن آخَر بعيد جدّاً. ثمّ فتحتُ عيني وقلتُ في نفسي جميلٌ أنْ يكون فلاديمير ملكاً. إنّه مَلكُ مملكةٍ زالت تقريباً، غير أنّها بهيّة. لها سوف أظلُّ وفيّاً إلى آخر نفَسٍ فيها.

غادرتُ المقعد. أحدٌ حيّاني. إنّه كوتشكي العجوز. لمْ أرَه منذ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

زمن طويل. بالكاد كان يمشي على عصاه. لم يسبق لي أن أحببْتُه غير أنّ شيخوخته أثارت عاطفتي. سألته: «إلى أين أنتَ ذاهبٌ هكذا؟». أجاب أنّ نزهة الأحد القصيرة مُفيدةٌ للصّحّة. «وهذا الموكب، هل أعجبك؟»، صدرَت عنه حركة تقزّز وقال: «لم أكلِّف نفسي حتّى رؤيتَه. - وما السّبب؟»، سألتُه. حركةٌ أخرى من يده أكثر تقزّزاً، وفي اللحظة ذاتِها خمّنتُ السّبب: لقد كان لودفيك من بين المُشاهدين. وكوتشكي هو أيضاً لم يكن يودُّ لقاءَه.

قلتُ له: «إنّني أتفهّمك. يوجدُ ابني ضمن الموكب ومع ذلك لم يَعْن لي شيئاً أن أمشي وراءه. - أابنُك هناك؟ فلاديمير؟ - طبْعاً، قلتُ، بل هو المَلك!». فقال كوتشكي: «إنّ هذا أمرٌ غريب. - ما الغريبُ فيه؟ اعترضتُ. - بل هو أمْرٌ شديدُ الغرابة! قال كوتشكي وقد لمعَت عيناه الصغيرتان. - ما الأمر؟ ألححْتُ. - الأمرُ أنّ فلاديمير مع ميلوس»، قال كوتشكي. لم أكن أعرفُ ميلوس. فأوضحَ لي أنّه حفيدُه مِن ابنتِه. اعترضتُ: «مُستحيل، لقد رأيتُهُ عندما كان يُغادرُ البيتَ على صهوة جواده! - أنا أيضاً رأيتُه. لقد أخذه ميلوس على درّاجته مِن بيتنا، أكّدَ كوتشكي. - لا أساس لهذا الكلام»، وأضفتُ مع ذلك على عجل: «وإلى أين ذهبَا؟ - إنْ لم تكن على عِلم بذلك، فلستُ أنا مَن سوف يُخبرك!»، قال كوتشكي مُستأذِناً بالانصراف.

7

لم أكن أتوقّع لقاءَ زيمانيك (ذلك أنّ هيلينا طَمْأنتْني أنّه لن يأتيَ لأخذها إلّا بعد الظهر)، وقد كان هذا اللقاءُ بالنّسبة إليّ بغيضاً حقّاً

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

للغاية، لكن لا حيلة لي. لقد كان هُنا، بالصورة تماماً التي كان عليها في السّابق: شعره الأصفر بقِي أصفر حتّى وإنْ لمْ يعُد يُرخيه إلى الخلف بخصلاتٍ مُتموّجة. كان يحتفظُ به قصيراً مُنسدلاً على الجبهة وَفق ما كانت تفرضُه الموضة، دافعاً صدرهُ إلى الأمام ورقبته مُتشنّجة إلى الخلف. كان دوماً مَرحاً وراضياً، صُلباً ومُزوّداً بحظوته لدى الفتيات ولدى فتاةٍ ذكّرني للتّوّ جمالها بالنّقص المُضني للجسدِ الذي معه قضيتُ أمس فترةَ ما بعد الظهر.

لِرَغبتي في أن يكون حوارنا أشدّ اقتضاباً، أخذتُ أجيبُه بأقصى تفاهةٍ مُمكنة عن أسئلته التّافهة: كرّرَ قولَهُ إنّنا لم نلتق منذ خمسة أعوام، مُبدياً اندهاشَهُ للقائي في هذا المكان تحديداً، «في هذا الثقب المفقود اللعين»، قلتُ له إنّني هنا وُلدت، ممّا دفعه إلى الاعتذار، مُقرّاً أنّ المكانَ في هذه الحال ليس لعيناً، وهو ما أضحكَ بروزوفا، تجاهلتُ المَزحة وعبّرتُ فقط عن أنني لم أندهش من لقائه هنا، باعتباره كان دوماً، حسب ما كنتُ أتذكّره، شغوفاً بالفولكلور، ضَحكت الآنسة بروزوفا من جديد مُعلنة أنّهما لمْ يأتيا من أجل موكب الفرسان الملوك. سألتُها إن كان الموكبُ لا يَرُوقها، أجابت أنّ ذلك لم يكن يُسلّيها، سألتُها عن السّبب، هزّت كتفيْها فقال زيمانيك: «لقد تغيّرَ الزّمنُ يا عزيزي لودفيك».

في أثناء ذلك الوقت، كان الموكبُ قد تجاوزَ منزلاً بينما كان فارسان يُقاومان لِتهدئة فرسيْهما الهائجيْن. كلٌّ منهما كان يصيحُ في وَجْه الآخَر، مُتّهماً إيّاه بعدم التحكّم في مطيّته، كانت كلمات التأنيب: «أبله»، «بليد» تختلطُ على نحو هزلي بطقوس الاحتفال. تنهّدَت الآنسة بروزوفا قائلةً: «سوف يكونُ مُمتعاً لو احتدَمَ الصّراعُ بينهما»، فانفجرَ زيمانيك ضاحكاً، غير أنّ الفارسيْن تمَكّنا من تهدئة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فرسيْهما، وأخذت الهتافاتُ تتردّدُ من جديد في جوّ احتفائي عبر القرية.

كنتُ باقتفائي صدى الأصوات خطوةً خطوةً على طول الحدائق الصغيرة المُزهرة، أبحثُ عبثاً عن ذريعةٍ مُستساغة للتخلّص من زيمانيك، فكان عليّ أن أمشي بلطف إلى جانب رفيقته الجميلة والاستمرار في مُبادَلتها بضع عبارات: أطْلعَتْني أن الجوّ في براتيسلافا، حيث كانا معاً باكراً هذا الصّباح، كان صحواً مثلما هو عليه هنا، وأنّهما قدِما على سيارة زيمانيك واضطرّا ما إن خرَجا من براتيسلافا إلى تغيير شمعات السّيارة، ثمّ أطْلعَتني أيضاً أنّها كانت طالبة لدى زيمانيك. ومع أنّني كنتُ أعرفُ من خلال هيلينا أنّه كان يُعطي دروساً عن الماركسيّة اللينينيّة بالجامعة، فقد سألْتُه عمّا يُدرِّسُه. أجابَني بأنّه يُدرِّسُ الفلسفة (بدا لي الاسم الذي به حدّدَ مادّته دالاًّ، فقبْل أربع أو خمس سنوات كان سيقول الماركسيّة، لكنّ زوال حظوتها ولا سيما لدى الشباب الذين كان نيْلُ إعجابهم الانشغال الأساس عند زيمانيك، جعلهُ يُخفي الماركسيّة باحتشام تحت مصطلح أشدّ تعميماً). تظاهرتُ بالاندهاش قائلاً إنّ زيمانيك درَسَ، حسب ما كنتُ أتذكّرهُ جيّداً، البيولوجيا. كانت مُلاحظتي تُخفي تهكُّماً من أساتذة الماركسيّة الهُواة، الذين تمّت ترقيتهم إلى مُتخصِّصين، لا بفضل معارفهم العلميّة، بل بفضل طاقتهم الدّعائيّة. حينذاك تدخّلت الآنسة بروزوفا مُعلنة أنّ جماجم أساتذة الماركسيّة لمْ تكن تحملُ دماغاً، بل كرّاسة سياسيّة، أما بافيل فكان مُختلفاً تماماً. كانت هذه العبارات بالنّسبة إلى زيمانيك إطراءً، فاعترضَ قليلاً مُظهراً بذلك تواضُعه ومُغرياً بمزيدٍ من الإطراء. هكذا علمتُ أنّ رفيقها كان يُعَدُّ من بين الأساتذة الأكثر شعبيّة لدى الطّلبة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

للأسباب نفسها التي كانت تؤلّبُ الإدارة عليه: كان دوماً يقولُ ما يُفكِّرُ فيه، ويتمتّعُ بالشجاعة ويُدافعُ عن قضايا الشباب. أخذ زيمانيك يعترضُ بفتور من جديد وراحت رفيقته تذكرُ لي تفاصيل مُختلف المُضايقات التي كان يتعرّضُ لها خلال هذه السنوات الأخيرة: لقد أرادوا حتّى طرده من منصبه لأنّه لم يكن يُبالي بالمُقرّرات البالية وسعى إلى إطلاع الشباب على كلِّ ما كان يجري في الفلسفة الحديثة (لقد تمّ اتّهامه بتبنّي «أيديولوجيّة العدُوّ» سرّاً)، وأنقذ شابّاً أريدَ طردُه من الكليّة إثر تصرّف صبياني (شجار مع شرطيّ) قدّمَهُ رئيسُ الكلّية (عدوّ زيمانيك) بوصفه جريمة سياسيّة، بعد هذه القصّة نظّمت الطالباتُ استفتاءً سرّيّاً عن الأستاذ الأكثر شعبيّة، وكان هو مَن فازَ فيه. لمْ يعُد زيمانيك يعترضُ على هذا الفيض من الثناء، فقلتُ للآنسة بروزوفا (بسخرية مُضمَرة ولكن بالكاد، للأسف، واضحة) كم كنتُ أفهمُها لأنّني كنتُ أتذكّرُ أنّ أستاذها الحالي كان في فترة دراسته أكثر شعبيّة. إثر ذلك ضاعفَت الثناءَ بلطف قائلة: لا شيء يدعو للاندهاش، إذ لا نِدَّ لبافيل في موهبة الكلام، وفي الجدال لا مثيل له في هزم الخصم! «صحيح»، وافقَ زيمانيك ضاحكاً، «ولكن إنْ هزمْتهم في جدال، فإنّ بإمكانهم أنْ يهزموني بطُرق أكثر نجاعة!».

كنتُ أجدُ زيمانيك، في غرور هذا الكلام، بالصّورة التي عرفتُه بها، غير أنّ مضمونَ كلماته أفزَعني: كان يبدو أنّ زيمانيك تخلّى جذريّاً عن موقفه السّابق، ولو كنتُ أعيشُ اليوم في مُحيطه لوَجدتُ نفسي، شئتُ أم أبيْتِ، إلى جانبه. كان ذلك فظيعاً، لأنّني لمْ أكن مُهيَّأً إطلاقاً لهذا الأمْر، ثمّ إنّ مثل هذا التغيّر في الموقف ليس فيه، بلا شك، أيّ استثناء، بل خضعَ له، على العكس، كثيرون،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

والمجتمع بكامله كانَ يَعيشهُ بدرجاتٍ مُتفاوتة، لكن لمْ أكن أتوقّعُه لدى زيمانيك تحديداً، لقد بقيَ في ذاكرتي جامداً على الصّورة التي رأيتُه فيها في المرّة الأخيرة، وكنتُ الآن أنكرُ عليه بحَنق حقَّ أن يكون شخصاً آخَر غير الذي كنتُ أعرف.

ثمّة أناسٌ يُعلنون مَحبّتَهُم للإنسانيّة وآخرون يُنكرونها بدعوى أنّهُ لا يُمكنُ أن نُحبَّ إلّا أشخاصاً بصورةٍ فرديّة. أشاطرُ هذا الرأي وأضيفُ أنّ ما يصدقُ على الحُبّ يصدقُ أيضاً على الكُره. الإنسان، هذا الكائنُ الذي يطمحُ إلى التّوازُن، يُوازنُ ثِقلَ الشّرّ الذي ابْتُلِيَ به بثِقل كراهيّته. ولكن حاوِلوا أن تُرَكِّزوا الكراهيّة على التّجريد الخالص للمبادئ، على الظُّلم والتّعصّب والتّوحّش أو إن ذهبتُم إلى حدِّ عدِّ مبدأ الإنسان ذاته بغيضاً، حاوِلوا أن تكرهوا الإنسانيّة! إنّ كراهيّةً مثل هاته تتجاوزُ بكثير طاقة الإنسان، ولهذا إذا أراد الإنسانُ التخفيف من حنقه (الذي يعرفُ حُدودَ طاقاته) سينتهي بتركيزه على فردٍ وحسب.

هو ذا سببُ ذعري. ففي كلّ لحظة من الآن، يُمكنُ لزيمانيك أن يستندَ إلى تغيُّره (الذي أقبَل فضلاً عن ذلك على كشْفه لي بسرعة مشكوكٍ فيها) ويطلبَ منّي مُسامَحَتهُ. ذلك ما كان يبدو لي فظيعاً. ماذا سأقول له؟ بمَ سأجيبُه؟ كيف يُمْكنُ لي أن أفسّرَ له أنّني لا أقوى على مُصالحَتِه؟ كيف أفسّرُ أنّني بقبول ذلك سوف أخِلُّ فوراً بتوازني الدّاخليّ؟ كيف أفسّرُ له أنّ إحدى كفّتَيْ ميزاني الباطنيّ سوف تعلو بغتةً حينذاك؟ كيف أفسّرُ له أنّ كرهي له يُوازنُ ثِقلَ الشّر الذي رزَح على شبابي؟ كيف أفسّرُ له أنّه يُجسِّدُ هذا الشّر؟ كيف أفسّرُ له أنّني بحاجة إلى أن أكرهه؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

8

كانت الخيول تملأ الزقاق بكامله. وقد رأيتُ الملك على بُعدِ أمتار مِنّي. كان على صهوةِ جواده مُنفصلاً عن الآخَرين. إلى جواره وصيفاهُ على صهوةِ جواديْهما. كنتُ شارداً. ظهرُهُ مُقوَّسٌ قليلاً على طريقة فلاديمير. كان يجلسُ بثباتٍ ، شبه جامدٍ. أهُو فلاديمير؟ لربّما. ولكن من المُمْكن أن يكونَ أحداً غيرَه.

اقتربتُ منه أكثر. من المُستحيل ألّا أعرفه. حرصُه وأدنى حركاته، كلّ ذلك في آخر المطاف أحفظهُ عن ظهر قلب! فأنا أحبّهُ وللحُبّ غريزتُه.

اندسَسْتُ حتّى بَلغتُه. كان مُمكناً أن أنادي عليه. لا شيءَ أسهل من هذا الأمْر، لكن ذلك سيكونُ بلا جدوى، إذ على الملك أن يظلَّ صامتاً.

كان الموكبُ يجتازُ منزلاً. آه، الآن سوف أعرفه. خطوةُ الجواد سوف تُجبرُهُ على حركةٍ ستكشِفه. رفعَت الدّابّة ركبتَها فاستقام الملك في هيأته، لكنّ هذه الحركة لمْ تكشِفه. لقد بقيَت الأشرطة على وجهه للأسف كثيفة.

9

كان الموكبُ قد اجتاز بعضَ المنازل أيضاً، وزمرةُ الفضوليّين (بما فيهم نحن) اقتفت أثرهُ، فتناوَل حديثُنا مواضيع عديدة: كانت الآنسة بروزوفا قد انتقلت من الحديث عن زيمانيك إلى الحديث عن نفسها، كاشفة عن مَيْلها إلى الأوتوستوب. كانت تتحدّثُ عنه بنوعٍ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

من الإصرار (مُتصنّع قليلاً) بحيث عنَّ لي فوراً أنّني كنتُ أستمعُ هنا لـ«بيان جيلها». فالخضوعُ لعقليّة الجيل (لكبرياء القطيع هذا) كان دوماً يُثيرُ اشمئزازي. وعندما بلوَرَت بروزوفا فكرتها (التي سمعتُها أكثر من خمسين مرّة) بأنّ النّوعَ البشريّ صنفان، صنفٌ يستجيبُ لنقل مَن يُمارسون الأوتوستوب (الصِّنف الإنسانيّ الشّغوف بالمُغامَرة) وصنفٌ لا يستجيب (الصّنفُ اللاإنسانيّ الذي يخافُ الحياة)، سمّيتُها مازحاً «دغمائيّة الأوتوستوب». أجابَتْني بجفاء أنّها ليست دغمائيّة ولا مُطالِبة بالتّعديل، ولا مُتعصِّبة، ولا مُرتدّة، فذلك كلّه ليس سوى كلماتٍ من صُنعنا، كنّا قد اختلقناها وتنتمي إلينا بينما هي غريبة بالنّسبة إلى جيْلها.

قال زيمانيك: «أجل، إنّهم مختلفون، من حُسن الحظّ أنّهم مُختلفون! ومُختلفٌ مُعجمهم أيضاً. لا تهمّهم نجاحاتنا ولا أخطاؤنا. لن تُصدّقَ أنّ هؤلاء الشباب يجهلون، في امتحانات ولوج الكليّة، مُحاكمات موسكو، وستالين بالنّسبة إليهم ليس سوى مُجرّد اسم. ولتعلَم أنّ أغلبهم يجهلُ حتّى حدوثَ المُحاكمات السياسيّة ببراغ قبْل عشر سنوات.

- إنّ هذا تحديداً ما يبدو لي مقيتاً، قلت.

- الواقع أنّ ذلك لا يدلّ على تكوينهم، لكنّه بالنّسبة إليهم تَحرّر. هُم منغلقون على عالمنا. لقد رفضوه جملةً.

- إنّه عمى حلَّ محلَّ عمى آخَر.

- لن أقول ذلك. أنا مُعجَبٌ بهم لأنّهم تحديداً مُختلفون عنّا. يُحبّون أجسادَهُم أمّا نحنُ فأهمَلناها. يعشقون السّفر فيما نحنُ مُنغلقون. يُحبّون المُغامَرة بينما نحنُ أضَعْنا وقتَنا في الاجتماعات. يُحبّون موسيقى الجاز، في حين أخفقنا نحنُ في تقليد الفولكلور.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يعتنون بأنفسهم بينما نحنُ كنّا نريدُ إنقاذ العالَم. وقد أوْشكنا، بانتظارنا للخلاص، على تدميره. لربّما بأنانيّتهم سوف يُنقذونه».

10

كيف أمْكنَ هذا؟ المَلك! صورته على جواد، مُنتصِبة ومُقنَّعة بالألوان. كم مرّة رأيتُه، تخيّلتُه. الصورةُ الأكثر حميميّة. والآن بعد أن أصبحَتْ واقعاً، اختفتْ كلُّ حميميّتها. لمْ تَعُد فجأةً سوى يَرقةٍ غامضةٍ أجهلُ ما تُخفيه. ولكن ما الذي يُمْكنُ أن يكونَ حميماً في هذا العالم إنْ لم يكن مَلِكي؟

اِبني. أعزّ النّاس إليّ. أقفُ أمامه، جاهلاً إنْ كان هو أم شخصاً آخَر. ما الذي أعرفه إنْ كنتُ أجهلُ حتّى هذا! مِمّ أنا واثقٌ في هذه الدّنيا إنْ لمْ يكن لي حتّى هذا اليقين؟

11

بينما انقاد زيمانيك إلى الثناء على الجيل الصّاعد، كنتُ أتأمّلُ الآنسة بروزوفا، فلاحظتُ بحُزن أنّها كانت جميلة ولطيفة، وشعرتُ بغيظٍ أنّها لم تكن لي. كانت تسيرُ إلى جانب زيمانيك مُلتفتة إليه، واضعة كلَّ ثلاث ثوان ذراعَها تحت ذراعه، فانتبهتُ (مثلما يحدث لي غالباً أكثر فأكثر من سنة إلى أخرى) إلى أنّني لم أجد، منذ فترة لوسي، فتاةً أحبّها وأقدّرها. كانت الحياةُ تهزأ بي وهي تُذكّرني بإخفاقي، تحديداً عبر ملامح عشيقة هذا الرّجُل الذي اعتقدتُ أمس أنّني انتصرتُ عليه في صراع جنسيّ بَشع.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كلّما كانت بروزوفا ترُوقني، كنتُ أتبيّنُ أنّها تنتسبُ تماماً لمُعاصريها الذين كانوا يَرَوْنَني وأبناءَ جيلي قد امتزَجْنا في الجمع المُبهَم ذاته، موسومين بالرّطانة الغامضة ذاتها، بالفكر ذاته المُتخم سياسيّاً، وبالقلق ذاته، والتجارب الغريبة ذاتها لفترةٍ سوداء انتهت.

في هذه اللحظة بدأتُ أستوعبُ أنّ التّشابُهَ بيني وبين زيمانيك لم يكن ينحصرُ في اقترابه منّي لكونه غيّرَ آراءَهُ، لقد كان هذا التشابه أشدّ عُمْقاً، وشاملاً لمصيرَيْنا بكاملهما: لقد جعلتْنا نظرةُ برروزوفا ومُعاصريها مُتشابهيْن حتّى من خلال ما اصطدَمْنا بشأنه بشراسة. وشعرتُ فجأةً أنّني لو كنتُ مُرغَماً على حكْي تجربة فصْلي من الحزب أمامها، فإنّ الحدثَ سوف يبدو لها بعيداً وأدبيّاً للغاية (أجل، إنّه موضوعٌ اسْتُهْلِك في العديد من الرّوايات الرديئة) وسوف نُصبحُ معاً بغيضيْن بالنّسبة إليها في هذه الحكاية، أفكاري وأفكارُه، موقفي وموقفه (هما معاً مُتشنّجان ومُخيفان بصورة مُتماثلة). خلفَ خصومتنا التي كانت تبدو لي دوماً حاضرة وحيّة، كنتُ أرى الصّدعَ يلتئمُ بفِعْل الزّمن الذي يمحو، كما يعلمُ الجميع، الاختلافات بين عصور بكاملها، فكيفَ لا يمحوها بسُهولةٍ تامّة بين فرديْن بئيسيْن، لكنّني قاومتُ بشراسةٍ كلَّ هِبَةِ رأبٍ كان الزّمنُ يُقدِّمُها، ثمّ إنّي لستُ، في آخر الأمْر، خالداً، أنا مُقيَّدٌ بالسّبع وثلاثين سنة التي عِشتُها، ولا أرغبُ في إحداث قطيعة فيها (خلافاً لزيمانيك الذي تلاءَمَ سريعاً مع الشّباب). أجل، أريدُ أن أبقى مُنسجماً مع مصيري، مع سنّي، حتّى وإن كانت السّبع وثلاثين سنة لا تُمثّلُ سوى فترةٍ زمنيّة قصيرة وخاطفة، تُنسى، بل تمَّ نسيانُها.

ماذا لو تقرّبَ إليَّ زيمانيك بودّ وأخذ يُحدّثني عن الماضي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ناشداً الصُّلح، سوف أرفضُ، أجل سوف أرفضُ هذا الصُّلح حتّى ولو تدخّلتْ الآنسة بروزوفا ومعاصروها والزّمنُ نفسُه.

12

تعبٌ. فجأةً انتابَتني رغبةٌ في التنزّه. في الذهاب لتبديد همومي. لمْ أعُد أرغبُ في البقاء في عالَم الأشياء الماديّة التي لا أفهمها، التي تخدعُني. ما زال هناك عالمٌ آخر. العالَمُ الذي أشعُرُ به بيْتاً لي، الذي فيه أجدُ نفسي. هناك، حيث يوجَدُ طريقٌ، وزهرةُ نسرين، وجنديّ فارٌّ، وعازفُ كمان جوّال، وأمّي.

ومع ذلك انتهيتُ بأنْ تحرّكتُ. ذلك ما ينبغي فِعلاً. ينبغي فِعلاً أن أخوضَ صراعي حتّى النّهاية مع عالَم الأشياء الماديّة. ينبغي فِعْلاً أن أنفذ إلى عُمْق الأخطاء والخُدَع.

أعليّ أنْ أسألَ أحداً؟ أنْ أسألَ أطفالَ الموْكب؟ وماذا لوْ سخروا منّي جميعاً؟ فكّرتُ من جديد في ما وقعَ هذا الصّباح، في إلباسِ المَلك. وفجأةً اهتديتُ إلى وجْهَتي.

13

كان الفرسانُ يُردّدون: لنا مَلكٌ مُعوزٌ، لكنّه فاضلٌ، وقد تجاوَزوا بمسافةٍ بعيدةٍ ثلاثة منازل أو أربعة، وكنّا دوماً نقتفي أثر الجياد، أردافها مُزخرَفة بالأشرطة، أردافٌ زرقاء، خضراء أو خُبّازيّة، عندما أشارَ زيمانيك فجأةً بأصبعه نحوها وقال لي: «انظر، ها هي هيلينا»، نظرتُ صوْب الجهة التي أشارَ إليْها، غير أنّني لمْ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أكن أرى دوماً غير أجسام الجيّاد المُلوَّنة. أشارَ زيمانيك مرّةً أخرى: «هناك!». وفِعلاً رأيْتُها نصفَ مُختفية خلفَ حصان، وشعرتُ بالخَجل: فالطّريقة التي بها أشارَ زيمانيك إليْها (لمْ يقُل «زوجتي»، بل قال «هيلينا») كانت تدلُّ على أنّه على عِلم بمعرفتي بها.

كانت هيلينا واقفة على الرّصيف تحملُ ميكروفوناً مشدوداً بسلكٍ إلى آلةِ تسجيل كانت تتدلّى على كتف شابٍّ يرتدي سترةً جلديّة وسروال جينز أزرق ويضعُ السّمّاعتيْن على أذنيْه. توَقفنا غير بعيدٍ منهما. قال زيمانيك (فجأةً وببرودة) إنّ هيلينا كانت زوجة رائعة، لم يكن لها وحسب مظهرٌ جميلٌ دوماً، بل كانت أيضاً مُقتدِرة، ولم يكن ذلك يُدهشُه إطلاقاً في أنْ أتفاهَمَ معها جيّداً.

شعرتُ باحمرار خدَّي: لم تكن هذه المُلاحظة تنطوي على أيّ تهجُّم، بل على العكس، لقد تلفّظ بها زيمانيك بنبرةٍ ودودَة، وكانت الآنسة بروزوفا تنظرُ إليّ بابتسامةٍ واضحة كما لوْ أنّها كانت مُصرَّة على إفهامي أنّها على عِلم بعلاقتي بهيلينا وأنّها مُتعاطِفة معي، بل أكثر من ذلك مُتواطئة.

كان زيمانيك يُواصلُ الحديثَ عن زوجته بهدوء، جاهداً في أن يُوضّح لي (عبر مُراوغاتٍ وتلميحات) أنّه كان على عِلم بكلِّ شيء إلّا أنّه لم يكن يجدُ شيئاً يقوله نظراً إلى تحرّره بشأن الحياة الخاصّة لهيلينا، وكيْ يمنح حديثَهُ خِفّة لا مُباليّة أشارَ إلى الشابّ الذي يحملُ آلة التسجيل وقال إنّ هذا الفتى (الذي كانت سمّاعتاه، كما لاحظ، تجعلانه شبيهاً بحَشرةٍ كبيرة) قد أغرمَ بها بصورةٍ عنيفة مُنذ سنتيْن، وأنّ عليّ أن أكون حذراً. شرعَت الآنسة بروزوفا في الضّحك وسألتْ عن عُمره قبل سنتيْن. أجابَ زيمانيك: سبع عشرة سنة، وهي كافية ليسقط في الحبّ. ثمّ أضافَ مازحاً أنّ هيلينا لم تكن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تكترث للصّغار وأنّها كانت امرأةً عفيفة، غيْر أنّ فتىً مثله كلّما قلّت حظوظُه أصبح مهتاجاً، وهو بكلّ تأكيد ذو قبضة سريعة. أضافت الآنسة بروزوفا (بنبرةٍ ثرثرةٍ بلا معنى) ربّما لن يصمُد أمامي.

- قال زيمانيك مازحاً: «لستُ واثقاً من ذلك تماماً.

- لا تنسَ أنّني عملتُ في المناجم وهو ما قوّى عضَلاتي، أجبتُ بالنبرة الخفيفة ذاتها، من غيْر أن أنتبه إلى أنّ هذا التذكيرَ كان نشازاً في هذا الحديث التافه.

- هل عملتَ بالمناجم؟ سألتْ الآنسة بروزوفا.

- عندما يتكتّلُ هؤلاء الفتيان ذوو العشرين سنة في عصابة، تابعَ زيمانيك مُتمسّكاً بموضوعه بعناد، فإنّ عليْنا حقّاً أن نحذر. إنّهم يحسمون في أمْر الشخص الذي لا يرُوق لهم.

- ألِمُدّةٍ طويلة؟ ألحّت الآنسة بروزوفا.

- لخمس سنوات. قلت.

- ومتى كان ذلك؟

- كنتُ هناك قبلَ تسع سنواتٍ من الآن.

- كان ذلك إذاً قديماً، فعضلاتك أصابَها الهزال منذ...»، قالت من أجل أنْ تمنحَ دعابتها الصغيرة جوَّ المرَح العامّ. أمّا أنا فتوّاً كنتُ أفكّرُ حقّاً في عضلاتي: كنتُ أقولُ في نفسي إنّها لمْ تهزل بتاتاً، وإنّ لي بنية قويّة وبإمكاني بكلّ السُّبُل المُمكنة أن أهزم الأشقر الذي كنتُ أتحدّثُ إليه ولكن (وهو الأهمّ والمُحزن أكثر في هذا كلّه) لم تكن لي سوى هذه العضلات لأخْذ ثأري القديم.

كنتُ أتخيّلُ مرّةً أخرى أنّ زيمانيك كان يلتفتُ مُبتسماً نحوي، مُلتمِساً منّي نسيان كلّ ما وَقعَ بيْننا، فشعرتُ بأنّني خُدِعت: كان التماسُهُ الصّفحَ مدعوماً لا بتغيُّر آرائه فقط، ولا بالزّمن ولا بالآنسة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بروزوفا ومُعاصريها، بل بهيلينا أيضاً (أجل، هُم جميعاً معه، في حين يقِفون ضدّي!)، فبتجاوُز زيمانيك خيانتي له مع زوجته كان قد اشترَى صفحي.

عندما رأيتُه (في خيالي) بوَجْهِ نصّاب واثقٍ من قوّةِ حُلفائه، تأجّجَت فيّ رغبة ضَرْبه، إلى درجة أنّي رأيتُ نفسي حقّاً أصرعه الآن. كان الفرسان يصيحون من حولنا والآنسة بروزوفا تحكي ما لستُ أدريه بدقّة والشمسُ مُذهَّبة بصورة زاهية وأمام عيني الشّرسَتَيْن كان الدّمُ يسيلُ من وجهه.

أجل، هو ذا ما وقعَ في خيالي، لكن ما العمل إنْ هو طلبَ منّي الصّفحَ حقيقةً؟

كنتُ أدركُ برُعب أنّني لن أفعلَ شيئاً.

التحقنا بهيلينا ومُساعدها التّقني الذي أزالَ للتوّ سمّاعتيْه. قالت هيلينا مُندهشة لمّا رأتْني مع زيمانيك: «أتعرفان بعضَكما؟

- نعرفُ بعضَنا منذ مُدّةٍ طويلة، قال.

- كيف؟» سألتْ مُستغربة.

- «منذ سنوات الدّراسة، فقد كنّا معاً في الكليّة!»، أوْضحَ زيمانيك، فشعرتُ حينذاك أنّني اجتزتُ واحداً من الجُسَيْرات الأخيرة التي كان يقودني عبرها نحو مكان التّقزّز (الشبيه بالمشنقة) حيث سيطلبُ منّي الصَّفح.

قالت هيلينا: «يا إلهي، غريبة هذه الصُّدَف...

- وهذه الأمور التي تحدُث، قال التقنيّ مخافة أن ننسى أنّه يوجَدُ هو أيضاً بيننا.

- عفواً، لم أعرّفكما ببعضكما»، تنبّهَت قبْل أن تقول: «إنّه جيندرا».

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

صافحتُ جيندرا، فقال زيمانيك لهيلينا: «فكّرتُ مع الآنسة بروزوفا في أخْذكِ معنا، لكنّني أرى الآن أنّ ذلك لا يُناسِبُك، فأنتِ تُفضّلين العودةَ مع لودفيك...».

«أسَتُرافقنا؟»، بادَرني الفتى الذي يرتدي سروال الجينز الأزرق بنبرةٍ لمْ تكن ودّية.

«هل أحْضرْتَ سيّارتك؟ سألني زيمانيك.

- ليست لي سيّارة، أجبتُ.

- إذاً سوف تذهبُ معهما، قال.

- ولكنّني أقودُ بسُرعة فائقة! إنْ كان ذلك يُرعبك... حذّرَ الفتى.

- جيندرا! توجّهت إليه هيلينا بنبرةِ تأنيب.

- بإمكانك أن تذهبَ معَنا، قال زيمانيك، إلّا أنّني أعتقدُ أنّك تُفضِّلُ صديقتك الجديدة على صديقك القديم». وبما أنّهُ انتقلَ إلى مُخاطَبَتي بكلمةِ صديق، فقد أيْقنتُ أنَّ الصُّلحَ المُهينَ أصبحَ وشيكاً. لكنّ زيمانيك لاذ بالصّمت لبُرهة، كما لوْ كان مُتردِّداً، كما لو كان يُريد توّاً أن يأخذني جانباً ويُحدّثني على انفراد (كنتُ قد طأطأتُ رأسي كما لو كنتُ أمدُّ رقبتي للقطْع)، لكنّني كنتُ مُخطئاً، فقد نظرَ إلى ساعته وقال: «لمْ يعُد لنا وقتٌ إطلاقاً إنْ شئنا الوصولَ إلى براغ قبل الساعة الخامسة. عليْنا أن نُودّعكم! إلى اللقاء هيلينا»، صافحَ هيلينا ثمّ ودّعني وودَّع التقنيّ. صافحَت الآنسة بروزوفا الجميعَ بدورها، ثم انطلقا، ذراعه في ذراعها.

انصرفا. لمْ أقوَ على مُفارَقتِهما ببَصري: كان زيمانيك يمشي دافعاً صدرَهُ، رأسه الأشقرُ مرفوعاً بافتخار (بنصْر) والفتاةُ السّمراء

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إلى جانبه، جميلة حتّى من الخلف ورشيقة، كانت تروقني، تروقني بألمٍ تقريباً، لأنّ جَمالها كان وهو يبتعدُ يكشِفُ لي عن لا مُبالاتها البارِدة مثلما كشفَها لي ماضيَّ الشّخصيّ بكامله الذي كنتُ أودّ لقاءَهُ بمدينتي للانتقام، غير أنّه التقاني هُنا دون أن ينظُرَ إليّ، كما لو كان لا يعرفني.

كنتُ أختنقُ من الإهانة والخزي. لمْ أكن أرغبُ إلّا في الاختفاء، في البقاء وحيداً، محْو هذه الحكاية، هذه المَزحة الرّديئة، مَحْو هيلينا وزيمانيك، مَحْو الماضي والأمس واليوم، مَحْو كلّ شيء، محوه كاملاً. سألتُ الفتى: «أتسمحُ لي بقوْل كلمتيْن على انفراد للصحافية الرفيقة؟».

أخذتُ هيلينا جانباً، أرادت أن تشرح لي وهي تُهَمْهمُ بشيء عن موضوع زيمانيك وصديقته، كانت تعتذرُ بارتباك عن كلّ ما كان عليها أن تقوله له، لكن منذ هذه اللحظة لمْ يَعُد يعنيني أيّ شيء. تملّكتْني رغبة واحدة: أن أرى نفسي بعيداً من هُنا، ومن هذه الحكاية، أن أشطّبَ كلَّ شيء. لمْ أكن أبيحُ لنفسي حقَّ خداع هيلينا لمدّةٍ أطول، لقد كانت بريئة في نظَري وأنا تصرّفتُ بدناءةٍ لمّا جعلتُها شيئاً بسيطاً، حجراً كنتُ أريدُ (ولكنّني لم أعرف) أن أقذفَ به شخصاً آخَر. كنتُ أختنقُ من إخفاقِ انتقامي السّاخر، وقرّرتُ الآن على الأقلّ إنهاءَهُ وإن تأخّرَ الأمرُ كثيراً بلا شكّ، ولكن قبْل أن يفوت الأوانُ تماماً. غير أنّه لم يكن بمقدوري أن أشرح لها أيّ شيء، لا لأنّ الحقيقة كانت ستجرحُها فقط، بل لأنّها لن تفهمها أيضاً. لمْ يكن أمامي إذاً إلّا أن أكرِّرَ لها مرّات عديدة: لقد كان هذا آخرَ لقاءٍ يجمعُنا، لن أراها أبداً، ولم أكن أحبّها، وعليْها أن تفهم ذلك.

كان الأمرُ أسوأ مِمّا توقّعت: لقد أصبحَت شاحبة وأخذتْ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ترتعد، كانت ترفضُ أن تُصدّقني، أن تتركني، وقد عشتُ لحظة عذاب قبْل أن أتمكَّن من أن أتحرّر وأختفي.

14

مَكثتُ طويلاً وسط جيادٍ وشرائطَ مُنتشرة في كلّ مكان، ثمّ اقتربَ منّي جيندرا وأخذ يدي، ضغطَ عليْها وسألني ماذا ألمّ بي، تركتُ يدهُ في يدي وأجبْتُه: لا شيء يا جيندرا لا شيء، ما الذي تظنّه ألمَّ بي؟ كان صوتي قد تغيّر، أصبح حادّاً واستطردتُ بسرعة غريبة في عرْض ما بقيَ لنا تسجيله، هتافاتُ المُبشّرين نتوفّرُ عليْها ولنا استجوابان، وعليّ تسجيل التعليق، واستطردتُ على هذا النّحو في ذِكر أشياء كنتُ عاجزةً تماماً عن التفكير فيها، أمّا هو فبقِيَ واقفاً يدعكُ يدي في صمت.

لمْ يسبق له قبْل هذا أن أمسكَ بيدي، لقد كان خجولاً جدّاً، ومع ذلك كان الجميعُ يعرفُ أنّه مجنونٌ بي، وها هو يدعكُ يدي عندما كنتُ أتلعثمُ في سرْد برنامج العمل، في حين لم أكن أفكّرُ إلّا في لودفيك، ثمّ قلتُ أيضاً في نفسي، مُتسلّية، كيف بدَت ملامحي لجيندرا وأنا مُتأثّرة هكذا، لا بدّ أنّني بدوتُ له قبيحة، لا، أتمنّى ألّا يكون الأمرُ قد بدا له كذلك، فأنا لم أنتحب أمامه، أنا مُتوتّرة فقط لا أكثر...

اِسمَع يا جيندرا، دَعْني الآن قليلاً، سوف أكتبُ تعليقي الإذاعيّ، وسوف نُسجّله فوراً، ظلَّ مُمسكاً بيدي بضع دقائق أخرى وسألني برقّة ماذا ألمّ بك يا هيلينا، ماذا جرى، لكنّني أفلتتُ منه وأسْرعْت نحو مقرّ اللجنة الوطنيّة حيثُ وُضعتْ غرفة رهَن تصرّفنا،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بلغتُها، فكنتُ أخيراً وحيدةً في فراغ هذه الغرفة، مُنهارَةً فوق مقعدٍ وجبيني على الطّاولة، بقيتُ هكذا لبُرهة. شعرتُ بألم فظيع في الرّأس. فتحتُ حقيبتي لتناوُل قرص دواء، لكن لِمَ فتحْتُها وأنا أعلمُ أنّني لمْ أحمل معي دواء، بعد ذلك تذكّرتُ أنّ جيندرا كان يحملُ معه دوماً صيدليّة حقيقيّة، كان معطفُهُ الواقي مُعلّقاً على مشجب، فتّشتُ جيوبَهُ فعثرتُ على أنبوب صالح لآلام الرأس، وآلام الأسنان، وألم النّسا، وأعصاب الوجه. وما من دواء لآلام الرّوح، لكن ذلك على الأقلّ سيُخفّفُ من ألم الرّأس.

قصدتُ الصنبور في زاوية الغرفة المُجاورة، ملأتُ كأسَ خردل بالماء وأخذتُ قرصيْن. إنّهما كافيان تماماً، لربّما سوف يكونُ لهما تأثيرٌ، لكن آلام الرّوح لا شفاءَ منها إلّا بابتلاع أنبوب «ألجينا» هذا، لأنّ كمّيّة كبيرةً من أقراصها تجعلها مُسَمِّمَة، وهو تقريباً مليء، وقد يكون كافياً.

بالكاد أوْمَضَت الفكرة، هي فكرةٌ بسيطة عنّت لي في ثانية، إلّا أنّها كانت تعودُ باستمرار وتُجبرني على التساؤل لِمَ كنتُ أعيش، ما جدوى الاستمرار في العيش، لا ليس صحيحاً، إذ لم أكن أفكّرُ في شيء من هذا، لم أكن في هذه اللحظة أفكّرُ إطلاقاً، كنتُ أتخيَّلُ أنّني لن أعيش فقط، وكان الأمرُ فجأةً يبدو عذباً للغاية، عذباً بصورةٍ غريبة حتى لقد رغبتُ في الضّحك ولربّما شرعتُ حقّاً في الضّحك.

وضعتُ قرصيْن آخريْن على لساني، لم تكن لي إطلاقاً نيّة تسميم نفسي، اكتفيتُ بإمساك الأنبوب في يدي قائلة: «إنّني أمسكُ موتي في يدي»، مُبتهجةً بأن يكون الأمرُ في غاية السّهولة كما لوْ أنّني أدنو بخطوات قليلة من هاوية بلا قرار، لا لإلقاء نفسي فيها،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بل للنظّر إليها. ذهبتُ لمَلء الكأس بالماء، وابتلعتُ القرصيْن ثمّ عُدتُ إلى الغرفة، كانت النّافذة مفتوحة، ومن بعيد تُسمَعُ باستمرار هتافات الفرسان وضوضاء السّيارات والدرّاجات القذِرة، الدرّاجات التي كانت تُدَمِّرُ كلَّ ما هو جميل، كلَّ ما به آمنتُ ومِن أجله عِشت، كانت هذه الضوضاءُ لا تُطاق، لا يُطاقُ حتّى هُتافُ الفرسان بوَهَنه العاجز، أغلقتُ النّافذة وبدأتُ أشعرُ من جديد بألم الرّوح الطّويل والعنيد.

على امتداد حياتي لمْ يسبق يا لودفيك لبافيل أن أساء إليّ بقدْر إساءتك لي في دقيقة واحدة، أنا أصفحُ عن بافيل، أفهمُه كما هو، شُعلتُه تحترقُ سريعاً ويلزمه البحث عن تأجيج آخَر، عن مُتفرِّجين وجمهور جديد، لقد جرحَني مراراً، لكنّني الآن أراه، عبر ألمي الحالي، بدون غضَب وعلى نحوٍ أموميّ، أرى هذا المُتبجّح والمُمثّل الرديء وأسخرُ من سعْيه طوال هذه السّنين إلى الهروب منّي، آه، لِتذهَب يا بافيل، لِتذهَب، فأنا أفهمك، أمّا أنتَ يا لودفيك، فلا أفهمك، لقد جئتَ مُتنكّراً، جئتَ لتردّ إليّ الحياة وتُدمّرني بعد ذلك، أنتَ وحدك أمقتك وفي الوقت ذاته أتوسّلُ إليك أن تعود، أن تعود ويرقّ قلبي.

يا إلهي، لربّما هو سوء تفاهُم مُخيِّب فقط، من المُمكن أن يكون بافيل قد قال لك شيئاً عندما كُنتُما وحدكما، مَنْ أدراني، لقد سألتُك عن ذلك، توسّلتُ إليك لتشرح لي لِمَ لمْ تعُد تُحبّني، لم أكن أرغب في ترْكك، استبقيْتك أربع مرّات، لكنّك كنتَ ترفضُ سماع أيّ شيء، كنتَ فقط تُردّدُ انتهى، انتهى إلى الأبد، انتهى بصورةٍ لا رجعة فيها، حسناً، لقد انتهى، وقد امتثلتُ للأمْر، وكان لي صوتٌ رنّانٌ كما لوْ أنّه صوتُ شخصٍ آخَر، صوت طفلةٍ لمْ تبلُغ المُراهَقة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بعد، وبهذا الصّوت إذاً قلتُ لك: أتمنّى لك سفراً سعيداً، إنّه أمرٌ غريب، إذ لم أعرف قطعاً لِمَ تمنّيتُ لك سفراً سعيداً، لكنّ ذلك تردَّد على لساني بلا انقطاع، أتمنّى لك سفراً سعيداً، إذاً أتمنّى لك سفراً سعيداً.

أنتَ لا تعلمُ بلا شكّ كمْ أحبّك، ومن المُؤكّد أنّك تجهلُ كيف أحبّك، لا بدّ أنّك تعتبرُني مُجرّد امرأةٍ تبحثُ عن مُغامَرة، أنتَ لا تتخيّلُ أنّكَ قدَري وحياتي وكلَّ شيء... قد تجدُني هُنا راقدةً تحت غطاء أبيض، وسوف تفهمُ حينذاك أنّك قتلتَ أعزّ ما كان لديك في الحياة، أو قد تأتي وأنا لا أزالُ على قيْد الحياد ويُمكنك أن تنقذني وتجثوَ إلى جانبي وتغرق في الدّموع، وسوف أداعبُ يديْك وشَعرك، سوف أصفحُ عنك، أصفحُ عن كلِّ شيء...

15

لمْ يكن ثمّة حقّاً مخرجٌ آخَر، لقد كان عليّ أن أشطّبَ هذه الحكاية المُثيرة للرّثاء، هذه المَزحة الرّديئة التي لمْ تكن تنحصرُ في ذاتها، بل كانت تتعدّدُ على نحو مُخيف في مَزحاتٍ رديئة أخرى وأخرى، كنتُ أريدُ مَحْوَ هذا اليوم بكامله الذي وَقع عرَضاً، لسبب واحدٍ هو أنّني لمْ أستيقظ باكراً وأضعْتُ قطاري، كنتُ أريدُ أيضاً أنْ أمحوَ كلّ ما قاد إلى هذا اليوم، كلَّ غزْوَتي الجنسيّة البليدة، التي لمْ تقمْ هي أيضاً سوى على خطأ.

أسْرَعتُ في المَشي كما لوْ كنتُ أسمعُ خلفي خُطى هيلينا تُطاردني، وقلتُ في نفسي: ما الفائدة حتّى إن تمكّنتُ من محو هذه الأيام القليلة العبثيّة من حياتي ما دامت قصّة حياتي بكاملها قد قامت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

على خطأ، بمَزحة البطاقة البريديّة، وبهذه الصّدفة، وبهذا اللامعنى. شعرتُ برعبٍ أنّ الأشياءَ النّاجمة عن خطأ واقعيّةٌ مثلما هي واقعيّةٌ الأشياء الخاضعة للمنطق والضرورة.

كم كنتُ أتمنّى أن ألغيَ كلَّ القصّة من حياتي، ولكن بأيّ حقٍّ سوف ألغيها إذا كانت الأخطاءُ التي منها تولَّدَتْ ليست أخطائي؟ ومَنْ، في واقع الأمْر، أخطأ عندما أخِذت مَزحة بطاقتي البريديّة على محمل الجدّ؟ مَنْ كان قد أخطأ عندما زُجَّ بوالد ألكسيج (الذي رُدَّ له اليوم اعتبارُهُ ولكن ليس قبْل موته مع ذلك) في السّجن. مثل هذه الأخطاء كانت شائعة ومألوفة للغاية بحيث لمْ تكن تمثّلُ استثناءات أو «أخطاء» في نظام الأشياء، بل كانت على العكس تبْني هذا النّظام. مَنْ كان المُخطئ إذاً؟ أهُو التاريخُ نفسُهُ؟ أهو الإلهيّ، العقليّ؟ ولكن لِمَ ينبغي أن ننسبَ الأخطاء إلى التاريخ؟ لمْ يكن الأمْرُ يبدو هكذا إلّا لمنطقي البشريّ، ولكن إذا كان للتاريخ منطقُهُ الخاصّ، لِمَ على هذا المنطق أن ينشغلَ بالفهم البشريّ ويكونَ جادّاً مثل مُدرِّسة؟ وماذا لو كان التاريخ يَمزحُ؟ في هذه اللحظة، أدركتُ أنّ مِن المُستحيل أن ألغيَ مَزحتي الخاصّة ما دمتُ أنا نفسي وحياتي بكاملها جزءاً من مَزحةٍ أكبر بكثير (تتجاوَزُني) وحتميّة تماماً.

كانت لوحة كبيرةٌ مسنودة إلى سور من أسوار السّاحة (التي عمَّ بها الصّمت، لأنّ موكب الفرسان الملوك كان يطوفُ في الطّرَف الآخَر من القرية) تُعلنُ بحروفٍ حمراء أنّ جوقة سنبالوم سوف تُحيي اليوم حفلاً عند السّاعة الرّابعة بحديقة المقهى - المطعم. وكان بابُ المطعم جانبَ اللوحة، وبما أنّه كان أمامي قرابة ساعتيْن على انطلاق الحافلة وكان وقت الغذاء قد حان، فقد دخلتُ.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

16

كانت هذه الرّغبة في دنوّي قليلاً أكثر من الهاوية رائعةً، كنتُ أودُّ أن أنحني على الدرابزين لأنظر، كما لوْ أنّ النّظرَ سوف يُواسيني ويُخفِّف من ألمي، كما لوْ كان مُمْكناً لنا في عُمْق الهاوية هناك، ما دام غير مُمْكن في مكان آخَر، أن نجدَ نفْسَيْنا معاً مُتفاهميْن إلى الأبد، بمنأى عن خِسّةِ الإنسان، وعن الهَرَم والمتاعب. عُدتُ إلى الغرفة المُجاورة، لم أكن تناولتُ ساعتها سوى أربعة أقراص، وهي لا شيء، فقد كنتُ لا أزال بعيدةً عن الهاوية، وحتّى عن عتبة الدرابزين. أفرغتُ ما تبقّى من أقراص الأنبوب في كفّي. وفي اللحظة ذاتها سمعتُ باب الممرّ يُفتَح، فارتجفتُ وأسرعتُ في ابتلاعها دفعة واحدة، كانت كثيرةً على أن تُؤخذ دفعة واحدة، فاضطررتُ إلى شرب جرعات كبيرة، وكان بلعومي الذي انتفخ يُؤلمني.

لقد كان جيندرا. سألني كيف كان يسيرُ عملي، وصرتُ فجأةً لا مباليةً تماماً، لم يكن عليّ أثرٌ لأيّ اضطراب، كنتُ فقدتُ الصوتَ الرنّان الغريب، وأصبحتُ هادئة وواثقة. لقد أحْسنتَ يا جيندرا بمجيئك، أريدك أن تُسديَ إليّ خدمة صغيرة. احمرَّ وجهه ثمّ قال إنّه سعيدٌ باستعادتي لهُدوئي. أجل، إنّني الآن أشعرُ بنفسي أحسن، لكن اسمحْ لي لحظة، فأنا أودّ أن أكتبَ شيئاً، جلستُ وأخذتُ ورقة وقلماً وكتبتُ. عزيزي لودفيك، لقد أحببْتك بكلِّ روحي وبكلِّ جسدي، ولمْ يعُد لجسدي وروحي من داعٍ للعيش. أقولُ لك وداعاً. أحبُّك، هيلينا. لمْ أعِد حتّى قراءةَ ما كتبتُهُ، كان جيندرا جالساً قبالتي، نظرَ إليّ، لم يكن يعلمُ ما كتبتُهُ، فطويتُ الورقة، أردتُ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وَضْعَها في ظرف، لكن لا سبيل للعثور على واحد، أيُمكنك يا جيندرا العثور على ظرف من فضلك؟

اقتربَ جيندرا بهدوء من دولاب قرب الطاولة، فتحَه وأخذ يُفتِّشُ بداخله، كان من المفروض أن أنبّهه على أنّنا لا نُفتّشُ في أغراض الآخَرين، لكنّني كنتُ ساعتها بحاجة فوراً إلى هذا الظرْف، حملَ لي واحداً كُتبَ أعلاه: اللجنة الوطنيّة الجهويّة، دسستُ الورقة داخله وأغلقتُهُ وكتبتُ عليه: لودفيك جان، أتذكُرُ يا جيندرا ذلك الرّجل الذي كان معنا هناك قبل قليل، لمّا كان أيضاً زوجي وتلك الفتاة، أجل، ذلك الطويل الأسمر، فأنا لا أقوى اللحظة على مُغادرة المكان، وأودّ منك أن تعثُرَ عليه وتُسلّمَهُ هذا الظّرف.

أمْسكَ بيدي مرّةً أخرى. الصغير المسكين، ما الذي بإمكانه تخيُّله، كيف كان يُفسِّرُ لنفسهِ ارتباكي، لقد كان بمنأى عن الشّكّ في ما كان يجري، كلُّ ما كان يُخمِّنه هو أنَّ لي بعضَ المتاعب، كان يُمسكُ بيدي وفجأةً شعرتُ بنفسي مُتسامحةً بصورةٍ مُخيفة، انحنَى عليَّ وضمَّني وحاصرَني بقبلةٍ على فمي، أردتُ صدَّهُ، لكنّهُ طوّقني بقوّة، فعنَّ لي أنّه كان آخِر رجُل أقبّله في حياتي، وأنّها قُبْلتي الأخيرة، وفجأةً ارتبكتُ فقبَّلتُه بدوري، ضمَمتُهُ إلى صدري وأفرجْتُ شفتَي فأحسستُ بلسانه على لساني وأصابعه على جسدي، أحسستُ بما يُشبه الدّوار أنّني كنتُ الآن حُرّةً، ولا شيء كان يستحقّ الاهتمام ما دام الجميعُ قد تخلّى عنّي وانهارَ عالَمي، لذلك كنتُ حقّاً حُرّةً تماماً، وبإمكاني القيام بما يستهويني، حُرّةً مثل تلك التّقنيّة التي كنّا طردناها من الحزب، لا شيء كان يفصلني عنها، أبداً لن أرمّمَ عالمي القديم المُفتّت، لِمَ سأبقى وفيّة له، ولأجل مَن، كنتُّ منذ ذلك الحين حرّةً، تماماً مثل التقنيّة المطرودة، تلك العاهرة الصغيرة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

التي كانت تُغيِّرُ السّرير كلَّ ليلة، كنتُ أشعرُ بلسان جيندرا في فمي، كنتُ حُرّةً، وأعرف أنّ بإمكاني مُضاجعته، كانت لي رغبة في ذلك، في أيّ مكان، فوق الطاولة، أو فوق الأرضيّة، فوراً ومن غير انتظار، مُضاجعة أخيرة، قبل النّهاية، لكنّ جيندرا تراجعَ مُبتسماً بزهو، وقال إنّه ذاهبٌ وسوف يعود بعد قليل.

17

بين الطاولات الخمس أو السّت في القاعة الصّغيرة الغارقة في الدّخان والزّحام، كان نادلٌ يمرّ على عجَل، حاملاً بذراعٍ ممدودةٍ صينيّة كبيرةً مُثقلة بصحون كثيرة، حيث لمحتُ بسُرعة شرائح لحم مُزيّنة بالبطاطس (الوجبة الوحيدة التي تُقدّمُ يوم الأحد)، ثمّ شقّ معبراً من غير تحرُّز وانتهى إلى ممرّ، فتبعتهُ واكتشفتُ أنّ هذا الممرّ كان يقودُ إلى باب مفتوح على حديقةٍ حيث كانت تُقدَّمُ الوجباتُ أيضاً. تحت شجرة زيزفون في أقصى الحديقة، كانت هناك مائدةٌ شاغرة، بها جلستُ.

من فوق سطوح القرية، كانت هتافاتُ الفرسان المُؤثّرة تصِلُ من بعيد، بحيث كانت تبدو داخل هذه الحديقة المُطوَّقة بجدران المنازل المُجاورة مُتوَهَّمَةً. وجعلني هذا التوهُّم الجليّ أفكّرُ أنّ كلَّ ما كان يُحيطُ بي لمْ يكن الحاضر، بل الماضي، ماضٍ قديم يعودُ إلى خمس عشرة أو عشرين سنة، أنّ هتافات الفرسان كانت الماضي، ولوسي كانت الماضي، وزيمانيك كان الماضي، وهيلينا كانت الحجَرَ الذي كنتُ أريدُ إلقاءهُ على هذا الماضي، فهذه الأيام الثلاثة الأخيرة لم تكن سوى مسرحِ ظِلال.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ماذا؟ أفقط هذه الأيام الثلاثة؟ إنّ حياتي بكاملها كانت تعجُّ دوماً بالظّلال، ولربّما كان الحاضر فيها يشغلُ حيّزاً ضئيلاً للغاية. تخيّلتُ رصيفاً مُتحرّكاً (هو الزّمن) ورجُلاً (هو أنا) يجري فوقه في اتّجاهٍ مُعاكس، لكنّ الرصيفَ يتحرّك أسرعَ منّي، بما يجعلهُ يحملني ببطءٍ في اتّجاه مُعاكس للهدف الذي نحوه أسيرُ، وهذا الهدف (الهدف الغريب الموجود في الخلف) هو ماضي المُحاكمات السياسيّة، ماضي القاعات حيث تَرتفعُ الأيدي، ماضي الجنود السُّود ولوسي، ماضٍ بقيتُ مسحوراً به، أجهدُ نفسي لفكِّ شفراته وتبيّنه وحلّ عقدته، ماضٍ يمنعُني من العيش مُتطلّعاً إلى الآتي كما ينبغي للإنسان أن يعيش.

ما أودّ أن يربطني بالماضي، الذي يُنوّمُني، هو الانتقام، غير أنّ الانتقام، على نحو ما اقتنعتُ به هذه الأيام، هو أيضاً بلا جدوى مثل جريي على الرّصيف المُتحرّك. أجل، لقد كان عليّ في ذلك الحين بالذات داخل القاعة الكبيرة بالكليّة، عندما كان زيمانيك يُشِيدُ بـ«التقرير المكتوب تحت المشنقة» أن أتقدّم نحوه وأصفعه، في ذلك الحين تحديداً لا في غيره. ذلك أنّ تأجيل الانتقام يُحوّله إلى وَهْم، إلى عقيدة ذاتيّة، إلى أسطورةٍ يزدادُ انفصالها كلَّ يوم عن أبطالها الفعليّين الذين لا يتبدّلون في أسطورة الانتقام، في حين يكُفّون، في الواقع، (أمام حركة الرصيف المُستمرّة) عن أن يكونوا كما كانوا: جان آخَر أمامه زيمانيك آخَر، وبذلك لا يُمكنُ إحياءُ الصفعة التي عليّ توجيهها له ولا إعادة تشكيلها، لقد ضاعت إلى الأبد.

كنتُ أقطعُ شريحة اللحم الكبيرة المُغطّاة بمسحوق الخبز، مُنصتاً لهتاف الفرسان المُتردّد كئيباً فوق سقوف القرية، مُتملّصاً من الإدراك تقريباً، ثمّ طفَت من جديد في ذهني صورةُ المَلك المُقنّع مع مَوكبه، فأثارَتْني فكرةُ غموض حركات الإنسان:

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

منذ قرون والشبّان، كما هي الحال اليوم، يمتطون في قرى مورافيا صهوات الجياد للانطلاق من أجل رسالةٍ غريبة، يتهجّوْن بوفاء حماسيّ الكلماتِ التي لا يفهمون معناها، الكلمات المكتوبة بلغةٍ مجهولة. لقد أراد رجالٌ في زمن غابر جدّاً قولَ شيء بليغ للغاية بلا شكّ، وهُم اليوم يُولَدُون من جديدٍ في أحفادهم الذين هم أشبه بخطباء صمّ بُكْم يتوجّهون إلى الجمهور بحركات رائعة وغامضة. لن يستطيع النّاسُ أبداً فهْم رسالتهم لا لجهلهم بمصدرها فقط، ولكن لأنّ النّاس لا صبْر لهم أيضاً على السّماع في زمَن يشهدُ كمّاً هائلاً من الرّسائل القديمة والجديدة التي يتمنّعُ مُحتواها، الذي يخفي بعضُه بعضاً، على الفهْم. وبذلك لمْ يعُد التاريخُ اليوم سوى خيطٍ واهنٍ من ذكرى فوق مُحيطِ المَنْسيّ، غير أنّ الزّمن يتقدّمُ، وسوف يحُلّ عصرُ ألفيّات لاحقة، حيث ستعجزُ ذاكرةُ الأفراد الضيّقة تماماً على الإحاطة بما كان، وهكذا سوف تضيعُ أجزاءُ كاملة من قرون وألفيّات، قرون من الرّسم والموسيقى، قرون من الاكتشافات والمعارك والكتُب، سوف يكون ذلك سيّئاً، لأنّ الإنسانَ سيفقدُ فكرةَ الوعي بذاته، وسيُختزَلُ تاريخه المُنفلتُ والمُتمنّعُ على الإحاطة في بضع علاماتٍ صوريّة مُجرَّدةٍ من المعنى. آلافُ مواكب الفرسان الملوك سوف تذهبُ، بَكماء صمّاء، إلى لقاء هؤلاء الأشخاص في المُستقبل البعيد بخطابات نائحة غامضة، ولا أحد سوف يجدُ الوقت لسَماعهم.

كنتُ جالساً أمام صحني الفارغ في زاوية بحديقة هذا المطعم، فقد أتيتُ على شريحة اللحم من غير أن أنتبه، كنتُ أشعرُ (منذ الآن!) بأنّني جزءٌ من هذا النسيان الحتميّ الفادح. أخذ النّادلُ الصّحنَ، وبمنشفة مطوية مَسحَ الفُتات من فوق غطاء الطاولة وانتقل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بخفّة إلى طاولةٍ أخرى. يستولي عليّ ندمُ هذا اليوم، لا لتفاهته فقط، بل لإدراكي أنّ هذه التّفاهة نفسَها سوف تُنسَى، بما فيها هذه الذبابة التي كانت تطنُّ على صدغي، وهذا الغبار الأصفر الذي كانت شجرةُ الزيزفون المُزهرة تُدرُّه على غطاء الطاولة، بل وحتّى هذه الخدمة البطيئة الرّديئة الكاشفة عن حالة مُجتمع أعيشُ فيه، الذي هو أيضاً سوف يُنسَى، بكلّ أخطائه وكلّ أذاه الذي كان يُلازمني ويستنفدني، الذي كنتُ أجهدُ نفسي بلا جدوى في تصحيحه ومُعاقبته وتقويمه، لأنّ ما وقع قد وقع، ولا سبيل لإصلاحه.

أجل، لقد كنتُ فجأةً أرى ذلك بوضوح: أغلبُ النّاس يستسلمون لسَراب مُزدوج: يُؤمنون من جهة بدوام الذاكرة (ذاكرة النّاس والأشياء والأفعال والأمم) وبإمكان إصلاحها من جهة أخرى (إصلاح الأفعال والأخطاء والخطايا والأذى). كِلا الاعتقاديْن خاطئ. فالحقيقة مُناقضة لذلك تماماً: كلُّ شيء سوف يُنسَى، ولا شيء سيُصَحَّح. التّصحيحُ (سواء بالانتقام أو بالصّفح) سوف يَلفّهُ النّسيان. لا أحد سيُصحِّحُ الأخطاء المُرتكَبة، بل كلّ الأخطاء سوف تُنسَى.

مرّةً أخرى كنتُ أنظرُ بانتباه إلى ما يحيطُ بي، لأنّني كنتُ أعرفُ أنّ كلّ شيءٍ سوف يُنسَى، شجرة الزيزفون، مَنْ يتناولون وجبة الغداء، النّادل (المُرهَق بعد عمل الظّهيرة)، هذا المطعم (المُنفِّرُ من الخارج) الذي كان يبدو من هنا، أي من الحديقة، جذاباً للغاية بفضل بساط تعريشات الكروم على الجدران. كنتُ أنظرُ إلى باب الممرّ المفتوح الذي عبْرهُ كان النادل (مُتعب القلب من هذه الزاوية المُخبّأة التي خلت من الزبائن وعادت إلى الهدوء) قد اختفى وظهرَ فتى بسترةٍ جلديّة وسروال جينز أزرق، دخل الحديقة وبدأ ينظرُ من

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حوله، ولمّا رآني تقدّمَ نحوي، وقد لزمتني ثوانٍ عديدة قبل أن أتذكّره، إنّه المُساعد التقنيّ لهيلينا.

أشعرُ دوماً بالهلع عندما تُحرّكُ امرأةٌ عاشقة مهجُورة تهديدَها بالعودة، وعندما أمدّني بالظرف قائلاً («إنّه من السيّدة زيمانيك»)، كان ردّ فعلي الأوّل إذاً تأخير قراءة الرسالة بطريقة أو بأخرى. دعَوتُه إلى الجلوس، فلبّى الدعوة (مرفقٌ على الطاولة، الجبينُ مُقطّب، والهيأة مرحة، كان يتأمّلُ أوراقَ الزيزفون المُضاءة بالشّمس)، وضعتُ الظرف أمامي على الطاولة وسألته: «أتشربُ شيئاً؟».

هزَّ كتفيْه، فاقترحتُ فودكا، رفضَ مُشيراً إلى أنّه سوف يقود سيّارته والقانون يمنعُ على السائقين كلّ تناولٍ للكحول، ثمّ أضاف أنه سوف يُسعده، مع ذلك، أن يراني أشرب. لم تكن لي أيّ رغبة في الشرب، ولكن مع هذا الظرف الموضوع أمامي، الذي لا أحرصُ بتاتاً على فتحه، كان أيّ شيء يُناسبني. رجوتُ النّادل، الذي كان يمرّ بالقرب منّي، أن يحمل لي فودكا.

«ألا تعرف ما الذي تريدهُ منّي هيلينا، سألتُه.

- كيف لي أن أعرف؟ اقرأ رسالتها! ففيها الجواب.

- هل الأمرُ مُستعجل؟ سألتُه.

- ماذا تظنّ؟ أتظنّ أنّني لُقّنتُ مُحتواها عن ظهر قلب مخافة اعتراض طريقي؟»، قال. أخذتُ بأطراف أصابعي الظرفَ (الرسميّ بعبارة «اللجنة الوطنيّة الجهويّة» المُثبتة أعلاه) ثم وضعتُه على غطاء الطاولة أمامي ولم أعرف ما أقول، فقلتُ: «من المؤسف أن لا تشرب!

- لمصلحتِك أيضاً، في آخر المطاف، من أجل السّلامة...»،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قال. أدركتُ التلميح الذي لم يكن فضلاً عن ذلك مجّانيّاً: فقد كان الصّغيرُ يستغلُّ جلوسَه معي لتبيُّن ظروف سفر العودة وحظوظه في أن يقوم به مع هيلينا وحدهما. كان لطيفاً للغاية، ويتبدّى على وجهه (الصّغير، الباهت، المُرقّط بالنّمش، بأنف قصير خانس) كلّ ما كان يجولُ بداخله، كان وجْهاً شفّافاً، لأنّه وجهٌ طفوليّ على نحوٍ غير قابل للإصلاح (أقول غير قابل للإصلاح بسبب ملامحه الدقيقة بصورة غير طبيعيّة، إذ لا تُصبحُ هذه الملامح مع تقدّم السّن رجوليّة أكثر، بل تجعلُ من وَجْهِ عجوزٍ وجْهَ طفلٍ شاخ). لا يُمْكنُ لمثل هذا الملمح الطفوليّ أن يُرضيَ فتى في العشرين من العمر، بحيث لم يبقَ أمامه إلّا أن يُخفيه بكلِّ الوسائل المُمكنة (مثلما كان يُخفيه في الماضي - آه، في مسرح الظّلال الخالد - القائدُ الصبيّ): بطريقة اللباس (السترة الجلديّة بكتفيْن عريضيْن بتفصيلتها الجيّدة المُلائمة) والسلوك (غير قليل من الثقة في النّفس، دون ابتذال، وبتكلّفٍ لا مبالاةٍ مرحة أحياناً). كان هذا التّستُّر المدروس يتكسّرُ في كلّ لحظة، إذ كان وجهُ الفتى يحمرّ، ويتقافزُ صوتُه إثر أدنى ارتباك (وهو ما كنتُ قد انتبهتُ إليه منذ اللقاء الأوّل)، لم يكن يتحكّمُ لا في عينيْه ولا في إيماءاته (لقد كان يُحاول بلا شكّ أن يُظهرَ لي عدمَ اكتراثه لمعرفةِ إن كنتُ سأصحبهما في العودة إلى براغ، ولكن لمّا طمْأنْتُه أنّني سوف أبقى هُنا، أشرَقتْ نظرتهُ بصورةٍ لافتةٍ جدّاً).

عندما أحضرَ النّادل الشارد إلى طاولتنا كأسيْ فودكا بدل كأس واحدة، صدرت عن المُساعد التقنيّ حركة وقال لا بأس إن شارَكني الشّرب: «لن أدعك على كلّ حال تشربُ وحدك!». رفعَ كأسه: «إذاً، نخبك!

- نخبك أيضاً!»، أجبتُه وقرعنا كأسيْنا. أخذنا في الحديث

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فعلمتُ أنّه كان يتوقّعُ عودتهما بعد ساعتيْن، ذلك أنّ هيلينا كانت تنوي أن تضبط كلَّ ما كان مُسجّلاً قبْلاً في الأشرطة، وأن تُسجّل عند الاقتضاء تعليقها الشخصيّ ليتسنّى إذاعة العمل بكامله ابتداءً من الغد. سألتُه إذا ما كان عمله مع هيلينا يسيرُ في أحسن الظروف. أجاب وقد احمرّ مرّةً أخرى أنّ هيلينا كانت تُقاومُ بجدّ، إلّا أنّها كانت قاسية مع أعضاء فريقها، لأنّها كانت دوماً مُستعدّة لتجاوُز الوقت المرسوم للعمل، غير مكترثة لمعرفة إذا ما كان الآخَرون على عجل للعودة إلى منازلهم. سألتُه إن كان هو أيضاً يستعجلُ العودة إلى بيته. أجاب بالنفي وبأنّ العمل كان يُمْتعه. ثمّ انتهزَ أسئلتي عن هيلينا وسألني مُتحرّيّاً على نحو عابر كما لو أنَّ الأمر لا يعنيه: «قل لي، كيف تعرّفتَ إلى هيلينا؟». أخبرتُه، ثم سعى إلى أن يعرف أكثر: «أليست هيلينا جميلة؟»

كلّما تعلّقَ الأمرُ بهيلينا بوجه خاصّ، كان يبدو بهيأة انشراح، كنتُ أعزوها أيضاً إلى انشغاله بإخفائها، لأنّ الجميع كان على عِلم بحبّه اليائس لهيلينا، فكان عليه أن يكدّ في ألّا يُلصَقَ به تاجُ العاشق المُهمَل، هذا التّاج الذائع المُشين. وحتى إن لم أكن آخُذ هدوءَ الفتى على محمل الجدّ كثيراً، فإنّ هدوءهُ، مع ذلك قد خَفّفَ قليلاً مِن ثقل الرسالة التي كانت موضوعة أمامي، بحيث انتهيتُ إلى أخذها وفتْحها: «لم يَعُد لجسدي وروحي... من داعٍ للعيش... أقول لك وداعاً...».

لمحتُ النّادل في الزاوية الأخرى من الحديقة فصِحتُ: «الحساب!». وافقَ بإشارة من رأسه، لكن سرعان ما اختفى في الممرّ، مُلتزماً بمداره.

قلتُ للفتى: «تعال، لا وقت لنا لإضاعته!». نهضتُ وعبرْتُ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الحديقة فتبعني. بلغنا بابَ المطعم بعد اجتياز الممرّ، بحيث كان النّادل مُرغماً على أن يركض خلفنا.

«شريحة لحم، حساء، وكأسا فودكا، قلت له.

- ماذا هناك؟»، قال الصبيّ بقلق خجول.

لمّا سدّدتُ الحساب، رجوتُه أن يقتادني سريعاً نحو هيلينا. ثم حثثنا الخطى.

سألني: «ولكن، ماذا هناك؟

- هل المكان بعيد؟»، سألتُه بدوري.

أشارَ إلى الأمام في خطٍّ مُستقيم، فركضتُ مُسرعاً. كان مقرّ اللجنة الوطنيّة مُجرّد طابق سفلي، مُبلّطٍ بالأبيض، بباب ونافذتين. دخلنا فوجدنا نفسيْنا في مكان إداريّ كئيب: هناك تحت النافذة مكتبان مُلتصقان، وُضِع فوق أحَدهما مُسجّل الصوت ودفتر مذكّرات وحقيبة يدويّة (أجل، إنّها حقيبة هيلينا)، أمام المكتبيْن مقعدان، وهناك في زاوية مشجبٌ معدنيّ، منه كان يتدلّى معطفان، أحدهما نسويّ والثاني رجاليّ.

«هنا، قال الفتى.

- أهُنا أعطَتك الرّسالة؟

- نعم».

غير أنّ الغرفة الآن كانت فارغة، ناديتُ: «هيلينا!»، فأرعبَتْني نبرةُ الشّكّ والهلع في صوتي. لا جواب. ناديتُ من جديد: «هيلينا!»، فسألني الفتى:

- هل انـ. . .؟

- ذلك ما يبدو تماماً، قلت.

- هل تحدّثتْ عن ذلك في هذه الرّسالة؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- أجل، قلت. ألم يُعيروكم غرفة غير هذه؟
- لا،
- وبالفندق؟
- لقد سلّمنا الغُرف هذا الصّباح.
- من المؤكّد، إذاً، أنّها هُنا، قلتُ، فسمعتُ صوت الفتى المشدوخ يقول خافتاً: «هيلينا!».

دفعتُ باباً كان يُفضي إلى غرفة مُجاورة، كانت مكتباً أيضاً، بطاولة وسلّة مهملات ورقيّة وثلاثة مقاعد ودولاب ومشجب (شبيهٍ بمشجب الغُرفة الأخرى: من المعدن بثلاث قوائم وثلاثة فروع من الأعلى لا لباس عليه، كان يبدو يتيماً بطيْفه البشريّ على نحو غامض، عرْيُهُ المعدنيّ وأذرعه المرفوعة مَلأتْني بالهلع)، وباستثناء النافذة فوق الطاولة، لم يكن ثمّة إلّا الجدران، لا باب هنا، لقد كان جليّاً أنّ المكتبيْن هما الغرفتان الوحيدتان في هذا البيت الصّغير.

عدنا إلى الغرفة الأولى، أخذتُ دفتر المُذكّرات وشرعتُ أتصفّحه، كان من الصّعب قراءة ما سُجّل به من ملاحظات، هي (إنْ أمْكنني تحديدها عبْر الكلمات التي تمكّنتُ من فكّ شفرتها) وصفٌ لموكب الفرسان الملوك، لا رسالة، ولا كلمة وداع. فتحتُ الحقيبة، كان فيها منديل، وحقيبة نقود، وأحمر شفاه، وعُلبة بودرة، وسيجارتان، وقدّاحة، لا أثر لأيّ أنبوب دواء ولا لقارورة سُمّ سائل. كنتُ أفكّرُ مُضطرباً في ما يُمكنُ لهيلينا أن تكون قد اختارَته، كان السُّمّ مُرجّحاً أكثر من كلِّ الاحتمالات الأخرى، لذلك لا بدّ أن تكون قد تركتْ قارورةً صغيرة أو أنبوباً. توجّهتُ نحو المشجب وفتّشتُ جيوبَ معطف هيلينا الواقي: لقد كانت فارغة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«ألن تكونَ في المخزن؟»، قال الفتى فجأةً بنفاد صبر، مُخمِّناً بلا شكّ أنّ تفتيشي في الغرفة وإن لم يستغرق إلّا بضع ثوان، لا يُمكنُ أن يُفضيَ إلى شيء. ركضنا في الممرّ حيث كان هناك بابان: من أحدهما، الزجاجيّ في ثلثه الأعلى، رجّحْنا أكثر أنّنا كنّا نلمحُ باحة، ففتحنا الثاني، قريباً جدّاً منه بدا لنا سلَّمٌ بدَرَج حجريّة مُغطّاة بطبقةٍ من الغبار والسّخام، صعدناه، لم يكن ينبعث من الكوّة الوحيدة في السقف (بزجاجها المُتّسخ) غير ضوءٍ كامد كابٍ. أسقاطٌ مُوزَّعة في كلٍّ مكان (صناديق، أدوات بَسْتنة، معازق، مقالب تراب، مِكدّات، بالإضافة إلى كومة ضخمة من الملفّات، ومقعد قديم مُفكّك) كنّا نتعثّرُ بها.

كنتُ أريدُ أن أنادي: «هيلينا!»، لكنَّ الخوف كان يمنعني، كنتُ مرعوباً من الصّمت الذي يُمكنُ أن يعقب النّداء. لمْ يُناد الفتى بدوره. كنّا نُقلّبُ الأسقاط ونتلمّسُ الأماكن المُظلمة بصمت، كنتُ أشعرُ كم كنّا مُضطربيْن نحنُ الاثنيْن. صمتُنا هو الهلعُ الأكبر، إذ كان يعني معرفتنا بأنّنا لم نكن ننتظرُ جواباً من هيلينا، وأنّنا لم نكن نبحثُ إلّا عن جُثتها مُعلّقة أو مُمَدَّدة.

وبما أنّنا لمْ نعثر على أيّ شيء، فقدْ نزلنا إلى المكتب. كنتُ أجولُ مرّةً أخرى ببَصري على الأمتعة، الطاولتيْن، المقاعد، المشجب الذي منه كان يتدلّى معطفان واقيان، ثم في الغرفة المُجاورة: طاولة، مقاعد، المشجب الآخَر بأذرعه العارية المرفوعة بيأس. نادى الصبيّ (بلا جدوى) هيلينا! وفتحتُ (بلا جدوى) الدّولاب الذي كانت رفوفه مليئة بوثائق قديمة، أدوات كتابة، ورق لاصق، ومسطرات.

«يا إلهي، لا بدّ أن تكون هناك أماكن أخرى! مراحيض! قبو!»،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قلت. وتوجّهنا من جديد نحو الممرّ. فتحَ الفتى بابَ الباحة، كانت صغيرةً، بإحدى زواياها قفص أرانب، وفي أقصاها كانت تمتدّ حديقة اكتسحَتها أعشابٌ بريّة، وبها أشجار فواكه (في زاوية نائيّة من فكري، تمكّنتُ من تسجيل جَمال هذا المكان: رُقع سماء زرقاء مُعلّقة بين الأوراق، الجذوع الخشنة والثنائيّة، وبينها ضوء بضع نبتات من عبّاد الشمس)، وفي أقصى الحديقة، لمحتُ في الظلّ الشاعريّ لشجرة التفّاح مرحاضاً. فأسْرعتُ نحوه.

كان المزلاج المُدار على مسمار كبير مغروزٍ في الكِفاف الضيّق للباب (ليتسنّى الإغلاق من الخارج عبْر وَضْعه أفقيّاً) مُحوَّلاً نحو الأعلى. بدسّ أصابعي داخل فرجة الباب وكِفافه، كان يكفي سحبٌ خفيف كي ألاحظ أنّ المرحاض كان مُغلقاً من الدّاخل، وهو ما لم يكن يدلّ سوى على شيءٍ واحد: إنّ هيلينا كانت هُنا. ناديتُ بصوتٍ خافت: «هيلينا، هيلينا!». لا شيء يُجيب. وحدهُ حفيفُ عروش شجرة التفّاح كان يُسمَعُ بعد أن لامَست جدارَ المرحاض إثر هبّة ريح.

كنتُ أعرفُ أنّ هذا الصّمتَ في الدّاخل كان يُنذرُ بالأسوأ، وأنّهُ لمْ يبق لي أيضاً سوى خلع الباب وأنا مَنْ عليه أن يقوم بذلك. دسستُ أصابعي من جديد بين فرجة الباب وكِفافه وجذبتُ بكلّ قواي. استجابَ الباب (الذي كان مُثبّتاً لا بكُلاّب، بل بمجرّد طرفِ حبْلٍ كما هي في الغالب الحال في الأبواب بالبادية) بسهولة وانفتح على مصراعيْه. كانت هيلينا أمامي جالسة على مقعد المرحاض الخشبيّ وسط العفونة. شاحبة ولكنّها على قيد الحياة. كانت تنظرُ إليّ مذعورةً وهي تبسط تنّورتها التي بالكاد غطّت رغم جهدها نصفَ فخذيْها، كانت تُمسكُ حاشية التنّورة بيديْها وتضمُّ ساقيْها. «يا إلهي، ابتعد عنّي، تعجّبَت بفزع.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- ماذا بك؟ صرختُ. ماذا تناولتِ؟

- ابتعد عنّي! اتركني لحالي!».

خلفي، ظَهَرَ الفتى فصاحت هيلينا: «ابتعد يا جيندرا! انسحب!»، لم تُكمل وقفتها ويدها ممدودة نحو الباب، إلّا أنّني حُلتُ بينها وبين المصراع بحيث اضطرّت مُترنِّحة إلى الجلوس فوق فتحة المرحاض.

في الثانية ذاتها، نهضَت من جديد وانقضّت عليّ بقوّة فاترة (فاترة حقّاً، إذ لم يبق لها من القوّة إلّا القليل بعد إنهاكها الكبير). كانت وهي تُمسك بطيّتيْ سترتي تدفعني نحو الخارج، فكنّا معاً على عتبة المرحاض «أيّها الوحش القذر، أيّها الوحش القذر، أيّها الوحش القذر!»، كانت تصرخ (إنْ أمْكنَ تسمية هذا الجهد الغاضب لتقوية صوتٍ واهن صُراخاً) وترُجُّني، ثم فجأةً تركتني وهرعت فوق العشب نحو الباحة الصغيرة. كانت تريدُ الابتعاد، غير أنّها عجزت: لقد غادرت المرحاض بارتباكٍ منعَها من إنهاء ترتيب ملابسها بحيث بقيَ سروالها الدّاخليّ (المطّاط المُثبّت للجوارب الذي رأيته أمس) مُلتفّاً على ركبتيْها مُعيقاً مشيَتها (صحيح أنّ التنّورة كانت مُنسدلة، لكنّ جواربها ظلّت تتراقصُ مثل أكورديون على رَبْلتَيْها، وتبدّت حاشيتهما العليا الغامقة بمثبّتهما المطّاطيّ)، خطَت بضع خطوات ضيّقة، أو بالأحرى بضع قفزات قصيرة للغاية (كانت ترتدي حذاءً بكعب عالٍ)، وما إن ابتعدت بضعة أمتار حتّى سقطت (سقطت على العشب المُشذب تحت عروش شجرة عند ساق نبتة عبّاد شمس ذات لون فاقع)، أمسكتُ بيدها لمُساعدتها على النّهوض، فتملّصت بهزّة منها، ولمّا انحنيتُ من جديد فوقها، بدأت تضربُ في الهواء من حولها بحدّة، بحيث تمكّنَت منّي مرّات عديدة، فكان عليّ أن أمسك

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بها بكلّ قواي وإنهاضها وضمّها بين ذراعيّ اللتين كانتا مثل قميص قسريّ. «أيّها الوحش القذِر، أيّها الوحش القذِر، أيّها الوحش القذِر!»، كانت تُردّد بلا انقطاع، وهي تضربُ ظهري بيدها المُنفلتة، وعندما قلتُ لها (بأقصى ما أستطيع من رقّة) «اهدئي يا هيلينا»، بَصَقت في وجهي.

من غير أن أخلّصها من قبضتي، قلتُ لها: «لن أتركك ما لمْ تُخبريني بما تناولته.

- ابتعد عنّي! ابتعد عنّي!» كانت تُكرّرُ بحنق، لكنّها سكتت فجأة، وكفّت عن كلّ مُقاومة، وقالت بصوتٍ مُخالف تماماً (فاتر ومُجهَد): «اتركني»، بحيث تركتُها ونظرتُ إليها مرعوباً، كان وجهُها مُتشنّجاً بمجهودٍ شنيع، فكّان مُتوتّران وعينان شاردتان، كان جسدُها مُتصلّباً ومُنطوياً إلى الأمام.

«ماذا بك؟»، سألتُها. ومن غير أن تُجيب، استدارتْ وتوجّهت نحو المرحاض، أبداً لن أنسى مشيتها: بُطءَ خطواتها القصيرة غير المنتظمة، ساقيْها المُعاقتيْن، لربّما كان عليها أن تقطع أربعة أمتار، ومع ذلك اضطرّت إلى التوَقّف مرّات عديدة، كانت كلُّ وقفة تكشفُ (بتشنّج كلّ جسدها) صراعَها القاسي مع أحشائها المُضطربة، وفي الأخير بلغت المرحاض، أمسكتْ بطرف الباب (الذي بقي مفتوحاً) ثمّ أغلقته خلفها.

بقيتُ في المكان الذي أنْهَضْتُها منه، ومن داخل المرحاض سُمِعَ تنفّسٌ ناجم عن جهد وحشرجةُ ألم، فتراجعتُ بعيداً. حينذاك فقط انتبهتُ إلى حضور الفتى واقفاً إلى جواري. قلتُ له «ابقَ هُنا. عليّ أن أستدعي طبيباً».

ولجتُ المكتب، ولمحتُ منذ الخطوة الأولى الهاتفَ على

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إحدى الطاولتيْن، لكن الدليل لم يكن في أيّ مكان، أمسكتُ بقبضة الدرج الذي في الوسط، كان مُغلقاً بالمفتاح، وتلك كانت حال الدرجيْن الجانبييّن أيضاً. أدراج الطاولة الأخرى كانت مُغلقة كذلك. انتقلتُ إلى الغرفة الأخرى، لم يكن للطاولة التي بها غير درج واحد، صحيح أنّه كان مفتوحاً، لكنّه كان يحتوي على بضع صور وقاطعِ ورق فقط. لم أعرف ما العمل، لقد شعرتُ (لمّا أيقنتُ أنّ هيلينا على قيْد الحياة ولا خطر يتهدَّدُها) بفتور مُفاجئ، ولم أقبِل للحظة على أيّ حركة، كنتُ مخبولاً أتأمّلُ المشجبَ (المشجب المعدنيّ النّحيف الذي كان يرفع أذرعه مثل جنديّ مُستسلِم)، بعد ذلك (من غير أن أعرف ما العمل) فتحتُ الدّولاب، وفوق كومة من الملفّات تعرّفتُ غلافَ الدّليل الأزرق - الأخضر. حملته نحو جهاز الهاتف وعثرتُ على رقم المستشفى. لمّا ركّبتُ الرقم، كنتُ أسمعُ صوتي على السمّاعة عندما دخلَ الفتى مُسرعاً.

«لا تستدْع أحداً! لا جدوى من ذلك!»، صاح.

لمْ أستوعب قصدَهُ.

نزعَ السمّاعة من يدي ووضعَها على جهاز الهاتف. «لقد قلتُ لك لا جدوى من ذلك...».

كنتُ أريدُ منه أن يشرح لي ما كان يجري.

«ليس تَسمّماً!»، قال مقترباً من المشجب، فتّشَ في جيب من معطفه الواقي وأخرج منه أنبوباً، فتحهُ وقلبَه، كان فارغاً.

«أهذا ما تناولتْ؟»، سألتُه.

فأكّد ذلك بإشارةٍ منه.

«كيف عرفتَ؟

- لقد أخبرَتني بذلك.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- أهذا الأنبوب لك؟».
ردَّ بالإيجاب. تناولتُه من بين يديْه، كان أنبوبَ «ألجينا».
«أنتَ إذاً تظنّ أنّ مُسكّنات بكمّية مُماثلة ليست مُضرّة؟ قلتُ بغضب.
- إنّها ليست مُسكّنات، قال.
- وما هي إذاً، ماذا كان في الأنبوب؟ صِحتُ.
- أقراصٌ مُليِّنة»، قال.
صرختُ بأنْ ليس له أن يستخففّ بي، أنّ عليّ أن أعرف ما الأمر، وأنّ وقاحته لم تكن تُسلّيني. فأمرتهُ أن يُخبرني حالاً.
ردّاً على صراخي، صرخَ هو أيضاً: «أعندما أقول لك إنّهُ مُليِّن، ينبغي أن يعلم الجميعُ أنّ أمعائي كسلى؟». وهكذا، فإنّ ما اعتبرتُه مَزحةً سخيفة كان هو الحقيقة.
كنتُ أنظرُ إليه بوَجهه الصّغير المُحمرّ وأنفه الخانس (الصّغير ومع ذلك كبير للغاية ليَسَع نموشاً كثيرة)، فأخذ كلُّ شيء يتكشّف: لقد كان اسمُ الأنبوب وسيلةً لإخفاء الجانب المُضحك في ما تُعانيه أمعاؤه مثلما كان سروال الجينز وسترة المُكسِّر الجلديّة يُخفيان مظهرَهُ الطّفوليّ المُضحك، كان خجلاً من نفسه، يحملُ مُراهَقته مثل عيْب مُلازم، فأحببتُه توّاً، حياؤهُ (نُبْل مُراهقته هذا) كان قد أنقذ حياةَ هيلينا ولياليَ نومي خلال السنواتِ اللاحقة. باعترافٍ أبله، كنتُ أنظرُ إلى أذنيْه منتصبتيْن. لقد أنقذ حياةَ هيلينا، لكن مُقابل إهانته الكبيرة، كنتُ أعرف ذلك وأعرف أنّها إهانة بلا جدوى، بلا أدنى معنى وبلا ظِلِّ حقّ: إنّها شيءٌ جديدٌ مُتمنّعٌ على الإصلاح في سلسلة ما لا يُمكنُ إصلاحه، كنتُ أشعرُ بنفسي مُذنباً وبحاجةٍ مُلحّة (فضلاً عن كونها مُلتبسة) تدفعني إلى الإسراع للّحاق بهيلينا، تخليصها من

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إهانتها، الانحناء أمامها، والاعتراف بكامل الخطأ وبكامل المسؤوليّة في هذه القصّة الضّارية بصورةٍ عبثيّة.

«ألمْ تنظُر إليّ بما يكفي؟»، قال لي فجأةً. لمْ أجبْه وعبَرتُ بجواره في اتجاه الممرّ، كنتُ أسيرُ نحو الباب المُفضي إلى الباحة.

«ما الذي تودّ فِعله هناك؟»، قال وأمسك بكتف سترتي من الخلف مُحاولاً إبقائي في مُواجَهته، اصطدم بصرُنا لثانية، أبعدْتُ يده عن كتفي بالضّغط على معصمه. دار من حولي واعترضَ سبيلي. تقدّمتُ نحوهُ وتظاهرتُ بإبعاده، حينذاك وجّه لي ضربة إلى صدري.

كانت الضّربة واهنة للغاية، لكنّه قفزَ إلى الوراء وانتصب من جديد أمامي في هيأةِ مُلاكم بليدة، كان الخوفُ على وجْهه ممزوجاً بجُرأةٍ طائشة.

«ليس لك ما تعمله بقربها»، صاحَ في وجهي. لم تصدر عنّي أيّ حركة. لربّما كان الفتى على حقّ: لن يكون بإمكاني بلا شكّ إصلاح ما لا يُمكنُ إصلاحه. وعندما بقيتُ في مكاني من غير أن يصدر عنّي أيّ ردِّ فِعل، صاح في وَجهي: «إنّها تعتبرك مُقزّزاً، إنّك تجعلها تتغوّط! لقد قالت لي ذلك، أجل أنتَ تجعلها تتغوّط!».

في لحظة توتّر الأعصاب، يجدُ المرءُ نفسَهُ مُنقاداً إلى البكاء ولكن إلى الضحك أيضاً، والحال أنّ المعنى غير المجازي لكلماته الأخيرة أثارَ ارتعاشة في شفتَي. وهو ما أجّجَ سُخطه فأصابَني هذه المرّة في شفتي وبالكاد تجنّبتُ ضربة أخرى. ثمّ تراجعَ أيضاً كما لو كان في حلبة، وقدْ وضعَ قبضتيْه أمام وجهه الذي لم يعُد يظهرُ منه سوى أذنين كبيرتيْن شديدَتيْ الحُمرة.

قلتُ له: «كفى، طيّب، سوف أنصرف».

فصاح من جديد من خلفي: «أيّها الجبان، لقد كنتُ أعرفُ أنّ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لك يداً في ما جرى، لا تقلق سوف أجدك! أيّها الغبيّ القذر! أيّها الغبيّ القذر!».

خرجتُ إلى الشارع، كان فارغاً مثلما تكون عليه الشوارع بعد الاحتفال، وحدها الرّيح كانت ترفعُ الغبارَ بمَهل وتدفعه أمامها على الأرض المُسطَّحة، القاحلة هي أيضاً مثل رأسي الفارغ المُنهَك، الذي لوقتٍ طويلٍ لم تنبثق فيه أيّ فكرةٍ.

بعد ذلك فقط، انتبهتُ فجأةً إلى أنّني كنتُ أمسكُ الأنبوب الفارغ الحامل لاسم «ألجينا»، فحَصْته: كان باهتاً تماماً بكثرة الاستعمال والاتّساخ، لا بدّ أنّه استُعمِل فترةً طويلة لإخفاء أقراص الفتى المُليِّنة.

بعد لحظةٍ طويلة أخرى، ذكّرَني الأنبوبُ بأنابيب أخرى، بأنبوبيْ مُسكّنات ألكسيج وأدركتُ أنّ الفتى لم يُنقذ إطلاقاً حياةَ هيلينا: بعد كلِّ شيء، حتّى إن كان الأنبوبُ يحتوي على أقراص الألجينا، فما كان لِيُحدثَ لها إلّا اضطراباً في المعدة، وعلاوة على ذلك، لمْ نكن، الفتى وأنا، بعيديْن. لقد سوَّى يأسُ هيلينا حساباته مع الحياة على مسافة كافية من عتبة الموت.

18

كانت في المطبخ قرب الفرن، مُديرةً ظهرَها إليّ كما لو أنّ شيئاً لم يقع. «فلاديمير؟»، أجابَتْني من غير أن تلتفت. «لقد رأيْتَهُ بعينيْك! ما بالك تسألني؟

- أنتِ تكذبين، قلتُ لها. لقد اصطَحبَهُ حفيدُ كوتشكي على درّاجته هذا الصّباح. وقد جئتُ لأخبرك بأنّني على عِلم بالأمر.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أعرفُ لِمَ لاءَمَك ذلك، أنتِ وهذه الصّحافيّة في الإذاعة. أعرفُ لِمَ توجّبَ عليّ ألّا أكون هنا في أثناء إلباس المَلك. أعرفُ لِمَ كان عليّ أن ألتزم بقاعدة الصّمت حتّى قبْل التحاقه بالموكب. لقد رتّبتُما كلَّ شيءٍ جيّداً».

كان وُثوقي مِمّا أقول قد أربَكها، لكنّها سرعان ما استعادت هُدوءَها فأرادت أن تُنقذ نفسها باللجوء إلى الهجوم. كان هجوماً غريباً، لا لشيء إلّا لأنّ الخصميْن لم يكونا وَجْهاً لوَجه، لقد كانت تُديرُ ظهرَها ناحيتي مُنحنيةً على الحساء الذي كان يغلي. صوتُها كان هادئاً، لا مُبالياً تقريباً. كما لو وحدهُ عدم فهمي هو ما كان يُجبرها على التلفّظ بصوتٍ مُرتفع بأمْرٍ بدهيّ قديم ومُبتذل. وها هو إن أردتُ سماعه. لقد كان فلاديمير نافراً منذ البدء من تأدية دور الملك، ولم تكن فلاستا مُندهشة. قديماً لمْ يكن الشبّان بحاجةٍ إلى أحَد من أجل إعدادِ الموكب. أمّا اليوم، فثمّة ستٌّ وثلاثون مُنظَّمة تهتمّ بالأمر، بما فيها لجنة الحزب بالمُقاطعة. لا يُمكنُ للنّاس اليوم إطلاقاً أن يفعلوا شيئاً وحدهم عندما يرغبون في ذلك. والسّببُ أنّ كلَّ شيءٍ أصبح مُوجَّهاً من فوق. في السّابق، كان الشبّانُ مَنْ يُعيِّنون الملك. إنَّ هذا التوجيهَ من فوق هو ما أوْصَى بفلاديمير، إرضاءً لوالده، فكان على الجميع أن يُذعنَ للأمر. وقد أخجَلَ فلاديمير أن يكون طفلَ الوساطة. فأطفالُ الوساطة لا أحد يُحبُّهم.

«أتقصدين أنّني سبّبتُ الخجلَ لفلاديمير؟ - إنّه يرفضُ أن يكون طفلَ وساطة، كرّرت فلاستا. - ألهذا لمْ يفترق مع أبناء كوتشكي؟ مع هؤلاء البُلهاء؟ مع هؤلاء البورجوازيّين قصيري النّظر؟ سألتُها. أجابت فلاستا: نعم، لأجل ذلك! ليس لميلوس الحقّ في الدراسة بسبب جدّه، لا لشيء إلّا لأنّ الجدَّ كان صاحبَ مُقاولة. في حين

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كلُّ الأبواب مفتوحة في وجه فلاديمير. لسبب وحيد هو أنّك والدُه. إنَّ الأمرَ مُزعِجٌ للطّفل. أتفهمُ ذلك على الأقل؟».

لأوّل مرّةٍ في حياتي، كنتُ أشعرُ بالغضب تجاهها. لقد كانا يخدعاني. يوماً بعد يومٍ كانا ينظران إليّ ببرود وأنا أنتظرُ الموكب. كانا ينظران إلى تلهُّفي وحماسي. بهدوءٍ كانا ينظران، وبهدوءٍ كانا يخدعاني. «أكنتُما بحاجة إلى أن تخدعاني على هذا النّحو؟».

كانت فلاستا تُحرِّكُ الحساء وتقول إنّ الأمرَ لم يكن سهلاً معي. فقد كنتُ أعيشُ في عالمي. كنتُ حالِماً. وهُما لا يكرهان مُثُلي، لكن فلاديمير مُختلِف. هو لا يفهمُ أغنياتي الصّغيرة، لا تُسلّيه، يجدُها مُضجرة. وعليّ أن أذعن للأمر. فلاديمير رجلٌ حديث. يستمدُّ ذلك من أبيها الذي كان له حسُّ التطوّر. هو أوّلَ مَن اشترى جرّاراً في بلدتها، كان ذلك قبل الحرب. وقد صادَروا منه كلَّ شيء فيما بعد. وعموماً، فمنذ أن أصبحَت أراضي أهلها في مِلك التعاونيّة لمْ يعُد إنتاجُها كما كان في السّابق.

«لا تعنيني حقولكم! أودّ أن أعرف إلى أين ذهبَ فلاديمير. لقد ذهبَ إلى برنو لمُشاهدة سباق الدرّاجات. اعترفي!».

ظلّت مُديرةً ظهرَها، كانت تُحرّكُ الحساء وتُردّدُ الكلامَ ذاتَه. فلاديمير شبيهٌ بجدّها، له ذقنه وعيناه. وهو لا يفهمُ موكب الفرسان الملوك. أجل، لقد ذهبَ لِمُشاهدةِ السّباق، ما دمتُ أريدُ أن أعرف. ما المانع من أن يهتمّ بالدرّاجات أكثر من الخيول المُزيَّنة بالأشرطة، ما المانع من ذلك. ففلاديمير رجلٌ حديث.

درّاجات، قيثارات، درّاجات، قيثارات. العالَمُ سخيفٌ وغريب. سألتُها: «ماذا يعنيه رجاءً رجُلٌ حديث؟»

ظلّت مُديرةً ظهرَها، كانت تُحرّكُ الحساء وأجابت أنّها كادت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ألّا تتمكّن من تأثيث فضائنا الداخليّ بصورةٍ حديثة. فكم كنتُ أكرِّرُ الكلامَ المُضجرَ ذاتَه بسبب المصباح الحديث. فهذه الثريّا لم تكن ترُوقني! كما لو كان الجميعُ يجهلُ كم هو جميلٌ هذا المصباح الحديث! فيما الناسُ في كلّ مكان يشترون مثل هذا المصباح.

«كفى»، قلتُ لها، لكن، كان من المُستحيل إسكاتُها. لقد انطلقت. مُديرَةً ظهرَها. ظهرها الصغيرُ القبيحُ النحيف. لربّما هذا ما أغاظني أساساً أكثر. هذا الظهْرُ بلا عينيْن. هذا الظهرُ الواثقُ من نفسه على نحوٍ بليد. فقرّرتُ إسكاتَها، جَعْلها تلتفتُ نحوي. غير أنّها كانت نافرةً منّي ولم أكن أريدُ لمْسَها. فتمكّنتُ من إسكاتها بطريقةٍ أخرى. فتحتُ الخزانة الزجاجيّة، أخذتُ صحْناً وتركتُه يسقطُ من يدي. وفي الحال لاذت بالصمت، لكنّها لمْ تلتفت. أسقطتُ صحناً آخر وصحوناً أخرى، لكنّها ظلّت دوماً مُديرةً ظهرَها، مُنكمشة على نفسها. كنتُ أقرأ خوفها على ظهرها، أجل لقد كانت خائفة، لكنّها كانت عنيدةً وترفضُ الاستسلام. كفّت عن تحريك الحساء، وأمسكت بقوّة، من غير أن تتحرّك، بقبضة المغرفة الخشبيّة، كما لو كانت ستُنقذها. كنتُ أكرهها وكانت تكرهني. لم تتحرّك ولم تُفارقها عيناي بينما كنتُ مُستمرّاً في إسقاط أوانٍ أخرى وأخرى، من المائدة ومن الرّفوف على الأرضيّة. كنتُ أكرهها وأكرهُ كلّ مطبخها. مطبخها النموذجيّ الحديث، بأثاثه الحديث، صحونه الحديثة، وكؤوسه الحديثة.

لم أكن أشعرُ بنفسي مُهتاجاً. بحُزن وتعب، كنتُ أنظرُ إلى الشّظايا منثورةً على الأرضيّة، إلى القدور والأوعية مُشتّتةً. كنتُ ألقي ببَيتي أرضاً. بيتي المحبوب، ملاذي. بيتي المُرتَّب وفق القيادة الحنون لخادمتي الفقيرة. بيتي الذي كنتُ ملأته بالحكايات وأغنياتِ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أطيافٍ بَواسل. ها هي المقاعد الثلاثة التي عليها كنّا نجلسُ لتناول وجبة الغذاء. آه، تلك الوجبات الأسريّة الهادئة التي كانت شاهدةً على مُلاطفة أب مُعيل ساذج وانخداعه. كنتُ أمسك بالواحد تلو الآخَر وأكسّرُ قوائمها وأضعها إلى جانب القدور والكؤوس المُكسَّرَة. كنتُ أقلبُ الطاولة من فوق. وقد ظلّت فلاستا جامدةً أمام فرْنها، مُديرةً دوماً ظهرَها.

خرجتُ من المطبخ نحو غرفتي. كانت هناك الكُرة الزجاجيّة الورديّة المُتدلّية في الهواء، والمصباح والأريكة الحديثان البَشِعان. وفوق الهارمونيوم، ثمّة كماني في قرابه الأسود. أخذتُه. لدينا حفلة موسيقيّة عند الساعة الرابعة بحديقة المطعم. ولكنّ الساعة تُشيرُ إلى الواحدة، فإلى أين أذهب؟

كنتُ أسمعُ نحيباً في زاوية المطبخ. كانت فلاستا تبكي. كان نحيبُها مُمزِّقاً، وكنتُ في أعماقي مُتألّماً من الشفقة. أكان مُمكناً ألّا تبكي قبل عشر دقائق؟ لقد كان مُمكناً أن أستسلمَ لوَهمي القديم ولقاءِ خادمتي الفقيرة، لكن الأوان كان قد فات.

خرجتُ من البيت. كان هتافُ فرسان الموكب يتردَّدُ فوق السّقوف: لنا ملكٌ مُعوزٌ، لكنّه فاضلٌ. إلى أين أذهب؟ الأزقة كانت لموكب الفرسان، والبيتُ لفلاستا والحاناتُ للسّكارَى. فأين مكاني الشخصيّ. أنا الملك القديم، مهجوراً ومُبعَداً، ملكٌ فاضلٌ وشحّاذ. ملكٌ بلا وريث. الملك الأخير.

لا تزال ثمّة فرصة، هناك في الحقول خارج القرية. الطّريق. بعيداً منها مسافة عشر دقائق، هناك مياه المورافا. استلقيتُ فوق حافة النّهر. قِرابُ الكمان تحت رقبتي. وبقيتُ هكذا وقتاً طويلاً. ساعة أو ربّما ساعتيْن. بفكرةِ أنّني بلغتُ النّهاية، بصورةٍ فجائيّة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ومُباغتة للغاية. ها هي النهاية قد تحقّقت. لم أكن أرى استمراراً. لقد عشتُ، في الآن نفسه، دوماً في عالميْن. كنتُ أؤمنُ بتناغُمهما. كان ذلك وَهْماً. وقد أبْعِدتُ الآن من أحَدِهما. من العالم الواقعي، لم يبقَ لي غير العالَم الآخَر المُتخيَّل، لكنّ العالَم المُتخيَّل لا يكفيني للعيش. حتّى لو تمَّ انتظاري فيه. حتى لو ينادي عليَّ الفارُّ، حتى لو يحتفظ لي دوماً بحصانٍ وقناعٍ أحمر. آه، كم كنتُ هذه المرّة أفهمه! الآن كنتُ أعرفُ لِمَ مَنَعني من إزالةِ قناعي، مُفضِّلاً أن يحكيَ لي كلَّ شيء! الآن فقط كنتُ أتبيّنُ لِمَ على الملك أن يكون مُقنّعاً، لا كي لا يُرى، بل لئلّا يرَى شيئاً.

لمْ يكن وارداً بالنسبة إليّ أن أنهضَ وأمشي. لمْ يكن وارداً أن أخطوَ خطوةً. سوف يُساورُهم القلق عند الساعة الرّابعة. ولكنّني لا أجدُ القوّة للنّهوض والذهاب حتّى هناك. أشعرُ بنفسي مُرتاحاً هنا. هنا قرب النّهر. هنا الماء ينسابُ ببُطء منذ قرون. بطيئاً ينسابُ، وأنا هنا سأبقى مُمدَّداً ببطءٍ لوقتٍ طويل.

أحدٌ كلّمَني بَعد ذلك. لقد كان لودفيك. كنتُ أتوقّعُ صدمةً جديدة، لكنّني لمْ أعُد خائفاً. لا شيء إطلاقاً كان مُمكناً أن يُفاجئني.

جلسَ على العشب إلى جانبي وسألني إذا ما كنتُ سأذهبُ بعد قليل إلى الحفل الموسيقي لِما بعد الظهر. سألتُه: «أتريدُ بالصّدفة الذهابَ إلى هناك؟ - أجل، أجابني. - ألهذا جئت إلى براغ؟ - لا، ليس لهذا جئت، ولكن الأمور تنتهي عكس ما هو مُتوقّع، قال. - أجل، عكس ذلك تماماً! - منذ ساعة وأنا أتسكّعُ وسط الحقول، لم أكن إطلاقاً أتخيّلُ أن أجدك هنا. - ولا أنا أيضاً. - أودّ منك أمراً»، قال فيما بعد من غير أن ينظر إلى عيني. تماماً مثل فلاستا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم يكن ينظرُ إلى عيني، ولم يكن هذا الأمرُ منه هو، مع ذلك، يُزعجني، بل كان مُمتعاً. لقد عزوتُ ذلك وفق ما خمّنته إلى الحشمة، وكانت هذه الحشمة تُريحني وتشفيني. ثمّ قال: «أودّ منك أمراً، أتسمحُ لي بالعزف معكم بعد قليل؟».

19

كانت لا تزالُ بضع ساعات قبل انطلاق الحافلة، لذلك غادرتُ القرية، ساعياً وسط الحقول إلى طرد ذكريات اليوم من رأسي. لمْ يكن الأمر هيّناً. فقد كانت شفتي المُتورّمة من قبضة الفتى الصغيرة تُحرقني، وكان طيفُ لوسي المُنبثق من جديد يُذكّرني أنّني أينما سعيتُ إلى تسوية حساباتي مع الظّلم، أنا في الأخير مَن كان ينتهي مثل مُحرِّض على الأذى. كنتُ أطردُ كلَّ هذه الأفكار، لأنّ كلَّ ما كانت تُكرِّرُه بلا انقطاع، كنتُ أعرفه الآن جيّداً، بذلتُ ما في وسعي للاحتفاظ برأسي فارغاً وأن لا أدَع شيئاً يتسرّبُ إليه غير الهتافات البعيدة (المسموعة بالكاد) للفرسان، والموسيقى التي كانت تحملني خارج نفسي، وبذلك كانت تواسيني.

طُفتُ على القرية في دورةٍ واسعة عبْر المسارب، وبلغتُ ضفّة الموارفيا، كنتُ أحاذي مُنحَدَرَه، كان على الضفّة الأخرى بضع إوزّات وحطبٌ في الأفق، ولا شيء غير ذلك سوى الحقول، بعد ذلك انتبهتُ على مسافة منّي إلى شخص مُستلقٍ على عُشب الحافة. عندما اقتربتُ منه أكثر، تعرّفته: كان مُستلقياً على ظهره، وجهُه إلى السّماء وقِراب كمانه تحت رأسه (الحقول من حوله مُستوية بلا حدّ مثلما كانت عليه خلال قرون، إلّا أنّها هنا مُشوَّهة بأعمدة فولاذ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مُربّعة تسندُ أسلاكاً ثقيلة ذات توتّر عالٍ). كان سهلاً تحاشيه، إذ لم يكن ينظرُ إليّ، بل إلى السّماء متأمّلاً. ولكن لم يكن هو هذه المرّة مَن كنتُ أريد تلافيه. دنوتُ منه ووجّهتُ إليه الكلام. رفع عينيه ناحيتي (عينيْن بدتا لي خجلتيْن ومذعورتيْن) ولاحظتُ (إذ كنتُ أراه لأوّل مرّة من قرب بعد سنوات عديدة) أنّ غزارة شعره، التي كانت سابقاً تُضيفُ بضعة سنتمترات إلى قامته الطّويلة، لم يبق منها سوى شعر خفيف مُشتّت، بثلاث خصلات أو أربع طويلة وحزينة، مُحاولةً بلا جدوى إخفاءَ جُمجمته، كان هذا الشعرُ الذي تساقط يُذكّرني بسنوات فراقنا، فتحسّرتُ فجأةً على ذلك الزّمن، ذلك الزّمن الطويل الذي لمْ أرهُ فيه وحيث كنتُ أتحاشاه (بالكاد كانت هتافاتُ الفرسان تَصلُ من بعيد)، وشعرتُ نحوهُ بحُبٍّ مُفاجئ مع إحساس بالذنب. استندَ، وهو مُمدَّدٌ عند قدمي، إلى أحد مرفقيْه، كان ضخماً أخرقَ، وقِراب آلته أسود صغيراً مثل نعشِ رضيع. تذكّرتُ أنّ جوقته الموسيقيّة (التي كانت فيما مضى جوقتي أنا أيضاً) سوف تُحيي حفلاً قبل نهاية ما بعد الظهر، فطلبتُ منه أن يسمح لي بالعزف معهم.

تلفّظتُ بهذا الطّلب حتّى دون أن أفكّرَ فيه حقّاً (كما لو أنّ الكلمات حلّت أسرع من الفكرة)، تلفّظتُ به إذاً بتسرّع ولكن في تناغم مع قلبي، فقد كنتُ في الواقع مغموراً بحُبٍّ هذا العالَم الذي هجرتُه فيما مضى. هذا العالمُ البعيد القديم حيث يطوفُ القريةَ الفرسانُ وملِكهم، حيث يتمّ ارتداءُ قمصان بيضاء مُغضّنة وإنشادُ أغنيات، هذا العالمُ الذي يمتزجُ لديّ بصورةِ مدينتي وأمّي (أمّي المُصادَرَة) وشبابي، على امتداد اليوم كان هذا الحُبُّ يكبر بداخلي في صمت كي يبزغ الآن على وشك البكاء تقريباً، كنتُ أحبُّ هذا العالَم القديم، وألتمسُ منه أن يمنحني ملاذاً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ولكن كيف تسنّى ذلك وبأيّ حقّ؟ ألم أتحاشَ قبل أمس جاروسلاف فقط لأنّ شخصهُ كان يُجسِّدُ بالنّسبة إليّ موسيقى الفولكلور المُثيرة للحنق؟ وهذا الصّباح ذاته، ألم أكن مُتضايقاً وأنا أقتربُ من الحفل الفولكلوري؟ مِن أين تأتّى فجأةً إزالة هذه الحواجز التي كانت تمنعُ عليّ، على امتداد خمس عشرة سنة، أن أستحضر بابتهاج شبابي الذي قضيتُه في جوقة سنبالوم، وتمنع عليّ عودات مُنتظِمة ومفرحة إلى مدينتي؟ أكان ذلك بسبب سماعي زيمانيك، قبل بضع ساعات، يسخرُ من موكب الفرسان الملوك؟ أمن الممكن أن يكونَ هو من نفّرَني من الأغنية الشعبيّة وهو من جذبَني الآن إليها أيضاً؟ ألستُ سوى مُنساقٍ لبوْصلتِه؟ ألستُ تابعاً له بصورةٍ مُخزية؟ كلّا، ليست سخرية زيمانيك وحدها هي ما جعلني فجأةً أحبُّ هذا العالَم من جديد، ما جعلني هذا الصّباح أحبّه من جديد هو أنّني صادفتُه (بغتة) في فقره، في فقره وخصوصاً في عزلته، لقد كان مهجوراً من قِبَل البهرجة والإشهار، مهجوراً من قِبل الدعاية السياسيّة، من الطوباويّة الاجتماعيّة، من فِرق موظّفي الثقافة، مهجوراً بالانخراط المُتصنّع لأبناء جيلي، مهجوراً (أيضاً) من قِبل زيمانيك، وقد كانت هذه العُزلة تُطهّرُه، هي التي كانت موضوع مُؤاخذاتي الكثيرة، كانت تُطهّرهُ مثل شخص يعيشُ أيّامَهُ الأخيرة، كانت تُنيرُه بجمال أخير لا يُقاوَم، هذه العزلة هي ما كان يشدُّني إليه من جديد.

كان مُقرَّراً أن يُقامَ الحفل بحديقة المطعم حيث تناولتُ قبل قليل وجبة الغذاء وقرأتُ رسالة هيلينا، لمّا بلغناه، جاروسلاف وأنا، وجدْنا بعض الأشخاص المُسنّين قد أخذوا مقاعدهم (مُنتظرين بشغف انطلاق الحفل الموسيقي لِما بعد الظهر) ومثلهم عدداً سكارى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مُترنّحين من طاولة إلى أخرى، وفي أقصى الحديقة صُفّت بضع مقاعد حول شجرة زيزفون، إلى جذعها أسْنِدَت آلة كونترباص كانت لا تزالُ ملفوفة في كفنِها الرّمادي، وعلى بُعد خطوتيْن كان السنبالوم مفتوحاً ورجلٌ بقميص أبيض مُغمَّض على مقعد يُساوي أوتار آلته بلمسات خفيفة، كان باقي أعضاء الفرقة واقفين على بُعد خطوات وقد تكفّل جاروسلاف بتقديمهم: العازف الثاني للكمان طبيبٌ بالمستشفى المحلّي، عازف الكونترباص مُفتّش الشؤون الثقافيّة للّجنة الوطنيّة بالمُقاطعة، عازف الكلارينيت (الذي سيتفضّلُ بإعارتي آلته للتناوب على عزفها) مُعلّم، وعازف السنبالوم مُخطّطٌ بالمصنع، وحده هذا الأخير مَن كنتُ أتذكّرُه، إذ الفرقة بكاملها تجدّدت. بعد أن قدّمني أنا أيضاً جاروسلاف على نحو احتفائي باعتباري عازفاً سابقاً بالجوقة وأحد مُؤسِّسيها، وعازف الكلارينيت الشّرفيّ تبعاً لذلك، جلسنا حول شجرة الزيزفون وانطلقنا في العزف.

منذ زمن طويل لمْ أمسك الكلارينيت، ولكن بما أنّني كنتُ مُلمّاً جيّداً باللحن الذي به بدأنا، فقد تغلّبتُ فوراً على وجلي، بحيث هتفَ العازفون بعد توقّفنا مُشيدين بي، رافضين تصديق أنّني لمْ أعزف منذ فترةٍ طويلة، حينذاك جاء النّادل (الذي كنتُ سدّدتُ له، في حالة ذعر، حساب وجبة الغداء) ورتّب لنا منضدةً تحت الأغصان، وضع عليها ستّة أقداح ودنّاً مُقشّشاً، وشرعنا في الشرب بهدوء. بعد أربعة ألحان أو خمسة، توجّهتُ إلى المُعلّم بإشارة، فكرّر وهو يأخذ منّي آلته أنّني كنتُ مُتألّقاً، وذهبتُ لأستند إلى جذع شجرة الزيزفون مُبتهجاً بهذا الثناء، كان الإحساسُ بدفء هذه الرّفقة يملؤني، فشكرتُ قدومَهُ لمساعدتي في نهاية هذا اليوم الفظّ. وها هي لوسي تنبثقُ من جديد أمامي، فكنتُ أفكّرُ أنّني فهمتُ لِم ظهرت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لي في صالون الحلاقة وعند كوستكا، في الغد، في الحكاية التي كانت أسطوريّة وحقيقيّة في آن: لربّما كانت تُريدُ أن تقول لي إنّ قدَرَها (قدر فتاة صغيرة مُدنّسة) كان شبيهاً بقدري، أنّنا معاً أضعْنا بعضنا بلا شكّ، لكوننا لم نقوَ على فهْم بعضنا بينما كانت قصَّتا حياتيْنا مُتلاحمتيْن ومُقترنتيْن، بما أنّهما معاً حكايتا دمار، مثلما دُمّرَ الحُبُّ الجسدي لدى لوسي وحُرمَ وجودُها من قيمة أساس، سُلِبَتْ أيضاً حياتي من قيَم كانت تُريدُ أن تنهض عليها، وكانت في أصلها بريئة، أجل بريئة: فالحُبُّ الجسديّ، وإنْ دُمِّرَ في حياة لوسي، بريءٌ مثل أغنيات بلدي وجوقة السنبالوم ومدينتي التي كنتُ أكرهها، كلّ ذلك بريء، وفوسيك، الذي كان البورتريه المرسوم له يُغيظني، هو بريء في نظري أيضاً، مثلما هي الحال بالنّسبة إلى كلمة «رفيق»، التي كانت ترنّ عندي مثل تهديد، وضمير «أنت» المُزيل للكُلفة، وكلمة مُستقبل، وكلمات أخرى كثيرة غيرها. كان الخطأ في مكان آخَر، ومن الضّخامة بحيث كان ظِلُّهُ يُغطّي كلّيّاً العالَمَ الكامل للأشياء (والكلمات) البريئة ويُدمّرُها. كنّا، لوسي وأنا، نعيشُ في عالم مُدمَّر، ولعدم معرفتنا كيف نُشفقُ عليه، أشحْنا عليه بوجْهَيْنا، وهكذا فاقمْنا من بُؤسه وبُؤسنا، أهذا يا لوسي، المحبوبة بقوّة، المحبوبة بصورة خاطئة، ما أتيتِ تقولينه بعد هذه السّنين؟ مُلتمِسةً الشفقة على عالم مُدَمَّر؟

انتهَت الأغنية، فأعاد لي المُعلّم الكلارينيت مُعلِناً أنّه لن يُمسكها إطلاقاً اليوم، وأنّني كنتُ أعزفُ أحسن منه وأستحقّ الاحتفاظ بها ما داموا يجهلون متى سوف أعود إلى هُنا. وبما أنّني التقطتُ توّاً نظرةَ جاروسلاف، فقد قلتُ إنني لا أتمنّى شيئاً أحسن من عودتي في أقرب وقت مُمكن. فسألني جاروسلاف إذا ما كنتُ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أتحدّث بصدق. أكّدتُ له ذلك وشرَعنا في اللحن اللاحق. مرَّ وقتٌ غير يسير على مُغادرة جاروسلاف لمقعده، واقفاً ورأسه إلى الوراء، كان يعزفُ بانفعال، واضعاً خلافاً لكلّ القواعد الكمان في مكان جدّ مُنخفض من صدره، كان يعزفُ ذهاباً وجيئة باستمرار، وكنّا، العازف الثاني للكمان وأنا، نقفُ في كلّ لحظة، وخصوصاً كلّما أردنا منْحَ حيويّة أكثر للارتجال. في هذه اللحظات، التي تتطلّبُ تخيُّلاً ودقة وتواطؤاً عميقاً، كان جاروسلاف قد أصبح رُوحَ الجميع، وكنتُ مُعجَباً بالموسيقيِّ الباهر المُتخفّي وراء هذه القامة الضخمة الذي كان يُعدُّ أيضاً (وقبل كلّ الآخَرين) من بين القِيم المُدمَّرة في حياتي، كان قد سُرقَ منّي وتركتُه (بدافع ضرري وخزيي) يُختطفُ منّي، وإن كان لربّما أكثر أصدقائي وفاءً وطيبة وبراءةً.

في غضون ذلك، كان الجمهور قد أخذ يتغيّرُ تدريجيّاً، فقد انضافَ إلى من كانوا يتابعوننا باهتمام ودّي تماماً على الموائد التي لم تكن أكثر امتلاءً من غيرها مجموعة من الفتيان والفتيات أخذوا أماكنهم على الطاولات الشاغرة وأخذوا يطلبون (بصراخ حادّ) كؤوس جُعّة أو نبيذ، و(كلّما كان مستوى الكحول يرتفع) كانوا يشرعون في إظهار رغبتهم المُتوحّشة في أن تتوجّه الأنظارُ إليهم وأن يتمّ سماعهم والاعتراف بهم. وسرعان ما تغيّرت الأجواء من جرّاء ذلك، كانت الأجواء قد أصبحت أكثر صخباً وهيجاناً (كان الفتيانُ يترنّحون بين الطاولات، مُنادين على بعضهم، أو منادين بصخب على صديقاتهم) إلى حدٍّ أثارَ ذهولي، فكنتُ في الغالب أنظرُ، شارداً عن عزفنا، نحو الحديقة ومُحدّقاً بعدوانيّة واضحة في وجوه الأغرار. أمام هذه الرؤوس ذات الشعر الطويل، التي كانت بتَباهٍ تبصقُ يميناً وشمالاً لُعاباً وكلمات، كنتُ أشعرُ بانبثاقٍ جديد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لكراهيّتي القديمة تجاه سِنّ الطّيش، وكان لديّ إحساسٌ بأنّني لا أرى غير مُمَثلين وُضعت لهم أقنعة أريدَ لها أن تُصوّرَ رجولةً بليدة وفظاظةً تامّة. ولم أكن أفترضُ، تخفيفاً من وطأة الوَضْع، إمكانَ وجود وجهٍ آخَر (أكثر إنسانيّة) تحت القناع، ذلك أنّ المُرعبَ تحديداً هو أنّ الوجوه المُقنَّعة كانت وفيّةً لوحشيّة الأقنعة وتفاهَتِها.

من المُؤكّد أنّ جاروسلاف كان يُقاسمُني شعوري، لأنّه أنزلَ فجأةً كمانَهُ، مُعترفاً لنا أنّهُ لم يعُد يرغب إطلاقاً في العزف أمام جمهور مثل هذا. فاقترح أن نُغادر، أن نأخذ الطريق الصغير عبر الحقول كما في الماضي، فقد كان الجوّ جميلاً والغروب موشكاً من لحظةٍ إلى أخرى، وسوف يكون الليلُ دافئاً، سيكون ثمة نجوم، ولن يكون أمامَنا سوى أن نتوقّف قرب زهرةِ نسرين، ونعزف من أجلنا وحدنا، من أجل مُتعتنا مثلما كنّا نفعلُ في الماضي، فقد تعوّدنا (عادة بلهاء) على ألّا نعزف اليوم إلّا في حفلاتٍ مُنظَّمَة، وهو أمرٌ أخذ يُثيرُ سُخطنا.

كان الجميعُ قد وافقَ في البدء بحماسة تقريباً، لشعورهم هُم أيضاً أنّ شغفَهم بالموسيقى كان يتطلّبُ جوّاً حميماً، لكنّ عازف الكونترباص (مُفتّش الشؤون الثقافيّة) اعترضَ فيما بعد بدعوى أنّ ما تمَّ الاتّفاق عليه مع رفاق المُقاطعة وصاحِب المقهى هو التزامنا بالعزف حتّى حُدود الساعة التاسعة، فقد تمّ التخطيط للأمر على هذا النّحو، وبذلك كان يتوجّبُ علينا إنجاز المهمّة بالصّورة التي التزمنا بها، وإلّا اختلَّ الحفل، أمّا العزف في الطبيعة فبإمكاننا القيام به في فرصةٍ أخرى.

في هذه اللحظة اشتعلت مصابيح مُتدلّية من أسلاكٍ مُمتدّة من شجرةٍ إلى أخرى، وبما أنّ الظّلمة لم تُخيِّم بَعد والنّهار بالكاد أخذ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يخفت، فقد كانت المصابيح، وهي بمنأى عن أن تنشر ضوءاً ساطعاً، شبيهةً بدمعات كبيرة جامدة، دمعاتٍ ليس بالإمكان تجفيفها وليس بإمكانها أن تسيل، هكذا كان نوعٌ من الحنين المُفاجئ المُتمنِّع على التفسير قد عمّ، ولا أحد كان بمقدوره مُقاومته. قال جاروسلاف ثانية (مُتوسِّلاً تقريباً هذه المرّة) إنّه لمْ يَعُد يقوى، إنّه كان يُريد أن يتوجّه إلى الحقول، قرب زهرة نسرين، ويعزف لأجل فرَحه، ثمّ صدرت عنه حركة مُثبِّطة، إذ أسندَ الكمان إلى صدره وشرعَ في العزف.

من غير اهتمام بالجمهور، كنّا الآن نعزفُ بتركيز أكثر من السّابق، كلّما كان جوُّ الحديقة وقحاً وفظّاً، كان يُحيطنا بلا مبالاته الصّاخبة، جاعلاً منّا جزيرةً مهجورةً، وكلّما كان الحنينُ يُحاصرنا، كنّا نغوصُ في ذواتِنا، عازفين لا للآخَرين، بل لنا، ناسين الآخَرين، لقد كانت الموسيقى جداراً واقياً فيه كنّا، ضمن السّكارى المُحدِثين للضوضاء، كما لو في مقصورةٍ زجاجيّة مُعلَّقة في أعماق المياه الباردة.

كان جاروسلاف يُنشدُ من غير أن يُزيح الكمان عن صدره: «لو كانت الجبال من ورق - لو تحوّلَ الماءُ مداداً - والنجوم نسّاخاً - لو شاءَ العالَمُ الشّاسعُ بكامله تدوينه - لن ينجحَ إطلاقاً في تدوين وصيّة حُبّي»، وقد كنتُ سعيداً في هذه الأغنيات (في المقصورة الزجاجيّة لهذه الأغنيات)، حيث الحزنُ ليس سطحيّاً، والضّحكُ ليس كشْفاً عن الأسنان، والحُبّ ليس مُثيراً للضّحك، والكراهيّة ليست مُقنّعة، حيث النّاسُ يُحبّون جَسَداً ورُوحاً (أجل، يا لوسي، جسداً وروحاً)، حيث السّعادة تجعلهم يرقصون، واليأس يُلقي بهم في الدّانوب، وحيث يبقى الحُبّ إذاً حُبّاً، والألم ألماً، وحيث القِيَم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم تُدمَّر بَعْد، وكان يبدو لي أنّ بداخل هذه الأغنيات كان يوجدُ منفذي، دمغتي الأصليّة، بيتي الذي تخلّيتُ عنه وبقِيَ مع ذلك بيتي (ما دامت الشكوى الحادّة ترتفعُ من البيْت المُتخلّى عنه)، ولكنني كنتُ أدركُ في الوقت نفسه أنّ بيتي هذا لم يكن من هذا العالَم (ولكن أيّ بيتٍ هو إذا هو لمْ يكن من هذا العالَم؟)، أنّ كلّ ما كنّا نعيشه لم يكن سوى ذكرى، سوى لحظة، إنّها الصيانة المُتخيَّلة لِما لمْ يعُد له وُجود، وكنتُ أشعرُ أنّ أرضَ بيتي كانت تُسحبُ من تحت قدمَي وأنّني كنتُ، والكلارينيت على شفتي، أنزلقُ في عُمق السّنين والقرون، في عُمقٍ بلا قرار (حيث الحُبُّ حبٌّ والألمُ ألمٌ)، وكنتُ أقول في نفسي باندهاشٍ أنّ بيتي الوحيدَ كان تحديداً هذا النّزول، هذا السّقوط الباحث الظّامِئ، فاستسلمتُ له ولِمُتعة دواري.

بعد ذلك كنتُ أنظرُ إلى جاروسلاف كي أتبيّن على وجهه إذا ما كنتُ وحيداً في حماسي، فلاحظتُ (إذ كان ثمّة مصباحٌ مُعلّقٌ على شجرةِ الزيزفون يُضيءُ وجهَه) أنّهُ كان شاحباً بصورةٍ لافتة، لم يعُد يُردِّد ترنيماته وهو يعزف، لقد زمّ شفتيْه، وكانت عيناه الخائفتان قد أصبحتا مذعورتيْن أكثر، كما أخذ يُخطئُ في العزف ويفقدُ تحكّمَهُ في يده التي بدأت تنزلقُ من مقبَض الكمان. ثمّ توقّفَ عن العزف وانهارَ على مقعده، دنوتُ منه واضعاً إحدى رُكبتَي على الأرض وسألتُه: «ما بك؟»، أجابني بجبينٍ مُتعرّق ويدٍ مُمسكة بأعلى ذراعه اليُسرى: «أشعرُ بألم رهيب». لم يكن الآخَرون قد انتبَهوا لِوَعكة جاروسلاف وظلّوا مُستغرقين في عزفهم بدون العازف الأوّل للكمان وعازف الكلارينيت، وقد انتهزَ عازفُ السنبالوم تَوقّفهما وأبرزَ براعتَهُ على آلتِه، مُؤازَراً فقط بالعازف الثاني للكمان وعازف الكونترباص. دنوتُ من العازف الثاني للكمان (الذي كان جاروسلاف قد قدّمه إليّ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بوصفه طبيباً) وقُدتُه نحو صديقي. لم يَعُد يُسمَع غير عزف السنبالوم والكونترباص، بينما كان العازف الثاني للكمان يُمسكُ بمعصم جاروسلاف الأيسر، مُحتفظاً به في يده طويلاً، طويلاً جدّاً، وبعد ذلك رَفعَ جفنَيْ جاروسلاف وفحصَ عينيْه ثم لمسَ جبينه المُتعرّق. سأله: «القلب؟»، فأجاب: «القلب والذراع»، كان ذابلاً. ولمّا انتبهَ عازفُ الكونترباص لِما كان يجري، أسندَ آلتَه إلى جذع الزيزفون والتحقَ بنا، فلم يعُد يُسمعُ إلّا عزف السنبالوم، لأنّ عازفه لم يكن يشكّ في شيء فواصلَ عزفه وحيداً بابتهاج. قال عازف الكمان الثاني: «سوف أتّصِلُ هاتفيّاً بالمستشفى»، تمسّكتُ به قائلاً «ماذا به؟ - نبضُه ضعيف وعَرَقه في غاية البرودة. إنّها نوبة قلبيّة بلا شك. - يا للهول! قلت. - لا تقلق، سوف ينجو منها»، طمْأنَني قبل أن يُسرع نحو المطعم. كان الزّبائن الذين عليه تخطّيهم قد بلغوا درجة عالية من السُّكر جعلتهم لا ينتبهون إلى توقّف عزفنا، كانوا مُنشغلين فقط بأنفسهم وجعّتهم وشتائمهم التي كانت قد تحوّلت للتوّ، في الزاوية المُقابلة للحديقة، إلى مُشاجَرَة.

أخيراً تَوقّفَ السنبالوم أيضاً وأحطْنا بجاروسلاف الذي نظرَ إليّ وقال إنّ هذا كلّه حدث لأنّنا بقينا هُنا، فهو لم يكن يرغبُ في البقاء هنا، كان يودّ أن نذهبَ إلى الحقول، خصوصاً أنّني عُدت من جديد، كان مُمكناً أن نعزف في العراء. قلتُ له: «لا تتكلّم كثيراً، فالهدوء هو ما تحتاجه»، وكنتُ أفكّرُ فعلاً أنّهُ سوف ينجو بلا شك من هذه النّوبة مثلما كان العازف الثاني للكمان قد تَوقّع، لكنّ حياتَهُ سوف تتغيّر بعد ذلك بالكامل، سوف تُصبحُ بلا تفانٍ مُتّقد، من غير عزف مُتحمّس في الجوقة، إنّه الشوط الثاني، شوط ما بعد الهزيمة، اجتاحتني فكرةُ أنّ قدراً غالباً ما يتوقّف قبل الموت، أنّ لحظة النّهاية

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لا تتطابقُ مع لحظة الموت، أنّ قدرَ جاروسلاف بلغ نهايتَه. رازحاً تحت ندم مُرعب، كنتُ ألامسُ رأسَه الذي خفَّ شعره، خصلاته الطّويلة الخفيفة التي كانت تحاولُ، على نحو حزين، أن تُغطّي صلعتَه، وكنتُ أتأكّدُ برُعب أنّ سفرتي إلى مدينتي، حيث كنتُ أريدُ أن أهزم زيمانيك المَقيت قد قادتني في آخر المطاف إلى حمْل صديقي المهزوم بين ذراعي (أجل، كنتُ أرى نفسي، في هذه اللحظة، أمسكُ به، أحمله ضخماً ثقيلاً كما لو كنتُ أحملُ خطئي الشّخصيّ المُعتم، كنتُ أرى نفسي أحمله وأنا أجتازُ حشداً بعينَيْن تفيضان من الدّمع).

بقينا مُلتفّين حوله قرابة عشر دقائق، ثمّ ظهرَ من جديد عازفُ الكمان الثاني الذي أشار إلينا، فساعدْنا جاروسلاف على النّهوض، مُسندين إيّاه من تحت إبطيْه وغُصْنا معه وسط ضوضاء الأغرار السّكارى نحو الرّصيف، الذي على جانبه كانت تنتظرُ سيّارةُ إسعاف وكلّ مصابيحها مُضاءة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المحتويات

القسم الأوّل: لودفيك 5

القسم الثاني: هيلينا 19

القسم الثالث: لودفيك 35

القسم الرّابع: جاروسلاف 155

القسم الخامس: لودفيك 205

القسم السّادس: كوستكا 261

القسم السابع: لودفيك - هيلينا - جاروسلاف 301

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ميلان كونديرا

المزحة

المَزحة، رواية كونديرا الأولى، هي من دون شك إحدى أشهر رواياته. فيها تتناوبُ على الكلام أربع شخصيات ذات مصائر مُتشابكة، تروي كلٌّ منها القصة من وجهة نظرها.

كلُّ شيء يَنطلقُ من مَزحة على بطاقةٍ يَبعثُ بها شابٌّ إلى طالبة كان يتقرّبُ منها. تنقلبُ هذه المَزحة، التي أسيءَ تأويلها، ضدّه، وتُكلِّفه الفصلَ من الحزب والحرمانَ من مُتابعة الدراسة، ويتِمّ إرساله جنديّاً في كتيبة تأديبيّة تضمّ أعداء النظام.

يتمكّنُ كونديرا، وهو يُوزّع السرد بإحكام بين لودفيك وهيلينا وجاروسلاف وكوستكا، من المزْج باقتدار بين قصص حُبٍّ وصداقة وخيانة وانتقام، وتأمّلاتٍ في الأنظمة الشموليّة، وثِقل التاريخ، وبلاهة الإنسان...

مِن محكيٍّ إلى آخر ومن شخصيةٍ إلى أخرى، يَمنحنا كونديرا عملاً روائيّاً رائعاً وتأمّلاً باهراً حول الحياة وعبثيّة الوجود في عالمٍ ليس إلّا مَزحة هائلة.

في هذه الرواية، تكمنُ كلّ براعة كونديرا في تمكيننا من التفكير في أحداثٍ تملأ حياتنا وفي جعلنا نتأمّل اختياراتنا الشخصيّة وحياتنا الخاصّة، الناجمة عن مُصادفات صغيرة، سعيدةً كانت أو حزينة، تنتهي برَسْم مصيرنا.

لوحة الغلاف لبيكاسو

ISBN 978-9953-68-739-1
9 789953 687391

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

@ketab_n

www.kutub-pdf.net